مذكرات
موشيه دايان

משה דיין

Moshe Dayan 1915
1981



موشى ديان

قصة حياتى

اسم الكتاب : موشى ديان ـ قصة حياتى

اسم المؤلف : الحسينى الحسينى معدى

الناشر : دار الخلود للتراث

العنوان : ٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة. ت: 25919726

موبيل 0181607185 ـ 0163539909

فاكس 25102954

رقم الإيداع : 2012/ 19969

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 978-977- 5313 -17- 1

الطبعة الأولى: 2011



موشى ديان

قصة حياتى

إعداد

د. الحسينى الحسينى معدّى

دار الخلود

للنشر والتوزيع

مقدمـــة

ولد موشى ديان صموبل ديان (٢٠ مايو ١٩١٥ ـ ١٦ أكتوبر ١٩٨١) فى مستوطنة «دجانيا» الصهيونية بفلسطين لأبوين يهوديين هاجرا من أوكرانيا واستقر بهما المقام فى فلسطين. تلقى ديان تعليمه الابتدائى فى مستوطنة «ناحلال» التى انتقلت أسرته اليها بعد أن ضاقت بالعيش على أسلوب الحياة الاشتراكية القاسى فى مستوطنة دجانيا والتى كان كل شىء فيها مشاعا عاما لساكنى المستوطنة حتى المتعلقات الشخصية كالأمتعة والملابس. وبعد أن فرغ من تعليمه الأوَّلى التحق بمدرسة الزراعة للبنات التى أنشئت خصيصا لتعليم المهاجراتِ الزراعة، فكان بذلك أول صبى يلتحق بتلك المدرسة.

عمل مع القوات البريطانية فى مقاومة الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، وتدرَّب على العمليات الانتقامية الخاطفة والهجمات الليلية.

حكم عليه البريطانيون، خلال انتدابهم على فلسطين، بالسجن فى عام ١٩٣٩، وذلك لنشاطه الإرهابى، داخل تنظيم الهاجاناه، وهو تنظيم عسكرى صهيونى غير رسمى، مارس أنشطة إرهابية ضد العرب فى فلسطين، وعمل على طردهم من ديارهم فى أرض فلسطين وإحلال اليهود مكانهم.

وفى عام ١٩٤١، أطلق سراحه ليقاتل فى صفوف البريطانيين فى معركتهم ضد حكومة فيشى الفرنسية، وهى معركة دارت رحالها فى لبنان. أصيب ديان بجروح، وفقئت إحدى عينيه. كما شارك فى حرب ١٩٤٨ بين اليهود والعرب.

فى عام ١٩٥٠، عُيِّن قائداً للقطاع الجنوبى، ثم قائداً للقطاع الشمالى بعد عام، وتولى بعد ذلك رئاسة المخابرات العسكرية. وفى عام ١٩٥٢ تولى

رئاسة الأركان العامة، ثم رئاسة أركان الجيش (١٩٥٣- ١٩٥٨). وقام بتدبير الأعمال الانتقامية ضد مصر وسوريا ولبنان عام ١٩٥٥م.

قاد ديان الجيش الصهيونى، فى حرب ١٩٥٦، إبان العدوان الثلاثى على مصر، بالاشتراك مع إنجلترا وفرنسا.

دخل الكنيست عام ١٩٥٩، وأسندت اليه وزارة الزراعة فى العام نفسه، إلا أنه ترك الوزارة بعد خمس سنوات.

فى عام ١٩٦٦، أسندت اليه وزارة الدفاع، وأدى دوراً كبيراً فى حرب الأيام الستة ضد مصر والأردن وسوريا فى حرب يونيو - حزيران ١٩٦٧م. وأصبح رمزاً للمؤسسة العسكرية الصهيونية، وتسلطها على الكيان الصهيونى نفسه، وتركيز فكرة ضرورة التفوق العسكرى الصهيونى كأسلوب للتعامل مع الدول العربية، ومن خلال الحكم العسكرى المفروض على الأراضى التى احتلها الكيان الصهيونى عام ١٩٦٧، تولى إدارة هذه المناطق، واستخدام أساليب الإرهاب الجماعى ضد عربها ونسف منازلهم، غير أن أسطورة ديان ما لبث أن انهارت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م. التى فاجأ فيها المصريون والسوريون الكيان الصهيونى، وظل يشغل منصب وزير الدفاع حتى عام ١٩٧٤م.

فى عام ١٩٧٧، عين وزيراً لخارجية الكيان الصهيونى، وأدى دوراً كبيراً للتحضير لزيارة السادات الى الكيان الصهيونى فى عام ١٩٧٧، كما اشترك فى إنجاح مؤتمر كامب ديفيد عام ١٩٧٨ فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقيادة المفاوضات حتى توقيع معاهدة كامب ديفيد فى عام ١٩٧٩م.

استقال ديان من منصبه عام ١٩٧٩، وفى ١٦ أكتوبر ١٩٨١، مات ديان متأثراً بسرطان القولون فى مدينة تل أبيب، ودفن فى «ناهال» حيث نشأ.

د. الحسينى الحسينى معدّى

الباب الأول

من العمل السرى تحت الأرض حتى الحرية ١٩١٥ـ ١٩٤٨

قصة التسلل الى الأرض الفلسطينية وبداية الاستيطان والهجرة تحت ستار «التعمير والتعايش مع العرب» ثم تنقلب الصورة وتنشأ المنظمات الإرهابية اليهودية كالهاجاناه والشتيرون والأراجون زفاى ليومى وتتحالف مع الاستعمار البريطانى من أجل إقامة اسرائيل وتبدأ الحرب السافرة مع العرب ومعاداة كل من يقف فى طريقهم، فالأهداف أصبحت معلنة والهدف هو وطن إسرائيلى على حساب إفناء وجود الشعب الفلسطينى.

١ ـ البداية

اسمى موشى..

وقد ولد هذا الاسم فى جو من الأسى. لأنه كان مكتوبا على أحد المقابر بجوار كهف من الكهوف التى كانت تستخدم فى حفظ الزيوت فى مستعمرة دجانية، وهى مستعمرة (الكيبوتز) الرائدة لجميع المستعمرات الإسرائيلية... اذ أنشئت فى عام ١٩١٠ فكانت مهدا لحركة الاستيطان، فى الوقت الذى لم يتعد سكانها العشرين من الرجال والنساء. وكان اسم موشى الذى أطلقوه على هو اسم أول من قتل فى سبيل الحركة الصهيونية، وكان يدعى موشى بارسكى... كان فتى فى التاسعة عشرة من عمره، جاء من قريته فى روسيا ليساهم فى عودة اليهود الى أرض الميعاد... وكان ملما بعض الشىء بالزراعة، وكانت طبيعته وتكوينه الجسمانى تؤهلانه للقيادة.

وفى أحد أيام شهر فبراير (شباط) أصيب والدى بوعكة، وذهب موشى لإحضار الدواء من قرية مجاورة. ولم يكن ذلك أمرا طبيعيا خلال هذه الأيام، فقد كان خطيراً علىَ أى يهودى أن يغادر مستعمرته بعد حلول الظلام، اذ كان العرب يهاجموننا بعنف فى تلك الأيام.... ولكن موشى جازف وذهب. وبعد فترة رجع حصانه بمفرده مفزوعا. وقام اهالى المستعمرة بتقسيم أنفسهم الى مجموعات مسلحة خرجت للبحث عنه. وأخيرا وجدوه مقتولا عند شاطئ نهر الأردن. وعُلم فيما بعد ان الذين هاجموه هم ستة من الأفراد العرب. وبعث والدى برسالة تعزية الى والد موشى فى روسيا، الذى رد عليه بقوله (إننا لم نحزن ولم نبك). إن على أبناء شعبنا أن يناضلوا بقوة من أجل استعادة وطننا. وسنرسل ابننا الثانى شالوم كى يأخذ مكان الأول الذى سقط

على الطريق. ولعل موت موشى يحفزنا على استعادة وطننا.

ووصل شالوم بعد ذلك، وتبعته أخته، ثم أمه ومعها أطفالها الثلاثة الباقون، وأخيرا وصل الأب.

وبعد ذلك بعام، أى فى ٤ مايو (آيار) ١٩١٥ ولدت أنا فى دجانيا، وأطلق علىَّ اسم موشى. وكانت أرض إسرائيل تدعى فلسطين فى ذلك الوقت، وكانت واقعة تحت الحكم التركى من خلال الامبراطورية العثمانية. وبعد ذلك بعامين ونصف تحطمت الامبراطورية العثمانية بانتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى، وتم وضع البلاد تحت الوصاية البريطانية، وأدار أمورها حاكم عسكرى بريطانى.

لكنى نشأت وترعرت فى مجتمع يهودى مستقل.... يتكلم العبرية... ويتمسك بالقيم الإسرائيلية القديمة التى أرسيت قواعدها فى مجتمع إسرائيل القديم..: وكان والدى ممن ساهموا فى انشاء أول مجتمع اسرائيلى عندما انتقلوا من روسيا الى هذا العالم المجهول، وكان والدى تاجر جياد وعربات، وكانت أمى ابنة أحد التجار. ولم يكونا قد تعرضنا لأى اضطهاد شخصى فى روسيا، ولا كانا قد طردا قسرا. ولم يكن والداهما راضيين عن ذلك، لكنهما كانا يتحليان بالمثالية والإدراك والوعى وكان الدافع القوى وراء تصميمها على المجىء هو احساسها العميق بأن أرض اسرائيل هى مكان اليهود فعلا. إن أولادى وأحفادى لا يعرفون لهم بلدا الا اسرائيل، أما أبى وأمى فقد واجها صعوبة الاختيار أمام الصراع الروحى، ومع ذلك خاضا الكفاح واتخذا القرار الملائم.

وجاء اسم ديان نتيجة لأن جدى، وجد والدى، كانا يشتغلان قاضيين فى الطائفة، وفى العبرية كان اسم ديان يطلق على هذا القاضى.... أما اسم العائلة الاصلى فلم يكن أحد يتذكره. وكان جدى فى سعيه من أجل ايجاد لقمة العيش لسبعة اطفال جياع، يعمل فى عدة مهن. يساعده فيها ابنه الأكبر

إلياهو ووالدى الذى ترك المدرسة الدينية اليهودية وهو فى سن الثالثة عشرة.

وكان جدى هذا متدينا للغاية، ويحتفظ بكتب الصهيونية وبجريدة هاتزفيرا التى تكتب باللغة العبرية الحديثة، وكان والدى أيضا يحتفظ بجريدة العامل الصغير، وهى إحدى النشرات الصهيونية، ومن خلال سطور هذه النشرة قرأ والدى الكثير عن وصف أراضى اسرائيل، وعن قمم جبل الشيخ وعجائب القدس وعن سفوح الجليل. وعن مياه البحر الأحمر. وكان هو فى قريته بإقليم اوكرانيا فى روسيا، يحلم بمياه نهر الأردن الدافئة، وبالثلوج على قمة جبل الشيخ. وانضم أبى الى الجماعات الصهيونية فى أوديسا، التى كان عمى قد انضم اليها من قبل.

وكانت هذه الجماعة تقوم بإعداد الطلائع التى ستسافر الى فلسطين لإنشاء دولة اسرائيل. وفى عام ١٩٠٨ سافر والدى وعمى مع مجموعة من هذه الطلائع تقدر بستمائة فرد، وتبعتهما عمتى «بيلا» بعد ذلك بأربعة أعوام. وواجه أبى تحدى العمل فى الأرض... وكانت كل الظروف آنئذ تمثل تحديا له... فالحرارة... والذباب... والبعوض... والفقر. وكل تلك الظروف السيئة التى عمت الأراضى التى كان الأتراك يحتلونها... بل حتى نفس طبيعة العمل اليدوى الذى لم يكن والدى معتادا عليه وكان فى الثالثة عشرة من عمره حينذاك. وفى «بتاح تكفا» كان يقوم بتحزيم عيدان القمح وحفر قنوات الرى، ثم يعود بعد هذا العمل اليومى الشاق، مثقل الرأس.... محنى الظهر.. ممزق الأصابع.. مشقق اليدين. حيث لا يجد أمامه من طعام سوى لقمة من الخبز وبعض حبات الطماطم. ومثلما حدث لرفاقه الشبان فقد أصيب بعد فترة بالملاريا، لكنه استمر فى العمل برغم مرضه. وبعد ان شفى عمل حارسا ليليا. ثم عاد بعد ذلك الى العمل فى الحقول. واعتاد على هذا العمل بمرور الأيام. وأصبح يشغل وقت فراغه فى أغراض أخرى غير التى يشغل بها القوم انفسهم، بل أضحى كوخه بمثابه ناد للشباب يجتمعون فيه

لمناقشة المجتمع المثالى لدولة اسرائيل، ويتعلمون اللغة العبرية، ويقرأون النشرات الصهيونية التى تصدرها حركة العمل اليهودى. وقد ساعد ذلك أبى فى وقت لاحق على أن يلعب دورا فى تطوير الحركة.

كان معظم الجهد مركزا فى منطقة الجليل. وكانت هناك حاجة ماسة الى أيد عاملة يهودية كثيرة فى المستعمرات التى تم إنشاؤها.

واشترى والدى لنفسه من «يافا» مسدسا تركيا قديما وحزاما للذخيرة. وانطلق الى الشمال حيث عمل فى مزرعة يهودية فى قرية يافنيل، قام فيها بالحرث والغرس وجمع المحاصيل وركوب الخيل. وسرعان ما ترقى الى النوم فى الحظائر ليطعم الحيوانات ويحرسها. وكانت متعته بحياته مع الطلائع كاملة، وكان شغوفا بعمله الجدي، فخورا بنجاحه فى الفلاحة وهو العمل الذى لم يكن يؤديه سوى اليهود فى أوكرانيا. وبعد ستة شهور رائعة قضاها فى يافنيل سقط مرة أخرى مريضا بالملاريا. وعندما شفى انضم الى مجموعة عمال فى «كينريت» رحبوا به كعامل زراعى موسمى. وكان قويا برغم إصابته بالملاريا، وأصبح يجيد الحديث بالعبرية، وكان فى وسط هذه المجموعة يشعر وكأنه فى وطنه، وكانوا يتحدثون عن التغييرات التاريخية التى يعملون من أجل تحقيقها... وكان هذا الإيمان هو دافعهم إلى تحمل المزيد من العمل الشاق.

كانت قرية يافنيل ملكا للصندوق القومى اليهودى، وهو الهيئة التى انشأتها المنظمة الصهيونية لتملك الأرض. وفى نهاية عام ١٩٠٩ قام سبعة من عمال مزرعة كينريت بتشكيل مجموعة مستقلة، واستمروا لمدة عام يزرعون مساحة أخرى من أراضى الصندوق القومى اليهودى بالقرب من أم جونى. وكانت تلك هى بداية دجانيا، التى اشتق اسمها من كلمة القمح بالعبرية. ولدى نهاية العام، غادرها هؤلاء السبعة الى مكان طلائعى آخر، وتم استبدالهم بمجموعة اكبر، وانضم اليها والدى فى عام ١٩١١م.

وثارت علامة استفهام كبرى فى وجه كل سكان مستعمرة، هى:

ما الذى يمكن أن يقوم عليه مجتمع المستعمرة؟ وجرت المناقشات حول شكل الحياة فى المستعمرة فى كل مكان... فى الاجتماعات... فى الحقول... فى المنازل... وكان أولئك العاملون فى الحقول بمثابة رواد أوائل فقط كل مهمتهم هى فلاحة وزراعة قطعة من الأرض، ثم تسليمها لمجموعة من المستوطنين، وينتقلون بعد ذلك الى قطعة أخرى من الأرض، لزراعتها وفلاحتها، وطرح يوسف بصل ـ العضو البارز فى الجماعة ـ فكرة أن تكون دجانيا على هيئة نوع من التعاون التام، وعليه فلا يجب أن تكون هناك أى ملكية خاصة، ويجب على الكل أن يعمل، وأن يأخذ كل بقدر حاجته، وتكون للنساء الحرية فى اختيار العمل الملائم لهن، وعلى المستعمرة أن تعتمد على عمل أبنائها.

واذا كانت فكرة الكيبوتز قد قامت فى هذه المستعمرة، فقد كان على أفرادها أن يواجهوا أيضا مشاكل الحياة اليومية... الحرارة والرطوبة نظرا لانخفاضها ٦٥٠ مترا تحت سطح البحر... قلة المياة اللازمة لمواجهة العطش.... قلة الغذاء.... التراب... البعوض... الذباب. الى ما لانهاية له من مشاكل الزراعة. ومع ذلك كله فقد كانت هناك فرص فى الأمسيات للغناء والرقص والقراءة والنقاش.

كان هذا هو العالم الذى جاءت اليه امى، دفورا، فى عام ١٩١٣ من إحدى ضواحى كييف فى إقليم أوكرانيا بروسيا. وكانت جميلة، وفى مثل سن والدى، غير أن عائلتها كانت تختلف تماما عن عائلة والدى، فقد كان أبوها هو اليهودى الوحيد فى قرية برونشوروفكا على نهر الدنيبر، وكان يعمل مديرا لأعمال احدى شركات الأخشاب التى تتولى قطع الأشجار وتعويمها مع التيار. أما أبى فقد نشأ متدينا، يقرأ ويكتب المقالات، وكتب كتابا عن الحياة اليهودية فى القرن السابع عشر. نشأت أمى دون أن تشارك والدها الاهتمام

بدراسة اللغة العبرية، بل تلقت التعليم فى المدارس الروسية حتى وصلت الى كلية التربية فى جامعة كييف. لكنها تأثرت تأثرا بالغا بالثورة الروسية عام ١٩٠٥ وتعاطفت الى قدر كبير مع العمال ضد النظام القيصرى. كما قرأت القصص الروسية وتأثرت كثيراً بتولستوى. وانضمت الى فروع الدراسات للحزب الاشتراكى الديمقراطى. وساعدت أستاذها فى رعاية العديد من الأطفال فى كييف. وعلى العموم فإن أمى كانت تتمتع بالذكاء، وتسيطر عليها الأفكار الاشتراكية وبعض أفكار الشباب الروسى فى ذلك الوقت. كما خدمت أيضا كممرضة متطوعة على الجبهة البلغارية عام ١٩١١ عندما شن البلغاريون بمساعدة الروس الحرب ضد الأتراك.

وفجأة، ولأمر غير واضح لى، بل ولا لأمى، بدأت تشعر بانعدام الثقة فى نفسها، واهتزت علاقاتها بزملائها، وبدأت فى مناقشة عقيدتها اليهودية، ثم تركت الجامعة وعادت الى منزلها حيث أخذت تناقش والدها فى أفكاره، وتقرأ الخطابات التى كان ممثلو حركة «محبى صهيون» فى فلسطين يكتبونها لوالدها، وكان أحد هؤلاء، ويدعى زئيف تيومكين قد بعث الى والدها بوصف للحياة الصعبة التى تواجهها الطلائع الصهيونية فى فلسطين. وقد دفعها ذلك الى التعاطف مع أبناء شعبها، فصممت على أن تذهب الى فلسطين. وهكذا وصلت عام ١٩١٣، وكان عمرها آنذاك ثلاثة وعشرين عاما. وكانت قد استقلت سفينة حجاج من أوديسا، حيث وصلت بعد أسبوع الى حيفا آملة أن تقابل فى الميناء اسرائيل بلوخ، أحد مؤسسى مستعمرة دجانيا، الذى كان تلقى رسالة توصية بخصوصها.

لكنه لم يتمكن من مقابلتها لانشغاله فى شراء بعض الأبقار للمستعمرة من دمشق. ولذلك استقلت القطار الى بلدة زيماح فى الجليل، ثم جاءت الى المستعمرة سيرا على الأقدام.

ولاقت أمى فشلا ذريعا فى التعود على طبيعة الحياة فى المستعمرة،

وكانت مسئولة عن المطبخ، لكن المسئولية كانت مرهقة... واصطدمت أفكار أمى المثالية بالواقع المر. وكان عدم إلمامها بالعبرية وتعلقها بالأدب الروسى سببا فى أن أعضاء المستعمرة أعتقدوا انها بورجوازية. وقد رفض طلب العضوية الذى قدمته، وكان أبى أكبر المعارضين فى منحها العضوية. وانتقلت أمى للعمل وتعلم العبرية فى مستعمرة أخرى هى سيجيرا، ولكن الاتصال بقى مستمرا بينها وبين ابى. وعندما توجه أبى الى بيروت لعلاج أذنه من عضة بعوضة، أنفقت آخر قرش لديها لقطع بطاقة السفر للذهاب الى بيروت ومشاهدته. وعادا الى دجانيا مخطوبين... لكن استقبال دفورا هذه المرة تم دون أية تحفظات.

وتزوج والدى فى المستعمرة عام ١٩١٤ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة، وكنت أنا أول من يولد فى دجانيا، لكنى لم أكن أول طفل يولد فى المستعمرات، اذ تمت قبل ذلك بسنتين ولادة جدعون من أبوين من الأعضاء المؤسسين هما يوسف ومريم باراتز، غير أن ظروف المستعمرات آنئذ كانت مختلفة اذ تحتم على الام أن تذهب الى طبرية لكى تلد.

لم يكن اغتيال موشى بارسكى قد انمحى من الأذهان، وقد وقعت فيما بعد عدة حوادث قتل. غير أن العلاقات مع الجيران العرب استمرت علاقات ودية. كان كل من العرب واليهود يفلحون الأرض ويزرعونها، وبدأوا يتعلمون أشياء جديدة من بعضهم البعض، ولم يكن اليهود يتعرضون للهجمات من هؤلاء المواطنين، وإنما من بعض العرب الآخرين، اذ أن ملاك الآراضى العرب كانوا هم الاخرون يتعرضون لمثل هذه الهجمات.

وكانت أيام طفولتى الأولى هى سنوات الحرب العالمية الأولى، وكانت تركيا قد انضمت الى محور ألمانيا والنمسا والمجر، وأعلنت التعبئة العامة فى فلسطين. وتشككت السلطات التركية فى ولاء بعض قادة الحركة اليهودية ونفتهم الى مصر، أما الجزء الآخر فقد انضم الى الجيش التركى، لكنه تعين

علينا أن نبقى أكبر عدد ممكن من المستعمرات حتى تستمر عملية التعمير والتنمية، وتعرضت المستعمرة فى اولى سنوات الحرب لغزوة جراد أتت على كل شىء، وهكذا ولدت فى أسوأ فترات غزو الجراد، وعندما بلغت من العمر عاما أصبت بمرض العيون المزمن المنتشر فى الشرق الأوسط، التراكوما، ثم نقلت العدوى الى أمى، فتوجهنا للإقامة مع عمتى بيلا هورفبتز فى بلدة نخلة يهودا جنوبى تل أبيب حيث تم علاجنا.

وازدات الأمور سوءا باستمرار الحرب، فقد وصل بعض الطيارين الألمان الى المستعمرة واحتلوا المنازل، وكان على أعضاء المستعمرة أن ينتقلوا الى المخازن والكهوف خلال هذا الشتاء الممطر القارص البرودة. ومرض جميع الأطفال، وأصبت بالتهاب فى اللوزتين، واشتد المرض فى عينى.

وفى عام ١٩١٩، بعد انتصار بريطانيا فى معركة فلسطين وانتهاء الحرب، اصطحبتنى أمى الى أحد المستشفيات فى القدس، وكنت قد بلغت الرابعة من عمرى، وبدأت أمى فى تعليمى القراءة والكتابة وأخذت أفواج جديدة من يهود أوربا الشرقية فى الوصول الى المستعمرة، ولذا فقد تقرر إنشاء مستعمرة جديدة تحت اسم دجانيا (ب) وأوكلت الى والدى مهمة الإشراف على الترتيبات اللازمة، لكن والدى لم يكن مقتنعا بالاستمرار فى البقاء فى المستعمرة. ونشأت عندئذ فكرة جديدة تقضى بأن تكون لكل عائلة حرية تملك البيت الذى تقيم فيه، فى الوقت الذى يتم فيه العمل الجماعى بصورة مشتركة، وكانت هذه الفكرة هى فكرة الموشاف كنوع جديد من المستعمرات، التى تختلف عن الكيبوتز حيث يتم العمل والملكية وكل شىء بصورة جماعية. وتم إنشاء أول موشاف فى ناحلال بوادى جرزيل.

وقرر والدى الانتقال للانضمام الى هذا المشروع. وكان يوم الرحيل يوما مؤسفا بالنسبة لى، فقد كنت اودع ـ وأنا أبكى ـ زملائى من الأطفال الذين شاركونى اللعب ستة أعوام، ومعهم كانت ذكرياتى. وقد استغرق مشروع

ناحلال وقتا طويلا الى ان حصل على موافقة المؤتمر اليهودى عليه، وتم اعتماد ميزانيته وشراء الأراضى اللازمة لتنفيذه، وعشنا خلال هذه الفترة فى تل أبيب، حيث عمل والدى فى مركز زراعى تابع للحزب، ووجدت أمى وظيفة فى مكتب العائلات المفقودة، وأرسلت أنا الى إحدى دور الحضانة.

وفى شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٢١ انتقلنا الى ناحلال، وكانت بيوتنا عبارة عن مجموعة من الخيام، تطل على وادى هبرزل، حيث تبدو من بعيد آثار المدن القديمة المدفونة، وخيام البدو، وبعض القرى العربية البائسة، وخوفا من هجوم العرب فقد أقمت أنا وأمى وبقية النساء والأطفال فى منزلين تم استئجارهما فى مدينة الناصرة العربية. لمدة ثمانية اشهر، وهناك عولجت من التراكوما.

وكان وادى جرزيل فى تلك الأثناء مرتعا للأمراض الخبيثة مثل الملاريا والتيفود التى تنتشر فى مستنقعات الوحل، وكان علينا ان نجفف هذه الأوحال، وكان الرجال يقومون بعملية الإصلاح هذه وهم يرتجفون من أثر الحمى.

وتطور بيتنا من خيمة الى كوخ ثم الى منزل خشبى يضم غرفتى نوم ومطبخاً، وعندما بلغت الثامنة، أصبح لى أخت، صممت أمى على أن يقوم والدى ببناء غرفة خاصة لى، ظللت استخدمها الى أن تزوجت، وكنت بعد المدرسة، أساعد والدى فى عمله بحلب الأبقار والزراعة وقيادة العربة حتى ماكينة الطحين فى قرية غربية مجاورة. وكنت أساعد امى أيضا فى بعض الأعمال المنزلية. واشتغل أبى بالحياة العامة واحتل مكانا مرموقا فى الحزب والمنظمة، حيث أرسل مرتين الى الخارج، واستغرقت كل مرة عاما، وكانت امى تقوم بالعمل كاملا خلال فترات غيابه، وكنت أساعدها.

وولدت أختى (أفيفا) فى حيفا حيث كان يقيم خالى. وهناك أيضا ولد اخى (زوريك). وكنت قد بلغت الحادية عشرة من عمرى، وعهد الى بالقيام بعمل الزراعة، وكان أبى فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ورثت عن أمى

حب القراءة، وكنت متأثرا بالقصص الروسية التى تحكيها لى. وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرى بدأت أمى فى كتابة مقالات فى أكبر جريدة يومية هى (دافار)، ثم طلب اليها الانضمام الى هيئة التحرير وان تصبح عضوا فى مجلس المرأة العاملة، وكانت تذهب الى تل أبيب لأداء هذه المهام.

وبعد انقضاء عام على بدء العمل فى ناحلال، جاء الينا مدرس مهمته تدريب الخمسة عشر صبيا فى القرية. وقسمنا الى ثلاث مجموعات على حسب السن، وكنا نتلقى الدروس فى كوخه، الى أن تم بناء مدرسة من فصلين، وكان المدرس مهتما بخلق التجربة الشخصية لدينا أكثر من اهتمامه بالدروس. وأصبحنا، من خلاله ملتصقين بماضى شعبنا وبالظروف المحيطة بنا، وبعيدا عن الدراسة فقد كنت اهوى المعسكرات والرحلات. وتعلمت أن أناقش الأطفال العرب والبدو بنفس لغتهم.

وأذكر هنا طفلا بدويا، له نفس عمرى، اسمه (وخس) وقد أصبح صديقا حميما لى، وعلى الرغم من أن جيراننا العرب كانوا فقراء ومختلفين، بالقياس بنا، فإن إعجاباً واحتراماً نميا لدى لما لمسته فيهم من صبر وزهد وعادات قديمة وذلك القدر من الكرامة التى يشعر بها حتى أفقر فقرائهم، واستطعت من خلال صباى أن اكتشف أن الوصول الى العرب وكسب صداقتهم ليس بالأمر الصعب.

وفى عام ١٩٢٦ أنشأت المنظمة الصهيونية العالمية النسائية (ويزو) مدرسة زراعية للبنات فى ناحلال، كانت هى الأولى من نوعها فى الشرق الأوسط. وكانت الفتيات اللائى يجئن الى المدرسة من كل الأنحاء مثار اهتمامنا نحن الشباب. وعقب انتهاء دراستنا الابتدائية اتفق على ادخالنا الى مدرسة ويزو جنبا الى جنب مع البنات. وتوالى رسوب رفاقى الشباب، ودخولهم معترك العمل الفلاحى، وأصبحت فى النهاية الشاب الوحيد الذى يتلقى العلم فى مدرسة للبنات.

٢ ـ التأهـــب

فى عــام ١٩٢٩، وكنت عندئذ فى الرابعــة عــشــرة من عــمــرى، دعــيت للانضمام الى التنظيم السرى للهجاناه، وهو القوة العسكرية التى انشئت سراً للدفاع عن يهود فلسطين، وقد تم انشاؤها فى اعقاب المذبحة العربية على الخليل التى أسفرت عن مقتل ٦٧ شخصا ما بين رجل وامرأة وطفل. وجرح ستين آخرين، كما تم حرق عدد من المنازل والمعابد.

وهكذا قامت الهجاناه لتكون بدايه للتنظيم المسلح، مقررة ألا تبقى المستعمرات بدون سلاح تحت رحمة أى هجوم عربى. وكان على كل مستعمرة أن تنشئ قوتها الدفاعية. وكنت أنا أصغر المنضمين الى الهجاناه فى مستعمرة ناحلال.

غير أن البريطانيين رفضوا السماح باحراز السلاح غير المرخص أو التدريب عليه، وتولت سلطات الانتداب البريطانى المسئولية عن حماية كل مواطن. لكنها كانت عاجزة لسببين: أولهما انه كانت لديها قوة بوليسية صغيرة، وثانيهما أنها كانت غالبا ما تصل متأخرة اذا ما دعيت لنجدة إحدى المستعمرات. وفى النهاية سمحت هذه السلطات للكيبوتزات والموشاف بأن تحرز كميات صغيرة من الأسلحة فى صورة بنادق عديمة الفائدة. وازاء ذلك اضطرت الهاجاناه الى القيام بتوزيع سلاحها الذى كان يتم إخفاؤه فى مخابئ خاصة فى كل مستعمرة. وكان ذلك بمثابة اجراء غير قانونى، تماما مثلما كانت عضوية الهاجاناه بالضبط. ولذا تحتمت السرية.

وما أن انضممت الى الهاجاناه حتى بدأت فى التدريب على الأسلحة النارية. ولم يكن هذا التدريب ذا فائدة بالنسبة لى، اذ أننا كنا نحتفظ على

الدوام فى منزلنا فى ناحلال بمدفع رشاش أحضره أبى من دجانيا... وكنت أقوم دائما بتنظيفه وتزيينه... وتعلمت استعماله. لكننى شعرت فى هذه المرة، أن استعمالى للسلاح أكثر فائدة، اذ أننى سوف أدافع به عن ناحلال وعن أى مستعمرة مجاورة اذا ما تعرضت لهجوم من العرب. وعندما كبرت بعض الشىء نظم يهودا مور أحد أعضاء مستعمرة ناحلال فرقة من الشباب الصغير ليتولى حراسة حقول المستعمرة ضد أى هجوم عربى. وقد تلقينا تدريبا عالى المستوى شارك فيه أعضاء المستعمرة الذين كانوا يقومون من قبل بنفس العمل فى روسيا، وقد أطلقت على حصانى اسم توكا، وهو اسم حصان هندى فى احدى روايات جول فيرن.

وكان عرب المزاريب يجيئون بأغنامهم من وقت لآخر للرعى فى بعض الحقول، وكانت وظيفتنا هى طردهم. وكان نسق حياتهم يجرى على سرقة واستغلال الحقول التى تخص غيرهم. ولم تكن هناك أية أسسس سياسية لشجارنا مع العرب، وكانت العملية ببساطة مجرد مناقشات حول التعدى على أراضى الغير، تماما مثلما يحدث دائما بين أى جيران فى القرى، وخاصة فيما يحدث بين البدو الرحل والفلاحين المزارعين.

فى ذلك الوقت كان الشجار السياسى محتدماً بين الأحزاب اليهودية ويدور حول محور واحد هو التنظيم الداخلى ليهود فلسطين.

وكانت هناك مجموعة من الكيبوتز والموشاف قد أقيمت فى البلد، تابعة لواحدة من حركتى العمال القائمتين آنئذ، واللتين اتحدتا فى عام ١٩٣٠ وأطلق عليها اسم الماباى... أى حزب عمال أراضى اسرائيل.

وكان فى الحزب جناح للشباب، لكننى لم أكن جاد الاهتمام بالانضمام اليه، مقتصرا على نادى الشباب فى مستعمرة ناحلال الذى كان ينظم نشاطات مختلفة تحظى باهتمامى كالأدب والغناء والرقص الشعبى. وكنا ننظم أمسيات للقراءات الأدبية والنقاش، ندعو اليها بعض الأدباء ووقع اختيار النادى الأدبى

علىَّ للذهاب الى القدس لدعوة الشاعر ابراهام شلونسكى لكى يحاضرنا فى الشعر العبرى وقراءة بعض أشعاره. وقد توجهت اليه ولبى الدعوة، وخلب لب الشباب، وهذا فى الوقت الذى كان الكبار فى المستعمرة يعجبون بشاعرنا القومى حاييم نحمان بياليك وراشيل شاعرة وادى الأردن.

وفى إحدى أمسيات ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٢ القيت قنبلة على كوخ يوسف يعقوبى، أحد جيراننا فى المستعمرة، أدت الى قتل طفله الذى يبلغ الثامنة من عمره، وتوفى الوالد فى الصباح متأثرا بجراحه. وقد أرسى هذا الحادث اتجاهات جديدة فى علاقاتنا مع جيراننا العرب، كان من الواضح أن هناك خطا سياسيا وقوميا وراء هذا الحادث. واعقبه هجوم على مستعمرة ياجور، وهى مستعمرة مجاورة، وألقت السلطات البريطانية القبض على بعض العرب، لكنهم لم يكونوا مرتكبى تلك الحوادث. كان الذين قاموا بالهجوم هم أعضاء جمعية تطلق على نفسها الشيوخ ذوى اللحية، عرفت فيما بعد بالقسامية.. نسبة الى مؤسسها وقائدها الشيخ عز الدين القسام.. وكانت القرية العربية زيبورى، التى تقع بجوار الناصرة هى مقر قيادة هذا التنظيم.

وكان لدى والدى اعتقاد، حملته أنا بعده، بأن العرب أناس ذوى طبيعة تتميز بالعنف والغوغائية مسببون للمتاعب وأحسست لوهلة أن الأمر ليس هيناً حينما ركبت وتوجهت الى هذه القرية العربية وهناك تحدثت مع بعض العرب الذين تربطنى بهم صلة، ومع بعض أفراد قبائل المزاريب... وكانوا جميعا يتحدثون بإعجاب عن القسامية ويصفونها بأنها تمثل المثالية فى التدين، وأن أفرادها يقضون معظم أوقاتهم فى الصلاة. كانت نظرتى للعرب المجاورين نظرة ودودة وايجابية وكنت اعجب بطريقتهم فى الحياة، واحترامهم كعمال جادين فى عملهم. وكنت أعتقد فى إمكانية العيش فى سلام بينهم، هم فى قراهم طبقا لتقاليدهم، ونحن فى قرانا وفقا لتقاليدنا. غير أن تغلغل مبادئ القسامية فى احاسيس العرب - وإن لم يكن قد أثر فى مشاعرنا

الشخصية ازاء بعضنا - فرق بين العرب وبين اليهود الذين كانوا ينفذون مبادئ الصهيونية ومثلها العليا.

وانتهت دراستى فى مدرسة ويزو الزراعية، لكن علاقتى بها لم تنته، اذ أننى ارتبطت بفتاة جميلة زرقاء العينين تدعى جوديث كانت تكبرنى سنا وتفوقنى طولا، وكنا كثيرا ما نتنزه فى غابة الأشجار خلال أيام شهر فبراير (شباط)، ونقضى امسيتنا فى مشوار طويل فى حقول الذرة. وكنت مستمرا فى ممارسة نشاطى فى نادى الشباب... ونظمنا ما أطلقنا عليه اسم الحلقة الأيديولوجية... وكنا نقرأ ونناقش ما يكتبه قادتنا وعلى رأسهم بن جوريون الذى أصبح الآن قائدا للحركة، وحاييم ارلوزوروف الذى رأس الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية الى أن قتل، وموشى شاريت الذى خلفه، وسرعان ما القينا سذاجتنا وراء ظهورنا وتزايد اهتمامنا بما كان يحدث ويقال فى حركة العمل، ثم انضممنا اليها أخيرا.

كان العمل الشاق فى المزرعة فى ناحلال يستغرق فترة طويلة، وكان أبى مشغولا برحلاته التى يقوم بها لحساب حزب العمل والحركة الصهيونية، أما أمى فقد نظمت أوقاتها بين الحياة العامة والكتابة لصحيفة العمل اليومية... أوسع الجرائد انتشارا فى البلاد. وبالنسبة لى فقد بدأت اهتماماتى تتعدى موضوع ركوب الخيل الى الانشغال بتتبع الصراع الوطنى والسياسى. وكان تفكيرى مركزا حول استكمال دراستى العليا... لكننى لم أكن قادرا على الابتعاد عن ناحلال.

وفى عام ١٩٣٣، كنت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرى، بدأت فى المستعمرة عمليه بناء منازل دائمة... وكان منزلنا من بين الدفعة الأخيرة التى سيتم بناؤها. وانضمت الى فرقة البناء... وكان العمل بالغ المشقة والأجر غير مجز. وقد عرض علينا المهندس المشرف على العملية وظائف فى تل أبيب بأجر مجز... وفى الخريف كنا قد أتممنا بناء المنازل الأربعين التى تم اعتماد

الميزانية الخاصة بها.. وكان مقدرا لعملية بناء المنازل أن تستغرق عامين، ولذا قبل ثمانية أفراد من المجموعة عرض المهندس بيير وذهبوا الى تل أبيب.. وكنت انا واحدا من أفراد هذه المجموعة. ولم يكن تغير رأيى طمعا فى المرتب المجزى، وانما سعيا وراء اكتساب مزيد من التعليم، وقد سمح لنا بعد فترة العمل فى الصباح بأن نتلقى دراسات عليا فى الرياضيات والآداب واللغة العبرية فى الجامعة الأهلية التابعة للدائرة الثقافية فى الهستدروت.

وكنت فى نفس الوقت أشاهد باستمرار جوديث، التى أنهت دراستها فى المدرسة الزراعية، وانتقلت الى منزلها فى ريشيون ليزيون. وكنا نتقابل فى منزلها او فى تل أبيب. ولم يكن والدىّ سعيدين بهذه العلاقة، بل كانت لجوديث نفسها أفكار غريبة عن ذلك الشباب المراهق الذى جاء الى تل أبيب ليصبح عاملا للبناء، وكنا نعمل فى تل أبيب خلال موسم الركود فى الزراعة.

ومع مطلع الصيف عدت الى ناحلال مرة أخرى، وقررت فى الخريف أن أقوم، مع اثنين من أصدقائى، برحلة فى وادى الأردن سيرا على الأقدام. وكان زادنا فى الرحلة قليلاً من النقود وبعض زجاجات الماء وبعض المأكولات المحفوظة وخريطة. وقطعنا وادى الأردن حتى وصلنا الى أريحا ومنها الى بئر سبع ثم الى غزة، وكانت الرحلة شاقة خاصة وقد واجهتنا رياح الخماسين... وكان هواء الصحراء الساخن يلفح وجوهنا.. ولم نستطع نصب خيامنا. وفرغت زجاجات المياه.. لكنها كانت تجربة مثيرة وهامة.

وقد وقع لنا حادث خلال هذه الرحلة كان له اكبر الأثر لدى، بل أنه مازال عالقا بذهنى بكل تفاصيله حتى الآن. فقد وصلنا أثناء رحلتنا الى واد قريب من الجزء الشمالى من البحر الميت... وكان الارهاق قد بلغ بنا غايته بعد يوم طويل حار وليل لم يزل حارا... وبعد نفاد الماء منا.. سقطنا على الأرض من شدة الإعياء ورحنا فى سبات عميق. واستيقظنا عند الفجر على صوت قطيع من الأغنام بصحبة راع بدوى، وطلبنا منه بعض الماء... لكنه

اصطحبنا الى مخيم القبيلة حيث استضافنا شيخ القبيلة ولم يكتف بتقديم الماء بل قدم لنا أفضل تقاليد الكرم البدوية. ثم اقترح علينا بعد ذلك أن يصحبنا أحد رجاله الى أريحا مع بعض الحمير ليوفر لنا الراحة والأمان. وقد قبلنا ذلك العرض وذهبنا مع الأعرابى، ثم افترقنا متجهين الى سادوم فى جنوبى البحر الميت.

لقد أخذت بهذا الكرم والعطف من البدو... وهى صورة تختلف فى ذهنى كلية عن الصورة التى رسمتها لى قصص قدامى اليهود من مؤسسى المستعمرات وأحادثهم. فهم لم يسرقوا ساعاتنا ولا نقودنا.. لم يديروا ظهورهم لاولئك الشباب اليهودى العطشى.. وإنما أكرموا وفادتنا وأمنوا لنا طريقنا، ومن واقع تجربتى فيما بعد، فإن هذا لم يكن حكما عاما بالنسبة للبدو. فالبعض منهم فى غاية الطيبة، والبعض منهم فى منتهى القسوة... شأنهم فى ذلك شأن أى شعب، وعلى العموم فلم تكن هذه هى تجربتى الوحيدة مع العرب، فكثيرا ما كنا نذهب الى القرى المجاورة، ويحاول بعض الشباب الاعتداء علينا... غير أن الكبار من الأعراب سرعان ما كانوا يهبون لنجدتنا. ويستضيفوننا فى منازلهم حيث يقدمون لنا الزيتون والخبز ثم يصحبوننا الى منازلنا فى أمان.

وقد جرى لنا صدام من نوع آخر مع العرب بعد عودتنا بعدة أسابيع، أى فى نهاية عام ١٩٣٤، إذ كانت هناك مساحة شاسعة من الأراضى التى اشتراها الصندوق القومى اليهودى من مالكها العربى وكانت متروكة دون أى استغلال، ثم تقرر ضمها الى مستعمرة ناحلال والبدء فى استغلالها، وكانت قبيلة المزاريب تستخدم هذه الأراضى فى الرعى، ولاحظت عندما بدأنا العمل، أن هناك تجمعات لبعض افراد القبيلة، شاهدت من بينهم صديقى وحش وبعض الشباب العرب الذين أعرفهم، وبينما استمر العمل كان عدد البدو يتزايد، وفجأة انهالت علينا الأحجار.. واستعنا ببعض اليهود من

المستعمرات المجاورة واستعان البدو بالعرب من القرى المجاورة. وفجأة أحسست بعصاة تصيب رأسى... وسقطت على الأرض. ونقلت الى المستعمرة ومنها الى دار للرعاية قرب القدس ومكثت فيها بعض الوقت، ثم عدت الى ناحلال مرة أخرى. وقد رجعت بجرح فى رأسى، ولكن بدون شعور عدائى داخل نفسى ضد وحش وأفراد قبيلته المزاريب، لقد كان بمقدورى ان أفهم مشاعرهم، لكننى لم أكن أستطيع قبولها، لقد كانوا عبر القرون يقومون برعى قطعانهم على أراضى أناس آخرين، ويسقونها من آبار الآخرين. وكانت الأرض فى ذلك الحين قد ساءت ولم تعد صالحة للرعى. وقد أصبحت الان أرضنا ونحن الآن نعمل على اعادتها الى ما كانت عليه من فائدة قديما. ولأنى كنت أعلم ان البدو لا ينظرون للأمور على هذا النحو، فإننى لم أحمل ضغينة ضدهم، ولم أرهم بعد ذلك، اذ نقلوا مراعيهم الى مناطق أخرى، وتم اعداد الأرض الجديدة للزراعة. وبرغم ذلك كله فقد دعوت «وحش» وأفراد قبيلته الى حفل عرسى فى المستعمرة بعد هذا الحادث بستة شهور، وحضروا جميعا وقدموا رقصاتهم الوطنية التى يؤدونها دائما فى حفلات الزفاف على نغمات الناى الذى قام بالعزف عليه شاب صغير يدعى عبد، وقد قضينا جميعا وقتا طيبا.

وكانت الفتاة التى تزوجتها فى ١٢ يوليو (تموز) ١٩٣٥ قد جاءت الى المستعمرة فى خريف عام ١٩٣٤ لتتلقى العلم فى مدرسة الزراعة وقد انحدرت من اب يدعى زيفى وأم تدعى راشيل، كانا قد تعلما فى مدرسة هرزليا الثانوية ـ وهى أعلى مدرسة لتعليم العبرية ـ وكانت روث عضوا فى شباب حزب العمل وترى أن مستقبلها فى المستعمرات.. وهكذا جاءت.. وتعرفت عليها... وتوثقت صلاتنا لرغبتى فى تنمية معرفتى باللغة الإنجليزية التى كانت تجيدها. وتدعمت عرى علاقتها بأمى وبأخى زوريا، وأختى افيفا، كانت كثيرا ما تحضر الى منزلنا وأقيم الحفل فى ساحة المستعمرة،

وأحضرت أم روث معها المشروبات والمزات من القدس، وجاء رتل من السيارات يضم أصدقاء أسرتها وكان من بين المدعوين الدكتور أرثر روبين الذى يعتبر الاب الروحى لإنشاء المستعمرات اليهودية فى فلسطين.. كما حضر زفافى أيضا موشى شاريت وزوجته زيبورا، ودوف هوس أحد القيادات الهامة فى الوكالة اليهودية. وقام بمراسم الزواج الحاخام زكريا وهو أحد مؤسسى مستعمرة ناحلال وينحدر من أصل يمنى.

ولم تكن لدينا خطط للمستقبل القريب.. لكنى كنت راغبا فى ترك المستعمرة. وكنت أحلم بأن أقوم بعمل مثل العمل الذى قام به أبى عندما كان فى مثل سنى بأن أنشأ مستعمرة جديدة، لكننى فى نفس الوقت كنت اتطلع الى تكملة تعليمى العالى، ولم تكن عضوية الهاجانا تستغرق من وقتى الكثير، بل اننى كدت أكون خاليا من الواجبات فى المنظمة، ووجدت فرصتى لتعليم الإنجليزية بطلاقة، وربما لدخول الجامعة، عندما وجدت من بين هدايا زواجنا بطاقات سفر الى انجلترا.

وفى لندن، كانت روث سعيدة بالعودة الى المدينة التى عاشت فيها خمس سنوات من طفولتها حينما كان والداها يدرسان فى جامعة لندن، واشتغلت هى بتعليم اللغة العبرية، أما بالنسبة لى فقد أنهارت كل أحلامى الوردية.. اذ لم أوفق الى عمل لأن لغتى الإنجليزية كانت ضعيفة... ولم أكن حاصلا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية حتى يحق لى الدخول الى الجامعة، وهكذا بقيت بلا عمل وبلا دراسة. وكانت الخطابات تتوالى من والدى يتهمنى فيها بأنى فضلت الحياة السهلة على الكفاح فى المزرعة، ويؤكد لى أن المزرعة فى حاجة ماسة لى.

ووقع حادثان جعلانا نسارع بالعودة الى الوطن، أولهما نشوب الثورة العربية المسلحة فى مايو (أيار) ١٩٣٦، وشن الهجوم على مستعمراتنا بعنف وقسوة راح ضحيتها الكثيرون... وكنت قد تلقيت بحزن شديد قبل ذلك

بشهرين نبأ مقتل ابراهام جالوتمان خبير الحمضيات والرجل الذى غلمنى الكثير. وأصبحت هجمات العرب المتفرقة تترك المزيد من الضحايا وراءها. أما الحدث الثانى فكان ذلك القرار الذى أتخذته مجموعتى بإنشاء مستعمرة جديدة أختاروها مستعمرة على الحدود لكى تقوم بمسئولية الدفاع الى جانب الزراعة وحتى يمكنهم بدء حياة جماعية مستقلة فقد منحهم مجلس ناحلال مائة هكتار فى منطقة تدعى تل شمرون... وقد قررت، أنا وروث، الانضمام الى تلك المجموعة.

لم يكن الأمر سهلا، ففى حين منحت روث العضوية الكاملة، فإننى اعتبرت مرشحاً للعضوية بعد مرور فترة اختبار مدتها ستة أشهر أثبت فيها قدرتى على التواؤم مع الحياة الجماعية. ونظرت الى هذه التحفظات على أنها تعنى عدم الثقة وكان أصدقائى يعلمون أننى لا يمكن أن أنتمى الى مجتمع كهذا. فالمساواة العاطفية والاجتماعية المطلقة لم تكن لتتفق مع طبيعتى أبدا.

وكان الأمر كذلك بالفعل، وأنقضت فترة الشهور الستة وبذلت فيها جهدا جعلهم يثقون فى مسلكى، ومنحت العضوية الكاملة، وكنا فى البداية سبعة عشر عضوا فى ناحلال، ثم انضمت الينا مجموعة من شباب حزب العمل المهاجرين من بولندا وروسيا، ثم انضمت الينا أخيرا مجموعة من الفتيات من خريجات مدرسة ويزو الزراعية.

وأعطيت لنا - أنا رورث - فى البداية حجرة واحدة فارغة، قمت أنا بصنع أثاثها من جذوع الجميز. وأوكلت مسئولية حظائر الماشية الى روث، بينما توليت أنا مسئولية الحراسة الليلية، ولم تستطع مستعمرة شمرون اثبات نجاح مؤسسيها وظلت تعتمد على المساعدات التى يقدمها لها الصندوق القومى اليهودى. وكان ذلك موضع مناقشاتنا أنا وروث، على امتداد عامين. وفى عام ١٩٣٨ انتقلت مجموعة شمرون الى مستعمرة أخرى بالقرب من

الحدود اللبنانية، أما أنا وروث فقد عدنا الى ناحلال مرة أخرى لنعيش فى كوخ تمتلكه.

وقد ارتبطت بالميدان العسكرى أثناء اقامتى فى شمرون، حيث تصادف ذلك مع حدوث ما أسماه البريطانيون (بالثورة العربية)، التى استمرت من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩ عندما أصدرت بريطانيا سياستها الجديدة لفلسطين بتقييد الهجرة اليهودية، واستيطان الأراضى. وخلال هذه السنوات الثلاث، كافح المجتمع اليهودى من أجل الحفاظ على أمنه، وتم استنفار الجيل الشاب لأداء دور أكثر نشاطاً.

وبدأت الثورة بإضراب عربى شامل يهدف الى شل الحياة الاقتصادية فى البلاد، فى عام ١٩٣٦، وسرعان ما اجتاحت كل أنحاء الأراضى موجة من العنف والاضطرابات حتى اضطرت بريطانيا الى استدعاء المزيد من جنودها. وأحس البريطانيون بالخطر، لأن موجة العنف كانت موجهة ضدهم وضد اليهود وضد العرب المعتدلين فى نفس الوقت، وجاءت لجنة ملكية بريطانية لتقصى الحقائق، حول أسباب الصراع وتقديم توصيات للدبلوماسية المقبلة، ولان اليهود والبريطانيين كانوا هدفاً للإرهاب العربى، فقد حدث تقارب بين حكومة الانتداب والسلطات اليهودية.

وتمثل أول إجراءات التعاون فى الاستعانة باليهود والاستفادة من خبرتهم فى معرفة البلاد واللغة العربية. وهكذا أنشئت أول قوة بوليسية للمستعمرات اليهودية. وأصبحت ـ تحت رتبة غفير ـ واحدا من أعضاء هذا البوليس.

وكان خطاب التعيين الذى تلقيته فى مارس (آذار) عام ١٩٣٧، وتسلمته فى مستعمرة شمرون، معنوناً باسم قيادة البوليس الفلسطينى.

وعينت بمرتب قدره ثمانية جنيهات فلسطينية، وصرفت لى بدلة رسمية وتصريح سلاح.

وكنت أعيش فى معسكر بريطانى فى منطقة عفولة التى تعتبر المركز الرئيسى لوادى هرزل، حيث تمتد أنابيب البترول التابعة لشركة أنابيب العراق والتى تصل بين حقول البترول فى الموصل وميناء حيفا، وكانت هذه الأنابيب عرضة لعمليات تخريبية من جانب العرب ولم يكن بمقدور الشاحنات والعربات أن تمر فى المنطقة المزدوجة بالقرى العربية.

وكان مصرحا لى بالمبيت ليوم واحد فى المنزل، وكنت أعمل مع فصيلة اسكوتلاندية وأخرى من يوركشاير. وخلال الفترة التى قضيتها مع هاتين الفصيلتين، وهى ثمانية أشهر، اكتشفت مساوئ الوحدات النظامية وخاصة فيما يتعلق بالعمل الروتينى الذى كان يفقدها الفاعلية ضد المخربين، وكان فى تصورى أن العمل الواجب اتخاذه ضد العرب هو البدء بالهجوم عليهم فى مخابئهم ومباغتتهم.

واشتد فى نفس الوقت نمو بوليس المستعمرات فأصبح يضم ١٣٠٠ من أعضاء الهاجاناه فى نهاية عام ١٩٣٦م. وأثر أنتهاء خدمتى فى عفولة، عدت الى شمرون كجاويش مسئول عن الحراسة. وكنت أقود فصيلة تتميز بالنشاط الجم، فكنا نقوم بالمرور خلال النهار، وننصب الكمائن فى المساء للعرب.

وفى شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٧ أرسلتنى الهاجاناه الى معسكر تدريبى على الأعمال القيادية، وهناك التقيت بإسحاق ساديه المشرف على المعسكر... وقد أحببت هذا الرجل وصار مثلى الأعلى وتلقينا تدريباً جيداً عالى المستوى يتميز بالواقعية والحيوية. وأرسلت عقب ذلك الى مركز تدريب الجاويشية فى الجيش البريطانى، وهناك كان جل اهتمامهم موجها للنظافة والأحذية التى تلمع... ولا شىء غير ذلك.

وباضطراب التعاون بين سلطات الانتداب البريطانى والسلطات اليهودية، استطعنا أن نحصل على تصريح باقامة معسكرات تدريب وتصاريح باحراز الأسلحة المختلفة التى تستخدمها الجيوش.. وأصبح فى مقدورى، أنا وزملائى

من رجال البوليس، أن نمارس نشاطاتنا السرية فى الهاجاناه بيسر شديد.

وانفجرت الثورة العربية فى عنف شديد فى خريف عام ١٩٣٧ عندما أعلنت لجنة بيل توصياتها التى تقضى بتقسيم فلسطين الى دولة إسرائيلية ودولة عربية ومنطقة تحت الوصاية البريطانية. ورفضت الدول العربية هذه القرارات، واشتد نضال العرب ضد اليهود والسلطات البريطانية.

وفى عام ١٩٣٨ قدمت فى الهاجاناه كمعلم فى مناطق ناحلال والأقاليم المجاورة لها، وكنت فى نفس الوقت مسئولا عن تدريب القادة الفرعيين فى إحدى القواعد التابعة للهاجاناه. وخرجت عن قواعد التدريب الروتينى التى تقضى بتعليم استخدام السلاح. ولكونى مسئولا عن التدريب على حرب العصابات، فقد ألفت كتيبا عنوانه (جرفة الميدان) خاصاً بالتدريب يحتوى على تعليمات خاصة باعداد الكمائن - وأسلوب الحراسة - وتاكتيك التسلل والهجوم. ووقعت هذه المذكرة فى يد يعقوب دورى قائد الهاجاناه للإقليم الشمالى، الذى استدعانى وفاجأنى بأن امتدح هذا العمل وكافأنى، الأمر الذى جعلنى أشعر بالفخر. وكنت قد قضيت وقتا فى التدريب فى ناحلال، وقمت بتطوير تدريبى بحيث كنت أمرن الرجال على فن الهجوم ومفاجأة العدو.. وحتى اكتشف نقاط الضعف فى حراسة مستعمراتنا، فقد كنت اصطحب رجالى فى عمليات ليلية مفاجئة نكتشف خلالها الثغرات الموجودة فى الدفاع. وإزاء تحذيرات رؤسائى لى من مغبة هذا العمل، إذ أن قوات الحراسة فد تطلق النار علينا - فقد اضطررت لطاعة الأوامر وتوقفت عن (غزو) مستعمراتنا.

واستمرت مسئوليتى عن التدريب فى الهاجاناه، فى الوقت الذى كنت امارس فيه وظيفتى كجاويش فى البوليس الإنجليزى. وكانت زوجتى روث تقيم فى شمرون، وكنا نلتقى بين الفينة والاخرى، وبدأنا نناقش خطط المستقبل... فكانت ترى ضرورة ترك مجموعة شمرون والبدء فى إنشاء

مزرعة خاصة بنا وبناء منزل دائم لنا، وقضاء أوقاتنا فى القراءة والدراسة.

وفى نوفمبر (تشرين الأول) ١٩٣٨ انتقلت مجموعة شمرون للإقامة الدائمة فى مستعمرة هانيتا التى تقع بجوار الحدود اللبنانية.

وكانت الهاجاناه قد احتلت هذه المستعمرة قبل ذلك بثمانية أشهر بعد أن تعرضت لهجوم عربى عليها، خاصة وأنها تقع على الحدود اللبنانية فى النقاط التى يتسلل منها العرب لمهاجمة المستعمرات اليهودية، وكانت الهاجاناه قد حددت يوم ٢١ مارس (آذار) ١٩٣٨ موعدا لعملية مستعمرة هانيتا، وحشدت من أجلها ٤٠٠ مقاتل من بينهم مائة منْ بوليس المستعمرات التابع للسلطات البريطانية. ومن أجل ضمان السرية التامة، وذلك حتى لا يشعر العرب أو السلطات البريطانية، توزعنا على عدة مستعمرات على الشاطئ، وكانت هذه القوة بقيادة ايزاك سادية.

وكنت أنا ويجال ألون نائبين له. وفى يوم ٢١ مارس (آذار) تحركنا من نقاط تجمعنا متجهين شمالا نحو هانيتا، وكان ذلك قبل الفجر بقليل، وكان علينا أن نترك السيارات فى الطريق ونتسلق المرتفع الصخرى. وقسمنا أنفسنا الى مجموعتين إحداهما لإقامة الخيام والمعسكر، والأخرى لبناء برج المراقبة وسور الحماية. وكنا نتمنى أن ننتهى من عملنا خلال النهار، إذ كنا نتوقع أن يكون أول هجوم عربى ليلا، لكننا لم نستطيع أن نتم مهمتنا وصادفت عمليه نصب الخيام هبوب عاصفة شديدة، وعند منتصف الليل بدأ الهجوم العربى من اثنين من التلال المجاورة.. واقترح ايزاك سادية أن نقوم أنا ويجال ألون، بحركة التفاف حول المهاجمين، غير أن دورى قرر استحالة تنفيذ هذا الاقتراح، واستمر تبادل إطلاق النار لمدة ثمانى دقائق انسحب بعدها المهاجرون وراء الحدود اللبنانية. وكانت خسائرنا قتيلين وعددا من الجرحى واستمر العمل فى بناء المستعمرة لمدة ثلاثة أيام فى هدوء... وفى

اليوم الرابع، وبينما كانت إحدى مجموعات البناء تعمل على الطريق، هاجمها العرب، وحاولنا قطع طريق الهرب عليهم، بيد أنهم كانوا أسرع منا، وتقرر أن نبقى قوات سادية لحين الانتهاء من بناء المستعمرة. وكنا نقوم بنقل عمال من مدينة نهاريا، وكان من بين واجباتى الإشراف على نقل هؤلاء العمال أما بقية واجباتى فكانت تتعلق بالحراسة. وعندما انتهت عمليه بناء المستعمرة عادت قوات سادية مرة أخرى وانتهت مهمتى وعدت ثانية الى واجباتى فى بوليس مستعمرات.. وبقيت مستمرا فى الحراسة وفى عملية التدريب الخاصة بقوات الهاجاناه.

وذات مساء حضر الى شمرون أحد أفراد الهاجاناه وبرفقته شخص غريب... هو الكابتن أورد وينجت... الذى لم يكن جنديا عاديا.. جاء الى فلسطين عند نشوب الثورة العربية عام ١٩٣٦محملا بأفكار غير تقليدية ضد العرب وأساليب مواجهة العنف والتخريب العربيين.. وكان فى الوقت ذاته متعاطفا للغاية ـ بعكس زملائه العسكريين ـ مع الأفكار الصهيونية، الأمر الذى جعله موضع ثقة كل قادة اليهود فى فلسطين.

وكان هذا هو لقائى الأول مع وينجت... كان متوسط القامة.. ذا وجه شاحب، لكنه وجه قوى.. وكان يتمنطق بمسدس فى وسطه ويحمل إنجيلا صغيرا حول رسغه. وكانت طباعه تنم عن المرح والإخلاص.. له نظرة هادئة حين يتحدث... وكان يوجه نظرات عميقة كلما تفحص أحد الأشخاص وكأنه يبحث فى أعماقه عن سره. وطلب إحضار المجموعة ليعلمنا كيف نقاتل، وكان يصر على الحديث بالعبرية التى بدأ يتعلمها منذ وصوله للبلاد، غير أننا طلبنا منه بعد فترة أن يتحدث بالإنجليزية.

وأخذ يتحدث عن خبرته فى حرب الغابات فى السودان، حيث خدم لعدة اعوام، وعن طريقة نصب الأكمنة الليلية، وأخيرا فاجأناه باقتراح أن نصحبه

لكى يعلمنا على الطبيعة كيفية عمل الكمين الليلى.

وطلب خريطة وكانت المفاجأة الأخرى اختياره لنقطة على الطريق الموصل لقرية محلول العربية التى تبعد عدة أميال. وكان العمل بالنسبة الينا جديدا لاننا كنا دائما ننصب كمائننا بالقرب من المستعمرات اليهودية للدفاع عنها، وليس بالقرب من خط العنف القريب من القرى العربية، وقمنا بجمع أسلحتنا... وكنا نتحرك بأوامر وينجت على حافة التلال وليس فى الممرات. وعندما وصلنا الى هدفنا انقسمنا الى مجموعتين تبعد كل منهما عن الأخرى مائة ياردة. وكانت التعليمات تقضى بأنه عند ظهور أى مجموعة فى تلك الليلة فإنها سوف تمر وسط المجموعتين حيث تجرى مهاجمتها من الجانبين. وبالرغم من عدم ظهور أية مجموعة هذه الليلية فإن الدرس كان هاما وكافياً. وقد اشتد تأثرى بهذا الرجل، خاصة وأننى كنت، قبيل العملية، أتساءل عما اذا كان فى استطاعة هذا الرجل أن يتحرك فى الظلام فوق أرض لا يدرى عنها شيئاً، فى حين أن هذه الأرض هى مسقط رأسى وأعرفها شبراً شبراً. وتساءلت وهل سيصيبه التعب، وهل سيطلب الراحة؟!! غير أن كل هذه الأسئلة انتهت تماما، واكتشفت أن معرفته بهذه المنطقة تفوق معرفتى بها، وأنه قوى يستطيع أداء كل ما نمارسه نحن الشباب. صحيح أن أفكار وينجت الجديدة كانت مغروسة فى قلوبنا على يد اسحاق سادية، غير أن وينجت تميز عنه بالأتقان والإيجابية والعناد وعدم قبول الحلول الوسط. وقد صاحبت وينجت بعد ذلك فى عمليات كثيرة نجحنا فى بعضها ولم ننجح فى البعض الآخر، المهم أن المهاجمين العرب أصبحوا يدركون الآن أن جميع الممرات التى قد يسلكونها غير آمنة بالكمائن التى نصبناها فيها.

وكنا كثيراً ما نقضى أمسياتنا فى العمل سويا. وأصبحت أؤمن بأن وينجت مقاتل ممتاز. وإنسان رائع وكثيرا ما كان يصيبه الإرهاق الشديد، وقد

رأيته فى احد الممرات وهو يقطف ثمرة بطيخ من أحد الحقول ويبلل بها وجهه ليستعيد نشاطه، كما كان يعمد قبيل كل عملية الى قراءة فقرات من الإنجيل.. وخاصة الفقرات التى تتحدث عن المناطق التى سنهاجمها، ويجد فيها الدلائل على النصر.. نصر الله ونصر اليهود... ونظرا لتعاطفه الزائد مع الصهيونية، فقد قام رؤساؤه بابعاده عن فلسطين. ولكنه قاتل فى الحرب العالمية الثانية فى الحبشة وبورما حيث قتل فى إحدى غاباتها عام ١٩٤٤م.

■ ■ ■

٣ـ فى السجن

كان كل أفراد مجموعة شمرون قد انتقلوا الى مستعمرة هانيتا على الحدود اللبنانية.. وذهبت معهم أنا وروث بمثابة ضيوف، ثم عدنا بعد ذلك الى ناحلال مرة أخرى حيث أستأجرنا منزلا من مجلس المستعمرة، يتكون من حجرتين ومطبخ وحديقة خضروات، وفى فبراير (شباط) ١٩٣٩ ولدت ابنتنا يائيل.

وفى مايو (آيار) من هذا العام أصدرت بريطانيا ما يسمى بالكتاب الابيض ضمنته سياسة جديدة للانتداب، فحددت الهجرة اليهودية خلال السنوات الخمس الثانية ثم منعتها تقريباً بعد ذلك، وبذلك جاء كل ما فيه متناقضاً مع روح وعد بلفور الصادر عام ١٩١٧، ومع نص قرار عصبة الامم المتعلق بالانتداب، وسوف يؤدى فى حاله تنفيذه الى تحطيم آمال اليهود فى وطن قومى لهم، لذا قررت الهاجاناه حمل السلاح ومقاومة هذا الكتاب الابيض، وكانت تلك نهاية التعاون بين البريطانيين واليهود، وعادت الهاجاناه مرة أخرى الى العمل السرى.

وفى منتصف أغسطس (آب) شرعت الهاجاناه فى برامج للتدريب على تاكتيكات القتال، وبدأت من جديد فى أداء واجباتى كمدرب فى هذه البرامج التى أختيرت لها قاعدة جديدة بالقرب من قرية يا فنيل على بعد اربعة أميال من مستعمرة دجانيا وإمعاناً فى التموية، فقد جرت هذه التدريبات. تحت زعاية الأتحاد الرياضى اليهودى. وبعد ذلك بقليل نشبت الحرب العالمية الكبرى مما جعل الهاجاناه تسرع فى عملية التدريب، ومضت الأسابيع السبعة الأولى من التدريب فى هدوء.

وجاء أول جرس للإنذار فى يوم ٣ أكتوبر (تشرين الأول) عندما كان بعض

الرجال مجتمعين لتلقى بعض الدروس النظرية فى التاكتيك، وعلى حين فجأة ظهر اثنان من رجال الأمن السرى البريطانى... قاما بتفتيش المعسكر... وكان من السهل عليهما أن يعثرا على السلاح، وتم بسرعة إخطار قادة الهاجاناه حيث تم اخلاء القاعدة والانتقال الى قاعدة أخرى تبعد ٢٥ ميلا، بالقرب من مستعمرة عين هاشوفيت، وانقسمنا الى مجموعتين أولاهما مجموعة يجال ألون، ضمت أفراد بوليس المستعمرات المصرح لهم باستخدام السلاح، وهذه المجموعة وصلت الى هدفها بسلام بعد أن قطعت الطريق من ناحية سفح جبل تابور.

والمجموعة الثانية بقيادة سوكينك قائد مركز التدريب، وضمت ٤٣ رجلا، وكان عليها أن تقطع الطريق خلال الظلام من خلال الجبل الى الجنوب الغربى مخترقة منطقة عربية ضخمة فى وادى البيرة، حتى تصل الى منطقة جزريل اليهودية وتخترقها خلال النهار، وكانت مهمتى أنا وسوكينك القيام بعملية الإرشاد.

وكنا لسوء الحظ قد غادرنا المعسكر متأخرين، اذ أن المعسكر كان موضوعا تحت المراقبة... وكان علينا أن نجمع أسلحتنا الضرورية التى كانت مخبأة فى بعض المخابئ، كانت الساعة الثانية صباحاً عندما بدأنا فى التحرك، وتسلقنا عدة ممرات صعبة فى الساعات التالية من الظلام.

وعندما أشرف الصباح كنا على بعد أميال كثيرة من أقرب مستعمرة يهودية وكنا على مشارف وادى البيرة الذى تمر فيه أنابيب البترول الخاصة بالشركة العراقية، وجلسنا أنا وسوكينك للراحة، وفجأة وجدنا أنفسنا محاصرين بقوة من سلاح الحدود الأردنية الخاصة بحراسة أنابيب البترول، وكانت بقية المجموعة بعيدة عنا حيث كنا نحن فى المقدمة، وكانت هذه القوات تابعة للأمن السرى البريطانى، فأخبرناهم أننا من هواة الرحلات، وأبرز لهم سوكينك رخصة سلاحه، وعندئذ بدا عليهم الاقتناع.. وتركونا ومضوا. ولكنهم ظهروا مرة أخرى وقد أحاطوا ببقية المجموعة... ويبدو أن أحد العرب لفت أنظارهم الى بقية المجموعة المسلحة التى كانت تسير بجوار خط الأنابيب.

وسرعان ما أحاطت بنا بعض القوات المسلحة وضابط بريطانى ومحقق من سلاح الحدود، ونزعت منا أسلحتنا، وقضينا بضع ساعات الى أن يقرر رؤساؤهم مصيرنا، ثم قسمونا الى مجموعتين، وأركبونا سيارتى نقل، وأخذونا الى السجن، وفى قرية عكا وقفت سيارة نقل.. ولمحت صديقى كالمان فكتبت له ورقة أقول فيها أنه قد ألقى القبض على وأنه لا داعى للقلق... وكتبت عليها عنوانى وألقيت بها اليه، وأثناء هذه الرحلة دار النقاش حول مصيرنا، وساد اقتناع بأن الأمر سرعان ما سيتضح وسوف يفرج عنا.

ولكن حالتنا النفسية تغيرت بعد أن أوصدت وراءنا البوابات الحديدية فى السجن المركزى. الذى كان قلعة قوية يستخدمها الاتراك خلال حكم الامبراطورية العثمانية، ثم تحولت الى سجن، وقد أرسل من قبل الكثير من اليهود فى هذا السجن أثناء المقاومة بعد الحرب العالمية الثانية، ولقى بعضهم مصرعه فى غرف الإعدام فيه. ودخلنا الى حجرة قمنا فيها بتسليم متعلقاتنا الشخصية، ثم نقلنا الى حجرة أخرى انتشرت على أرضيتها البطاطين الممزقة، وجلسنا جميعا متعبين، وقبل أن نغمض عيوننا لننام جاء بعض رجال البوليس وسألونا من منا يتحدث بالإنجليزية... ولم يكن هناك غيرى وزفى بريز... وأقتيد زفى أولا الى غرفة التحقيق التى كانت تجاور حجرتنا، لكى نسمع ما يدور فيها هناك. وسمعنا أصواتاً، ثم صوت صفعات ولكمات، وأعقبتها تأوهات، ثم عاد الكلام مرة أخرى والصفعات والتأوهات. وأبلغت بأن دورى قد حان. وتوجهت الى الغرفة. وكانت أياد فولاذية تمسك بى، وبدأت عملية تحطيمى نفسياً، وأبلغونى كيف يمكن أن يحفروا لى قبراً هنا... وتصورت ابنتى وكيف يمكن أن تشب يتيمة ثم تعلم بعد ذلك أن والدها قد شنق كأى مجرم عادى، وقررت مسرعا أن الامتناع عن الكلام غير مفيد والأفضل أن أحدد ما يمكن أن يقال وما لا يمكن أن يقال.

وذكرت اسمى وعمرى، وأبلغتهم أننا من رجال الهاجاناه، ولا بأس فى ذلك

فهى منظمة معترف بها وكانت تتعاون الى وقت قريب مع السلطات البريطانية... وأبلغتهم أننا كنا نقوم بالتدريب. وعندما سئلت عن الأسماء ونوع السلاح لزمت الصمت، وقال لى المحقق أننى إن لم أذكر هذه المعلومات فلن أعيش طويلا. وحاولوا ضربى بالسياط، غير أنى حذرتهم من أن أى أذى يصيبنى أو يصيب أحد زملائى سوف يجعل موقفهم صعبا، لأن زملائى فى الخارج لن يسكتوا، وأنه يجب عليهم ألا ينسوا أننا شركاء فى الحرب ضد هتلر، وتوقفت الأيدى، واستطعت إنقاذ زملائى الذين سئلوا بعدى، وأبلغنى زفى أنه تعرض للضرب والركل أثناء التحقيق معه لرفضه الكلام.

واستيقظنا فى الصباح على أصوات المفاتيح، وسمح لنا بأن نصعد الى البرج لكى نستنشق الهواء وأخذنا نتطلع الى منظر خليج حيفا. وتناولنا افطارنا من الخبز والزيتون وسمح لنا بالاتصال بمحام فى حيفا، وفى المساء علمنا أن المجلس اليهودى سوف يناقش المسألة على أعلى مستوى، وأننا لن نبقى فى السجن طويلا، والى أن يحين موعد تقديمنا الى المحاكمة فقد كانت معاملتنا عادية.. اذ كنا نرتدى ملابسنا العادية ونتلقى الطعام من خارج السجن وسمح لعائلاتنا بالزيارة، وكنا نقوم بالتدريبات الرياضية فى الصباح لكى نحافظ على لياقتنا البدنية وكنا نلعب الشطرنج والداما بقطع من الخبز، وبعد عدة أيام سمح لنا بقراءة الكتب فى مكتبة السجن، وجاءنا محام من حيفا استمع الى كل التفاصيل ووكلناه عنا فى المحاكمة.

وجرى التحقيق معنا مرة أخرى فى قسم البحث الجنائى البريطانى وأبلغونا أن محاكمتنا ستتم أمام محكمة عسكرية بتهمة احراز سلاح بدون ترخيص. وحكم هذه المحكمة نهائى غير قابل للنقض أو الاستئناف.

وكنا على ثقة من جهود المجلس اليهودى، وكان كل منا يتطلع الى زيارة عائلته له، واقتادونا فى يوم الزيارة الى مكان خارج السجن حيث نظمنا فى صف طويل، وعلى بعد عدة ياردات، وعلى رصيف مرتفع بعض الشىء كانت

تقف عائلاتنا يفصل بيننا حاجز من السلك، وكان مسموحاً لكل منا بزائرين فقط، ولذا ظلت بقية العائلات فى خارج السجن وسمح لروث بالدخول وهى تحمل يائيل ذات التسعة أشهر، وهى ترتدى ثوبا، وقد بكت يائيل وهى تحاول الوصول الى خلال القضبان، وكان كل ما حدث فى هذه الزيارة مدعاة للحسرة، فقد مضت الدقائق العشر والكل يحاول اسماع صوته للآخرين من خلال الصياح، وضاع الأمر هباء. ومنذ اللحظات الأولى لهذه الدقائق العشر كنا نسمع الحراس العرب يطلقون صيحات (يالله ـ يالله) ومعناها أسرع أسرع.

وبدأت محاكمتنا يوم ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) فى أحد المعسكرات بالقرب من عكا، حيث كنا نجلس على أرائك خشبية، وأمامنا هيئة المحكمة على منضدة طويلة، وقوات الحراسة التى قبضت علينا على أرائك أخرى، ووضعت على الأرض الأسلحة التى ضبطت معنا، وكان الإدعاء ممثلا بضابط بريطانى برتبة رائد، وثلاثة قضاة من الضباط البريطانيين، وكان هناك ثلاثة محامين من بينهم والد زوجتى، وكانت التهمة الموجهة الينا جميعاً هى إحراز سلاح بدون ترخيص، فيما عدا ابشالوم تاو الذى وجهت اليه تهمة أخرى هى تصويب سلاحه على القوة التى ألقت القبض علينا. وكان الادعاء قائما على حملنا سلاحا بدون ترخيص فى ظل قوانين الطوارئ.. وكان الدفاع قائما على أساس أننا مجموعة من الشباب يقومون بالتدريب على السلاح والاستعداد لمحاربة عدونا النازى وأننا نجهل القوانين. واستمرت المحاكمة ثلاثة أيام وتحدد يوم ٣٠ أكتوبر (تشرين الاول) موعدا لصدور الحكم. وفى الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم اقتادونا الى غرفة المحاكمة، وصدر الحكم بأننا مذنبون وحكم على كل منا بعشر سنوات من السجن.. أما ابشالوم تاو فقد صدر عليه الحكم بالسجن المؤبد.

وهزتنا الصدمة. نحن الثلاثة والاربعين شخصا. بمجرد سماع الحكم، وتغيرت أوضاعنا بعد وصولنا الى السجن، فقد أصبحنا مساجين.. خلعنا

ملابسنا وارتدينا ملابس السجن، وحلقت شعورنا، ووضعنا فى حجرات ضيقة لها سقف عال ونافذة مسدودة بالقضبان تطل على ساحة السجن، وكان البرنامج اليومى فى السجن يبدأ مع إطلالة الفجر. حيث نستيقظ على صوت الجرس، ثم نخرج فى طابور تحت الحراسة لمدة عشر دقائق، ثم الافطار، ثم نتوجه الى العمل. وفى الحادية عشرة نتناول أولى الوجبتين الرئيسيتين، ثم طابور آخر، ثم العمل حتى الثالثة من بعد الظهر.حيث نتوجه لنتناول الوجبة الأخيرة، ثم نوضع فى زنزاناتنا حتى صباح اليوم التالى.

وكان علينا أن ننظم أنفسنا، فانتخبنا لجنة من ثلاثة من بين الرجال الثلاثة والاربعين، كنت واحدا منهم، وأوكلت الى مسئولية الاتصال بادارة السجن وبالسلطات اليهودية خارج السجن، أما الاثنان الآخران فقد كانت مسئوليتهما تنظيم الأنشطة والترتيبات داخل زنزانات السجن التى تضم رجالنا. وتقدمت بعدة مطالب لمأمور السجن وافق على بعضها، وكان أهمها اختصار وقت العمل بالنسبة الينا الى النصف لاستغلال النصف الآخر فى تحصيل العلم، أما بقية المطالب فقد كانت السماح لنا باستعمال ادوات الكتابة واحضار الكتب من الخارج والسماح بالاضاءة فى زنزاناتنا حتى الثامنة مساء. وبهذا أصبحنا قادرين على تعلم اللغة الانجليزية والعربية والكيمياء، وكان مدرسونا هم زملاؤنا الذين كانوا من قبل يدرسون هذه المواد. كذلك فقد قمنا بتطوير برنامج التدريب الخاص بالهاجاناه. وكنا عندما تطفأ الانوار نجتمع حول المصباح (الكلوب) الذى سمح لنا بإحضاره، ونستمر فى الدراسة حتى تنطلق الصفارة الاخيرة الخاصة بإطفاء كل الأضواء.

واستطعنا تهريب ملابس داخلية وبطاطين وأغذية وخطابات من الخارج، فقد كان مسموحا لنا بكتابة الخطابات مرة كل شهر فقط وكانت الزيارة مرة كل شهرين. كان القلق مسيطرا على عائلاتنا، لكنهم كانوا بلا حول ولا قوة. وكان القلق متبادلا. هم قلقون علينا ونحن قلقون عليهم. كان هذا هو نفس

حـال عـائلتى، وكنت أشـعـر بتلك الحـالة من خـلال خطاباتهم ومن نـظرات أعينهم عندمـا يحضـرون لزيارتى. وكنت أقول لهم فـى خطاباتى إن السـجن ليس نهاية العـالم، وما هو إلا فتـرة نقضيها ثم نخـرج لنغتسل وينتهى الامـر. أما هم فكانوا يرون فى السـجن مأساة حقيقية يعيشون على أحزانها، أما بالنسبة لابوى فقد كان السجن هو ذلك الشىء، الذى قرآ عنه فى كتابات ديسويفسكى. وما سمعاه ممن سجنهم الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى، عندما كانت فلسطين جزءا من الامبراطورية العثمانية المتحالفة مع ألمانيا. أما من ناحيتى أنا فقد كنت أنظر الى السجن على أنه جزء من عملنا من أجل بناء اسرائيل على الرغم من أن الاقامة فى مثل هذا المكان لم تكن شيئا طيبا.. لكنها كانت على الاقل أفضل حالا من سيبريا. لكننى كنت أشعر بالاسف لاننا دخلنا السجن لمجرد سوء الحظ. وليس لأننا قمنا بعملية من أجل وطننا القومى.. أما السبب الذى كان أيضا مدعاة لأسفنا جميعا فهو اننا كنا مسجونين فى الوقت الذى تدور فيه الحرب وكنا جميعا نتحرق شوقا الى أن يأخذ كل منا مكانة فيها.

وفى نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثانى) تم التصديق على الحكم مع تخفيض المدة المحكوم بها علينا من عشر سنوات الى خمس سنوات وقمنا بالاضراب عن الطعام لمدة يوم احتجاجا على عدم الافراج عنا نهائيا. ووزعت الهاجاناه منشورات ضد الحكم مطالبة بالافراج عنا نهائيا. ثم نقلنا بعد شهر الى زنزانات أخرى، وقسمونا الى أربع مجموعات. ومن حسن الحظ أن المكان الجديد كان يتميز بالاضاءة القوية فى الممرات الامر الذى ساعدنا على الاستذكار حتى وقت متأخر من الليل.

وفى أول زيارة بعد المحاكمة، طلبت زوجتى روث من الكابتن جرانت قائد الحراس أن يسمح لى بالاقتراب من ابنتى يائيل التى كانت قد احتفلت بعيد ميلادها الاول، ولكن الكابتن جرانت دفعها ونهرها.

وقد خلف ذلك عندى احساسا مريرا بالحقد.. كما ترك لدى روث شعورا بالرعب والكراهية. وكتبت لروث بعد ذلك أصف لها مشاعرى تجاه جرانت وكيف أنه يشبع ميوله السادية برفض مطالبنا، واخبرتها أنه لا يمر يوم دون أن يدخل السجن مزيد من اليهود من بينهم الكثير من منظمة أرجون زفاى ليومى، كما كان الكثير من العرب أيضا يدخلون السجن، وان عنبر الاعدام كان يضم أربعة مساجين ينتظرون تنفيذ الحكم، وان العالم ملىء بالرعب والفزع فى كل مكان.. فى بولندا. وفى ألمانيا وروسيا وفى نهاية خطابى تمنيت لطفلتى حينما تكبر أن تعيش حياة أفضل فى عالم مختلف عن هذا العالم.

وكنا نعمل فى مزرعة الخضروات. وكان حارسنا سمحا ومتعاطفاً معنا، فكنا نستخدم هذه المزرعة فى اخفاء علب المأكولات المحفوظة التى كنا نقوم بتهريبها من الخارج. وذات يوم ألقيت بفأسى على الارض بإهمال فانكشف موقع الكنز وظهرت ثلاث علب من اللحم المحفوظ (البولوبيف) واستدعيت أمام جرانت حيث كان نصيبى يومين فى الحبس الانفرادى. ونظم زملائى مع أحد الجاويشية موضوع إرسال الطعام لى، اذ كان طعام المحبوس انفراديا يتكون من خبز وماء فقط. وكانت زنزانة الحبس الانفرادى صغيرة ـ مظلمة ـ وباردة.. وكل مساء كانوا يصرفون لى بطانية خفيفة ووسادة. وفى الليل سمعت صوتا خافتا يغنى تلك الاغنية المقدسة التى يغنيها يهود الجليل من أبناء مدينة صغيرة.. وأدركت أن السجين اليهودى المجاور لى كان يرتل صلوات ليلة السبت. ورددت حوائط السجن ابتهالات اليهودى الصندى الى السماء واعترانى شعور غريب قضى على كل احساس آخر بالظلمة والبرودة، لقد سيطر على وجدانى الاحساس بيوم السبت ـ السبت اليهودى.

وفى احدى الزيارات أبلغنا روف هوس، وهو أحد رجال القسم السياسى فى الوكالة اليهودية وأحد قادة الهاجاناه، بأننا سننتقل الى معتقل شمالى

سجن عكا، حيث الظروف أفضل بكثير وحيث السماح بالزيارة أكثر. وقد رحبنا بهذا الانتقال والامل يحدونا فى أن يواصل المجلس القومى اليهودى جهوده من أجل الافراج عنا.

وكان أخى زوريك وأختى أفيفا يتوليان رعاية المزرعة، وانتقلت روث وياثيل الى القدس حيث أقامتا مع والد روث. وكان أبى يكتب الينا كل أسبوع عرضا للمسرح السياسى علمنا منه أن شبح الحرب بدأ يقترب من البلاد، وهو ما سمعناه من المساجين الجدد من أفراد الهاجاناه المحبوسين بتهمة احراز سلاح بدون ترخيص.

وبات واضحا أن السلطات البريطانية مصممة على تحطيم الهاجاناه على الرغم من علمها بأنها منظمة للدفاع عن اليهود. وكان من بين المسجونين الذين جىء بهم حديثا أحد عشر شخصا من مستعمرة جينوسار شمالى الجليل، كانوا قد سارعوا الى نجدة بعض زملائهم الذين كانوا قد تعرضوا فى الحقول لهجوم مفاجئ من العرب، وبعد انتهاء المعركة جاءت وحدة من قوات الامن البريطانية فوجدت المدافعين لا يزالون حاملين أسلحتهم، ولم تقبل أعذارهم، وجىء بهم الى سجن عكا. ومن بين الذين جىء بهم أيضا أربعة وثلاثون شخصا من منظمة أرجون زفاى ليومى، وهو الجناح اليمينى الذى يعمل فى السر، والتقيت بهم واتفقنا على التمثيل المشترك فى مواجهة سلطات السجن، وحصلوا بالفعل على نفس الميزات التى كنا نتمتع بها.

وكان هناك أيضا مئات من العرب من منظمة القساميين وكانت العلاقات بيننا ودية وعلى أساس من الاحترام المتبادل، اذ كان يجمع بيننا قاسم مشترك واحد وهو اننا لسنا مجرمين عاديين، بل كان كل منا يدافع عن أفكاره القومية ويضحى بحريته وحياته من أجل شعبه. وكانوا يدعوننا فى أعيادهم الاسلامية وكنا ندعوهم الى أعيادنا اليهودية.

والتقيت خلال اقامتى بعبد السالم الذى كان يعزف فى حفل زفافى.

وحضرت اعدام الكثيرين من العرب. وكان الحزن والرعب يجثمان على السجن فى أعقاب أى عملية اعدام، وكان هناك بعض الحراس من البريطانيين من بينهم من يحسن معاملتنا، ومنهم من كانوا يعاملوننا بقسوة.. وكان كابتن جرانت هو أكثرهم وقاحة. لكنه كان يخشى على أية حال من أن يذهب معنا بعيدا فى وقاحته اذ انه كان يتوجس من أن يقوم القادة اليهود بتقديم شكوى ضده الى المفوض السامى البريطانى.. كذلك فقد كان يخشى تنظيمنا ووحدتنا داخل السجن.

وفى شهر فبراير (شباط) ١٩٤٠ نقلنا الى معتقل المزرعة بعد خمسة شهور من وجودنا فى سجن عكا، وبعد مفاوضات طويلة. ونقل معنا بقية المساجين من اليهود، وهناك التقيت بكثير من العرب من المسجونين السياسيين. وكانت الظروف فى هذا المعتقل أفضل بكثير، وكنا نعمل فى محطة الزراعة القريبة من المعتقل، وكان مسموحا لنا بزيارات عائلية متعددة. وبرغم ذلك فقد بدأ صبرنا ينفد، وكنا نقضى أوقاتنا فى العمل والاستذكار، لكننا كنا نشعر بأننا نحيا حياة فارغة نعيش فيها عبر الماضى دون أن نساهم فى خلق المستقبل. وكنا نشغل أنفسنا بالقضايا التافهة كجودة الطعام وما الى ذلك.. وبالطبع بدأنا ننتقد تقاعس السلطات اليهودية عن السعى للافراج عنا.. غير مدركين لأهمية العمل الذى يقوم به القادة اليهود فى حل مشاكل قيام الدولة، والإسراع بتنفيذ الحلم الصهيونى فى تحويل الوطن القومى اليهودى الواقع تحت الانتداب البريطانى الى دولة مستقلة.

كانت زيارات العائلة متعددة، وقد سمح لنا باللقاء فى حجرة وأصبحنا نلتقى ونحن نشعر بآدميتنا، وكثيرا ما كنا نستقبل خلسة زيارات عديدة أثناء عملنا فى الحقول، وكان روف هوس يحضر الينا كثيرا ليحطنا علما بما يحدث فى الخارج.

واحتفلنا فى الربيع بعيد الغفران لليهود، فجاءت سيارة نقل محملة

بالأطعمة والنبيذ، وحضر الينا ابراهام هارزفلد الاب الروحى لحركة المستعمرات، حيث أقام شعائر الاحتفال بهذا العيد، وغنينا ورقصنا، وكانت عائلاتنا خلال أيام العيد السبعة تحضر الينا باستمرار.

وجاءنا قائد الهاجاناه ليبلغنا بالخطة الجديدة لتأسيس قوة يهودية جديدة تحارب مع الجيش البريطانى، وعلقنا الآمال على أن يعجل هذا بإطلاق سراحنا، اذ كان من الطبيعى أن يرحب الجيش البريطانى بالمزيد من المتطوعين، وكان الحلفاء يعانون من المتاعب فى أوربا، وأخذ النازيون يحتلون الدولة عقب الأخرى. وكنا نتوقع أن يتم الإفراج عنا فى ٦ يونيو (حزيران) بمناسبة عيد ميلاد ملك إنجلترا، لكن يوم ٦ يونيو (حزيران) مر دون أن يحدث أى شىء، وكانت فرنسا قد سقطت، وانسحبت القوات البريطانية الى إنجلترا، وتم الاستعداد للحرب فى فلسطين وظللنا نحن فى السجن.

رحل الخريف، وكان معنى ذلك انقضاء عام ونحن مازلنا فى السجن، نمارس حياة لا معنى لها، بينما تتساقط دول أوربا الواحدة بعد الآخرى فى يد النازى، واليهود يذبحون ، والحرب تدق أبواب البلاد، وعلى عكس احتفالنا بعيد الغفران، فقد احتفلنا بعيد الشموع فى شهر ديسمبر(كانون الأول) والحزن يملأ نفوسنا، كنا نحتفل فى هذا العيد بالمكابيين الذين حرروا القدس فى القرن الثانى قبل الميلاد من الوثنين، وكنا قد احتفلنا بهذا العيد فى العام السابق على أمل أن نوقد الشموع فى هذا العام فى بيوتنا، لكن الأمل بدا بعيداً، مما زاد فى حزننا أن دوق هوس قتل فى حادث سيارة إثر زيارة قام بها لنا، ولأنه كان أكثر المدافعين عنا وعن مصالحنا، فقد خيم الحزن علينا جميعاً.

وفى يناير (كانون الثانى) ١٩٤١ بدأت الإشاعات والأنباء تصل الينا عن تبدل موقف السلطات البريطانية من المجتمعات اليهودية فى فلسطين، وعلمنا أن الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية قد نجحتا فى جعل السلطات

البريطانية توافق على انشاء قوة يهودية خاصة من يهود فلسطين تنضم للجيش البريطانى، ورحب بذلك أيضا القائد البريطانى لمنطقة الشرق الأوسط ووزير المستعمرات، وقررنا الإضراب عن الطعام ابتداء من أول مارس (آذار) غير أننا أبلغنا فى ١٩ فبراير (شباط) ١٩٤١ أنه قد تقرر الإفراج عنا فى صباح اليوم التالى، ولم نصدق لفرط فرحتنا. ولكننا فى الصباح تسلمنا ملابسنا المدنية، وفتحت البوابات وخرجنا... وأصبح السجن وراء ظهورنا.

■ ■ ■

٤ ـ عودة إلى ميدان القتال

بدأت أتمتع بحريتى بعد خروجى من السجن، وتأكدت بالفعل أن الحرية هى هواء الروح الذى يتمنحها الحياة. وكانت عكا تبعد قرابة عشرين ميلا عن مستعمرة ناحلال التى استغرقت رحلة العودة اليها عاماً ونصف العام من حياتى، من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٩ حتى فبراير (شباط) ١٩٤١، وعندما عدت الى مزرعة والدى شرعت فى العمل فى مزرعة العجول والدواجن، وكنت عندما ينتهى الموسم، أعمل كأجير فى المزارع المجاورة، وكان أحب الأوقات لدى هو وقت الفراغ الذى كنت أقضيه فى اللعب مع يائيل أحب من فى الوجود بالنسبة لى. أما فى الليل فقد كنت أؤدى واجبات الحراسة.

وكان الموقف فى الحرب العالمية يميل لصالح النازى، فبينما كان روميل يتقدم بجيوشه نحو الحدود المصرية، كانت الجبهة الشمالية بالنسبة لنا، وهى سوريا ولبنان، تحت الاحتلال الفرنسى أى تحت سيطرة حكومة فيشى المتعاونة مع النازى، وفى ضوء هذا الموقف الخطير حددت الإدارة البريطانية فى فلسطين قبولها للعرض الذى تقدمت به الوكالة اليهودية لإنشاء القوة اليهودية داخل الجيش البريطانى... وبدأ توثق التعاون من جديد بين السلطات البريطانية والهاجاناه. وكانت النتيجة أن استغلت الهاجاناه الفرصة وقامت بتوسيع قواتها ودعمها من اجل حماية اليهود من أى هجوم عربى، وتم تعيين اسحق سادية ـ أحد قيادات الهاجاناه ـ قائداً لتلك الوحدة اليهودية الجديدة فى الجيش البريطانى.... وعينت أنا ويجال ألون قادة مجموعات.. وكلفنا بواجب فورى هو جمع المتطوعين. وفى اوائل مايو (آيار) استدعانى اسحق سادية أنا وزفى سيكتور، وأعطانا الأوامر الخاصة بتعبئة القوة اليهودية وتدريبها، لكنه لم يوضح لى نوعية العمليات التى ستشارك فيها هذه القوة،

وكان الأمر الوحيد الواضح لى هو أن إقامتى مع عائلتى قد انتهيت وأننى سأبدأ العمل العسكرى من جديد، وعلمنا فيما بعد أن قواتنا سوف تشترك مع قوات الحلفاء فى غزو سوريا كخطة لحماية شمال البلاد وكان متوقعاً أن تكون هذه القوات دليلاً لقوات الحلفاء نظراً لدرايتها بطبيعة الأرض.

ولم تشارك وحدتى فى العملية الأولى التى كانت تستهدف نسف مستودعات البترول فى ميناء طرابلس لمنع امدادات الجيش النازى من البترول، وخاصة طائراته التى كانت تستخدم احدى القواعد الشمالية السورية، وتم تشكيل قوة من ٢٣ متطوعاً بقيادة زفى سيكتور، أبحرت من ميناء حيفا فى منتصف ليلة ١٨ مايو (آيار) على متن اللنش أسد البحر، مزودين بثلاثة قوارب مطاطية للإنزال، وكان برفقتهم فى نفس الوقت المقدم أنتونى بالمر... من فرع عمليات الجيش البريطانى. ولم يتحقق الهدف من العملية، لأن القوة لم تصل الى طرابلس ولم تعد مرة أخرى، ولم يزل ما حدث لأفرادها غامضاً حتى الآن. واستنتجنا أن يكون أمرهم قد انكشف بعد أن قامت الطائرات البريطانية بقصف طرابلس، مما نبه العدو الى هذه القوة فأغرقها. ومازلت أذكر جلوسنا طويلاً أمام البحر فوق سطح أعلى بنايات حيفا بالنظارات المكبرة نترقب عودة القوة، والقلق الغامر يعتريها، وقد تأثرنا جميعاً بما حدث لهذه القوة، خاصة وأنها كانت أول عملية تشارك فيها القوة اليهودية.

وكنت أنا بالذات أكثر تأثراً، اذ أننى كنت قد التقيت مع زفى قبل قيامه بهذه العملية، وعلمت منه أن ساقه قد أصيبت فى حادث سيارة، الأمر الذى قد يعجل بغرقه فيما لو حدث للقارب أى سوء. وكانت الهواجس تراوده حول احتمال فشل العملية، خاصة وأنه تولى قيادة العملية بعد أن أعتذر القائد الذى كان معينا لها.

واستدعيت بعد ذلك بعدة أيام من قبل قائد القوات، وتسلمت تعليمات بخصوص وحدتى التى مازالت قيد التكوين، وكانت التعليمات الأوليه تقضى

بأن تكون وحدتى جزءاً من القوة الأسترالية التى ستكون مقدمة لغزو الحلفاء لسوريا، وكانت مهمتنا هى القيام بدوريات استطلاعية لاكتشاف تحصينات العدو ومدى امكانية استخدام السيارات فى العبور الى الجبهة الشمالية وخاصة بعد أن قامت حكومة فيشى بقطع خطوط المواصلات وتدمير الطرق، وستكون مهمتنا فى ليلة الغزو عبور الحدود واحتلال نقاط المراقبة والجسور والطرق المؤدية الى بيروت، وكان علىَّ أن أعثر خلال فترة وجيزة على رجال مدربين أكفاء لهذه العملية، وكان سادية قد أعطانى أسماء ثلاثين رجلا من المستعمرات يصلحون لهذه المهمة، ومعظمهم ممن يقيمون فى المستعمرات المجاورة، ولذا فقد تحتم علىَّ أن أمر على هذه المستعمرات جميعاً لتجنيدهم، كما تعين علىَّ أيضا أن أخطر مستعمرة هانيتا التى تقع على الحدود بأمر هذه المهمة للتأهب وإعداد قاعدة لهؤلاء الرجال، وفى الليلة التالية، كان الثلاثون رجلا موجودين فى القاعدة وكلهم من الشباب غير المدربين على الأسلحة ولم يكن بينهم من يتكلم اللغة العربية سوى واحد، كما لم يكن بينهم سوى واحد يعرف قيادة السيارات فى حين كان واجبنا الأول هو اكتشاف طرق ممهدة لعبور السيارات.

كانت اهمية نجاحنا فى العملية ضرورة ملحة من اجل زيادة الوجود اليهودى مع الحلفاء فى محاربة هتلر، وكانت السلطات البريطانية ترى فى بداية الأمر أن تخفف من قبول المتطوعين اليهود فى مختلف الوحدات خوفاً من أن يتجه العرب الى التعاون مع النازى. ولم تتشكل القوات اليهودية الخاصة الا فى عام ١٩٤٤ عندما تم تشكيل اللواء اليهودى وكانت السلطات البريطانية تولى أهمية خاصة للقيمة التى يسفر عنها اشتراكنا، وكنا نحن أيضا نعلق الآمال فى أن يعطينا نجاحنا فى هذه العملية الفرصة للاشتراك فى عمليات أكبر، ويمنحنا الحق فى أن نزيد قواتنا وأن نحصل على أسلحة كثيرة، ورغم أننا كنا ثلاثين رجلا فإن السلطات البريطانية لم تصدر لنا

سوى عشرة تصاريخ وصرفت لنا تسعة مسدسات فقط مع طلقات من قياس مختلف عن الأسلحة.

وتغلبنا على مشكلة التسليح بالاستعانة بترسانة الهاجاناه، وقهرنا مشكلة التدريب بالاستعانة باثنين من ضباط الهاجاناه قاما بتنظيم برنامج للتدريب العنيف والسريع، وبقيت عدة مشاكل، من بينها أن أحدا منا لم يكن يعرف الأرض السورية التى كان من المفروض أن تكون وحدتنا هى المقدمة التى ترشد قوات الغزو اليها، هذا بالإضافة الى أننا لم نكن مزودين بخرائط تفصيلية، وجاء لإنقاذنا من هذه المشاكل يوسف فاين ـ والد موردخاى هود قائد الطيران الأسرائيلى فيما بعد ـ وكان يقيم لفترة طويلة فى المنطقة السورية المتاخمة للحدود ويعرف بدقة كل دروبها وله أصدقاء كثيرون من العرب، وتمكنا بواسطة يوسف من تجنيد اثنين من العرب لقيادة وحداتنا الاستطلاعية حتى الحدود، وقسمت رجالى الى مجموعتين قاد إحداهما يوسف. كانت عمليات الاستطلاع تتم ليلاً، اذ تبدأ الدوريات منذ الغروب وتعود قبل الفجر، وكانت الدوريات ترتدى الملابس العربية، وقررت أن أنزل احدى عمليات الأستطلاع بنفسى، وصاحبنى فى هذه الرحلة دليل شركسى، وخوفا من ان يضللنى هذا الدليل فقد تم احتجاز عائلته فى أحد فنادق حيفا، وعرف الشركسى أنه فى حالة حدوث أى شىء لى فان ذلك يعنى ان عائلته قد انتهت، وحاولنا خلال هذه الدورية أن نتجنب مقابلة أى شخص، غير أننا صادفنا بعض المهربين الذين حاولوا خداعنا، كما حاولنا خداعهم، وتبادلنا التحية بالعربية، وافترق كل منا فى سبيله، وكان الليل بارداً، غير أن السير فى ممرات الجبال كان لطيفاً، وقد عرفت كل الطرق الصالحة للسيارات وكل الممرات وعدنا فى الصباح الى هانيتا، واستمرت دورياتنا الاستطلاعية لمدة أسبوع، واكتشفنا عدة ممرات تصلح لسير العربات وطرقا للأخلاء.

وتحددت ليلة الغزو فى ليل السبت ٧ يونيو (حزيران) وكان علىَّ أن

أتوجه الى القيادة فى حيفا لأخذ التعليمات الأخيرة، ولكنى توجهت قبل ذلك الى ناحلال لاصطحاب روث التى فضلت أن تنتظر عودتى من العملية فى هانيتا، واصطحب معى كذلك زالمان مارت، وهو أحد رجال الهاجاناه المدربين، بعد أن وافق على مرافقتى فى هذه العملية، وأثناء عودتى الى نهاريا استوقفنى أحد رجال الهاجاناه ومعه أحد القادة البريطانيين عند ناحلال، وأبلغانى أن هناك تعليمات جديدة خاصة بالغزو، حيث اكتشف البريطانيون طرقاً جديدة لسير السيارات غير تلك التى استكشفناها، وأن الأمر يحتاج الى استكشاف ليلى لهذه الطرق بواسطتنا. وتركت روث فى نهاريا وعدت أنا ومارت الى حيفا حيث عثرت بعد بحث على اسحق الدرزى، وهو من أحسن المرشدين، وذلك لكى يصحبنا فى دورية سريعة، واتجهنا نحو الحدود، وهناك التقينا بسائق إحدى سيارات الخبز فطلبنا اليه أن يبقى فى انتظارنا، فاذا لم نعد حتى الصباح فإن عليه أن يذهب الى هانيتا ويخبر رجالى بأن يقوموا بالعمل بدونى ويتموا المهمة، وعندما حل الظلام تسللت انا ومارت واسحق الدرزى عبر الحدود، واستطعنا فى الساعات التالية أن نغطى المنطقة بأكملها واكتشاف كل شىء فيها، كما اكتشفنا نقاط مراقبة العدو وحالة الاستعداد فى قواعد المنطقة، وعدنا مرة أخرى قبل الفجر.

وأتصلت فوراً بقيادة الهاجاناه فى حيفا لتقديم تقريرى، واستمع لى اسحق سادية بهدوء واهتمام، وأبلغنى أن اليوم هو السبت ٧ يونيو (حزيران) وأن ساعة الصفر فى الليل، وكان واضحاً بجلاء أن الوقت متأخر للغاية لتغيير خطة الغزو، وكان يشك فى إمكانية العثور على أى ضابط مسئول فى قيادة الحلفاء لابلاغه بهذا التغيير، وكان من الصعب تغيير التعليمات الصادرة لمختلف الوحدات التى ستشارك فى الغزو اذ أن كل الترتيبات قد أتخذت، وأبلغنى أن أفعل ما أراه ملائماً بالتنسيق مع قائد القوة الأسترالية التى تعمل معنا، ووصل الأستراليون الى حيفا، وجلست بعد ظهر يوم السبت

مع اثنين من الضباط لمراجعة الخطة الخاصة باحتلال جسر الإسكندرونة واحتلال الطريق الرئيسى والمحافظة عليهما لحين وصول قوات الغزو.

وخصصنا لهذه المهمة فصيلة تتكون من خمسة من رجالنا وعشرة من الأستراليين، ومن بينهم ثلاثة ضباط، ورشيد طاهر المرشد العربى، وكنا مسلحين ببنادق ومسدسات ورشاشات، وحضر الينا يعقوب دورى. وهو أحد قادة الهاجاناه الرئيسيين (الذى أصبح فيما بعد أول رئيس للأركان فى اسرائيل) وكان بصبحته اسحق سادية، حيث شاركانا وليمة العشاء قبل بدء العملية، وبدأ تحركنا فى الساعة التاسعة والنصف مساءً، كانت روحنا المعنوية عالية للغاية لأننا بدأنا عمليه كنا نرتب لها طوال الفترة الأخيرة، وسوف يترتب على نجاحها مدى اشتراكنا فى المستقبل فى عمليات مشتركة مع البريطانيين، وكان البدر كاملا مما سهل مهمتنا فى اكتشاف الأرض التى نتحرك عليها، لكنه كان فى الوقت نفسه عاملا على أكتشافنا بسهولة، وبعد تسلق شاق استمر أربعة ساعات وصلنا فوق هدفنا مباشرة. وأخذنا راحة تناولنا فيها بعض الشوكولاته. وراقبنا الجسر بالنظارات المكبرة، لم تكن عليه أية إضاءة فلم تتح الفرصة لمشاهدة التفاصيل. ولم نستطع رؤية نقاط المراقبة الفرنسية.... لكنه كان علينا أن نستنتج مواقعها، وانقسمنا الى مجموعتين، وتوجهت فى المقدمة أنا ورشيد والضابط الأسترالى الى الجزء الشمالى فوجدناه بدون حراسة.

وكانت المفأجاة أننا بعد كل تلك الدوريات التى استمرت أسبوعاً وكل هذا التسلق الشاق، وجدنا أن مهمتنا تتم بسهولة متناهية دون أن نطلق طلقة واحدة... اذ لم يكن علينا الا أن نحافظ على الجسر والطريق الى أن تصل قوات الغزو التى كان مقررا أن تصل بعد ساعتين، أى فى الرابعة صباحاً، ولذا فقد انتحيت جانباً من الطريق ورحت فى النوم، واستيقظت فى الصباح، وكانت الشمس قد بزغت، على أصوات إطلاق النار وهى تأتى من بعيد...

وكان المنظر حولى يضم قوات الغزو وقد بدت على مرمى البصر، غير أن موقعنا نحن كان صعباً.. اذ كان من السهل مهاجمتنا من أى تل مرتفع.. وأبلغنى رشيد أن هناك نقطة بوليس على بعد ميل، ففكرت فى إمكانية احتلالها قبل أن نتعرض للهجوم... وعرضت الفكرة على الأستراليين فوافقوا... وتوجهنا الى النقطة لاحتلالها، ولم نجد عند وصولنا قرب المبنى رجال شرطة بل وجدنا قوات فرنسية عسكرية، فاحتمينا بإحدى مزارع البرتقال المجاورة، ولكن الفرنسيين اكتشفوا امرنا وأخذوا فى اطلاق النار علينا، وحضرت مجموعات فرنسية على صوت اطلاق النار، وانضمت لهذه المجموعة، وتبين من خلال هذه المعركة أن رشيد، المرشد العربى، مقاتل من الدرجة الأولى، قتل كل من حاول التسلل الى موقعنا محتميا بالأشجار. ووجدنا ساترا للحماية هو السور المحيط بالمزرعة، فاحتمينا به وظللنا نطلق النار، وفجأة تغير الموقف بعد أن اطلق علينا أحد الرجال مدفعا رشاشاً سريع الطلقات وحاصرنا وراء الساتر الذى نحتمى به وبدأت ذخيرتنا فى النفاد. وطلبت من المجموعة تغطية خروجى أنا ومارت لمهاجمة النقطة... وأخذت أقترب ثم القيت قنبلة يدوية لكنها انفجرت خارج المبنى، وتسبب الانفجار فى ايقاف عملية اطلاق النار عدة لحظات سمحت لبقية المجموعة بالخروج من خلف الساتر ومهاجمة النقطة والقيت القنبلة الباقية معى، فدخلت من النافذة وانفجرت فى الداخل، واقتحمنا النقطة وأتممنا احتلالها واستسلم الفرنسيون... ولم يكن مدفعهم الرشاش قد دمر فسارعنا بإحضاره الى سطح النقطة، وكان من حسن حظنا أن فعلنا ذلك، اذ سرعان ما هاجمتنا قوة فرنسية، وكنا قد استولينا على بقية الأسلحة الفرنسية، ووضعنا الأسرى فى الطابق الاسفل، وكانت كمية الأسلحة التى غنمناها جيدة للغاية، وقد أفادنا احتلال نقطة البوليس التى كانت تستخدم كمقر للقيادة. وعلمنا أن القوات الفرنسية الرئيسية قد انتقلت الى الحدود لمقاومة قوات الغزو وان الطرق الرئيسية قد وضعت عليها عوائق لمنع الغزو ونصبت بالقرب منها

كمائن لتغطيتها، وكنا نتوقع هجوما من الفرنسيين خاصة اذا لم تكن قوات الغزو قد تمكنت بعد من عبور الحدود ولذا فقد كان علينا أن نحاول الاتصال بها، وأخذ مارت دراجة نارية كانت موجودة خارج النقطة، واتجه ناحية الحدود آملا أن يمر وسط العوائق التى وضعها الفرنسيون فى الطريق، ولكن النار أطلقت على العجلات فاضطر الى العودة ثانية، وكان سعيد الحظ فى أن تمكن من العودة حياً.

ولم يكن أمامنا الا أن ننظم أنفسنا للدفاع لحين وصول قوات الحلفاء وأخذت موقعى خلف المدفع الرشاش الموضوع فوق السطح، وجاءت قوة فرنسية أحاطت بالمبنى فأخذت فى اطلاق النار عليها... وأمسكت بالمنظار المكبر كى أرى الموقف من حولى.. وما أن تمكنت من تحديد الرؤية، وعلى حين فجأة أطلقت على رصاصة من بندقية.. ودخلت الرصاصة الى المنظار، حيث حطمت احدى زجاجاته وفجرت الغلاف المعدنى الذى استقر فى قاع عينى اليسرى، كما أصبت فى يدى وفقدت الوعى للحظات. وفى الحال صعد مارت الى السطح حيث ضمد عينى ويدى ولف وجهى بكوفية، وانزلت الى الدور الأرضى، ورقدت أفكر فى كيفية توصيل تقرير عما يحدث الآن وأعترف الآن بأن الأمر احتاج منى قدراً كبيراً من التركيز، وأستطعت أن أتبين تطورات المعركة بأذنى ومن واقع طلقات الرصاص التى أسمعها ومن التقارير التى كان مارت يوافينى بها باستمرار، ولم يكن قد سقط منا قتلى ـ، وكنت أشعر وكأن مطارق هائلة تدق فوق رأسى باستمرار، وخوفاً من أن أفقد كمية كبيرة من الدم فقد اقترح أحد الضباط الأستراليين تسليمى الى الفرنسيين كى احظى بالعلاج السريع قبل فوات الأوان، ولكنى رفضت وكان سير القتال جيداً لصالحنا اذ كان المدفع الرشاش يغطى الساحة الكبيرة فى حين كان مدفع المورتار يغطى الطريق الرئيسى. واستطعنا الاستيلاء على عدة سيارات نقل فرنسية بمعداتها، وكانت جزءا من قافلة قادمة من بيروت

لمقاومة قوات الغزو ومع أننا كنا محاصرين ولا سبيل أمامنا للهرب، لكننا فى الوقت نفسه كنا مزودين بأسلحة كافية، وجدران عالية محصنة، ومقاتلين شجعان استطاعوا أن يجعلونا بعيدين عن منال الأعداء. ووصلتنا مقدمة الغزو المشكّلة من القوات الأسترالية بعد عدة ساعات، ووضعت أنا واثنان من الجنود الأستراليين الجرحى فى سيارة نقل فرنسية من تلك التى استولينا عليها، ونقلنا الى الجنوب، وأخيراً وبعد رحلة شاقة، وصلنا الى روش هانيكرا حيث كانت كتيبة الخدمات الطبية وأمر الطبيب البريطانى الذى شاهدنى بسرعة نقلى الى المستشفى.

وكان رشيد ومارت يرافقانى خلال تلك الرحلة، ونقلت الى حيفا بسيارة اسعاف حيث وصلنا قبل الليل بقليل، أى بعد اثنتى عشرة ساعة من إصابتى، وقد كللت مهمتنا بالنجاح حيث لم تدمر القوات الفرنسية الجسر وتم استخدامه فى الغزو... صحيح أنهم دمروا طريقاً آخر لكنه لم يكن داخلاً فى نطاق مهمتنا.. وفى غرفة العمليات فى مستشفى حيفا، قام الجراح بفحصى وأبدى إعجابه بمارت لانه انتزع شظايا الزجاج من قاع العين، الأمر الذى أوقف نزيف الدم. وعندما سألت الجراح عن الحالة قال لى إن هناك حقيقتين الأولى أنك فقدت عينك والثانية أنك ستعيش..... أما الأمر غير الواضح حتى الآن فهو حالة رأسك الذى ترقد فيه كل هذه القطع من الزجاج والمعدن.

■ ■ ■

٥ـ الشـفـاء

كنت أظن فى بداية الأمر أننى سوف أعود الى ميدان القتال بسرعة بيد ان الأمر أصبح معقداً، اذ نقلت الى القدس حيث أقمت مع أبوى زوجتى روث، وكنت اتوجه كل يوم الى العيادة الخارجية للمستشفى لاستمرار العلاج، وكنت أعانى من أعراض جانبية مثل الصداع وآلام الجروح فى يدى ورأسى، وعدم تعودى على استخدام عين واحدة فكانت الحروف تهتز أثناء القراءة، وكلما صببت لنفسى كاساً من الماء كنت أخطئ الكوب وأسكب الماء على غطاء المائدة، وكان من الصعب التعود على الظلام وكدت أيأس من استرداد لياقتى الحربية، كما كنت دائم التفكير فى مستقبلى ومستقبل عائلتى، خاصة وان زوجتى كانت على وشك أن تضع الابن الثانى ايهود.

وكان من حسن الحظ أن ريوفين شيلواه ـ وهو احد اعضاء الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية وهى الجهاز الأعلى لرعاية شئون اليهود فى فلسطين ـ كان مقيماً فى نفس المنزل. وذات يوم عرض علىَّ العمل معه فى القسم، وقبلت فى نفس المنزل، وذات يوم عرض على العمل معه فى القسم، وقبلت على الفور اذ كان لى فى ذلك حل لمشكلة تكاليف المعيشة من ناحية، كما أنه يدخلنى من ناحية اخرى الى ميدان السياسة، وهو مجال جديد بالنسبة لى، وكنت قد بدأت أعتاد على حالتى الجديدة نفسياً وجسدياً، وأصبحت اقرأ بسهولة وأميز المسافات بعين واحدة وأقود سيارة وأسير فى الظلام... كنت أتعثر أحياناً لكنى تعودت المحافظة على توازنى.

وكان من بين المهام الموكولة الى هذه الدائرة ان تعمل فى خدمة قوات الحلفاء، فقد أصبح التهديد بالغزو النازى حقيقة، وخاصة بعد تقدم جيوش روميل والانتصارات التى حققها فى الصحراء الغربية، وكانت المهام المناطة

بنا هى الحصول على المعلومات اللازمة للحلفاء فى حالة الغزو الألمانى لفلسطين، وكان التعاون وثيقاً - فى نفس الوقت - بين جهاز المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط والوكالة اليهودية والهاجاناه.

واتصل البريطانيون بشيلواه وطلبوا منا العمل معهم للحصول على معلومات تتعلق بالنشاط العسكرى للأعداء وإرسالها الى القيادة البريطانية بالراديو، واعطونى مفكرة بشأن طريقة الاتصال، وقدموا لنا بعض الوسائل الحديثة للاتصالات وفى أغسطس (آب) ١٩٤١ وضعت خطة هدفها إنشاء مراكز اتصالات فى القدس وتل ابيب ومستعمرة ماعوزحاييم فى جنوب وادى الأردن، يدير كلا منها قائد ويعمل فيها فرد للاتصالات اللاسلكية، مع مجموعة المخابرات، ووافق البريطانيون على الخطة.

ونظمت دورة تدريبية للاتصالات بالراديو لعشرين رجلا، وكان على رأس المجموعة واحد من رجالنا يدعى ريهوبوام أمين الذى تم إسقاطه فيما بعد وراء خطوط الأعداء فى أوربا، وكنت أتنقل فيما بين المراكز لتحديد مواقع العمل والمخابئ السرية، وتكلفت السلطات البريطانية بدفع التكاليف المادية، وأصبحت أتقاضى راتبى من المخابرات البريطانية، وقدره خمسة وعشرون جنيهاً، بالإضافة الى ثلاثة جنيهات ايجاراً لمنزل لى فى القدس كان يستخدم كمركز لتبادل المعلومات.

كان الاسم الرسمى لنا هو العنصر الفلسطينى، لكنها كانت معروفة باسم مجموعة موشى ديان، وعلى الرغم من أننا كنا نعمل تحت سلطة البريطانيين مباشرة، فان صلتنا بالهاجاناه ظلت مستمرة، وكان كل أفراد المجموعة من أعضاء الهاجاناه، وكان من بين الضباط البريطانيين المسئولين عنا منهم الكولونيل ريد من قيادة المخابرات البريطانية للشرق الأوسط، وضابط آخر يدعى هوبر أبلغنى أنه ولد فى مصر، حيث كان والده يعمل رئيساً للبوليس... وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة.

وكنت دائم التنقل من مكان لآخر أعقد الاجتماعات وأقوم بالتفتيش وكانت هوايتى المفضلة هى التجول فى القدس القديمة، حيث كنت أسير على طول قمة السور المحيط بها، وكان كل ما فيها يسحرنى سواء حوائطها القديمة أو أسواقها أو الأماكن المقدسة فيها، أما القدس الغربية بمبانيها الحديثة فقد كانت غريبة على نفسى.

وطرحت فكرة تكوين مجموعة من اليهود العرب واليهود الألمان للعمل معنا، فى حالة وقوع الغزو والاحتلال ولاقت الفكرة قبولا وارسلت الينا المخابرات البريطانية واحدا من رجالها لاختيار أفراد هذه المجموعة وتدريبهم، وكان هو الرجل الذى قاد طائرة لورانس خلال الحرب العالمية الأولى.

وقمنا بتنفيذ مهام كثيرة ولكن خلف خطوط الأعداء فى اوربا، قام بأداء أولاها أربعة من رجالى منهم ريهوبوام أمير، وبيريز روزنبرج الذى أسقط فى يوغوسلافيا فى مايو (آيار) ١٩٤٣، حيث قام بإجراء الاتصالات اللاسلكية للبعثة البريطانية لدى تيتو.

وتم إرسال مجموعة من البالماخ - أنشط فروع الهاجاناه - للتدريب فى القاهرة. وكانت هناك مهمتان للعناصر التى يتم اسقاطها خلف خطوط الأعداء، الأولى مساعدة رجال المقاومة، والثانية مساعدة اليهود على الفرار من حكم النازى، وقد نجح الكثيرون من هؤلاء المتطوعين فى مهامهم، بينما القى القبض على بعضهم... كما حدث بالنسبة لحانازينيس التى القى القبض عليها أثناء محاولاتها لعبور الحدود اليوغوسلافية الى المجر لتقديم العون الى المجتمعات اليهودية هناك، وانزو سيرينى الذى اعدم فى معسكر داخار فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٤ ومن سخرية القدر أن هؤلاء المظليين الذين نجوا من العرب، لقوا مصرعهم فى عام ١٩٥٤ عندما كانوا يحضرون حفلا لإحياء ذكرى زملائهم، اذ سقطت عليهم طائرة كانت تحمل رسالة من الرئيس فى هذه الذكرى وكان أحد أبناء سيرينى من بين القتلى.

ومع ابتعاد شبح الغزو الالمانى للشرق الأوسط، انتهى عمل العنصر الفلسطينى، وعدت الى ناحلال مرة أخرى، وسمعت قبل عودتى الى الشمال، ان هناك قافلة سيارات بريطانية سوف تسافر الى بغداد لكى تنقل فرقة هندية وتعود بالفرقة الإنجليزية الموجودة هناك، وقمت بالاتصال بأحد السائقين فوافق على أن يأخذنى معه كزميل. وعندما علم قادتى فى الهاجاناه بأمر هذا الاتفاق طلبوا منى توصيل ثلاثة طرود من الأسلحة الصغيرة الى تنظيم الهاجاناه فى بغداد.

كانت القوة البريطانية معسكرة فى العراق بعد أن قضت على نظام رشيد عالى، الذى كان مناهضا لبريطانيا ومؤيداً للنازى، وكان العرب خلال عهد رشيد عالى قد هاجموا حى اليهود فى بغداد وقتلوا أربعمائة يهودى ولذا انشئ للهاجاناه فرع هناك، أنيطت به مهمتان، اولاهما تنظيم الدفاع عن اليهود ضد اية هجمات واتخاذ الإجراءات اللازمة لتهريب اليهود العراقيين سرا الى فلسطين. وعندما وصلنا الى أحد المعسكرات البريطانية التى تبعد عشرين ميلا خارج بغداد، صدرت الينا التعليمات بعدم دخول بغداد خوفا على حياتنا، لكنى استطعت دخولها خلسة بعد أن هربت من المعسكر قبل الفجر بقليل حافى القدمين مرتديا سروالى وملابسى الداخلية... ووصلت الى العاصمة بعد ان أندسست وسط قافلة حمير متوجهة الى أسواق بغداد وتظاهرت بأننى واحد من الرعاة ولم يفطن الى أمرى أحد فى نقطة التفتيش عند الجسر.

وكانت مشكلتى هى الاتصال بمندوب الهاجاناه انزو سيرينى الذى يقيم فى فندق أمية، ووافق البواب، بعد أن منحته بقشيشاً على أن نجرى اتصالاً به فى حجرته - ونزل الى فى الشارع - وعن طريق المزيد من البقشيش سمح لى بالصعود معه. وبعد أن أبدلت ملابسى اتفقنا على أن نزور الحى اليهودى فى المساء وأخذ انزو يشرح لى معالم بغداد وآثارها، ولم أكن آنئذ - للأسف -

مهتما بالآثار. وقد أصابتنى بغداد بصدمة بالغة، صحيح أننى لم أكن أتوقع أن أشاهد فيها ملامح دمشق، وانما وجدت جوا ومبانى كئيبة.

وفى الحى اليهودى التقيت بالأعضاء النشطين فى الهاجاناه والراغبين فى الهجرة الى فلسطين الذين طلبوا منى تهريب شابين بولنديين كانا قد وصلا الى بغداد، ووافقت. وعدت فى الليل الى المعسكر، ثم التقينا عند الفجر فسلمتهم الأسلحة واستلمت الشابين وألبستهما الملابس العسكرية البريطانية.

وبعد عودتى الى ناحلال، قضيت العامين التاليين مع عائلتى فى كوخ بمزرعة والدى، وكنا نتحرق شوقاً الى إنشاء مزرعة خاصة بنا. وأصبحت أعتقد أن مستقبلى قد يكون للمرة الثانية كواحد من أعضاء مستعمرة ناحلال التعاونية، وما كدنا ننتهى من المفاوضات الخاصة بانشاء المزرعة، حتى جاءنى الياهو جولومب أحد قادة الهاجاناه وطلب منى الذهاب الى تل أبيب للتفاوض حول تعيينى ضابطاً فى الهاجاناه ووافقت .

وبعد ذلك توجهنا الى باريس لكى أعرض نفسى على احد الجراحين لعمل عين صناعية لى بدلاً من العصابة السوداء على عينى، وأعتزم الطبيب ان يزرع عظمة فى عينى يمكنها ان تحمل عينا صناعية، ولقد كنت على استعداد تام لأن أفعل أى شىء وأن أتحمل أى ألم فى سبيل أن أتخلص من هذه العصابة السوداء التى كانت تلفت الأنظار الى حيثما توجهت، حيث كانت الناس دائما تشير الىَّ وتتبادل الهمسات، وكم كنت أتمنى لو أستطعت أن أسير فى الشوارع أو أجلس على مقهى أو أدخل الى دار للسينما دون أن أثير أى اهتمام خاص.

لكن العملية فشلت، اذ رفض جسمى قبول العظمة المزروعة ومكثت شهراً فى المستشفى وكانت روث وشقيقتها تتناوبان السهر علىَّ، وعندما نفدت نقودنا عدنا الى ناحلال.

كان الانتداب البريطانى على وشك الانتهاء، وكنا نعد عدتنا من أجل مقاومة أى هجوم عربى من الدول المجاورة، وقبيل انتهاء الانتداب استدعانى يعقوب دورى الذى عينه بن جوريون قائداً للهاجاناه، وهكذا وجدت نفسى فى الخدمة العسكرية مرة ثانية، لكنى عملت فى هذه المرة فى المخابرات لمقاومة العرب، وعندما أعلنت الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ قيام دولة اسرائيل، كانت الدنيا ليلا، فأيقظت أولادى من سريرهم وتوجهنا الى قاعدة ناحلال لنشترك مع بقية الأهالى فى الرقص، وعندما أعلن القرار، الذى ساهم فيه بن جوريون بقسط وافر شعرت بإحساس عميق أننى يهودى بل بأننى لم أكن يهودياً كما أنا الآن، وسرى فى عظامى الإحساس بنصر اليهودية التى تغلبت عبر ألفى عام على القيود والاضطهاد والمذابح الى أن حققت حلمها القديم فى العودة الى صهيون مستقلة.

لكننا كنا جميعاً نشعر، برغم فرحتنا، بأننا لن نحصل على الحل الا فى ساحة القتال، فقد رفضت الدول العربية قبول القرار، واشتعلت البلاد بأحداث عنيفة طوال الأشهر الخمسة التالية، اذ بدأ الفلسطينيون العرب بمساعدة متطوعين غير نظاميين جندتهم حكوماتهم للقيام بالهجمات المستمرة، وأعلنت الحكومة البريطانية أن الانتداب سوف ينتهى فى ١٥ مايو (آيار) ١٩٤٨ وكان القلق يساور أصدقاءنا، وبدأ القادة اليهود يتعرضون لضغوط قوية لصرف النظر عن موضوع الاستقلال، لكن القادة ادركوا، كما أدرك كل يهودى، أن القتال سوف يكون شغلنا الشاغل، وقررنا أننا ما لم نفعل ذلك وننتصر فلن يتم تحقيق حلم صهيون ولن تكون هناك هجرة ولا استيطان ولا استقلال.

وبحكم عملى كمسئول عن الشئون العربية فى الهاجاناه فقد ركزت إهتمامى على جمع المعلومات عما يحدث بين القوات العربية غير النظامية فى فلسطين، وكان هناك من بين من يحاربوننا لواء من المرتزقة الدروز بقيادة شبيب وهاب. يخضع لرئاسة فوزى القادقجى قائد جيش الإنقاذ، وفى

مارس (آذار) ١٩٤٨ تعرض القادقجى لهزيمة قاسية عندما فشل هجومه على مستعمرة مشمار ها ايميك الأستراتيجية الموقع.

وقتل أخى زوريك - عن ٢٢ عاماً - فى معركة مستعمرة رامات يوحنان التى استمرت أربعة أيام، تاركاً وراءه زوجة وطفلاً صغيراً اسمه عوزى، ولكم حزنت أمى على وفاة زوريك، الذى كان أقرب أبنائها الى قلبها، بل أقرب اليها منى ومن اختى أفيفا، وكنت أحرص على زيارة أبوى لتصبيرهما، لكنى كنت أعلم أن جراح أمى لن تندمل، وأن النور قد غاب عن حياتها.

وعلى أثر هذه المعركة وطد أحد أعوانى علاقته بالدروز، وأبلغنى بأن فى استطاعته تحييدهم، وعقدنا اجتماعاً مع بعض ضباط الدروز وتم تقديمى اليهم على أنى شقيق أحد قتلى معركة رامات يوحنان، وأعتقدوا أنهم وقعوا فى فخ.. وأن الأمر ليس اجتماعا بل عملية انتقام.. وقد وافقوا عقب الاجتماع على عدم الاشتراك فى الحرب مستقبلاً، بل وانضم بعضهم للحرب فى صفوفنا، وعلى الرغم من حزنى على فقد أخى زوريك فقد نحيت عواطفى جانباً، اذ كنت فى هذه الأثناء أؤدى واجباً سياسياً وعسكرياً أقوم فيه بتحييد عدو أو كسب صداقته، وكان سرورى عظيماً عندما أبلغنى اسحق سادية، قائد الهاجاناه، بتكليفى بتشكيل لواء من الكوماندوز، اذ كنت أتحرق شوقاً الى ترك المجال السياسى والدخول الى الميدان العسكرى غير آبه بالعين الواحدة ولا بفقد العين الأخرى، وعندما بدأت فى تكوينها، أعلنت دولة إسرائيل، وبدأ الهجوم من جانب ست دول عربية.

■ ■ ■

الباب الثانى

الاستــقلال
(١٩٤٨ ـ ١٩٥٢)

وبدأت الحــرب لتــحــرير الوطن العــربى من الغــزو الإسرائيلى التى لعب فيها ديان دوراً رئيسياً فى الهجوم على الجيوش العربية ولتثبيت الإستعمار الإسرائيلى على الأراضى العــربيــة... وفى هذا البــاب يخلع ديان قناعه ويظهر على حقيقته وينسى الشعارات الزائفة التى كان يتخفى وراءها.

٦ ـ خطــر فى الأردن

كان المشهد متواضعاً، لكن الحدث كان عظيماً...

ففى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ بدأ الاحتفال بمناسبة إنشاء دولة اسرائيل وافتتح بن جوديون دورة جديدة خاصة للمجلس القومى ليهود فلسطين وكانت دورات هذا المجلس تنعقد فى القدس ولكن نظراً لوقوعها تحت الحصار، وتواجد معظم القادة فى تل أبيب، فقد انعقدت الدورة هناك فى قاعدة كبرى من قاعات المتحف وعندما نهض بن جوريون ليبدأ حديثه كان التاريخ يكتب سطوره فبعد ١٩ قرنا من طرد الرومانيين لليهود وتدمير القدس والدولة اليهودية، أعلن مولد اسرائيل الجديدة وحرية اليهود على أرضهم القديمة وستصبح دولة اسرائيل حقيقة فى منتصف الليل عندما ينتهى الانتداب ثم قرأ بن جوريون ـ وسط جو مشحون بالعواطف ـ إعلان استقلال اسرائيل.

وبعد ساعات قليلة تعرضت الدولة الجديدة لهجوم من الشمال والشرق والجنوب، وكان الهجوم من قبل الجيوش اللبنانية والسورية والعراقية والأردنية والمصرية والقوات السعودية التى كانت تعمل تحت القيادة المصرية، وقد عبرت كل هذه الجيوش الحدود وغزت اسرائيل وواجهنا موقفاً صعباً للغاية لأن كل هذه الجيوش النظامية لدول ذات سيادة كانت مزودة بأسلحة ثقيلة وكان من السهل عليها الحصول على أسلحة بصفة مستمرة، فى حين لم يكن لدى اليهود احتياطى كاف من السلاح وكانت قوات الهاجاناه مجرد جيش صغير جداً وعدة سيارات مدرعة محلية الصنع وبعض طائرات التدريب الخفيفة.

ودخل الجيش السورى بعد منتصف الليل بقليل وخلال اليومين التاليين

قصفت القوات السورية عدة قرى فى وادى الأردن وبدأت استعداداتها لسحقها وفى اليوم الثالث (١٨ مايو آيار) استدعيت وأمرت بترك الأمر الصادر لى بتشكيل قوات الفدائيين وأوكلت الى قيادة القوات فى قطاع الأردن، وكان مقر القيادة فى مستعمرة كنيريت فى جنوب غرب بحر الجليل وهى المستعمرة المجاورة لمستعمرة دجانيا مسقط رأسى والتى قضيت فيها فترة طفولتى وأعرف كل شبر فيها.

وكانت القوات المعدة للدفاع عن وادى الأردن غاية فى الضعف... وعندما وصلت مقر القيادة أبلغت أن القوات السورية قد احتلت منطقة زماخ منذ ساعات وان القوات الموجودة قد انسحبت تاركة خلفها الكثير من القتلى والجرحى، وكذلك علمت أن السوريين يعدون لهجوم على مستعمرة دجانيا وشقيقتها دجانيا (ب) ومن حسن الحظ أننى عندما كنت فى طريقى الى (كنيريت قابلت صديقى يورى بار - أوت على رأسى) مجموعة متطوعين كانوا فى طريقهم الى وادى الأردن وكنت أيضا قد حملت معى ثلاثة مدافع بأزوكا.

وقد استقبلنى موشى مونتاج قائد المنطقة بحفاوة ولكن وبقليل من الارتياح لم يكن الأمر مفهوماً لديه، وكنت قد فهمت من القيادة أن مهمتى هى مساعدة قوات وادى الأردن والقيام بعمليات خاصة خلف خطوط السوريين ولكن لم تكن هناك أى قوات تحت قيادتى.. وفى البداية سبب لى هذا الأمر ضيقاً ولكنى بعد أن قمت بجولة تفتيشية فى المواقع، ووجدت أن الموقف يدعو لليأس لم تعد المشكلة هى من يصدر القرار وانما المشكلة هى ماذا نعمل.

وكانت قيادة القوات السورية متمركزة فى منطقة زماخ المحتلة وتتكون من كتيبة من المشاة تتلقى تموينها من الدبابات والسيارات المدرعة والمدفعية عبر أحد الجسور، كما كانت تتلقى أيضا مساعدات جوية، فى حين كان كل ما لدينا عدة قنابل مولوتوف وعدداً قليلاً من مدافع البازوكا، لكن كانت لدينا

أيضاً الروح المعنوية العالية والتصميم وبدأت تصل الينا أعداد قليلة من المتطوعين فى وادى جزيل ومدينة طبرية القديمة ومن قرية يافتيل وبدأنا نعد الخطة لمساعدة مستعمرات دجانيا وأخبرنى مونتاج قائد القطاع أن اربعة مدافع ٦٥ مم فى طريقها الينا.

وفى اليوم الثالث بعد احتلال زماخ واخلاء مستعمرتين اخريين سادت الوادى حالة من الكآبة وتم اجلاء الأطفال والنساء والعجزة وفى المساء كانت البالماخ - أقوى العناصر الضاربة فى الهاجاناه تأمل فى تغيير الموقف فقامت مجموعة منها لاحتلال نقطة البوليس الحصينة فى زماخ ولكنها فشلت فى مهمتها ولم يكن فى وسعنا عمل أى شىء سوى إعداد أنفسنا للدفاع... وقد امضينا اليوم التالى ١٩ مايو (آيار) فى مراجعة أسباب سقوط زماخ، حيث اتضح لنا أن خط الدفاع عنها لم يكن قوياً وتحتم علينا أن نسرع بتقوية هذه الخطوط ووقع اختيارى على (جيورا) من مستعمرة افيكم لتولى مسئولية الدفاع عن دجانيا وقد لاحظت أيضاً قصوراً فى أعداد خطة دفاعية فى بيت براج التى تقع شمال دجانيا والتى كان واضحاً أن القوات السورية تخطط لاحتلالها هى وشقيقتها دجانيا (ب) حتى تتحكم فى الطريق بين نهر الأردن وبحر اجليل وهو مفتاح التقدم شمالا الى طبرية وغرباً نحو قرية بوريا ومرتفعات الجليل.

وفى الساعة الرابعة والنصف صباح يوم الخميس بدأ السوريون هجومهم بقصف شديد من المدفعية والمورتار، وبعد نصف ساعة تقدمت الدبابات والمشاة تدعمها بعض هجمات الطيران التى لم تكن دقيقة ولم تؤثر فى موقعنا، كان تقدم السوريين يتم وفقا للدروس النظرية التى تعلموها، فكانت الدبابات تتقدم يحف بها المشاة من كل جانب، وعندما نصل الى مدى مواقعنا لينتشر المشاة فى الحقول وتستمر الدبابات والمدرعات فى التقدم ووصلت المدرعات الى أسوار دجانيا، بل أن إحدى الدبابات استطاعت تحطيم السور

والدخول الى ساحة المستعمرة ولكنها ضربت بإحدى قذائف البازوكا وزجاجة المولوتوف ودمر المتطوعون من قرية يافتيل اعدادا أخرى من المدرعات. ومن موقعى فى قرية بوريا على مرتفعات الجليل تلقيت رسالة تفيد أن مدافع ال٦٥ مم قد وصلت وستصبح معدة للعمل عند الظهيرة وقد أرسلت نائبى الى دجانيا (ب) ليرى الموقف هناك نظرا لعدم وجود وسائل اتصالات لاسلكية وأرسلت الى يورى أسأله عما اذا كان يحتاج الى استخدام المدافع اذ قررت أنه فى حالة عدم احتياجه فإننى لن أستخدم المدافع فى هذا اليوم.

وازاء التقارير التى وردت عن سوء الموقف أصدرت أوامرى باستخدام المدافع فى أسرع وقت ممكن.

وتحطم الهجوم السورى وانسحبت القوات السورية وتم ذلك نتيجة لعاملين، فقد صد المدافعون عن داجانيا وبيت براج الهجمة وصدر أمر سورى بالانسحاب بعد ان بدأت قنابلنا المدفعية تدك مراكز الشرطة فى رماخ، وحتى يكون حديثى أكثر دقة، فإن الدبابات السورية هى التى تلقت الأوامر بالانسحاب فور أن بدأت مدافعنا فى الاطلاق، أما الجنود السوريون الذين سمعوا صفير القذائف فوق رؤوسهم فانهم لم ينتظروا صدور الأمر، وأدبروا هاربين.

ومع المساء كان واضحاً ان السوريين قد انسحبوا تماماً من زماخ الى التلال الشرقية المجاورة ولم اكن أشاهد اى ضوء وأى حركة، وقررت أن أذهب بنفسى الى هناك واصطحبت معى بعض الأصدقاء منهم قائد فرقة باراك لنرى الموقف على الطبيعة.. وكانت المنطقة مهجورة ساكنة هادئة وجثث قتلانا ملقاة فى حفرة على جانب الطريق.

وترك السوريون خلفهم بعض الأسلحة والسيارات مبعثرة فى الطرقات وأخذنا سيارة اتصالات لاسلكية سورية معنا الى قيادتنا فى كنيريت.

وانتهت المعركة الشاقة والمؤلمة، التى أريقت خلالها دماء الكثير من

الشباب الذين لم يكونوا مدربين على القتال وقد صمدنا أمام المدرعات السورية بأسلحة ضعيفة، فقاذف اللهب لم يعمل وقنابل المولوتوف كانت تنفجر بطريقة بدائية، والمستعمرات لم تكن معدة للحرب ولم تكن مجهزة بخنادق للدفاع... لم يكن هناك الا المدافع التى وصلت فى آخر لحظة وقد واجهنا الخطر، وانتصرنا عليه، وعلم الجميع، من خلال الجولة الأولى فى حرب الاستقلال انه لن يكون هناك تراجع ولن يكون هناك استسلام.

■ ■ ■

٧ ـ فرقــة الكوماندوز ٨٩

وعندما عدت من وادى الأردن كلفت بقيادة فرقة الهجوم الميكانيكى، كما كان يطلق عليها رسميا وهى نفس الفرقة التى كان اسحق سادية قد كلفنى بتشكيلها من قبل وقد اعطيت الوحدة رقم ٨٩ وكانت تابعة للواء سادية ولم تكن تعمل كتشكيل منفرد ولكنها تحت قيادتى أصبحت تعمل مستقلة، وكنت سعيداً بهذا التعيين اذ اتفق تماما مع رغبتى، وقد شرح لى اسحق عمل هذه الفرقة وهى أن تكون بمثابة فرقة فدائية خاصة تماماً كتلك الفرقة الإنجليزية التى كانت تحمى خطوط البترول وجيش بويسكى الخاص خلال الحرب العالمية الثانية.. وفى البداية علمت أننى سوف أكون مزوداً فقط بسيارات جيب وأسلحة خفيفة وسأعمل بدون معاونة أى أسلحة أو قوات أخرى لأن طبيعة عملنا ستكون التسلل خلف خطوط الأعداء والعمل هناك ثم تقرر بعد ذلك أن تكون هناك قوات أخرى للمساعدة وزودنا بسيارات نصف مجنزرة.

وأعترف هنا أننى تركت مسألتى التنظيم والتسليح ـ وهما أهم مهمتين ـ لنائبى بوجنان يلتز الذى كانت له خبرة واسعة فى المسائل التنظيمية، اذ كان يعمل بها خلال خدمته كضابط فى اللواء اليهودى بالجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية وأنشغلت أنا فى عملية اختيار نوعية الرجال الذين سيعملون معنا، وخلال فترة قصيرة كنا قد شكلنا اربع مجموعات بمثابة نواة لفصائل أكبر، تكونت احداها من شباب المستعمرات والثانية من شباب تل أبيب والثالثة من شباب تنظيم شتيرون والرابعة من الشباب المتطوع من يهود الخارج ومعظمهم كان من يهود جنوب أفريقيا، وقد جذبت كل مجموعة من هذه المجموعات أعداداً جديدة من المتطوعين من خلال الصداقات التى

تربط اعضاءنا بالآخرين.

وقد تم اختيار قاعدة الفرقة فى منطقة تدعى تل ليتفينكسى (والتى تدعى الآن تل هماشومير) وتقع بين القرى العربية التى تحتلها القوات الأردنية وخاصة قريتى يهوديا واونو، وصرفت لنا عدة خيام وأكشاك خشبية لاستخدامها كمكاتب وكان جل همى موجها نحو رفع الروح المعنوية للرجال وكذلك روح القتال وكان كل اعتمادنا تكتيكيا على المفاجأة وكنا فى الصيف نرتدى الملابس الكاكى بدون رتب وكان تسليحنا مكونا من سيارة جيب ومدفع ماكينة.

ولم تعد مسأله العين الواحدة بالنسبة لى تمثل عائقاً، اذ كنت أرى فى الظلام جيدا لم يكن صوت الطلقات يزعجنى ـ لا عن شجاعة بل عن مجرد التعود على ذلك... وفى يوم ٢٠ يونيو (حزيران) ١٩٤٨ وقبل الانتهاء من تشكيل الفرقة بوقت قليل، استدعيت بصفة عاجلة للقيادة حيث أخبرنى سادية أن منظمة الأرجوان ما زالت على خلاف مع الحكومة الإسرائيلية، كما كانت من قبل على خلاف مع الوكالة اليهودية وأعلنت الهدنة الأولى فى ١١ يونيو (حزيران) ١٩٤٨ وكان احد شروطها ألا تقوم اسرائيل والدول العربية بإدخال أسلحة جديدة الى منطقة القتال ولكن الجانبين خرقا هذا الشرط بالطبع ولكن بصورة سرية، غير أن منظمة الأرجوان صممت على استيراد شحنة سلاح وصلت فعلا على متن السفينى (التالينا)، الأمر الذى يعد تحدياً صارخاً لسلطة الحكومة الإسرائيلية وتصرفاً غير مسئول وتتعين مواجهته بسرعة ووضوح.

وألقت السفينة (التالينا) مراسيها على بعد ٢٣ ميلا من تل أبيب وبدأت تفرغ شحنتها على مشهد من الجميع معرضة الموقف الإسرائيلى لكثير من المآخذ، وقد كلفت بأن استولى على تلك الأسلحة فقررت ألا استخدم فى هذه العملية رجالا ممن كانوا أعضاء فى الشتيرون، واقتصرت على مجموعة المستعمرات التى يقودها يورى بار، وبدأ الاشتباك بين الطرفين فأصيب

خلالها ثمانية من أفرادنا قتل منهم اثنان، ولكن بعد استخدام المورتر توقف الاشتباك وبدأت المفاوضات وفى هذه الأثناء أبحرت السفينة الى تل ابيب تاركة وراءها بعض الشحنات البسيطة من الاسلحة على الشاطئ.

ولما كان الخلاف بين الاراجون والحكومة خلافا سياسيا فإننا لم نكن نرغب فى ان يتطور الامر الى خلاف عسكرى لانهم ليسوا اعداءنا بل هم منا.. وبعد ذلك استدعيت للقيادة العامة وطلب منى ان اصحب الكولونيل دافيد ماراكوس لدفنه فى الولايات المتحدة وصحبنى فى تلك الرحلة موسى هاريل ولم اكن اعرف الكولونيل ماراكوس جيدا.

اذ كنت قد قابلته مرات قليلة وكان ضابطاً أمريكياً يهودى الديانة من خريجى المظلات وست بوينت العسكرية وخدم خلال الحرب العالمية وبالرغم من أنه لم يكن من رجال المظلات الا أنه طلب اسقاطه بالبراشوت فى نورماندى خلال الحرب العالمية الثانية وقام بأعمال مجيدة، وقد تطوع للعمل بالجيش الإسرائيلى وكان قائداً لقطاع القدس وقتل خطأ على يد جندى إسرائيلى يقوم بالحراسة عندما غادر خيمته ليلاً ليتجول بجوار سور المعسكر.

وخلال توقف الطائرة بباريس للتزود بالوقود تسلمت برقية من رئيس الوزراء بن جوريون يأمرنى بالعودة بسرعة للاجتماع به ولذا لم أمكث فى الولايات المتحدة أكثر من أيام قلائل قضيتها بين وست بوينت ونيويورك دون أن أشاهد شيئاً من أمريكا التى أزورها للمرة الأولى وقد قابلت خلال اقامتى فى نيويورك عددا من اليهود ولكنى تعرفت على شخصية اعتبرتها خير من يعمل معى فى الفرقة وهو شاب يدعى ابراهام باوم وكان قد عمل مع الجيش الأمريكى خلف خطوط الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وقد تعلمت من ابراهام دروساً كثيرة فى العمل خلف خطوط الأعداء.

فقد تحدث معى عن الأهمية القصوى للسرعة والحركة فى المعركة وكان يرى أنه ليس ثمة داع لارسال وحدات استكشاف أولية الى الأهداف التى

ستجرى مهاجمتها، اذ أن أية معلومات سوف تعود بها ستكون ضعيفة بالإضافة الى أن العدو قد يتبينه فيضيع عنصر المفاجأة وكان يرى أن تقوم القوة بأكملها بالهجوم، على أن تتقدمها وحدة الاستطلاع التى تعود بالمعلومات اللازمة وتقود القوة الى الهدف الصحيح. إن خبرة باوم وتجاربه جاءت من حروب مختلفة، لكنى رأيت إن هناك شيئين يمكن تطبيقهما عندنا أحدهما الحاجة الى المحافظة على الحركة المستمرة، وثانيهما أن يكون القائد موجوداً فى الميدان على الخط الامامى مباشرة لكى يقرر ما يجب عمله على الطبيعة، وعدت الى اسرائيل على نفس الطائرة التى كانت فى هذه المرة تحمل أول شحنة من أوراق النقد الاسرائيلية التى طبعت فى الولايات المتحدة الامريكية وأثناء هبوط الطائرة فى مطار عين شيمر الذى يتوسط حيفا وتل أبيب أطلقت علينا بعض المواقع العربية النار ولكننا لم نصب وقد توجهت فوراً الى قيادتى وقررت أن أنام جيدا لأبدأ عملى فى الصباح.

ولكنى لم أذهب الى الفراش لاننى قابلت عند البوابة فصيلة من رجالى متوجهة فى مهمة الى كفر سيركين للهجوم على المناطق التى احتلها العرب والتى تبعد أميالا قليلة عن تل أبيب من ناحية الشرق وأبدلت ملابسى وخرجت مع رجالى.

وكان عمل بقية الفرقة الاستيلاء على المواقع العربية التى تحيط بالقرى العربية فى كلا والطيرة والتى تشكل محورا هاما فى تحرك الجيوش العربية فى هذا القطاع المتوسط وكانت الطيرة تبعد ثلاثة أميال شمال مطار اللد الدولى الذى كان فى أيدينا، ولكنه يقع فى مرمى نيران العرب وكانت مدينة اللد نفسها التى تبعد ميلين عن المطار واقعة تحت الاحتلال العربى ولم أكن محبذا للحظة التى وضعها نائبى والتى تقضى بالتمهيد بقصف مدفعى، وقررت الاسراع فى الهجوم المباشر.

وتحركنا عند الفجر وتعرضنا لنيران شديدة ولكن استطعنا الافلات

وكلفت (اكينا سار) بالهجوم على كلا وهاجمت أن الطيرة واستطعنا احتلال الموقعين وكانت خسائرنا خمسة جرحى.. وكانت عمليتنا بعد ذلك احتلال دير طريف على بعد ميلين أيضا، حيث كان هجومنا هناك بالتنسيق مع لواء القيادة وكنت قد تلقيت بعد عودتى من الولايات المتحدة رسالة شديدة اللهجة تذكرنى بالبرقية التى تسلمتها فى باريس وتطلب منى الذهاب فورا الى تل أبيب لمقابلة رئيس الوزراء، وحيث إن القتال كان متوقفا فقد اعتذرت ساعتها وتوجهت الى تل أبيب لمقابلة رئيس الوزراء.

وكان بن جوريون قلقا نظرا لاشتداد الهجوم العربى ولعدم موافقة منظمتى الاراجون وشتيرن على الخضوع لسلطات الحكومة وطلب منى لأن اتسلم قيادة القدس من (دافيد شاليتل) وعلى الرغم من تقديرى فقد رفضت العرض وأبلغته بأننى قد انتهيت لتوى من تشكيل فرقة الكوماندوز، وقد قمنا بأول عملياتنا هذا الصباح فقد وأن وجودى فى هذه الفرقة أهم بكثير من قيادة القدس. ولما سألنى عن نتائج المعركة وأبلغته بها، وافق على بقائى فى قيادة الفرقة مؤقتا. على أن يبقى موضوع قيادتى للقدس معلقا.

وما أن أنهيت مقابلتى لرئيس الوزراء حتى قررت التوجه للانضمام الى فرقتى فى عملية ديرتا طريف وعندما حل الظلام قررت قضاء الليلة فى أحد الحقول على طريق مستعمرة بتاح تكفا لآخذ قسطاً من الراحة وعند الفجر تحركت وقابلت أحد رجالنا وسألته عن نائبى (بلتز) فوجدته نائماً فى مزرعة زيتون، وكدت أنفجر من الغضب عندما علمت أنهم خاضوا معركة خاسرة وأن الفرقة ٨٢ المدرعة التى كانت تعاونهم قد انسحبت، وحلت محلها سيارات الجيب، ولذا تركت نائبى نائماً وأمرت رجالى بالتحرك فوراً وقابلت اكيفا سار ومجموعته عند التلال المحيطة بدير طريف وقد احتلوا الجزءين الغربى والشمالى، ولكن العرب ما زالوا يحتلون الجزء الشرقى وقررت أن أذهب الى قمة التلال، ولكن أكيفا حذرنى من المدفعية الأردنية التى تحتل

هذه المواقع ومع ذلك صممت على الذهاب وكان أكيفا ورائى مباشرة وشاهدت بعض سياراتنا المدرعة عاجزة عن الحركة كما شاهدت سيارة مدرعة أردنية مقلوبة على جنبها فقمنا بنقلها الى خطوطنا.

وصحيح أننا قد تعرضنا للنيران خلال عملية سحب السيارة، ولكننا كنا حسنى الحظ حيث استولينا على دير طريف وبقيت أمامنا نقطة مقابلة هى بيت ناب الله، وكانت المهمة خطيرة اذ كان علينا أن ننزل الوادى مرة أخرى ثم نتسلق اليهم، فلا ثمة مفاجأة ولا ضربة مفاجئة وإنما قد يعرضنا هذا لنيرانهم ونظرت حولى وشاهدت حقول البرتقال التى تبعد ثلاثة أميال فى أرض مسطحة وفى اتجاه مدينة اللد وقررت أن أسلك طريقاً لا تتوقعه اللد هو الطريق القادم من الشرق والذى كانت تسلكه القوات العربية وأن أقوم بالهجوم على اللد على هذا النحو... ولكن كيف نستطيع تنفيذ الخطة خاصة وأن اللد مدينة محصنة عامرة بالسكان وفيها قوات وعتاد فاستدعيت قادة الجماعات وأخبرتهم بهذا الأمر بمزيج من المزاح والجدية ولكنهم إصروا أولاً على انهاء خطة احتلال دير طريف.

وفجأه تلقيت رسالة لا سلكية من قائد لواء القطاع الأوسط ملاح كوهين الذى يعمل فى الجانب المقابل لنا أحد فكى الكماشة ولكننى لم أكن أعرف موقعه على وجه التحديد وتعرفت على صوت ملاح الذى ابلغنى أن وحداته قد اقتربت من اللد ولكنها تعرضت لنيران عنيفة وسألنى عما اذا كان فى استطاعتنا مساعدتها بعد حصارها، فأجبته بالإيجاب. وطلبت فقط امهالى حتى الساعة الثانية بعد الظهر الى أن انتهى من مهمتى الحالية وبدأت مدافعنا المورتار فى ضرب بيت ناب الله لإجلاء القوات العربية من هناك وبعثت مجموعة شتيرون بالمزيد من الرجال الى طريق الكلا - اللد ولكننى كنت مصمماً على استخدام السيارة المدرعة ذات المدفع المزدوج التى أخذناها من الأردنيين، فبواسطتها كنا سنصبح بالفعل كالملوك، وفى خلال ساعة

واحدة كنا قد دربنا بعض الرجال على استعمال المدفع وأسمينا العربة (النمر المرعب) وفى طريقنا الى اللد وعلى بعد مئات الياردات من بيت ناب اللّه وجدنا طريقين اخترنا أحدهما لكن النيران فتحت علينا من احد حقول الزيتون فتراجعنا الى الطريق الآخر حيث فتحت علينا مجموعة من العرب نيرانها لكن نيران المدافع الأتوماتيكية أجبرتهم على الابتعاد وأصيبت احدى سيارات الجيب بلغم.

ووصلنا مستعمرة بيت شمين في منتصف الطريق بين ناب الله واللد وهى مستعمرة يهودية ظل العرب يحاصرونها شهوراً طويلة وانقطعت كل الاتصالات بينها وبين المستعمرات الأخرى. وكان منظر وصولنا مثيراً لأبناء المستعمرة الذين خرجوا لتحيتنا وقد اتفقت مع ملاح كوهن على أن تجلى قواته من الممر الذى يصل بين بيت ناب الله واللد، وهو الممر الذى قررت استخدامه فى الهجوم باعتباره النقطة الوحيدة التى لا يتوقع العرب الهجوم منها.

ولم تكن لدينا أية معلومات عن العدو وقوة تسليحه أو مواقعه وكان القرار هو هل نهجم أم لا؟! وقررنا الهجوم على أن تقود المجموعة السيارة المدرعة (النمر) التى استولينا عليها من القوات الأردنية وتتبعها السيارات النصف مجنزة للمجموعة الأولى، وفى النهاية مجموعة الجيب المسلحة وأصدرت تعليماتى للطابور أنه اذا أصيبت النمر أو أى سيارة نصف مجنزرة فعلى بقية المجموعة الالتفاف حولها والتقدم وعندما ننجح فى اختراق نقاط العدو الأولى فإن على الطابور ان ينتشر وعلى المدفعية أن تطلق النيران فى كل الاتجاهات وأن تنشر الفزع لنتمكن من اجبار العدو على التسليم، وبعد أن يصلوا الى الطريق الرئيسى تتجه المجموعة الأولى شمالاً والثانة جنوباً ـ وعندما تنتهى المجموعات من عملها نتقابل فى مفترق الطريق واذا واجهت مجموعة مصاعب فإن على الأخرى أن تسارع لنجدتها وأخبرت الضباط أنه فى حالة عدم تنفيذ الخطة لأى سبب فإن عليهم الانتشار بمجموعاتهم والهجوم على العدو من كل

الاتجاهات، وأكدت على أهمية عامل السرعة لتقليل حجم الخسائر وتضخيم الصدمة لدى العدو وكان علينا أن ندوس على عدونا وأن نحطمه معنوياً وجسدياً.. وانتهى اللقاء بالضابط فى دقائق وشرعنا فى العمل.

وما أن تقدمنا مائة ياردة حتى اكتشف أمرنا وبدأنا نتعرض للنيران ولكننا استمررنا فى التقدم بدون رد ثم توقفت النمر لتطلق مدافعها على موقعين وتدمرهما فى دقائق ثم بدأنا التقدم مرة أخرى ولكن بعد مئات الياردات توقفنا لأن حائط الدفاع فتح النيران علينا من كل المواقع وبدأت سياراتنا النصف مجنزرة وسيارات الجيب فى الانتشار لمواجهة هذه المواقع وانقلب الموقف الى جحيم ولم نستطع التقدم لأن الطريق كان مسدوداً بحفرة لمنع المدرعات من العبور وتركت عربتى متوجها الى النمر، حيث وجدت السيارات مستعدة لدخول اللد لكنها كانت تفضل أن تدخل النمر أمامها لا العكس.

وقامت النمر بإثارة عاصفة ترابية ضد مواقع الأعداء ساعدتنا على التقدم عبر طريق فرعى والدخول الى قلب اللد وتقدمت النمر الى الشمال وبدلا من أن تتبعها المجموعة الأولى طبقاً للخطة توجهت إلى الجنوب مع المجموعة الثانية وتركت النمر بمفردها فى الشمال ووصلنا الى منتصف الطريق وتقدمت بقية القوات الى طريق الرملة للاستيلاء على مركز البوليس الذى تحتله مجموعة عربية ولما كان هجومنا هذا خرج قائد المجموعة العسكرية العربية الى العراء ليشاهد ما يجرى ولما تبين حقيقة الأمر اختفى واندفعت القوات نحو طريق الرملة واستطعت أن التقى بالجميع عند محطة السكك الحديدية هناك على طريق القدس.

وقمت بجولة تفتيشية على القوات فوجدت أن أربعة من قوات سيارات الجيب قد قتلوا وأن هناك بعض الجرحى من مجموعات السيارات نصف المجنزرة وهناك عدة مفقودين ومعظم السيارات انفجرت اطاراتها وأصيبت فراملها وخزانات أسلحتها وبدأنا فى علاج الجرحى وإصلاح الإطارات وقبل

الانتهاء من مهمتنا بلغنا أن هجوماً عربياً فى طريقه الينا وانهالت علينا قذائف من المورتار، وتحول الموقف الى اتجاه سيئ للغاية واتجهنا الى طريق الرملة اللاطرون وأخذنا عدتنا للقتال خلال رحلة العودة ولكننا كنا لا نزال تحت مرمى نيران العدو، وبدأت قوات العدو تقترب منا وتعجلت الرجال للهرب بسرعة، حين ظهرت فجأة مدرعة عربية، وقبل ان تصيبنا طلقاتها كنت قد طلبت من عامل الراديو، وهو ابن الحاخام زكريا الذى عقد قرانى، ان يطلق نيرانه، وما ان فعلت حتى هربت المدرعة وعاد الاتصال بالراديو مرة أخرى واخبرنى (دوف جرانيك) الذى تركته فى دير طريف ان هجوما عربياً حدث ضدهم وأن العرب احتلوا المواقع مرة أخرى، وان بعض رجاله جرح والبعض الآخر مفقود وطلب مساعدة ولكنى أخبرته أننى لا أستطيع تقديم أى مساعدة فى الوقت الحالى وأنه بمجرد الانتهاء من موقفى الصعب سأسرع اليه وعليه الاتصال بقيادة اللواء فقد يكون فى امكانها ارسال نجدة سريعة له، ولكنه أخبرنى أن الاتصال بينه وبن القيادة مقطوع وسألنى ماذا يفعل؟

فقلت له إن ظروفنا صعبة فى اللد ونقاتل قتال شوارع وأنه اذا لم يكن قادراً على الصمود فعليه الانسحاب الى الطيرة، على أن نتعامل مع دير طريف فى اليوم التالى ولكن اجابتى لم تقنعه على ما يبدو، اذ عاد يقول إنه ربما يستطيع تنظيم رجاله والاستيلاء على دير طريف مرة اخرى الآن، وهنا اتضح لى أنه لم يكن فى انتظار الأوامر وانما كان يبحث عن تشجيع وعندئذ صرخت فى الراديو قائلاً: هل نحن فدائيون أم لا؟ ولما لم يسمع ما قلته أعدته عليه فصرخ (نحن فدائيون) فقلت له أهجم من الشرق وكان رده نعم.....

وهاجمنا نقطة البوليس على الطريق بين اللد والرملة واستطعنا انتشال الجثث والجرحى وانسحبنا ولكنه كان انسحابا شاقا وكان علينا المرور من امام نقطة البوليس الأخرى ولكن النمر التى ظلت تخوض المعركة بمفردها استطاعت ان تغطى انسحابنا ولم ينج من التدمير سوى النمر وسيارتين نصف مجنزرة ودمرت بقية السيارات وكانت خسائرنا خلال هذه العملية ٩ قتلى و١٧ جريحاً وتركنا وراءنا

فقط سيارة جيب مدمرة وسحبنا الباقى.. وفى اللد التى كان يسودها الهدوء تقدمنا ببطء واوقفنا النيران ووصلنا الى طريق الخروج من المدينة الذى يصل الى بيت شمين والتقنا بأفراد باللواء الذى كان مكلفاً باحتلال المدينة.

وخلال تحركنا جاءنى قائد احدى الفصائل بالإذن بالعودة الى نقطة الشرطة للبحث عن أحد رجاله المجروحين، وكدت أرفض لولا رأيت عيون كل الرجال تحدق فى عينى، وكأنما كل منهم يتصور نفسه جريحاً ملقى على الأرض بعد أن تركه زملاؤه بالعودة شريطة ألا يشتبك فى أية متاعب.

■ ■ ■

٨ـ الطريق إلى النقب

وأخيراً وصلنا تل هاشومير، حيث توجد قاعدتنا، وفى صباح اليوم التالى بعد أن قضينا الليل نتجول فى الحقول بحثا عن طريق آمن.. وفى القاعدة كانت تروى قصص كثيرة عن احتلالنا لكلا، والطيرة، ودير طريف وتتوج هذه الأعمال باختراقنا اللد ولكن حالة الفرقة كانت مؤسفة فمعظم سياراتنا تحطمت ومعظم رجالها أصيبوا وخاصة الضباط.. ونمت عدة ساعات وعندما استيقظت وجدت رسالة من قائد العمليات اللواء ايجال يادين يدعونى لمقابلته فى القيادة العامة ولما توجهت الى هناك يوم ١٢ يوليو (تموز) أعطانى الاوامر بأن انضم الى لواء جيفاتى فى عملية اختراق النقب وكان المصريون قد احتلوا خطا عبر الساحل يمتد شرقا ماراً بطريق المجدل ـ الفالوجا ـ حيث فصلوا النقب جنوبا عن مراكز التجمع السكانى فى الشمال وكانت الاوامر تقضى باحتلال ثلاث قواعد للمصريين هى هاتا وبيت عفا وهى قريبة من مراكزنا.

أما مهمة فرقتى فقد كانت احتلال قاعدة كاراتيا التى يتطلب الوصول اليها اختراق خطوط المصريين، وكانت التعليمات تقضى بأن انسحب من القاعدة بعد تطهيرها وتسليمها للواء جيفاتى، وكانت هذه العملية هى أصعب العمليات الثلاث.. وكان اللواء يادين على علم بما حدث فى اللد فهنأنى فى أول الأمر، لكنه لم يكن يعرف شيئا عن أحوال الفرقة حاليا، فبينت له أن سيارتنا نصف المجنزرة معطلة وأن رجالنا مصابون وأن نائبى واثنين من قادة الجماعات مصابون، وأن هذه الحالة قد لا تسمح لنا بعمليات مثل هذه فى الوقت الحالى.

وفكر يادين قليلا ثم طلب منى انتظاره لحين التشاور مع بن جوريون وترك حجرته الى الحجرة المجاورة حيث مكتب وزير الدفاع، وعاد بعد عدة دقائق وقال لى هناك سؤال واحد: هل الفرقة بهذه الحالة تستطيع الوصول الى النقب؟ فقلت نعم فقال: اذن نفذ الامر وبعد الهدنة الثانية سنحاول تنظيم الفرقة من جديد.. وناقشنا خطة العمليات ووعدنى بسيارات نصف مجنزرة جديدة وخرجت من مكتبه وأمر العمليات فى جيبى يقضى بالتحرك فورا وذهبت لمقابلة بن جوريون بناء على طلبه.

وأقر معى بن جوريون مرة أخرى موضوع قيادتى لقوات القدس ولكنه أجله لحين الانتهاء من عملية النقب وسألنى عن عملية اللد ولكنه لم يوافقنى على أن طبيعة عمليات الفرقة تتطلب الهجوم السريع والجرىء. وقال إن تلك ليست حربا، بل عمليات حرب عصابات.. وطبقا لنظريته فإن أى هجوم يجب أن يكون مخططا ومنظما وتسير حركته كجريان النهر.. وانتهى حوارنا وقد تكونت لديه فكرة عن أننى قائد شجاع وجرىء ولكننى الى حد ما متهور، أما أنا فقد تكونت لدى فكرة عنه.. رجل عاقل وسياسى بارع ويبنى نظرياته عن العرب والحرب بعيدا عن الواقع والخبرة، فهو يعرف الكثير عن العرب ولكنه فى نفس الوقت لا يعرفهم.

وعدت الى القاعدة ومعى ٦ سيارات نصف مجنزرة التى وعدت بها، وبذا أصبحت قوة الفرقة تتضمن ١٢ سيارة جيب و ٨ سيارات نصف مجنزرة وأربع سيارات سكوت وسيارتين مصفحتين والنمر المرعب وخمس مجموعات من الرجال، وقسمت الجماعات الى جماعة سيارات الجيب وتشمل ٢٥ رجلا قسموا الى ثلاث فصائل، مع كل فصيلة ٣ سيارات جيب مسلحة بمدافع ماكينة وجماعتين مزودتين ببنادق أوتوماتيكية الاولى تضم ٣٢ رجلا والثانية ٢٥ رجلا وجماعة مساعدة من سيارات سكوت.. وأخيرا مجموعة القيادة التى تشمل جماعة الاستطلاع وتضم سيارتين جيب ووحدة المعلومات ونصف

سيارة جيب، ومجموعة السيارات المصفحة، وكان مجموع رجال القوة ١٣٠ رجلا وكان فخر المجموعة كلها النمر الرهيب وفى يوم ١٥ (تموز) تحركنا الى طريق النقب، وهناك أنشأنا قاعدة جديدة لنا فى أحد حقول البرتقال، حيث بدأنا فى تنظيم أنفسنا.. ولم أكن أعرف الكثير عن منطقة النقب بالرغم من أننى قمت فيها بعدة رحلات، وكانت دائما تبدو لى غريبة بعرائها، فهى خالية من الحدائق والمزارع ولا توجد فيها مياه بل أن رمال صحرائها لم تكن ناعمة ككل رمال الصحارى.

وفى المساء تلقيت أمر العمليات من لواء جيفاتى الذى سيعمل معنا، وكان الأمر بالتحرك لاحتلال قاعدتى حيفا وبيت عفا واختراق الخط للوصول الى كاراتى،ا وكان علينا أن نستولى على كاراتيا مساء يوم ١٧ يوليو وعقدنا اجتماعا فى مقر قيادة عمليات اللواء وقلت إن التحرك ليلا سيكون صعبا للغاية بالنسبة لسياراتنا واقترحت أن يتم الهجوم نهارا ولكن اقتراحى رفض، اذ أن المجموعات الأخرى التى ستشاركنا القتال كانت تفضل القتال ليلا وفى ١٥ يوليو (تموز) أرسلنا خلال الليل فصيلة استطلاع لتكشف الطريق الى كاراتيا، وعندما وصلت الى قرب الفالوجا تعرضت لنيران ثقيلة، مما دفعها الى العودة مرة أخرى بدون تحقيق هدفها وكان علينا أن نجهز للعملية وكان سوء الحظ فى الاستطلاع هو نصيبنا فقد نكون محظوظين فى العملية نفسها.

وحددت ساعة الصفر وكانت العاشرة من مساء يوم ١٧ يوليو (تموز) وكنت أعرف مقدما خطورة اختراق خطوط المصريين ولذا وضعت خطتى على أساس أن تتقدم السيارات بأقصى سرعتها على طريق المجدل الفالوجا.

وتطلق النيران خلال تقدمها وتدور حول الفالوجا فى الطرف العربى متجهة الى كاراتيا، وأصدرت تعليماتى الى الرجال فى السيارات بأن يحنوا رؤوسهم طوال الطريق. وقد فضل قادة لواء جيفاتى البقاء فى القاعدة وادارة العمليات منها، بينما كنت أنا أقود العملية بنفسى وناقشونى فى هذا

الامر ولكننى قلت إننى أفضل أن أقود رجالى بنفسى، وكنت أتعجب أحيانا كيف يمكن للقائد أن يدير المعركة من مكتبه ويعطى الاوامر ـ وهو آمن ـ لجنوده باكتساح العدو. وفى ساعة الصفر تحركنا، وفى البداية أصيبت سيارة نصف مجنزرة بلغم فى الممر ونزل طاقمها وركب سيارات أخرى. وكانت التعليمات تقضى بعدم التوقف لأى سبب من الأسباب وبإخلاء أى سيارة تصاب لكى لا يتعطل الطابور. وتقدم الطابور نحو الفالوجا وفى المقدمة سيارتا الاستطلاع يتعقبهما النمر ثم مجموعة المدافع الاوتوماتيكية ثم مجموعة سيارات الجيب ومجموعة المعاونة وقد ركبت السيارة الثانية فى مجموعة المدافع الاوتوماتيكية وكان القمر كاملا، لكنه حتى لو كان الظلام دامسا فإن اكتشافنا كان بسبب صوت السيارات وخاصة النصف مجنزرة وعندما وصلت مقدمة الطابور بالقرب من حافة الفالوجا الساعة العاشرة والنصف فتحت علينا نيران المورتار ومدافع الماكينة، واستمررنا فى التقدم بدون رد الى أن وصلنا الى مسافة ١٥٠ ياردة من العدو، وهنا أصدرت الأوامر بأن تفتح كل الاسلحة نيرانها.

ووصلنا الى أصعب النقاط على طريق المجدل الفالوجا حيث ووجهنا بمدافع المصريين الثقيلة من المورتار ومدافع الماكينة وعندما حاول قائد مدفع النمر أن يخرج برأسه ليواجه نيرانه مات فى الحال وجرح ستة رجال عندما انفجرت سيارتهم النصف مجنزرة ولكننا استطعنا اختراق الطريق المرير وتوغلنا فى الحقول للالتفاف والتوجه الى هدفنا مباشرة ولكن نيران الاعداء ما زالت توجه فوق رؤوسنا ولكننا كنا قد ابتعدنا كثيرا عن الخط ووصلنا الى الوادى المحدد على الخريطة على أساس أن به طريقا صالحا للسيارات ولكن الخريطة كانت خاطئة ولم يكن هناك أى طريق يصلح للسيارات.

وكان الوادى صعبا وحتى تستطيع السيارات الخروج منه فيجب عليها أن تتسلق حافته وكنا نستطيع العودة ولكن ذلك يعنى التخلى عن مهمتنا.. دخلنا

الطريق وتأخرنا ونال التعب من رجالى وسألنى قادة الجماعات ماذا نعمل فإن كنا سنعود، فيجب أن يتم ذلك فورا، لأن المصريين ما زالوا يطلقون علينا وابلا من النيران وشعرت بالضياع وكانت الاوامر قبل أن نصل الى الوادى تقول: اخترق وتحرك وتحرك وأطلق النيران كما كانت تقضى بعدم التوقف اطلاقا وها نحن الآن فى مصيدة لا نستطيع الخروج منها وأخيرا قررت أن الطريق الوحيد للخروج من المأزق هو أن نمهد طريقا بأيدينا وأمرت رجالى بأن يمهدوا بأيديهم طريقا للخروج من الوادى فى الناحية الغربية، وكان عملاً هرقليا تحت وابل من نيران المورتار ولكن لم يكن أمامنا حل سواه.

وكلفت عاموس ابراموسن بأن يتولى عملية الاشراف على حفر الطريق والحراسة والتزام بقية الرجال الهدوء وتحركت أنا الى الجانب الآخر من الوادى ولففت رأسى فى كوفية عربية ونمت وعندما استيقظت بعد ساعة كنا لا نزال نتعرض لنيران المصريين وكنت أشعر بالنشاط بعد أن نلت قسطا من الراحة ولاننى تركت مهمة الاشراف على اعداد الطريق للرجل المناسب، ولأننى لم أصدر قرارا سريعا فى الوقت الذى كنت أشعر فيه بتعب. والآن شعرت بنشاط موفور وبقدرة على اتخاذ قرار بأن نستمر فى الحفر لمدة نصف ساعة أخرى لاعداد الممر، وقررت أن أنقل رجال السيارات التى لا تستطيع المرور الى السيارات الأخرى وفجأة جذبنى شخص قائلا هل ما زلت على ذلك الجانب؟ لقد انتهى اعداد الممر.

وفى الساعة الرابعة صباحا تحركنا نحو كاراتيا بسيارتى الاستطلاع فى المقدمة تليهما النمر ثم خمس سيارات نصف مجنزرة تحمل كل الرجال وخلفنا رجال المشاة من لواء جيفاتى ووصلنا الى الطريق المؤدى الى كاراتيا وعندما وصلنا الى مسافة ٢٠٠ ياردة من القرية انتشرت السيارات النصف مجنزرة يمينا وشمالا وبدأت فى اطلاق النار وكان العدو ضعيفا فى عدة طلعات وتقدم النمر لحماية الهجوم وتقدمت مجموعة الجيب الى كاراتيا ثم

دخلت السيارات نصف المجنزرة الى القرية بدون أى خسائر.

وفجأة وجدنا أنفسنا تحت نيران المدفعية الثقيلة للمصريين وبدأ رجالنا يركبون سياراتهم وذهب رجال الاستطلاع لاكتشاف طريق للخروج من هذا الجحيم.. لمحاولة الوصول الى هاتا وكانت احدى كتيبتى لواء جيفاتى قد احتلت طريق الفالوجا المجدل فى المساء وهاتا ولكن الكتيبة الثانية فشلت فى احتلال بيت عافا وتكبدت خسائر كبيرة فى هجومها ولكننا استطعنا تطهير كاراتيا واحتلالها رغم نيران المدفعية المصرية الثقيلة الآتية من بعيد وأصبحت الآن هاتا وكاراتيا تحت أيدينا وفتحنا الطريق بين النقب وشمال البلاد وكانت السادسة صباحا عندما غادرنا كاراتيا فى طريقنا الى قاعدتنا عن طريق هاتا بدون خسائر وبعد عدة ساعات زرت الجرحى من رجالى فى المستشفى وكان من بينهم أربك نهمكين، وميشا بن بارك، وعلى عينى كل منهما ضمادات وارتسم البؤس على وجهيهما وتذكرت حالتى عندما فقدت عينى، وقلت لهما تكفى عين واحدة لرؤية كل الاشياء السيئة فى هذا العالم.

وكانت تلك هى آخر صلتى بالفرقة ٨٩.

■ ■ ■

٩ـ صديقى العدو

بعد خمسة أيام من عملية النقب فى ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٤٨ عينت قائدا للقدس وحاولت مجموعة شتيرن فى الفرقة ٨٩ عرقلة هذا التعيين غير أن جهودهم ذهبت هباء وقد قابل أعضاء هذه المجموعة رئيس الوزراء بن جوريون، وحاولوا اقناعه بأهمية وجودى على رأس الفرقة ٨٩، وهددوه بأن تتبعنى الفرقة كلها الى القدس. واستمع لهم بن جوريون ثم سألهم كيف استطعت كسب ثقة كل الرجال وخاصة المنشقين من مجموعة شتيرن، فأجابوه دون تردد بأن السبب هو أننى كنت أقود بنفسى كل رجالى فى كل المعارك، وفى النهاية أخبرهم بن جوريون أن القدس تحتاج لقائد مقاتل ممتاز وأن القدس تحتل الأولوية على غيرها من الأمكنة.

وعندما قال بن جوريون ذلك، فلابد أن أفكاره كانت تشتمل على احتمال أن القتال يمكن أن يتجدد فى القدس، على الرغم من مرور شهرين على الغزو العربى، وشهدوا على توقيع اتفاقيتى القدس التى أبرم أولاهما سلفى الكولونيل دافيد شالتيل، والتى تنص على وضع جبل المكبر تحت اشراف الامم المتحدة، والثانية التى وقعها عن الجانب الاردنى المقدم عبد الله التل قائد قوات الجيش الاردنى بالقدس والتى تقرر بمقتضاها وقف اطلاق النار، وتم تثبيت الوضع القائم فى الارض المنزوعة السلاح بين خطوط الجانبين.

وخلال الشهور الخمسة التالية حتى نهاية الحرب فى ٧ يناير (كانون الثانى ١٩٤٩) لم نشترك سوى فى عمليتى قتال محدودتين ولم تنجح العمليتان. وكان السبب الاساسى وراء هذا الفشل أن الرجال الذين حاربوا كانوا من المهاجرين الجدد الذين لا يعرفون شيئاً عن طبيعة البلد ولغتها

وتضاريسها وجوها، بالإضافة الى أنهم كانوا غير مدربين على القتال، وعندما استلمت قيادتى للقدس بالتفتيش على كل النقاط، وكانت حالة لواء عصبيون سيئة جداً ولكننى عملت على سد كل هذه الثغرات بنفسى، وحاولت رفع المعنويات من خلال أحاديثى مع الضباط والجنود، ومنحهم الثقة من خلال سلوكى الشخصى خلال جولاتى التفتيشية وأمرت بإعداد برنامج للتدريب وتحسين الأسلحة وقمت بإحضار ضباط جدد وبهذا ارتفع مستوى اللواء مرة اخرى ولكن القتال لم يتجدد فى القدس وظل خط التقسيم بين اسرائيل والأردن هادئاً ولكن طريقنا الى (رامات راشيل) كان واقعاً فى مرمى نيران العرب، ولم يكن لدينا سوى طريق صغير الى الشاطئ، وأصبحت القدس بالفعل بؤرة المشاكل.

ولقد جئت الى القدس فى عملية تعيين عسكرية ولا شك أن ذلك الترشيح تم بناء على مؤهلاتى القتالية لكننى تحولت الى السياسة، حيث كان محصورا فى إجراء المفاوضات حول الترتيبات المحلية مع قادة القدس العربية وعقدت الاتفاقيات ولم أكن فى بداية الأمر أولى اهتماما شديداً بالمفاوضات مع العرب وكنت أخطط لقرارات عسكرية وأتوقعها، وكما كنت أرى أن حل المشاكل لن يأتى إلا من خلال الخنادق والرصاص والهجوم، ولكن عندما توصل وقف اطلاق النار الى انهاء القتال نفسه انتقلت المعركة الى مائدة مجلس الأمن وسرعان ما وجدت نفسى مندمجاً فيها.

وجعلنى هذا العمل السياسى على اتصال مباشر مع رئيس الوزراء بن جوريون ومع الزعماء السياسيين الآخرين لكننى أصبحت أرى الآن بصورة مباشرة كيف يتفوق بن جوريون على كافة القادة فى مجال السياسة، وقد تأثرت جداً بحكمته السياسية.

وكنت عندما نقلت الى قيادة القدس قد اصطحب عائلتى معى، وكنا نسكن فى منزل واسع يقع فى مواجهة الجانب ألردنى ويتعرض للرصاص

الذى يطلقه الأردنيون بين الحين والحين، وكنا عندئذ نضطر الى الانتقال الى الجانب الغربى من المنزل والى الملاجئ لتجنب الرصاص والشظايا، ومع هدوء الأحوال فى المدينة، وتوقف أعمال القناصة، كان المستأجرون الجدد ينزحون الى المدينة فجاء اليها اليعازر كايلام وزير المالية وغيره، وكنت على اتصال دائم برجال الصحافة، الذين كانوا يستقون أخبارهم من اتصالاتى واجتماعاتى مع الجنرال ويليام رايلى كبير مراقبى الأمم المتحدة، وأعضاء لجنة الهدنة التى كانت تضم جين نوينهايس من بلجيكا ورينيه نوفيل من فرنسا ووليام بارديت من الولايات المتحدة، وتلقف الصحفيون الأخبار عندما اجتمعت مع العقيد عبد الله التل قائد القدس العربية.

وعملت زوجتى روث فى الوكالة اليهودية فى تنمية الحرف والصناعات اليدوية بين المهاجرين وكانت تمضى معظم وقتها فى زيارات لهذه العائلات لتشجيعها على العمل وتسوق انتاجها.. أما احتياجات المنزل فكانت تقوم بها سميحا، وهى ارملة فى الخمسين من عمرها، أحبها أطفالى وتعلقوا بها وقد سبب لى الأطفال كثيراً من المتاعب فى القدس وخاصة مع الجيران ولم تكن الحياة فى القدس مختلفة عن الحياة فى ناحلال، بالنسبة للأطفال فحسب، وانما بالنسبة لى أيضاً حيث غرقت فى اجتماعات ومناقشات ومحادثات لا نهاية لها، بالإضافة الى الحفلات الكثيرة والمأكولات الدسمة... كانت حياة اجتماعية تختلف عما تعودناه فى ناحلال، أما من حيث عملى فقد كنت أفضل دائماً ألا أبقى فى مكتبى وأن أخرج فى زيارات تفقدية لكل مواقعنا على السور... صحيح أن وقف اطلاق النار كان ساريا لكننى كنت أحب أن أطمئن بنفسى على هذه المواقع وكثيراً ما كنت اخرج من هذه الجولات مباشرة الى اجتماعات رسمية، وغير مبال بأن تكون ملابسى أو حذائى متسخاً.

بعد اسبوعين من تسليمى قيادة القدس، وفى يوم ١٠ اغسطس (أب) وصل الكونتفولك برنادوت مبعوث الأمم المتحدة فى زيارته الثانية وكان من

الواضح أنه قد قرر حل المشكلة الفلسطينية بنفسه وقد وضع خطة تتعارض مع قرار التقسيم الذى أصدرته الامم المتحدة فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ واقترح ـ من بين بنود هذه الخطة تسليم القدس الى العرب، الأمر الذى كان لابد له أن يؤدى الى اطالة أمد القتال لا الى اقرار السلام.

وتقابل برنادوت مع الدكتور دوف يوسف الذى كان يرأس لجنة انقاذ القدس خلال الحصار، وأصبح الان ممثلا للحكومة ومسئولا عن ادارة القدس، وكان مع دوف يوسف فى الاجتماع اسحاق بن زيفى، الذى أصبح فيما بعد ثانى رئيس لدولة اسرائيل ودانيل استور أول عمدة للقدس، وعقد الاجتماع فى القنصلية البلجيكية.. وعندما وصل برنادوت الى المبنى استقبلته مجموعة من الشباب تحمل لافتات كتب عليها استكهولم بلدك والقدس مدينتنا، وتحت هذه العبارة توقيع (المحاربون من اجل حرية اسرائيل) وهى الاسم الكامل لمجموعة شتيرون. ولم أعلم بما حدث الا عندما اتصل بى دوف يوسف تليفوناً وطلب منى تفريق المتظاهرين وتوجهت الى هناك على الفور وطلبت من المتظاهرين الانصراف فانصرفوا فوراً بدون أى مناقشات.

وبعد شهر أى فى ١٧ سبتمبر (أيلول) عاد برنادوت الى القدس مرة أخرى وقبل أن يلتقى مع دوف يوسف توجه الى مقر الحكومة الذى سلمته السلطات البريطانية الى الصليب الأحمر على اعتبار أنه قد يصلح مقراً لقيادة هيئة الرقابة الدولية ثم انتقل بعد ذلك الى دوف يوسف فى قافلة تضم ثلاث سيارات تابعة للأمم المتحدة وفجأة فى منتصف الطريق اعترضت القافلة سيارة جيب قفز منها ثلاثة رجال يرتدون الملابس العسكرية وهاجموا برنادوت وأطلقوا النار عليه وعلى رئيس أركان حربه الكولونيل اندريه ببير سيروف الذى كان يجلس الى جواره وعلم فيما بعد ان سيارة الجيب المستعملة تابعة للأمم المتحدة وكانت قد سرقت من قبل.

وأعلن تنظيم يدعى (جبهة الوطن) مسئوليته عن هذه العملية وكانت

الشكوك قد اتجهت الى منظمة شتيرن، غير أن قادتها أنكروا، وسرعان ما تصاعدت آثار هذا الحادث، وقررت الحكومة حل هذه المنظمة وفى اليوم التالى قامت قوات الجيش بمحاصرة معسكر شتيرن فى القدس وسلم الأربعون رجلا الذين كانوا هناك أسلحتهم بدون مقاومة.

كانت شتيرن حتى ذلك الحين تعمل فى القدس بشكل صريح وتحظى باستقلال تام وتعين علينا ان نضع حدا لهذا الوضع الشاذ الذى لم يكن موجوداً الا فى القدس، حيث توجد منظمة شبه عسكرية ترفض الخضوع لسلطة الحكومة، أما منظمة الأرجون فأعلنت رغبتها فى الانضمام الى القوات المسلحة للبلاد وبدأت التكهنات عما ستفعله الشتيرون ازاء القرار بحلها، لكنها فى النهاية سلمت أسلحتها الى الوحدات الاسرائيلية.

لم تكن العواقب السياسية لمقتل برنادوت واضحة أمامى، فقد كان مجالها بعيداً عنى، ولم أكن مهتما بالشئون السياسية بالقدر الذى قمت به بالفعل بعد عدة أسابيع، كان أهم ما فى الموقف اننى أصبحت القائد الوحيد لكل القدس.

وسرعان ما انغمست فى الشئون السياسية التى بدأت بالمفاوضات التى كنت أجريها مع القادة الأردنيين للقدس، ثم تلتها المفاوضات مع الدول العربية فى رودس، ثم اشرافى على تنفيذ اتفاقيات الهدنة التى عقدت مع الدول العربية الاربع التى اشتركت فى حرب ١٩٤٨ وهى مصر والاردن وسوريا ولبنان.

وأسفر وقف اطلاق النار عن تقسيم مدينة القدس الى نصفين، النصف الغربى وقد سيطرت عليه اسرائيل، والنصف الشرقى وقد سيطرت عليه الاردن، بما فى ذلك القدس القديمة والحائط الغربى ـ اقدس الأماكن المقدسة لدى اليهود ـ والحى اليهوى.

ونظراً لوقوع منطقة اللطرون تحت السيطرة الاردنية، فقد اضطرت اسرائيل الى شق طريق يزيد طوله على الستة أميال لربط القدس بتل أبيب.

وفى ٣٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٩ وقعت نيابة عن اسرائيل اتفاقية (لوقف مخلص لإطلاق النار)، ووقعها عبد الله التل باسم الاردن (وكل القوات العربية الاخرى فى منطقة القدس) والحقت بالاتفاقية خريطة تبين مواقع اطلاق النار والمنطقة المحرمة بين الجانبين. وسمحت الاتفاقية بعبور قافلة اسرائيلية الى جبل المكبر كل اسبوعين حاملة المؤن والافراد الجدد.

وقد أتاحت لى المفاوضات مع العرب فرصة طيبة لكى أعرف الطرف المقابل لى معرفة جيدة، وقد اعجبت بالجنرال عبد الله التل وبشخصيته القوية وعيونه النفاذة، وازداد اعجابى به عن غيره من الضباط والسياسيين العرب الذين كنت قد التقيت بهم حتى ذلك الحين.

أما فى اجتماعات لجنة مراقبة الهدنة، فقد كان الكولونيل الامريكى كارلسون - باقحامه نفسه فى المناقشات واثارته للعقبات - مدعاة لنفاد صبرى. وحدث فى أعد الأجتماعات التى اشترك فيها كارلسون، أن اضطررت الى طلب عقد اجتماع منفرد مع عبد الله التل فى غرفة مجاورة.

ولم يمض وقت طويل حتى كنا قد سوينا ما بيننا من مشاكل بل واتفقنا على مد خط تليفونى يربط فيما بيننا دون ما حاجة الى الاتصال بالامم المتحدة، ولم يثر هذا الاتفاق دهشة الحاضرين فحسب، وإنما أدهش أيضاً الجنرال رايلى رئيس هيئة الرقابة، الذى وان كان تاريخه العسكرى فى البحرية معروفاً، الا أن دراسته بالشرق الاوسط كانت ضئيلة.

وقد كان هذا الخط التليفونى - حتى الان - هو الخط الساخن الوحيد فى الشرق الأوسط. وقد أثبت هذا الخط فائدته فى ترتيب اللقاءات بينى وبين الملك عبد الله فيما بعد فى قصره الشتوى فى الشونة، ولو أننا اعتمدنا

على الأمم المتحدة فى مثل هذه الأمور لكنا قد فشلنا بالقطع، وقد بذل التل جهوداً رائعة فى ترتيب لقاءاتنا مع الملك عبد الله أو فى اطلاق سراح الاسرى، وكانت مخاطرته الشخصية كبيرة عندما كان يصطحبنا فى سيارته عبر نقاط الحدود العربية، وكان وجهه يكتسى بياضا كلما نظر أحد الجنود من داخل نافذة السيارة خوفا من أن ينكشف أمرنا.

كذلك فقد ساعدنى التل على الافراج عن أسرانا فى الحرب بعد أن حصل على موافقة الملك عبد الله على ذلك، وفى يونيو (حزيران)١٩٤٩ قدم التل استقالته من الجيش بعد أن اختلف مع الملك حول بقاء الانجليز فى الاردن، وسافر الى دمشق ثم القاهرة حيث اشترك فى العمليات ضد البريطانيين فى القناة، وحدث أن جاءنى أحد الامريكيين باقتراح ترتيب لقاء معه... لكن هذا اللقاء لم يتم.

■ ■ ■

١٠ـ محادثات مع ملك عربى

عقب توقيع (اتفاقية وقف اطلاق النار المخلص) مباشرة، أبلغنى عبد الله التل أن الملك قد خوله صلاحية بحث كل الأمور المتعلقة بالقدس والمناطق المحيطة بها، وكانت اقتراحات التل مبنية على أساس أمرين هما: تبادل الأراضى وقيام سيطرة مشتركة... ولابد أن تلك كانت هى أيضاً نفس أفكار الملك. وكان بن جوريون يريد قيام سلام رسمى ودائم ونهائى، ومع أنه كان على استعداد لتبادل الأراضى الى حد معين، فانه لم يكن يرى امكانية قيام سيطرة مشتركة.

وفى ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٨ اقترح التل إعادة الحى اليهودى مقابل اعادة حى القطمون، وفتح طريق اللطرون، لكن بن جوريون رفض الاقتراحين. وفى ٥ ديسمبر (كانون الأول) جاءنى التل باقتراحين باسم الملك. اولهما تخلى الأردن عن جزء من منطقة اللطرون تسيطر عليها فئة بوليس عربية- يهودية، فى مقابل اعادة بعض اللاجئين العرب الى اللد والرملة، أما الاقتراح الثانى فكان الاستجابة لما سبق أن اقترحته مخصوص اعادة فتح خط السكة الحديد بين القدس وتل أبيب فى مقابل استخدام الأردن لطريق القدس - بيت لحم، وكان بن جوريون يعارض أساساً فى الترتيبات الجزئية. وطلب منى ابلاغ الملك - عن طريق التل - بأننا لا يمكن أن نستمر فى المحادثات مع وجود الهدنة وأننا على استعداد بل نحبذ بشدة إجراء مفاوضات لايجاد الظروف الحقيقية لقيام السلام.

وفى لقاء يوم ١٨ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٨ مع رئيس الوزراء بن جوريون. قال إن مستقبلنا هو السلام مع أصدقائنا العرب، وإن الهجرة تتطلب السلام،

وإنه يحبذ إجراء محادثات مع الملك عبد الله.

وبعد مرور أسبوع أبلغنى عبد الله التل أن الملك قد خوله الاشتراك معنا فى وضع مشروع خطة السلام، وسوف يكون برفقته طبيب الملك الخاص، حتى اذا ما انتهينا من العمل عرضه الملك على حكومته لاقراره.

وتقرر أن تنعقد اجتماعاتنا فى مبنى يقع فى الأرض المنزوعة السلاح، فاذا ما أحرزت الاجتماعات تقدماً عقدناها مرة فى مبنى أردنى ومرة فى مبنى اسرائيلى، وطلب الينا التل الحضور بالملابس المدنية ومعنا الخرائط والوثائق اللازمة.

وقرر بن جوريون أن يتشكل وفد اسرائيل من (ريوفين شيلواه) من وزارة الخارجية بالإضافة الىَّ. واعطانا عدداً من التوجهات منها ألا نتوقف عن المحادثات لكى نحتفظ بالهدنة على الجبهة الأردنية، اذ كانت الهدنة مع مصر قد خرقت، وألا نعطى أى تعهدات أو التزامات وخاصة فيما يتعلق بضم الأردن للضفة الغربية، وأن نذكر إمكانية منح الأردن ممرا الى غزة عبر الاراضى الاسرائيلية.

وانعقد الاجتماع الأول يوم ٥ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٩، فى أحد المبانى عند بوابة مندلبوم، وتبادلنا اوراق الاعتماد.... فكانت أوراقنا مكتوبة باللغات العبرية والإنجليزية والعربية بتوقيع بن جوريون رئيس الوزراء وموشى شاريت وزير الخارجية، أما أوراق اعتماد الجانب الأردنى فكانت عبارة عن رسالة بخط يد الملك عبد الله. وبدا واضحاً منذ البداية، بعد أن عرض التل اقتراحاته، أن الهوة واسعة تفصل ما بين مفهوم كل منا للتسوية. ونقلنا ما حدث الى بن جوريون مبينين انه لا جدوى من الاستمرار فى المحادثات، لكنه أشار علينا بالمضى فيها لنثبت استعدادنا لبحث امكانية السلام بشكل جدى.

واتفقت مع التل على أن نعقد الاجتماع الثانى يوم ١٤ يناير (كانون

الثانى) وقبل حلول موعد الاجتماع بيوم واحد أبلغنى التل أن الملك يدعونا الى قصره فى الشونة ليظهر لنا شخصياً رغبته فى إحلال السلام.

وتلقيت موافقة بن جوريون على ذلك، وعقدنا اجتماعين مع الملك عبد الله أولهما يوم ١٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٩، والثانى بعده بأسبوعين، ومثلت اسرائيل فى هذين الاجتماعين مع الياهو ساسون من وزارة الخارجية، أما الجانب الأردنى فقد حضر مع الملك فى الاجتماع الأول كل من التل وطبيب الملك، وفى الاجتماع الثانى حضر توفيق أبو الهدلى رئيس الوزراء، وكان التل يصحبنا الى هذه الاجتماعات فى سيارته الخاصة التى يقودها بنفسه.

وفى الوقت الذى كنا نجرى فيه هذه المحادثات، كانت هناك فى رودس محادثات اخرى تحت اشراف وسيط الامم المتحدة رالف يانسس لعقد اتفاقيات هدنة مع الدول العربية، وها نحن قد استطعنا بعد ثمانية أشهر من الحرب ان نعيد قوات الدول العربية الى أقرب حدودها. وانتهت المحادثات بتوقيع اتفاقيات الهدنة مع مصر فى ٢٤ فبراير (شباط) ومع لبنان فى ٢٣ مارس (آذار) ومع الأردن فى ٣ ابريل (نيسان) وأخيراً مع سوريا فى ٢٠ يوليو (تموز).

وأعود الى المحادثات مع الملك عبد الله، حيث لم تنته الى نتائج ملموسة تغير من الموقف شيئاً، وكان الملك ينتظر توقيع الأردن لاتفاقية الهدنة لكى يتم بعدها بحث اتفاقية سلام بدون وساطة الامم المتحدة، وأن يجرى ذلك علناً فى القدس بحضور الملك كضيف شرف، بل أن الملك اقترح تشكيل وفد اسرائيل منى ومن شاريت دساسون، وكان الملك حريصاً على الا نعيد غزة الى المصريين، اذ كان الأردن يحتاجها كمنفذ له الى البحر الابيض المتوسط، وكان يقول لنا (خذوها أنتم - اعطوها للشيطان ولكن لا تعطوها لمصر).

كانت اجتماعاتنا تتم فى قصر الشونة الملىء بمظاهر الأبهة، وكانت تبدأ دائماً بتحيات الملك الى قادتنا حاييم وايزمان الرئيس - وبن جوريون وموشى

شاريت، أما جولدا مائير فلم يكن الملك يحبها. ويرجع ذلك الى لقائها معه قبيل الحرب وطلبها اليه عدم دخولها، وازاء هذا التحذير من جانب امرأة فان الملك (بالطبع) اختار أن يدخل الحرب.

وعندما علم أثناء المحادثات انها تعمل فى سفارتنا فى موسكو قال (دعوها هناك - دعوها هناك).

وكان شاريت يتصرف حسب الاصول فى حضرة الملك، لكنه فى أحد الاجتماعات صحح معلومات الملك حول عضوية الصين فى عصبة الامم، وكان وهو يؤكد عدم عضويتها كمدرس فى الحضانة وأمامه تلميذ متخلف عقلياً. وكانت تلك بالطبع هى نهاية هذا الاجتماع، وأثناء عودتنا سألت شاريت عما اذا كانت عضوية الصين تستحق كل هذا الجدال، فرد على قائلا أن الصين بالفعل عضو فى عصبة الآمم.

وكانت هناك دائماً قبل الاجتماع دعوة لتناول الغداء مع الملك يسبقها لعبة شطرنج أو قراءة للأشعار، وعندئذ لم يكن الامر يقتصر على الانهزام فى الشطرنج وإنما على ضرورة ابداء الإعجاب بالتحركات التى يلعبها الملك، او التنهد من الأعماق خلال قراءته للأشعار. وبالرغم من ذلك فإننى لا ابخس الملك عبد الله حقه، اذ كان رجلا حكيماً قادراً على اتخاذ القرارات بنفسه مباشرة.

أما المحادثات الرسمية بعد ذلك، فقد بدأت رودس فى الأول من مارس (آذار) ١٩٤٩ واستمرت أسبوعاً. وكان وفد اسرائيل مكوناً من شيلواه ومنى، وكانت مصر قد وقعت اتفاقية الهدنة معنا، فلم يعد أمامنا الا أن ننسخ نفس الاتفاقية مع ابدال كلمة (مصر) ب (الأردن) فى نصوصها. وجرت المحادثات تحت اشراف رالف بانسن، ورأس الوفد الأردنى العقيد أحمد صدقى الجندى، والواقع أن آخر ما قد يصلح له الوفد الاردنى هو اجراؤهم لهذه المحادثات، فهم لا يقومون بعمل إلا إذا تلقوا الأمر وما يصلح له فعلا هؤلاء العسكريون ليس إلا حفظ النظام فى عمان أو مطاردة اللصوص فى الصحراء.

وأثار إعجابى حسن رئاسة رالف بانسن للاجتماعات، وكان رجلا يحسن الاستماع، ويجيد قيادة الأمور نحو الاتفاق، ويبرع فى صياغة ما قد نتفق عليه من بنود. وكم أصاب عندما قال لى إن المهم الآن هو ان نصل إلى إنهاء القتال، وبعدها فإن حقائق الحياة هى التى ستفرض الاتفاقيات اللازمة.

وعندما استولت اسرائيل على أم الرسراش، وهى ميناء ايلات بادر الملك عبد الله يوم ١٤ مارس (آذار) ١٩٤٩ بالابراق الى شاريت متسائلاً عن صحة ذلك وعن حقيقة تصريحه بأن اسرائيل سوف تحتل أية أراض تنسحب منها القوات العراقية. وفى اليوم التالى بعث والتر ايتان ـ المدير العام لوزارة الخارجية ـ رسالة نيابة عن وزير الخارجية أكد فيها للملك استعداد اسرائيل لاستدعاء العقيد موشى ديان من رودس لاجراء المحادثات اللازمة مع ممثل الملك فى القدس للوصول الى اتفاق حول الاراضى التى تنسحب منها القوات العراقية.

عدت الى القدس والتقيت مع عبد الله التل يوم ١٨ مارس (آذار) حيث بادرته بمطالبنا فى الأراضى التى ستنسحب منها القوات العراقية، وبعد أن بين ان الآردن لا تستطيع الموافقة على ذلك نظراً لثورة الرأى العام الأردنى، انفض اجتماعنا على ان نعود للقاء فى اليوم التالى.

وفى اليوم التالى أبرق الملك عبد الله الى ايتان مقترحا أن يجتمع معه ومعى للاتفاق على هذه النقطة، وتوجهت الى مقابلته بالفعل ومعى النقيب يهوشوفات هاركابى، حيث عرضنا عليه اقتراحاتنا التى وان لم تكن متواضعة فقد كانت عادلة، وقرر الملك عرض الامر على وزارته، ثم امر بتشكيل لجنة وزارية تجتمع معنا لاتخاذ القرار اللازم، تضم فلاح باشا المدادحة وزير العدل والمدير العام لوزارة الخارجية والتل. وبدأ الاجتماع وانفض دون الوصول الى نتيجة بعد أن استبد بالجميع التعب، وكان وفدنا مكونا من ايتان ويجال يادين ـ رئيس العمليات ـ وهاركابى وانا.

وفى اليوم التالى عقد الملك اجتماعا، حضره وفدنا بنفس تشكيله، أما

الجانب الأردنى فقد ضم نائب رئيس الوزراء ووزيرى العدل والتربية والمدير العام لوزارة الخارجية، واستمر الاجتماع حتى الثالثة صباحاً حين توقيع الخرائط، وعندما كان الملك خلال الاجتماع يذكرنا دائماً بالتضحيات التى يقوم بها، خرجت عن مشاعرى وقلت له إن كل عضو فى وفدنا هذا فقد أخا له فى هذه الحرب. وفى نهاية الاجتماع قدم ايتان الى الملك توراة مجلدة بالفضة هدية من بن جوريون، واعطانا الملك هدايا، وكان نصيبى مسدساً.

وقال لنا وهو يودعنا (الليلة أنهينا الحرب وأرسينا السلام).

وبعد ذلك بساعات عدت الى رودس، وفى يوم ٣ ابريل (نيسان) تم توقيع اتفاقية الهدنة مع الأردن، وعدنا بالاتفاقية والخريطة الملحقة بها موقّعة من قبل الجنرال جلوب باشا عن الأردن، وممهورة عن اسرائيل بتوقيعى.

وقد التقيت بالملك عبد الله بعد ذلك عدة مرات، ولم تكن الرحلة الى عمان سهلة مثل الرحلة الى الشونة، اذ كان يتعين على بعد أن أنهى الاجتماع فى عمان أن أبقى فيها الى أن يحل الليل ثانية فأعود الى القدس. وأبلغ احد المراسلين الاجانب بن جوريون ان الملك عبد الله مستعد للتوصل الى السلام، فبحث هذا الموضوع فى أحد اجتماعنا مع الملك - أنا وشيلوب - يوم ١٧ ديسمبر ١٩٤٩. وطرحنا عليه (معاهدة سلام) لكن الملك غيَّر الاسم الى (ورقة سلام)، ثم عاد فى اجتماع آخر فطلب الينا اعتبار هذه الورقة كأن لم تكن، ما دامت الدول العربية الأخرى، وبالذات مصر، لم تفعل نفس الشىء، ولست أدرى ما اذا كانت الحكومة الإسرائيلية قد صدَّقت على هذه الورقة، لكننى أعلم أن بن جوريون لم يرفضها وإنما اكتفى بحك أنفه وهو يقرؤها.

وبدأ تنفيذ اتفاقية الهدنة يوم أول مايو (آيار) ١٩٤٩. عندما توجهت مجموعة القوات الإسرائيلية والأردنية الى المواقع لوضع الأسلاك الشائكة وتحديد خط الفصل بين الجانبين، ونشأت مشكلة تمثلت فى قرية بيت صفافا التى تحتم أن يمر السلك الشائك فى منتصفها ويفصل بيوتها وأهلها

إلى قسمين أحدهما فى إسرائيل والآخر فى الأردن.

وهب الأهالى وأطلقت النيران وقتل أحد جنودنا، وفى اليوم التالى وإزاء إصرارنا وتصميمنا تم مد السلك، وأصبح خط سكة حديد تل أبيب بأكمله فى قبضة إسرائيل.

وفى الوقت الذى غمر فيه الفرح بن جوريون، انتفضت الأردن فى غضبة مائجة واستقالت الوزارة، وعين الملك وزارة جديدة ضم اليها ثلاثة من الفلسطينيين فى محاولة لاحتواء غضبتهم، ولقد كان بوسع الملك ان يفيد الأردن والشرق الأوسط، لولا أنه اغتيل على يد عربى فلسطينى يوم ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٥١ أثناء خروجه من المسجد الأقصى عقب صلاة الجمعة.

وبقيت طوال عملى فى القدس، وإلى أن عينت قائداً للجبهة الجنوبية فى ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٩، اعالج أمور اتفاقيات الهدنة.

وتم تشكيل لجان هدنة مشتركة، وفى ٩ يونيو (حزيران) ١٩٤٩ صدر قرار بتعيينى رئيساً لكل اللجان المشتركة للهدنة مع الأردن ومصر وسوريا ولبنان، ويمكننى القول إن الاتفاقيات قد وضعت موضع التنفيذ، وان كانت قد فشلت فى ان تكون منطلقاً نحو السلام الدائم نظراً لرفض الدول العربية الاستمرار فى المحادثات مع اسرائيل.

وكان هناك أمران نشأ حولهما الخلاف فى هذه الاتفاقيات، اولهما يتعلق بحق اسرائيل فى الوصول الى الأماكن المقدسة والجبل المكبر، والثانى يتعلق بتعريف المناطق منزوعة السلاح على الحدود السورية، ولم أكن مهتماً بالمناطق منزوعة السلاح على الناحية السورية، قدر اهتمامى بالقدس حيث كان التفسير الاسرائيلى لهذه المادة الحق فى الوصول الى الأماكن المقدسة وخاصة الحائط الغربى، (حائط المبكى).

وكانت اتفاقية الهدنة قد دعت الى تشكيل لجنة خاصة لوضع الترتيبات

اللازمة لذلك، لكن الأردنيين أداروا ظهورهم لهذه الفقرة، وظلت القدس القديمة موصدة فى وجه اليهود.

وحاولت، بدون جدوى، اقناع بن جوريون والآخرين بأن الحل هو استخدام الجيش لفتح الطرق وتنفيذ الاتفاقية، مؤمنا بأن عدم اصرارنا على تنفيذ بنودها يعد استسلاما أمام العرب. وسألنى بن جوريون عن احتمال أن يؤدى هذا العمل العسكرى الى تجدد الحرب، فأجبته بأننى لا أعتقد ذلك اذ سيبقى الأمر اشتباكاً عسكرياً لا يفجر الأعمال الحربية، بل أن اصرارنا قد يؤدى الى اجبار الاردنيين على التنفيذ.

وكنا فى تلك الأثناء نقوم بعملية انقاذ هائلة يتم خلالها تجميع اليهود اليمنيين فى عدن ثم نقلهم الى اسرائيل بالطائرات بمعدل الف يهودى كل يوم، وبلغ عددهم عشرات من الآلاف، وكان اليهود اليمنيون جزءا فقط من عملية تجميع اليهود من كل أنحاء العالم، وبوجه خاص أولئك الذين وقعوا ضحايا معسكرات التعذيب النازية، وتطلب الامر جهوداً شاقة من اجل إطعام هؤلاء المهاجرين وايوائهم ثم اسكانهم وانشاء المستعمرات الجديدة وخاصة فى الصحراء، كانت تلك هى الأولويات، خاصة وان أرض اسرائيل - كما قال بن جوريون - لن تظل فى ايدينا اذا اعتمدنا فقط على الحرب وقوة السلاح.

كان كتاب الحرب، فى عقل بن جوريون، قد أغلق، ولو فى الوقت الحاضر، وأصبحت عيونه معلقة الآن بتحقيق الحلم الصهيونى، الذى كانت الهجرة هى جوهره، وعودة اليهود المنفيين، وإحياء الأرض.

■ ■ ■

١١ ـ عالم جديد

بعد ذلك بشهر واحد، فى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٩، رقيت الى رتبة جنرال وعينت قائداً عاماً للقيادة الجنوبية التى كانت تمتد حتى ايلات، وكان سلفى فى القيادة ضابطاً من قوات البالماخ، قوات الهاجاناه الضارية قبيل قيام الدولة، هو يجال ألون، وكان مع ضباط القيادة من رجال البالماخ الذين اغضبهم تعيينى فى هذا المنصب أثناء وجود ألون فى رحلة فى الخارج.

كانت مهام القائد جديدة بالنسبة لى، تماما مثلما كانت الأرض التى سأعمل فيها، وعلى الفور شرعت فى استكشاف المنطقة فى رحلة بالسيارة الجيب وصلت فيها حتى ايلات، وعندما رقدت على رمال ايلات بعد أن قذفت بجسدى المتعب فى الماء، احسست بمدى اختلاف هذا العالم الجديد عن العالم الذى اعتدت عليه فى شمال اسرائيل ـ فالعالم هنا صحراوى ـ شاسع الامتداد (جاف) حار.

والتقيت فى الصحراء بمهندسى الجيش وهم يمهدون لانشاء طريق وسط هذه القفار يصل ما بين ايلات وبئر سبع، وقد توصلوا الى خلط الملح مع الارض لكى تستطيع تحمل الطريق الجديد، وفقاً لنفس الخطة التى ذكرتها التوارة. وكانت هناك أيضاً كيبوتزات استطاعت أن تزرع الصحراء، لكننى رأيت أن الجيش يمكنه ان يقدم الكثير من اجل أعمارها.

وقررت عرض الأمر على بن جوريون خلال زيارتى لتل أبيب لإجراء محادثات فى مقر القيادة، واقتحمت عليه خلوته أثناء اعداده إحدى خطبه، وعندما سألته عما اذا كان يريد منى أن اهتم بالتنمية للمدنية للمنطقة اجاب بالإيجاب، وبالفعل تم وضع رئيس سلطة تنمية النقب تحت امرتى،

وفجأة قال لى بن جوريون إن بيفن - وزير خارجية بريطانيا - يريد ضمان تسليم منطقة النقب لمصر لكى ترتبط مصر والأردن بجسر ارضى متين. وعندما حدثته عن اجراءات الأمن التى اتخذتها قاطعنى قائلا: (ان الأمن لا يعنى مواقع عسكرية، وإنما يعنى تأسيس مدن يهودية ومستعمرات زراعية فى النقب، وجعل الصحراء تزدهر).

وهكذا كنت ألجأ الى بن جوريون مباشرة لحل كل المشاكل المدنية فى المنطقة، فقد وجدت مثلا فى قرية المجدل، التى وقعت داخل اسرائيل وكان اهلها يعيشون من العمل فى غزة، وجدت ان الأهالى يريدون العودة الى غزة أو الى مدن اخرى داخل اسرائيل - وحصلت على موافقة المقدم محمود رياض، ممثل مصر فى لجنة الهدنة المشتركة، وكنت قد التقيت به من قبل فى اجتماعات لجان الهدنة المشتركة، ووافق بن جوريون على ذلك شريطة أن يوافق عرب المجدل بأنفسهم على ذلك.

وخلال استعداداتى لاتمام العملية تلقيت تعليمات بالتوقف وانتظار تعليمات اخرى، واتضح أن بنحاس لافون - سكرتير الهستدروت (اتحاد عمال اسرائيل)، والذى خلف بن جوريون فترة قصيرة كوزير للدفاع عندما كنت رئيساً للأركان - قد اقترح أن يتولى الهستدروت تشغيل عمال النسيج فى المجدل فقط، فى حين أن اقتراحى كان مفيدا للقرية كلها، واستدعينا لمقابلة بن جوريون الذى وقف الى جانبى بعد أن سمع اقتراحينا. وأثبت المقدم محمود رياض احترامه للوعد الذى قطعه، اذ وجدته قد اعد لوريات عند نهاية الطريق لتنقل عرب المجدل الى غزة.

وانقضى عام ١٩٥٠ هادئاً فى المنطقة لم يكن لنا فيه من عمل إلا القيام بالدوريات ونصب الكمائن لمنع المتسللين من عبور الحدود، وكانت هناك بعض قبائل البدو التى تثير لنا المتاعب كقبيلة العزازمة التى كانت تصر على التجول بحرية بين أرضينا، أم القبائل الأخرى فقد مددنا لها خدمات طبية

وتعليمية بل وأسلحة للدفاع ضد القبائل المغيرة، وأعترف بأننى كنت أتمتع بالمشاركة فى الدوريات عبر الدروب غير المأهولة فى الصحراء هرباً من العمل فى المكتب، وكنا نتعرض لاطلاق الرصاص علينا من جانب المهربين او بعض العزازمة الذين يريدون تصفية حسابهم معنا، وكنت اصطحب معى فى الصحراء احياناً ابنتى يائيل وهى فى سن الحادية عشرة، وأشاهدها وهى مبهورة بالصحراء الواسعة او بقطعان الغزلان الجامحة.

وحدث خلال احدى الدوريات أن اقتربنا من موقع القسيمة المصرى واكتشف المصريون وجودنا لكننا تمكنا من العودة دون اى حادث، وعلمت القيادة بذلك فبعث الى رئيس أركان حرب الجيش برقية يقول فيها إنه فيما عدا الدوريات والمهام الرسمية فإنه شخصياً يمنعنى من عبور خطوط الهدنة دون اذن مسبق.

وفى أحد الأيام اصطحبت ابنى عساف فى رحلة لصيد الحمام.. وعندما وصلنا الى تل الصافى وجدت بعض الأباريق الفخارية حمراء اللون تتدلى من أحد الحوائط التى غسلتها مياه الأمطار فكشفت عما كان مخبئا داخلها، وظننت ان الأباريق تخص بعض العرب، وحملت واحدا منها معى وأريته لصديق على إدراك بعلم الآثار، فاكتشفنا انها تعود الى عصر ملوك العبريين، اى الى القرن التاسع قبل الميلاد، وعندما عدت الى تل الصافى مرة أخرى وجدت الكثير من الآثار الاخرى التى فتحت امامى عالماً جديداً وجدت فيه بقايا وآثار الشعب الذى عاش على هذه الأرض منذ آلاف الأعوام. ومن هنا نشأ عندى الولع بالآثار وظل باقيا فى نفسى حتى الآن، وتمكنت عبر عدة أعوام من اقتناء مجموعة هائلة من الآثار.

وكنت أقضى كل اوقات فراغى وعطلاتى فى الورشة التى أقمتها وراء منزلى فى زاهالا، وأن أرمم الآثار بصمغ فرنسى أو أغسلها مما علق بها من أتربة ورمال، وكثيرا ما كنت اشاهد آثار بصمات أصابع صانع الأوعية

والأوانى وخاصة قرب حافتها، بل كنت اجد علامة أظافره.

وعندما كنت اعيد تشكيل الأوانى وفق حالتها الاصلية منذ آلاف السنين، كنت أمتلئ بمشاعر الخلق.

كانت مسئولية قيادة المنطقة كبيرة، فهى تغطى نصف مساحة البلاد، وهى مجاورة للحدود المصرية، أقوى الدول العربية، بالإضافة الى محاذاتها لقطاع غزة الذى أصبح يضم ١٠٠ ألف لاجئ فلسطينى غير سكانه الدائمين، وبات مركزا للفدائيين وعمليات التخريب الفلسطينية ضد اسرائيل.

وتجسدت فى هذ المنطقة أهم التحديات التى تواجه الدولة وهى إحياء الأرض المهجورة وايواء المهاجرين الجدد، وكان المهاجرون يصلون الينا كل شهر وخاصة من يهود الدول العربية، حيث أقيمت بسواعدهم عدة مدن مثل بئر سبع وعسقلان وايلات.

ووقع حادث واحد على الجبهة الأردنية فى أواخر عام ١٩٥٠ عند علامة الكيلو ٧٨من طريق ايلات، اذ أعلنت الأردن انه يمر داخل أراضيها واغلقته، وتلقت القيادة الجنوبية أمرا بفتح الطريق وطرد العدو، وكنت فى هذه الأثناء اقضى إجازتى فى تركيا مع عائلتى، عندما استدعيت للعودة، ورجعت مباشرة الى الكيلو ٧٨ فوجدت الجنود الأردنيين قد اغلقوا الطريق وجنودنا يناورون من حوله دون أن يخترقوه. وركبت طائرة صغيرة طارت على ارتفاع منخفض، واستطعت أن أتبين أن عدد الجنود الأردنيين قليل وأنهم لايمتلكون مدافع أو دبابات، وكادت الطائرة ترتطم بالأرض، بل أن عجلاتها اصطدمت فعلا بالأرض ثم عادت الى الجو.

وبدا الأمر كأنه أوبرا فكاهية، اذ أرسلت رسالة الى القائد البريطانى للقوة الأردنية اطلب اليه رفع الحواجز من الطريق منبها الى أن الموضوع معروض على لجنة الهدنة المشتركة وسوف نلتزم بما تقرره، وعندما رفض القائد، امرت

جنودى برفع الحواجز والمرور والامتناع عن اطلاق النار ما لم يبدأ الأردنيون باطلاقها، ومر الجنود بدون أى حوادث، لكن الأردنيين عادوا الى اغلاق الطريق فى اليوم التالى، وأطلقوا النيران على جنودنا الذين أزالوا الحواجز... لكن مدفعيتنا تمكنت من اسكاتهم واجبرتهم على التراجع. وأثبتت لجنة الهدنة المشتركة أننا قد أخطأنا وان المسافة بين الكيلو ٧٤والكيلو ٨٧تقع فى الأرض الأردنية. وعلى الفور شيدنا طريقاً آخر فى هذه المسافة غرباً، من ناحيتنا.

وأوليت اهتماما خاصاً الى رعاية الكيبوتزات التى كانت قائمة على الحدود بالقرب من غزة، ومن اجل العمل على تحقيق الازدهار والرخاء لهذه المستعمرات فقد وضعت عربات الجيش وقواته تحت تصرفها، كذلك أوليت اهتمامى الى تحسين الظروف المعيشية فى المعسكرات التى كان تؤوى قرابة الستة آلاف عائلة من المهاجرين الذين جىء بهم ليسكنوا مستعمرات النقب ويعمروها.

ولم تعد رعاية المهاجرين الجدد عملا ذا أهمية خاصة، وإنما اصبحت مصدراً للإلهام وللإنسانية، والإحساس باليهودية لدى كل القوات. وكان ذلك بالضبط هو الجوهر الحقيقى للصهيونية.

وأمام مشاهد المجندات وهن يقمن بكل الأعمال، انتقلت كل المهمات والأطباء والعمال للعمل فى قواعد المهاجرين، وكأنها لم تعد تعمل فى الجيش.

وفى أثناء عبورى الطريق الصحراوى، أصطحبت معى عائلة يمنية من المهاجرين، وجلس الرجل الى جوارى... فسرحت خواطرى وأنا أفكر فى كمية التغير التى حدثت فى حياة هذا اليمنى الذى لم ير من الاختراعات ما هو ابعد من الموقد البريموس ولم يركب الا ظهر حمار، وتساءلت عما يحس به هذا الرجل الآن؟ وكم فوجئت عندما سألنى "ألا يوجد فى سيارتك راديو؟" واعتذرت بالطبع وأدرت له الجهاز.

وأخذت ألح عليه على ضرورة إنشاء مستعمرة من نوع الموشاف، تكون

مجاورة للكيبوتزات القائمة فى النقب، واقترحت نظاما للحراسة والأمن مع ضرورة حصول المهاجرين الجدد على تدريب عسكرى لمدة شهر، وتمت الموافقة على اقتراحى وبدأ مشروع انشاء القرى الزراعية للمهاجرين.

وكان من الضرورى أن تبدأ اسرائيل فى تدريب ضباطها، وخاصة ذوى الرتب العالية، على مهام القيادة... صحيح أنهم اشتركوا فى الحرب جميعاً لكنهم كانوا يقودون مجموعات اكبر من رتبهم.

وتلقيت الدورة التى تقررت للضباط ومدتها ستة أشهر، وبعد ذلك ـ وفى عام ١٩٥٢ ـ اكملت الدورة بواحدة اخرى فى مدرسة كبار الضباط فى انجلترا. ومع اننا كنا أرقى ـ فى الرتبة ـ من معلمينا، فقد استفدنا من الدروس التى تلقيناها منهم.

لم يكن كافيا أن أكون على دراية بالأرض والتلال والممرات، وانما تعين علىَّ آن اخذ فى الحسبان نوع الحرب مع اعدائنا العرب، كان واجبا علينا ان نضع فى اعتبارنا مسئوليتنا عن مستعمرات الحدود، وشخصية الجندى العربى، والميزات القتالية للجندى الاسرائيلى وكنت أحب الخوض فى المناقشات، لا حباً فى النقاش، وإنما لكى يساعدنى ذلك على التفكير فى الأمور، ووزنها، واتخاذ القرار الملائم، بصددها.

وأتاحت لى هذه الدورة فرصة الإحساس بالعطلة بعيداً عن القيادة وكنا نجرى تدريبات تاكتيكية على مختلف أنواع الأرض الموجودة.. كذلك فقد ادركت بعمق مدى أهمية عربة القيادة وقدرتها على الحركة فوق مختلف التضاريس.

أما الدورة التى تلقيتها فى لندن فكانت فى الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٥٢، وبالإضافة الى بعض الأجانب، فقد كان اعضاء الدورة من الإنجليز ولم أكن أقحم نفسى فى الأمور أثناء التدريب، فأنا لم آت الى إنجلترا لكى اعلم البريطانيين كيفية القتال وإنما جئت لأستمع وأراقب،

وأوسع مداركى العسكرية، وكان البريطانيون يعاملوننى ببرود، وخاصة أولئك الذين حاربوا منهم الشرق الوسط وكانوا لا يحبون اسرائيل أو اليهود.

وكنت أقضى عطلة الأسبوع مع روث فى لندن.

ولا أقول إن هذه الدورة جعلت من تفكيرى بريطانيا، وانما أتاحت لى الفرصة لكى اعرف بريطانيا والبريطانيين، وان افهم طرقهم العسكرية.

وعندما عدت الى اسرائيل استدعانى يجال يادين، رئيس أركان حرب الجيش، وعرض على قبول منصب نائب رئيس هيئة الاركان ورئيس العمليات، وذلك بدلا من الجنرال موردخاى ماكليف الذى منح اجازة دراسية، ولكننى رفضت، وشرحت ليادين مدى عدم ملاءمة شخصيتى لكى أكون نائباً انطق بلسان رئيس لى، صحيح اننى كنت على استعداد لتنفيذ أوامره حتى وان كنت اعارضها، لكنه لم يكن باستطاعتى ان أنوب عنه أو أمثله فى أمر أخطأ فيه، كان ممكنا ان أخضع لرئاسته، أما أن أنوب عنه فكان شيئاً مختلفاً.

وأبدى يادين أسفة لرفضى ولم يحاول ان يغير لى رأيى، وبدلا من ذلك عينى قائداً للمنطقة الشمالية، وبقيت فى هذا المنصب ستة أشهر الى أن عينت رئيساً لفرع العمليات فى هيئة الاركان فى ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٢ وانتقلت مع عائلتى الى منزل يقع فى منتصف الطريق بين حيفا وناحلال، ودخلت يائيل المدرسة العليا بينما دخل ولداى مدرسة فى ناحلال.

ولم تكن المنطقة الشمالية غريبة عنى، فقد كنت اعرفها منذ طفولتى، مثلما فعلت فى القيادة الجنوبية، فقد جمعت ضباط القيادة وأبلغتهم باستعدادى لتزكية طلب أى منهم فى الانتقال الى وحدات أخرى ولا أذكر أن أحداً طلب ذلك، وكان مستوى ضباط القيادة الذين عملوا معى عاليا، وخاصة اثنين منهم هما الكولونيل حاييم بارليف آمر شئون الضباط والكولونيل اريك شارون ضابط المخابرات.

كانت المنطقة الشمالية مختلفة عن المنطقة الجنوبية من حيث ان غالبية العرب يقطنونها، فقد كانت لهم قرابة المائة قرية وخاصة فى الجليل بالإضافة الى قراهم فى الناصرة ووادى جزريل، والمجتمع العربى جزء لا يتجزأ من اسرائيل، ولكن الامر لم يكن بيدهم، اذ لم يكن هناك عربى يود ان يكون اسرائيليا، لقد فرض عليهم الانتماء للدولة كنتيجة لحرب الاستقلال، تلك الحرب التى أجبرنا عليها شعبهم، وعندما وقع الجانبان اتفاقية الهدنة، لم يكن أمامهم الا واحد من خيارين: فإما ان يصبحوا مواطنين اسرائيليين، أو ان يتركوا ديارهم وينتقلوا الى بلد عربى آخر. واختاروا - فيما عدا استثناءات قليلة - أن يمكثوا ويقبلوا المواطنة الاسرائيلية.

واتاحت مثل هذه الظروف الفرصة أمام توسيع انعدام الثقة بين العرب الاسرائيليين واليهود الاسرائيليين. وكان على الحكومة العسكرية ان تعمل بين أمرين، اولهما اتخاذ الموقف الصحيح ازاء العرب كمواطنين فى اسرائيل، وثانيهما الانتباه الى انهم قد يعملون كطابور خامس واحتمال استخدام قراهم كقواعد للاعمال الفدائية ضد الدولة.

كانت حدود المنطقة الشمالية مرتبطة بكل من سوريا والاردن ولبنان، وكانت الجبهات هادئة منذ توقيع اتفاقيات الهدنة، ولم تكن الا بضع مشاكل مع سوريا مثل حق السوريين فى الصيد فى بحر الجليل والموقف بالنسبة لبحيرة الحولة بعد أن قمنا بتجفيف جزء كبير منها، هكذا اضطررت الى تجديد علاقتى بلجنة الهدنة السورية الإسرائيلية المشتركة.

كانت اللجنة برئاسة كولونيل أمريكى يدعى تكساس، وفى يوم ٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٢ دعانا الى اجتماع فى فندق شولاميت شمالى بحر الجليل، وكان الوفد الإسرائيلى برئاستى، والوفد السورى برئاسة العقيد جديد، وتعثرت المحادثات بعد أن اكد جديد انه ليس مستعدا لبحث أية اتفاقيات، ولا مخولا بذلك، واقترحت عليه أن نتناول الطعام سوياً، فوافق،

وكانت تلك هى اول مرة يوافق فيها على اقتراح اسرئيلى.

وانتحيت بجديد جانباً أسأله عن العقيد البزرى الذى كان عضوا فى الوفد السورى خلال مفاوضات الهدنة. وكنت فى تلك الاثناء قد انهمكت فى حديث مع البزرى عندما جاءنا جديد متسائلا «ما الذى تطبخانه أيها اليهوديان فى هذا الركن؟» وأبلغنى جديد ان البزرى عضو فى الوفد السورى فى الامم المتحدة، ومن الواضح أن امه كانت يهودية ثم اعتنقت الاسلام وتزوجت عربياً.

وكان جديد يرفض كل اقتراحاتى التى طرحتها على مائدة المحادثات لكنه ابلغنى بعد ذلك أن دمشق تفضل بقاء الوضع الراهن بكل تعقيداته على أن توقع اتفاقية اخرى مع اسرائيل.

■ ■ ■

الباب الثالث

وأصبحت رئيساً للأركان
(١٩٥٣ ـ ١٩٥٧)

ودخل ديان مرحلة جديدة فى حياته وتقلد منصب رئيس الأركان ليمكن لاسرائيل أن تواجه التغيير الجديد الذى حدث فى الجبهة المصرية ـ فقد كسرت مصر مصادر السلاح وبدأ إعداد الجيش المصرى إعدادا عسكريا حديثاً ـ فكان لابد من الهجوم على مصر وتحطيم الجيش المصرى قبل أن يستعيد مكانته الحقيقية تحت الشمس.

١٢ ـ تطوير الجيش

وفى ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٢ عينت رئيساً لفرع العمليات فى هيئة الأركان، وبقيت فى هذا المنصب حتى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٣ عندما عينت رئيساً لهيئة أركان الحرب، أما سلفى الكولونيل موردخاى ماكليف فقد عين رئيساً للأركان عقب استقالة الجنرال يجال يادين.

وجاء هذا التعيين خلال فترة مالية صعبة، اذ كانت الأولويات أمام البلاد هى استقبال واستيعاب وتوطين مئات الآلاف من المهاجرين الذين نزلوا الى شواطئنا خلال سنوات قليلة وتحتم توجيه الأموال نحو نشاطات المهاجرين ومشاريع التنمية، وخفضت ميزانية الوزارات بما فى ذلك وزارة الدفاع.

وازاء ضيق الإمكانيات المادية، فقد اتفقت أنا وماكليف على الاهتمام بالوحدات القتالية على حساب وحدات الخدمات، وقررت ذلك بالفعل هيئة الأركان، وتمثل ضعف قواتنا فى حوادث الحدود فى أوائل عام ١٩٥٣ عندما حدثت بعض حوادث التسلل والتخريب، وقيام بعض الأعمال الانتقامية التى كانت تكلفنا عددا من القتلى فى كل مرة.

واعتبرت أن من واجبى إحداث هذه التغييرات... ووجهت جل اهتمامى نحو الرجل المقاتل، فهو الحد القاطع فى إدارة الجيش، ونحو ان يكون الجندى الإسرائيلى مستعدا على الدوام للمعركة، وعقدت اجتماعا مع الضباط أبلغتهم فيه أننى لم اقبل من أى ضابط أن يقدم تقريراً يقول فيه أنه (لم يستطع) انجاز مهمته ما لم يكن قد فقد بالفعل ٥٠٪ من قوته القتالية. وانه ما دامت القوة قادرة على القتال فلتستمر فى الهجوم، أما بقية الحديث فقد كان واضحاً على قسمات وجهى، وكانت تعبيراته تقول انه من لا

ينجح فى اقناعى بفشله سوف يترك الجيش.

وعملت أنا وماكليف على ضم المجندين ذوى المؤهلات الى الوحدات القتالية، مع تأسيس وحدة خاصة تعرف بالقوة ١٠١، تضم متطوعين يقومون بعمليات خاصة، ويرأسها المحارب الشجاع اريك شارون واعترف بأننى لم أكن أؤيد انشاء هذه القوة، وقد ساعد نجاح عمليات هذه القوة على إحداث التأثير المطلوب فى الناحية القتالية لدى بقية الوحدات.

وفى شهر يناير (كانون الثانى) ١٩٥٤، عقب ترقيتى رئيساً للأركان، انضمت القوة ١٠١ الى لواء المظليين برئاسة شارون، وأصبح منوطاً بهذه الفرقة كل عمليات الانتقام والغارات عبر الحدود، ولم تعد قوات المظليين مجرد تشكيل فى الجيش، وإنما أصبحت مفهوماً ورمزاً للقتال بشجاعة.

وأصبحت عندما عينت رئيساً للأركان أتربع على قمة الهرم فى الجيش، وبدأت اغرق فى مشاكل فنية وإدارية ومالية وابتعدت عن المعارك والمواقع... لم اعد احارب وانما أصبحت أصدر الأوامر الشفوية والكتابية من فوق مكتبى، لكنه كان من الطبيعى أن أشعر بالفخر لكونى الجندى رقم واحد فى الجيش الاسرائيلى، وعندما قلدنى بن جوريون الرتبة، شعرت بثقل المسئولية، وعزمت على حملها بأمانة واخلاص.

وعقب انتهاء الاحتفال أسرَّ سكرتير الحكومة فى اذنى قائلاً (يجب أن تشكل موشى ديان فى شكل جديد)، ولكننى رفضت ذلك مؤكداً أننى لم اتغير وإنما تغير شكل رئيس الأركان، وأبلغته بعزمى على تغيير أسلوب الجيش ومضمونه، وبدأت التغيير فى مكتبى نفسه فحولته من غرفة فاخرة الى غرفة مؤتمرات تملؤها الخرائط، وتعمدت ان اعيش حياة الجنود كلما زرتهم... وان أتحدث اليهم مباشرة وجها لوجه حتى مع أصغر قادة الوحدات. كذلك كنت اقوم بجولات تفتيشية ليلاً لأتاكد من مراعاة الانضباط.

وكان تعيينى رئيساً للأركان هو آخر اعمال بن جوريون الرسمية كرئيس للوزراء ووزير للدفاع قبل أن يستقيل فى شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٣، ويعتزل فى مستعمرة سدى بوكر فى النقب (وسوف يعود الى الحكومة فى فبراير (شباط) ١٩٥٥)، وخلفه فى رئاسة الوزراء موشى شاريت وأصبح بنحاس لافون وزيراً للدفاع. وكانت تلك هى اول مرة يتولى فيها شخصان رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع، كانت العادة أن يقوم الترابط والتنسيق بين المنصبين، لكن الخلاف بدأ منذ اللحظة الأولى.

ونبع الخلاف من اختلاف فى وجهات النظر السياسية للاثنين، اذ اختلفت نظرة كل منهما للحاجات السياسية والأمنية للبلاد، كانت سنة ١٩٥٤ صعبة، اذ كانت بريطانيا قد انسحبت من قناة السويس، وبدأت امريكا فى بسط نفوذها على المنطقة، كما بدأت مصر فى إحكام الخناق حول السفن الإسرائيلية فى القناة وفى خليج العقبة، ورفضت مصر قراراً لمجلس الأمن فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥١ بالسماح للسفن الإسرائيلية بالعبور، ولم تكن تسمح الا احيانا بمرور شحنات غير استراتيجية وعلى سفن غير اسرائيلية، ثم فرضت فى عام ١٩٥٣ حظرا شاملا على الشحنات من والى اسرائيل وكان شاريت يحبذ اتخاذ المسالك الدبلوماسية والدولية، غير أن روسيا طبقت الفيتو ضد قرار لمجلس الأمن فى مارس (آذار) ١٩٥٤ وبدت اسرائيل فى صورة ضعيفة وهنا قرر لافون القيام بعمليات عسكرية لردع العرب عن شن اى هجوم ضد اسرائيل.

كان لافون ينظر الى شاريت باعتباره وزيرا للخارجية فقط لا كرئيس للوزراء، ولذا ابقاه بعيدا عن وزارة الدفاع، واشتكى لافون من انه لم يكن يعلم بالعمليات العسكرية الا من الصحف. وفترت علاقتى برئيسى الوزير حتى قدمت استقالتى فى منتصف يونيو (حزيران) ١٩٥٤، كان لافون يريد الاستئثار باتخاذ القرارات العسكرية بغض النظر عن توصياتى بحيازة دبابة

جديدة تدعم قدرتنا الهجومية، وقام ـ دون ابلاغى ـ بتحويل الاعتمادات الى شراء مدافع المورتار وهى اسلحة دفاعية، بل ورفض تبرير هذا التصرف.

وازاء طلب الاستقالة الذى قدمته، دعانى لافون الى الغداء معه حيث سوينا الخلاف وان كانت جذوره قد بقيت، ثم اختلفنا حول الوحدة الخاصة التى كانت قد انشئت خلال حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ للقيام بعمليات محدودة داخل بلاد العدو... فكان لافون يتحرق الى تحريكها، وكنت ارى انه لا داعى لاستخدامها فى وقت السلم.

وفى النصف الأخير من يوليو (تموز) ١٩٥٤، وأثناء زيارتى للقواعد العسكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية، شنت الوحدة عدة عمليات تخريب داخل القاهرة والإسكندرية وأسفر الأمر عن اعتقال احد عشر فردا ومحاكمتهم، ثم انتحر واحد منهم واعدم اثنان فى اول يناير (كانون الثانى) ١٩٥٥.

وهاج الرأى العام الإسرائيلى... وقال كبير الضباط المسئول عن الوحدة، انه تلقى أمرا شفوياً من وزير الدفاع، دون ان يكون هناك شهود حاضرون، وادعى لافون ان الضابط تصرف من تلقاء نفسه.

ولم تستطع لجنة التحقيق ان تصل الى من اعطى الأمر بتشغيل الوحدة وقرر زملاء لافون فى الحكومة وفى حزب الماباى ضرورة استقالته، وبالفعل قدم استقالته يوم ٢ فبراير (شباط) ١٩٥٥، وقبلتها الحكومة فى العشرين من الشهر نفسه، وفى نفس اليوم عاد بن جوريون وزيرا للدفاع تحت رئاسة شاريت رئيساً للوزراء، الى أن حانت الانتخابات فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) فعاد بن جوريون رئيساً للوزارة ووزيراً للدفاع.

وكنت انتهز فرصة تخريج دفعات الضباط الجدد لأخطب فيهم قائلاً ما اريد أن أقوله، ففى اواخر شهر مايو (آيار) ١٩٥٥ كنت قد فصلت ضابطاً شاباً لأنه أمر جندياً بسحب سيارة تعطلت تحت نيران المصريين، وقلت لهم

إن ضباط اسرائيل لا يأمرون جنودهم وإنما يقودونهم.

ولم يكن الكلام كافيا لصقل الجيش، اذ كان ضباطه ممن حاربوا فى حرب الاستقلال ولم يستزيدوا من العلم أو يدخلوا الجامعة، وشرعت فى ارسال الضباط الى الجامعة للدراسة على حساب الجيش فى أى فرع يريدونه حتى ولو كان الفلسفة والأدب، بالإضافة الى ارسال ضباط آخرين الى معهد التخنبون الفنى فى حيفا.

وفى منتصف عام ١٩٥٥ ارسلنا مجموعة من المتطوعين فى عملية لاستكشاف شرم الشيخ، الذى يتحكم فى مدخل خليج العقبة، والذى كان مغلقا امام الملاحة الإسرائيلية نحو شرق أفريقيا والشرق الأقصى وقد افادت هذه العملية الاستكشافية بعد عام ونصف من اتمامها.

وفى ٢٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٥٥ أعلن جمال عبد الناصر ان بلاده وقعت اتفاقية تجارية مع تشيكسلوفاكيا تقدم بمقتضاها السلاح لمصر مقابل القطن والارز، وأحدثت هذه (الاتفاقية التجارية) ثورة فى ميزان التسليح فى المنطقة، واعطت لروسيا موطئ قدم فى منطقة كانت مغلقة أمامها، وفتحت جبهة ثانية للولايات المتحدة فى الحرب الباردة وهددت وجود اسرائيل بالخطر.

وتتسلم مصر بمقتضى هذه الاتفاقية اعداداً هائلة من الأسلحة الحديثة من الكتلة الشرقية من بينها ٣٠٠ دبابة متوسطة وثقيلة و٢٠٠ حاملة جنود مدرعة ومدافع مضادة للدبابات والطائرات و٢٠٠ طائرة من طراز ميج ١٥ و٥٠ طائرة اليوشن ومدمرتان واربع كاسحات ألغام و١٢ رورف طوربيد مع استبدال كل السلاح الخفيف فى الجيش بالبندقية الروسية نصف الآلية.

إن هذه الأرقام لا تقارن بمقاييس الوقت الحاضر، لكنها شكلت أيامها تصاعدا خطيراً فى ميزان التسليح فى المنطقة، سواء بعددها او بنوعيتها، صحيح أننا كنا نؤمن بتفوقنا فى القدرة القتالية والمهارة، ولكن ذلك لا يفيد

أمام حداثة الأسلحة الجديدة، وأصبح واضحاً لدينا فى اسرائيل ان صفقة الاسلحة التشيكية ما هى الا تمهيد لمواجهة حاسمة سيقوم بها عبد الناصر لمحونا من الوجود، أو على الاقل لتحقيق نصر عسكرى يجعلنا خاضعين بلا حول ولا قوة.

وبدأ تدفق الأسلحة السوفيتية على مصر فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٥، وكان تقديرنا فى قيادة الأركان ان المصريين يحتاجون الى ٦ أو ٨ أشهر لاستيعاب وفهم الأسلحة الجديدة، أى أننا يجب ان نتوقع هجوما مصرياً فى أواخر الربيع أو أواخر الصيف، وتحتم علينا أن نجد مصادر جديدة للحصول على سلاح يمكن أن يضاهى السلاح السوفيتى، وبصفة خاصة الطائرات من فرنسا.

ومن أجل أحباط الخطط المصرية، قدمت مذكرة الى بن جوريون يوم ١٠ نوفمبر (ت٢) أوصى فيها بالقيام بعمليات انتقامية حادة ضد المصريين، والاستيلاء على قطاع غزة، وشرم الشيخ لفك الحصار عن خليج العقبة، وبعد ذلك بثلاثة أيام اجتمعت مع بن جوريون وقدمت له مقترحات عملية فى المجال العسكرى من بينها إعادة الجنرال يجال يادين رئيساً للأركان وجعل موردخاى ماكليف رئيساً للعمليات ويجال ألون قائداً للمنطقة الشمالية، على أن اترك انا رئاسة الأركان واتولى قيادة المنطقة الجنوبية فى سيناء، غير أن بن جوريون رفض اقتراح تعيين رئيس للأركان بدلا منى، وطلب منى تأجيل عملية شرم الشيخ الى يناير (كانون الأول)١٩٥٦م.

وكانت الشهور التى تلت صفقة الأسلحة التشيكية شهوراً صعبة، اذ كان علينا أن نعد البلاد لمواجهة الحرب، وقررت الحصول على السلاح من أى مصدر كان، وبدأ وصول طائرات الميستير الفرنسية فى ابريل (نيسان) ١٩٥٦، كما وعدتنا فرنسا بامدادنا بدبابات (إيه. إم. إكس) وشيرمان، أما الولايات المتحدة فقد أصرت على موقفها من حظر تزويدنا بالسلاح.

وتحدثت الى جنودنا وأبلغتهم أننا لا نملك صفقة تشيكية ولا غيرها وأن الصفقة الوحيدة التى يمكننا ابرامها هى (الصفقة الإسرائيلية) نعقدها مع انفسنا ونعبئ كل قوانا لمواجهة الحرب اذا ما فرضت علينا وعلى تلك الصفقة يتوقف مستقبل الدولة والجيش والامة.

وما ان وصلت اولى الطائرات الفرنسية الى اسرائيل، حتى حدث خلاف بين وزارتى الخارجية والدفاع الفرنسيتين حول صفقة الأسلحة، وسافرت الى باريس سراً أنا وشمعون بيريز - المدير العام لوزارة الدفاع - فى أواخر يونيو (حزيران) ١٩٥٦، حيث نجحنا بعد مفاوضات شاقة فى ابرام صفقة الأسلحة اللازمة.

وأعطت الأسلحة الروسية، بالإضافة الى الموقف الروسى المؤيد، لجمال عبد الناصر شعوراً هائلاًبالثقة، فكان قراره الذى أعلنه فى أحد ميادين القاهرة يوم ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٦ بتأميم قناة السويس.

وأحدث القرار أبعاداً دولية واسعة، تقرر أن يسافر كريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسى الى لندن للاجتماع مع أنتونى ايدن رئيس وزراء إنجلترا، وطلب منا الفرنسيون معلومات مفصلة وحديثة عن قوة التشكيلات العسكرية المصرية ومواقعها فى الأرض والبحر والجو.

وفى اليوم التالى غمرنى حزن شديد، اذ توفيت أمى ودفنت فى ناحلال، وبعد الجنازة اقترحت على بن جوريون القيام بإحدى العمليات التالية: إما احتلال سيناء حتى قناة السويس واقامة سيطرة دولية على هذا الممر المائى، أو الاستيلاء على شرم الشيخ ورفع الحصار عن خليج العقبة، أو الاستيلاء على قطاع غزة، وأكدت لبن جوريون انه لا داعى لمخاوفه بشأن الأسلحة الثقيلة التى لم تصلنا وأن جيشنا قادر على تحقيق الهدف حتى مع عدم وصول هذه الأسلحة. لكنه مع موافقته على أن الظروف الدولية مواتية لمثل هذا التحرك، فقد طلب منى الصبر واستيعاب الأسلحة تم توجيه ضربة حاسمة الى عبد الناصر لازالة تهديداته. وفى لندن، قرر الطرفان الإنجليزى

والفرنسى القيام بعمل عسكرى لاستعادة القناة والغاء التأميم واستعادة حقوق الدولتين فى سلطة القناة ووضعا نصب اعينهم إسقاط عبد الناصر، ووضع العسكريون من الدولتين خطة تقضى بتجميع القوات فى مالطة وقبرص وانزالها بالسفن بعد اسقاط المظليين، وفقاً للنمط الذى اتبع خلال الحرب العالمية الثانية، وسميت الخطة (موسكيتو) ورأس القوات السير تشارلز كيتلى قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط، وعين الأدميرال بيير بارجو، قائد القوات الفرنسية، نائباً له.

وكانت فرنسا تؤيد استعمال القوة، وكذلك كان موقف ايدن وان كانت قد واجهته معارضة قوية فى الداخل ـ أما الولايات المتحدة فقد عارضت خطة حلفائها الأوربيين الموجهة ضد مصر. وظلت هذه الاعتبارات قائمة الى أن حانت ساعة الصفر.

■ ■ ■

١٣ ـ الاتصال الفرنسـى الأول

فى اليوم الأول من سبتمبر (أيلول)١٩٥٦، وصلتنا أول معلومات عن اهتمام فرنسا بالتنسيق مع اسرائيل فى الهجوم على مصر، وجاء ذلك من خلال برقية لملحقنا العسكرى هناك، وصلتنى خلال اجتماعى مع هيئة الأركان بحضور بن جوريون، وكانت توجيهات بن جوريون ان اسرائيل مستعدة لتقديم كل المعلومات اللازمة، أما من حيث الاشتراك فى الحرب فإنه سيوفدنى الى باريس، وأبرقت بالتوجيهات اللازمة الى رئيس العمليات أثناء وجوده فى أوربا آنئذ للتباحث مع الفرنسيين مع عرض وضع كل القواعد البحرية والجوية فى المعركة، والتأكيد على أن قدراتنا على الاشتراك فى العمليات محدودة.

وتمت المحادثات فى منزل خاص بحضور الأدميرال بارجو الذى سأل عن إمكانية اشتراك إسرائيل بعمل عسكرى فى سيناء، وذلك لمجرد العلم، انتظاراً لأية ظروف سياسية قد تكون ملائمة لاشتراك اسرائيل فعلياً، وكانت القوات الإسرائيلية فى تلك الآونة قد ردت بعنف على الهجمات التى شنت ضدها على الجبهة الأردنية، وساهم هذا الجو فى إضفاء تأثير على محادثات السويس.

ومع استمرار تدهور الموقف السياسى، كنت اركز كل جهودى على إعداد الجنود والمعدات والطائرات بحيث تستعد لأى طارئ، هذا مع اعادة فحص خطط الطوارئ بالنسبة لمصر ابتداء من الاستيلاء على كل سيناء وانتهاء بالقيام بعمل محدود كالاستيلاء على مضايق تيران أو قطاع غزة، وشرحت لرجالى الموقف الذى نواجهه فى وجود مشاكل عالمية مثل قناة السويس ومشاكل محلية مثل قطاع غزة الذى تشن منه الهجمات ضدنا ومضايق تيران التى تفرض الحصار حولنا، وبينت لهم أنه اذا ما اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارها فسوف تقوم اسرائيل بعمل عسكرى ضد مصر، سواء

رضيت بذلك القوى المعادية لمصر أم لم ترض.

وذهب شمعون بيريز الى باريس للتوصل الى تخفيف شروط تسديد ثمن المعدات، لكنه نظرا لصداقته بوزيرى الخارجية والدفاع الفرنسيين ورئيس وزارئهما، فقد تقرر أن يجرى معهم محادثات صريحة وغير رسمية حول موضوع التعاون السياسى الفرنسى الإسرائيلى فى الشرق الوسط، وطلبت منه أن يصر على عدة أمور منها أن تأتى المبادرة من جانب فرنسا اذا ما أرادت مثل هذا التعاون، وأن تتم صفقات الأسلحة سرا نظرا لوجود اتفاقية تنسيق مشترك بين فرنسا وانجلترا وامريكا فيما يتعلق بتزويد اسرائيل بالسلاح. وكان رأيى أن الوقت قد حان ـ اذا ارادت فرنسا تعاوناً معنا ـ لأن يتم هذا التعاون بين حلفاء متساوين، لا مع قاصر خاضع لوصاية ثلاثية.

كذلك فقد كان ضرورياً أن نتجنب أى صدام مع إنجلترا قد يؤدى الى قيامها بعمل عسكرى ضد اسرائيل، نظرا لارتباط انجلترا باتفاقيات دفاع مع عدد من الدول العربية، هذا بالإضافة الى انه اذا ما قامت العرب فسيكون فى وسع اسرائيل تصحيح حدودها فى سيناء وذلك بضم شرم الشيخ ونخل وأبو عجيلة ورفح، وجميع هذه المناطق صحراوية غير مأهولة، واعترف بأننى كنت اشك فى ان ينجح بيريز فى التوصل الى كل ما قلته له وسلف بيانه، لكنه فاجأنى عندما استطاع تحقيق ما كنت أظنه مستحيلاً.

وعقب سفر بيريز بثلاثة أيام أبرق الى أن وزير الدفاع الفرنسى قد استكشف مع احتمالات اشتراك فرنسا واسرائيل فى عمل عسكرى دون اقحام بريطانيا، وعندما التقى الوفدان الفرنسى والبريطانى فى لندن فى ١٢ سبتمبر (أيلول)، افاد الوفد البريطانى بضرورة تأجيل (عملية موسكتير) واضطرارهم لقبول اقتراح جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا بإنشاء هيئة المنتفعين بقناة السويس، وخسرت فرنسا ذلك بتخلى بريطانيا عن القيام بعمل عسكرى ضد مصر، ولذا استدارت فرنسا نحونا.

وانتهز وزير الدفاع الفرنسى فرصة البرقية التى أرسلها الى بن جوريون مهنئا بعيد ميلاده السبعين، فأكد على رغبة فرنسا فى (عمل شىء) مع اسرائيل دفاعا عن مصالح البلدين ضد العدوان المصرى، كان التوقيت بالنسبة لفرنسا هاما ولذا حبذت اتخاذ إجراء فورى فى حين رأت بريطانيا انتظار ظروف أكثر ملاءمة، لذا فقد بعث بن جوريون برد شخصى أكد فيه على استعداد اسرائيل لتبنى سياسة مشتركة مع فرنسا، ووقف الى جانب فرنسا فى أهمية التوقيت، والاستعداد لعمل مشترك مع فرنسا بدون بريطانيا.

وعادت أعمال التخريب والعنف مرة اخرى، وكنت أرى ضرورة القيام بعمليات عسكرية ضد الدول العربية التى تشن منها هجمات الفدائيين، حتى تتوقف تلك الدول ـ وخاصة الأردن ـ عن مساعدتهم. وازاء تصاعد أعمال العنف على الجبهة الأردنية، دعا بن جوريون يوم ٢٥ سبتمبر (أيلول) الى اجتماع للوزارة لبحث اتخاذ اجراء عسكرى ضد الأردن، وحددت لبن جوريون عدة اهداف عسكرية يتمركز فيها الجنود بعيدا عن المدنيين، لكنه خشى من ان يؤدى ذلك الى اعاقة التعاون الفرنسى الإسرائيلى، أما بيريز فقد اوجز لبن جوريون نتائج آخر اجتماع لهيئة المنتفعين فى لندن يوم ٢١ سبتمبر (أيلول) حيث عاد وزير الخارجية الفرنسى بعد ان ابلغ ايدن ان فرنسا قد تقوم بعمل عسكرى مع اسرائيل وحصل من ايدن على موافقته على ذلك على ألا تهاجم اسرائيل الأردن.

وكان وزير الدفاع الفرنسى يرى ان بريطانيا فى النهاية، قد تشترك فى العملية وان الولايات المتحدة لن تتدخل، لكنه لم يكن يعرف رد فعل الاتحاد السوفيتى، وفى ضوء هذه الوقائع خولت الحكومة الفرنسية لوزير الدفاع دعوة ممثلى اسرائيل لبحث اتخاذ عمل مشترك معهم ضد مصر.

ومع أن بن جوريون كان يريد القيام بعمل مشترك مع فرنسا ضد عبد الناصر، الا أنه كان يعتقد ان الموضوع لن يسفر عن شىء هام، وكان اهتمام بن جوريون موجها نحو احتلال الضفة الغربية لخليج العقبة وشرم الشيخ

الأمر الذى يؤدى الى ازدهار الميناء فى إيلات وبالتالى ازدهار النقب كلها.

كان العراق هو الدولة الوحيدة التى لم توقع معنا اتفاقية للهدنة ولذا بقيت فى حالة حرب مع اسرائيل، وقررنا ألا نهاجم الأردن طالما لم يسمح بدخول القوات العراقية اراضيها، وأكد بن جوريون ان بريطانيا قادرة على تحييد الأردن وعدم ادخالها الحرب، وقرر بن جوريون افاد وفد الى فرنسا يضم جولدا مائير وزيرة الخارجية وموشى كارمل وزير المواصلات وشمعون بيريز وأنا.

واشتركت قبيل سفرى الى باريس فى عملية قامت بها قواتنا انتقاماً لعمليات تخريبية، وقد نجحنا فى نسف الموقع العربى، لكننا خسرنا عشرة قتلى و ١٦ جريحاً، وبدا لى من الضرورى القيام بمواجهة شاملة مع العدو يتم بعدها وضع اسس السلام على طول الحدود.

وقبيل سفرنا الى باريس اجتمعنا مع بن جوريون الذى أعطانا التوجيهات التالية:

■ ان اسرائيل ستشترك فى العمليات اذا ما بدأها أصدقاؤها.

■ أن نتأكد من أن الولايات المتحدة لن تعارض العملية ولن تفرض عقوبات على اسرائيل.

■ أن توافق بريطانيا، ولا تشترك مع أية دولة عربية تساعد مصر.

■ أن هدفنا هو السيطرة على الساحل الغربى لخليج العقبة، وقد نفكر بعد ذلك فى نزع سلاح سيناء كلها ولو تحت اشراف دولى.

■ ومن ناحيتى أضفت التوجيهات التالية بشأن العمليات.

■ أن تعمل قوات كل دولة ـ الأرضية والجوية ـ فى قطاعها منفصلة عن الأخرى حتى مع وجود قيادة مشتركة.

■ اذا تلقينا المعدات الكافية، ودخلت القوات المصرية مصر، فسنقوم

باحتلال الجانب الشرقى من قناة السويس (أى كل سيناء).

■ ألا يكون تزويدنا بالمعدات شرطا نعلق عليه اشتراكنا فى العمليات.

وكان بن جوريون قلقاً ازاء موقف الولايات المتحدة ومتشككاً فى موقف بريطانيا، أما أنا فقد كنت اخشى ان تندمج بريطانيا الى مساندة الأردن ضدنا، وكانت الأردن والعراق قد وقعتا اتفاقية دفاع مشترك لتنسيق العمل العسكرى بينهما.

وفى ٢٨ سبتمبر (ايلول) توجهنا الى فرنسا، وفى اليوم التالى بدأت اجتماعاتنا فى منزل يملكه المستشار السياسى لوزير الدفاع فى مونبارناس، ورأس الوفد الفرنسى كريستيان بينو وزير الخارجية، وبدأ بينو بعرض للموقف من وجهة نظر بلاده، مبيناً أنه لم يعد هناك الا القوة بعد أن أمم عبد الناصر القناة، وأقترح النصف الأول موعدا للعملية حيث تكون الأحوال الجوية مواتية فى البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة الى انتهاز فرصة الانتخابات الأمريكية وحرص أيزنهاور على عدم الظهور أمام ناخبيه كمن يضحى بحلفائه بريطانيا وفرنسا.

وكان على بينو أن يسافر الى الولايات المتحدة للمشاركة فى اجتماع مجلس الأمن، حيث داج هامرشولد ـ السكرتير العام للأمم المتحدة ـ قد اقترح تكوين لجنة رباعية تتولى الوساطة بين مصر والدول الغربية، واستعدت فرنسا لاستخدام الفيتو ضد هذا الاقتراح، وأكد لنا بينو أن فرنسا لا تطلب مشاركة اسرائيل كحل لمشاكل فرنسا، وانما لو اشتركت اسرائيل فإن ذلك يتم دفاعا عن مصالح اسرائيل، فى حين تتحمل فرنسا المسئولية عن عملها ضد مصر، وأشار بينو الى أن اتفاقية ١٩٥٥ المعقودة بين مصر وبريطانيا تعطى للأخيرة الحق ـ فى حالة الحرب ـ فى الاحتفاظ بقناة السويس، اى أن هناك اساساً قانونياً لمثل هذا العمل.

وبعد أن تحدث بينو لمدة ٤٥ دقيقة، قام وفدنا بعرض وجهة نظر اسرائيل، وبدأنا بالاتفاق على أن العلاقات مع عبد الناصر لم يعد ممكنا معالجتها بالوسائل الدبلوماسية، ولم يبق إلا الحل العسكرى.

ثانياً: أننا نعتبر فرنسا صديقاً وحليفاً ومستعدون للعمل المشترك معها.

ثالثاً: ما هو موقف بريطانيا وهل ستقف الى جوار الأردن.

رابعاً: ما هو موقف أمريكا وهل ستفرض علينا مقاطعة اقتصادية.

وأخيراً: ما الذى سيفعله الاتحاد السوفيتى وهل سيرسل جنوده لمساعده مصر؟

كانت أجوبة الفرنسيين تتسم بالحذر، قيل لنا أنه كلما قصر امد العملية كلما سهل تفادى التدخل الروسى المباشر، مع الوضع فى الحسبان ان يعمل البولنديون والتشيك كطيارين فى مصر، ورأى الفرنسيون أن دالاس سوف يصر على سياسة عدم التحرك، ونصحونا بألا نفاتحه فى الموضوع، اذ انه عندما سئل عن رأيه وافق على اشتراك اسرائيل ولكن بعد نهاية العام أى بعد انتهاء الانتخابات الأمريكية. اما بالنسبة لبريطانيا فكانوا يرون انها لن تحارب اسرائيل طالما لم تقم الأخيرة بالهجوم على الأردن.

وبدا واضحاً أن فرنسا تنتظر قرار بريطانيا بشأن العملية، وانها تحبذ قيام اسرائيل بالبدء فى الهجوم وفقاً لتخطيطها، وعندئذ يمكن ضمان اشتراك بريطانيا. ولم اكن سعيداً بما انتهت اليه هذه الجولة من المحادثات إذ بات واضحاً أن قراراً لن يتخذ قبيل انتهاء اجتماعات مجلس الأمن، الأمر الذى لا يترك لنا وقتا كافا للإعداد العسكرى، ولم يكن باستطاعة فرنسا دخول الحرب بمفردها خوفاً من العواقب السياسية والعسكرية، كما كنا نعرف أن بريطانيا لا تريد تلطيخ اسمها بالمشاركة معنا فى حرب ضد العرب، وانها كانت تفضل لو قمنا بالحرب وحدنا ثم سارعت القوات

البريطانية الى طردنا من مصر والعودة الى احتلال القناة.

وبعد ان تناولنا الغداء عدنا الى الاجتماع مرة ثانية، حيث بدأنا بحث الأمور العسكرية. وكان أول ما بحثناه احتمال استخدام قواعد الطيران الإسرائيلية كبديل للقواعد البريطانية فى قبرص وفقا لخطة (موسكتير).

وانتهى اجتماعنا والاتفاق على الاجتماع فى اليوم التالى مع رئيس هيئة الأركان الفرنسية، على أن يعود معنا الى اسرائيل وفد فرنسى لبحث امكانية استخدام اسرائيل بديلا عن قبرص.

وحاولت جهدى خلال الاجتماع مع رئيس الأركان وزملائه العسكريين، أن أقنعهم بامكانية نجاح العملية بدون اشتراكِ بريطانيا، وسألنا الفرنسيون عن القوات التى سوف تقدمها اسرائيل فأبلغتهم بأنها تقدر فيما بين ٦ الى ٨ فرق مشاة ومدرعة و٧٠ طائرة مقاتلة، وعلى الرغم من صغر هذا الجيش فقد كنت موثقا بأن فى وسعه هزيمة المصريين لا بدون بريطانيا فحسب بل وبدون فرنسا أيضاً.

وبحثنا الموقف بالنسبة للطائرات والمطارات المصرية، خاصة وقد كان فى مصر عدد من الطيارين والفنيين التشيك والبولنديين، وفى الإمكان دعوة غيرهم على وجه السرعة لو بقيت المطارات سليمة، وكانت قوة الطيران المصرى تبلغ ١٥٠طائرة ميج و ٤٠ قاذفة اليوشن، أما من حيث السلاح البحرى فقد تقرر ان تقوم البحرية الإسرائيلية بحماية الشواطئ الإسرائيلية وتتولى البحرية الفرنسية امر الشواطئ المصرية، اذ لم يكن لدينا فى ذلك الوقت أية غواصات.

وسألنى الفرنسيون عما اذا كنت اعتزم الاحتفاظ برأس جسر على الضفة الغربية من القناة، وأجبت بالنفى، كنت اعلم أنهم سيسألوننى عن القاهرة، وعندما سألونى أجبتهم بأن احتلال القاهرة سوف يخلق تعقيدات

رهيبة لابد من تجنبها، وكنت فى ذلك الوقت اعبر عن رأى شخصى بحت.

ولم أستطع معرفة حجم القوات الفرنسية التى ستشترك فى العملية... وابلغونى ان الخطة الإنجليزية الفرنسية تضم ٤ فرق مشاة بالإضافة الى قصف المطارات المصرية، والهدف هو الاستيلاء على قناة السويس.

وفى نهاية الاجتماع اعرب الفرنسيون عن رضاهم عن الخطة الأسرائيلية التى ستمكنهم من اتمام العملية فيما لو انسحبت انجلترا منها، وأبلغونى ان هناك ٧٥ طائرة قاذفة قنابل و٢٥ طائرة ميستير ستشترك من جانبهم. وقد أبلغتهم اننا سنقدم للوفد الفرنسى كل التسهيلات لتفتيش مطاراتنا ومعرفة قدراتها على استقبال الطائرات الفرنسية، أما استعمال هذه الطائرات لمطاراتنا فأمر متروك لحكومتى لاقراره.

وعندما سألونى عن احتياجاتنا قدمت لهم القائمة التى كنا قد اعددناها، وتتضمن دبابات وعربات مصفحة ومدافع بازوكا وطائرات نقل، وتفاهمنا على التوقيت بعد أن بينا لهم أن جيش اسرائيل الذى يعتمد على الاحتياطى يحتاج الى ٥ أو ٧ أيام لإتمام التعبئة (بارتياح)، وحيث أن مناقشات مجلس الأمن تنتهى فى ١٢ أكتوبر (تشرين الثانى)، ثم يتخذ القرار النهائى يوم ١٥، فإننا نكون جاهزين تماما يوم ٢٠.

كان الفرنسيون فى حيرة ازاء أمرين يتعلقان بالعملية وبدايتها ونهايتها، كانت فرنسا وانجلترا فى خاجة لهجوم على مصر، أما اسرائيل فكانت لديها المبررات الكافية ازاء هجمات التخريب والاستعداد المستمر للحرب من جانب مصر، وكانت النهاية بالنسبة لنا طرد المصريين من سيناء وفتح العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية. كذلك كنا نحن أيضا نود ان يغيب عبد الناصر ويحل محله نظام جديد يسعى نحو السلام.

لكن هذا لم يكن جزءا اساسيا فى خطتنا، فقد كان احتلال سيناء كفيلا

بتحقق اهدافنا حتى لو بقى عبد الناصر.

وأدركت الآن فقط السر فى تردد بن جوريون فى أن نقوم نحن بالعملية ونبدأها.. كانت هناك أسباب كثيرة تضطرنا ألا نفعل ذلك.

أما الآن فقد سنحت فرصة لن تتكرر حيث نقوم بالعمل ولكن دون أن نكون بمفردنا بل معنا فرنسا وربما إنجلترا، وكان رأيى أن نفعل أقصى ما فى وسعنا للاستفادة من هذه الفرصة التاريخية.

وغادرنا باريس مساء الأول من أكتوبر (تشرين)وبرفقتنا الوفد الفرنسى العسكرى، ووصلنا الى اسرائيل فى اليوم التالى، وكان أمام الوفد الفرنسى بالإضافة الى استكشاف مطاراتنا، عدة مهام منها تحديد درجة حاجتنا الى المعدات التى طلبناها وامكانيات وصول الأسلحة واستيعابها فى الموعد المحدد.

وذهب الوفد الاسرائيلى الى رئيس الوزراء لابلاغه بنتائج محادثات باريس، أما الوفد الفرنسى فقد اجتمع مع لجنة تمثل الأسلحة الثلاث وتوصلوا الى ضرورة الإسراع فى تزويدنا بالأسلحة حتى ولو وصلت بعد بدء المعركة، وبالفعل أبرق الوفد إلى وزارة الدفاع الفرنسية يوصون بسرعة امدادانا بالأسلحة، وفى الليل عقدت اجتماعا لضباط القيادة أبلغتهم فيه بالإنذار بالحرب فى حدود يوم ٢٠ من الشهر أى بعد ١٨ يوماً، والمتوقع أن تستمر ثلاثة أسابيع.

وأخذنا استعداداتنا لاعلان التعبئة، وطلبت استدعاء الضباط الذين يدرسون فى الخارج - وفى صباح ٣ أكتوبر (تشرين) تلقيت مذكرة من رئيس الوزراء تتسم بالتشاؤم والتحفظ وخاصة فيما يتعلق بعدم اشتراك بريطانيا وخشيته من ان تتعرض مدن اسرائيل للقصف الجوى.

صحيح أنه لم يرفض الخطة ولم يؤيدها ولكنه طلب ابلاغ الفرنسيين بمدى التعقيدات التى قد تواجهها اسرائيل، وقد جانب الصواب بن جوريون

فى هذا الرأى، فالفرنسيون يحبذون اشتراك بريطانيا معنا بل أنهم شاركونا لانه لم يكن أمامهم بديل آخر.

واجتمعت أنا وشمعون بيريز مع بن جوريون قبل أن يلتقى بالوفد الفرنسى، ورجوته بإلحاح أن يعدل عن فكرته فى ارسال مذكرة الى جى موليه رئيس وزراء فرنسا يشرح له فيها شكوكه ومخاوفه، وناشدته انتظار الاقتراحات الفرنسية النهائية، وأخبرت بن جوريون ان تقديره للطيران المصرى مبالغ فيه، وان الطيران الفرنسى قادر على احداث أضرار جسيمة بالطيران المصرى حتى ولو لم تشترك بريطانيا، ولم أندم على أن نبرة صوتى فى الحديث كانت مرتفعة، فما دامت فرنسا عازمة على الاشتراك معنا فى عمل واحد، فسوف نكون فى قمة النحس لو رفضنا عرضها وعدنا الى الحالة التى كنا عليها فى صراع منعزل.

وأثناء اجتماع الوفد الفرنسى مع بن جوريون، سألتهم كيف سيحققون هدفهم الرئيسى وهو اسقاط عبد الناصر فى حين أن خطتهم ترمى الى احتلال قناة السويس؟! وقال إن الجيش يمكنه القيام عندئذ بأعمال فدائية ضدهم وقد يطلب عبد الناصر معونة سوفيتية، ووافق الفرنسيون على هذا الرأى ولم يجدوا عليه جوابا فى خطتهم الراهنة.

كذلك أبدى بن جوريون اهتمامه بالتطور الذى سيحدث خلال أيام المعركة وبعدها، وأعرب عن تشككه فى اشتراك بريطانيا.

وعدنا مع الوفد الفرنسى الى تل أبيب، حيث طلبنا قائمة جديدة من المعدات لسلاحنا الجوى، وأبديت اهتماما بموضوع الإسراع فى المعركة، وكنت أضع فى ذهنى الخلاف بين الجنود الإسرائيليين والجنود المصريين ، فالمصريون يحاربون طبقاً لنظريات الحرب، وقادتهم بعيدون عن الجبهة. وليس من السهل بناء الخطوط الدفاعية البديلة، وتغيير اهداف الهجوم أما نحن فكنا معتادين على السرعة وقادتنا فى المواقع يتخذون القرارات فوراً.

وكان من رأيى أن نستفيد من هذه الميزة، ولذا وضعت خطتنا على أساس إسقاط قوات مظلية بالقرب من هدفنا النهائى، مع التحكم فى الممرات التى يستخدمها المصريون فى تدعيم قواتهم، والاحتفاظ بهذه المواقع الهامة الى أن تصل قواتنا الرئيسية بعد قرابة ٤٨ ساعة، وأثنى الفرنسيون على كفاءة قواتنا مؤكدين أن فكرتهم عن جيشنا قد تبدلت.

ولم تخل هذه الاجتماعات العسكرية من بحث أمور عسكرية مثل: متى ستبدأ المعركة.. وكيف ستنتهى. كنت أثناء تقديمى للخطة أبين ان الهجوم الإسرائيلى سوف يواكبه فى نفس الوقت هجوم فرنسى، وسألنى الفرنسيون عما اذا كانت هناك اهمية عسكرية لذلك، فأجبتهم بالإيجاب اذ أن ذلك سيجبر عبد الناصر على توجيه غالبية قواته لصد الفرنسيين وترك قواته فى سيناء دون تدعيم، أما من الناحية السياسية فإن رد الفعل العربى والعالمى سيختلف فيما لو قامت اسرائيل بالحرب وحدها عما لو قامت بها فى نفس الوقت مع فرنسا.

وفى الوقت الذى أبلغنى الفرنسيون فيه صعوبة قيام قواتهم بالهجوم فى نفس اليوم الذى سنهاجم فيه، فإنهم سألونى نفس الأسئلة التى وجهها اليهم بن جوريون والتى لابد أن رؤساءهم سيوجهونها اليهم فى باريس: ما الذى نفعله لو وصلت قوات كل منا الى مواقعها المحددة دون أن ينتج عن ذلك نظام مصرى جديد؟ وماذا لو بدأ عبد الناصر حرباً عدائية، وأليس هناك خطر من أن تنقلب الحرب القصيرة الأمد الى حرب طويلة منهكة؟

وكانت تلك مشكلة بالفعل، ولم يكن هناك من مخرج لها، لكنها كانت تمثل لنا أكبر مشكلة مما تمثله لفرنسا، فنحن دولة ناشئة واى هزيمة سوف تصيبنا فى الصميم، أما فرنسا فدولة كبرى لن تهتز أسس وجودها حتى ولو اضطرت الى سحب قواتها، وأجبت بأن المصريين هم أصحاب المشكلة الحقيقية فهم الذين ستصيبهم الخسائر.

وفى ٤ اكتوبر (تشرين الأول) اجتمعت مع بن جوريون الذى وافق على كل

اقتراحاتى، وعلى الاستمرار فى الاستعداد للمعركة دون انتظار لمناقشة الحكومة لها واتخاذ القرار بشأنها، وعلى ان تقبل الأسلحة من فرنسا ـ فإذا ما ألغيت الخطة أعدناها أو دفعنا ثمنها، وأكد بن جوريون للوفد استعداده لابقاء قوات اسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة طالما كانت هناك على الضفة الغربية قوات فرنسية حتى ولو كانت رمزية.

واتفق الجانبان على ضرورة الحصول على موافقة بريطانيا ولو كان ذلك بالصمت.

لم يكن بن جوريون متفائلاً بشأن الخطة ولم يكن يتوقع أن توافق عليها الحكومة الفرنسية الا بنسبة ٢٠٪، وكنت أكثر تفاؤلا منه. ومضينا فى اتخاذ الاستعدادات اللازمة، وعقدت الاجتماعات اللازمة مع قادة الأفرع والأسلحة، وعقدت اجتماعا يوم ٨ أكتوبر (تشرين الأول) لاصدار الأوامر الخاصة بخطتنا التى اسميناها (عملية قادش) تيمنا باسم آخر موقع سكنه أبناء اسرائيل فى سيناء قبل أن يتوجهوا نحو الأرض الموعودة.

وكان من بين الأوامر التى أصدرتها الإصرار على ان الهدف ليس هو قتل أكبر عدد ممكن من جنود العدو وانما الاستيلاء على اسلحتهم ومعداتهم، وتقرر استخدام المظليين فى السيطرة على اهم مواقع، مع دفع المشاة بسرعة للتقدم الى الأمام حتى ولو تخطوا مواقع العدو، مع الاهتمام بألا يعتمد أى تشكيل فى تقدمه على مدى التقدم الذى تحرزه التشكيلات الأخرى، وحرصنا على ألا تكتشف مخابرات العدو الأمر وإلا فقدنا عنصر المفاجأة.

وفى يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) قامت قواتنا بهجوم ـ تم تخطيطه بسرعة ـ على قرية قلقيلية الأردنية. وقد حقق الهجوم اهدافه لكن خسائرنا كانت كبيرة اذ قتل منا ١٨ (منهم ٨ ضباط) وجرح ٥٠ (من بينهم ١٤ ضابطا) هذا بالإضافة الى أن علاقاتنا مع بريطانيا تعرضت للخطر. وكانت الأيام القليلة السابقة قد شهدت مقتل عدد من العمال والفلاحين الإسرائيليين،

وكان بن جوريون قد طلب منى عدم القيام بأعمال انتقامية وخاصة فى هذا الوقت الذى يجب أن نظهر فيه كضحايا لا معتدين، وازاء استمرار اعمال العنف فقد قررت الحكومة القيام بأعمال انتقامية تركزت فى قلقيلية.

واستمرت معركة قلقيلية طوال الليل، ولولا قيام مجموعة انقاذ بفتح طريق العودة لجزء من القوة كان محاصراً، لكانت قوة المدرعات والمشاة قد تقدمت تحت حماية الطيران - وفقاً لأوامرى - لانقاذ المحاصرين وسرعان ما بدأت التعقيدات السياسية، فقد اتصل القنصل البريطانى بوزارة الخارجية الإسرائيلية لإبلاغها أن الملك حسين طلب ارسال الطيران البريطانى لنجدة القوات الأردنية وفقاً لمعاهدة الدفاع المشتركة، وفى اليوم التالى أبلغ القائم بالأعمال البريطانى رئيس الوزراء أن طابوراً عراقياً يتقدم نحو الأردن، واذا اتخذت اسرائيل أى إجراء فإن بريطانيا ستقف الى جوار الأردن.

وأعترض بن جوريون على التحرك العراقى واحتفظ بحرية اتخاذ الإجراء اللازم فى حال حدوثه، وبالطبع لم تسهم هذه التطورات فى تحسين العلاقات مع بريطانيا فى الوقت الذى كنا فيه على شفا تحرك مشترك ضد مصر.

■ ■ ■

١٤ ـ الاتصال الفرنسى الثانى

وفى ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) بعث جى موليه رئيس وزراء فرنسا ببرقية الى بن جوريون يدعوه فيها الى باريس لبحث الأمور بشكل مباشر، وقررنا السفر يوم ٢١ الى باريس بعد ان عرفنا نتائج الاجتماع الفرنسى البريطانى الأخير والذى سلم فيه البريطانيون اعلانا يتضمن فقرتين بتوقيع ايدن رئيس الوزراء وطلبوا ابلاغنا به، وقد شعر البريطانيون بأن هذا الإعلان كفيل بطمأنة قلوبنا وجعلنا نبدأ المعركة بمفردنا ونصل الى القناة.

ونصت الفقرة الأولى على ان بريطانيا وفرنسا سوف تطلبان من مصر واسرائيل سحب قواتهما من منطقة القتال، فاذا رفضت احداهما تدخلت قوات الدولتين لضمان سيولة الملاحة، وهذا الشرط يقدم الأساس القانونى والسياسى والمعنوى لغزو مصر، أما الفقرة الثانية فتؤكد ان بريطانيا لن تدخل الحرب الى جوار مصر حتى ولو طلبت منها ذلك، ولم يكن الحال هو نفسه مع الأردن التى ما زالت بريطانيا مرتبطة معها بمعاهدة دفاع.

ولم يعتبر بن جوريون هذا الإعلان أساساً للقيام بعمل مشترك، وأصر على ألا نكون البادئين بالحرب بينما يظهر البريطانيون والفرنسيون بمظهر ملائكة السلام الذين يعيدون الهدوء الى المنطقة، وقلت لبن جوريون اننى أنظر للأمور من زاوية اخرى، فالبريطانيون والفرنسيون بطائراتهم الخمسمائة قادرون على القضاء على سلاح الطيران المصرى، بالإضافة الى الأسلحة الأرضية والبحرية، لكننا نملك ميزة يحتاجونها وهى أننا نقدم لهم الحجة اللازمة للعملية، وبذلك تتاح لنا الفرصة لدخول (نادى) معركة السويس. كذلك فقد كنت أرى ان مواجهتنا مع مصر تشكل حالة من الحرب المستمرة، فإزاء

تصرفات ناصر كغلق العقبة كان علينا ان نأمر قواتنا بعبور الحدود والقتال، أى ان الرأى البريطانى سليم ونستطيع نحن أن نقدم الحجة اللازمة.

وأبلغت بن جوريون أننا قد نفقد فرصة تاريخية لن تسنح مرة ثانية، فسوف يتحتم علينا أن نمضى فى صراعنا مع ناصر بمفردنا بدون معونة انجلترا وفرنسا وبدون الأسلحة الفرنسية التى سنحصل عليها فى اطار العملية، ولنفرض أننا قمنا من جانبنا فقط باحتلال شرم الشيخ لتأمين الملاحة فى العقبة، ألم يكن ذلك كفيلاً بإثارة الدول الكبرى وضغطها ضدنا. لهذه الأسباب كنت مقتنعاً بأن نقوم بالحرب على أن تؤمن لنا فرنسا الحماية البحرية والحماية الجوية الدفاعية لحيفا وتل أبيب، وعلى أن تشترك بريطانيا وفرنسا بعد عدة أيام بالاستيلاء على القناة.

وجاءت طائرة فرنسية لتقلنا الى باريس، وجاء على متنها اثنان من أعضاء الوفد الفرنسى للبدء فى المحادثات قبل الوصول الى باريس... وكان محور الحديث يدور حول (الحجة) أو (السيناريو) كما أسماه الفرنسيون، ولم تكن بريطانيا قد تزحزحت عن موقفها، وحاول الفرنسيون اقناعنا بقبول العرض الوحيد الذى يمكن لبريطانيا ان تشترك بمقتضاه، وهو ان تظهر كوسيط يعيد النظام للمنطقة.

وسألت الفرنسيين عما اذا كانوا مستعدين لنجدتنا اذا ما تعرضت مدننا للقصف خلال الساعات الاربع والعشرين، فأجابوا بالنفى، وأضافوا ان بريطانيا ترى أن ذلك سيفسد (السيناريو) ولم أتمالك نفسى عند هذا الحد، وانفجرت، فلم أكن أفهم ان يقوم طرف بعملية ثم يأتى شريكاه ليطرداه... أو أن تتعرض مدننا للقصف المصرى لأن طائراتنا مشغولة بالتمهيد للغزو الفرنسى البريطانى ثم لا تأتى طائراتهما لنجدتنا لسبب واحد هو عدم افساد (السيناريو). وهنا عرض الفرنسيون ابقاء دوريات فرنسية فى اسرائيل، تقوم بعمل واحد هو الدفاع عن المدن الإسرائيلية فى حالة الطوارئ فقط، ومع أننى

لم أرفض هذا العرض، فقد كنت ارى ان قيامنا بعمليات بالقرب من القناة لن يدفع المصريين الى قصف مدننا خوفاً من ان نرد بالمثل.

وتوجه وفدنا الى المطار مكونا منى ومن بن جوريون وشمعون بيريز وموردخاى بار أون مدير مكتبى، ولم يكن بن جوريون قد علم بأمر المبعوثين الفرنسيين إلا عندما أبلغته به ونحن فى طريقنا الى المطار. وكاد ان يلغى الرحلة برمتها عندما علم ان الفرنسيين يريدون فرض الخطة البريطانية علينا، وعندما وصلنا المطار قال لهما بن جوريون، وهو يتمالك أعصابه بصعوبة، ان الأمل الوحيد الباقى هو لقاء رئيس وزراء فرنسا.

ووصلنا الى باريس يوم ٢٢ بعد رحلة مرهقة استمرت ١٧ ساعة، وبعد استراحة قليلة بدأت الأجتماعات، وضم الوفد الفرنسى رئيس الوزراء ووزيرى الخارجية والدفاع، وبدأت المناقشات بأمور عامة، وبدأ بن جوريون بعد ذلك بتحذير الفرنسيين من أنه سوف يقدم اقتراحا قد يبدو للوهلة الأولى خياليا أو ساذجاً. وقال أنه يرى ان الأردن لا تملك مقومات الدولة ولذا فانه يقترح تقسيمها، فيعطى الجزء الشرقى منها الى العراق مقابل تعهدها بإسكان اللاجئين فيها، أما غرب الأردن فيكون إقليماً له حكم ذاتى فيصبح جزءا من إسرائيل، وتتنازل لبنان عن بعض من ضواحيها الإسلامية، وقال بن جوريون إن هيكل الشرق الأوسط بهذا الشكل يسمح لإنجلترا بالسيطرة على العراق الذى يأخذ الأردن، ويكون النفوذ الفرنسى مهيمنا على لبنان وربما على سوريا بالإضافة الى الصلات الطيبة مع اسرائيل على مضايق تيران.

قال بن جوريون إن ذلك سوف يجعل من السهل قيام سياسة مشتركة بين الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا واسرائيل.

وأشار بعدم التسرع فى العمل العسكرى ونصح باستكشاف الاحتمالات السياسية، واكد ان الوقت ملائم لإعادة تقييم الأمور على هذا النحو.

واستمع الفرنسيون الى بن جوريون باهتمام، لكنهم كانوا متمسكين بالخطة العسكرية، وكان من رأيهم ان الأمريكيين لن يقتنعوا بضرورة قلب نظام عبد الناصر، وأنهم لم يفهموا المشاكل الأوربية الا قبل مرور سنتين، فذلك ما حدث فى الحرب العالمية الأولى عندما تدخلوا عام ١٩١٧ وفى الحرب العالمية الثانية عندما تدخلوا عام ١٩٤١م.

وتحدث بينو - وزير الخارجية - فحذر بن جوريون من ان السعى لحل جميع المشاكل مرة واحدة لن يحل أى مشكلة، وان ايدن يواجه متاعب من البرلمان ومن حزب العمال بل ومن حزبه وحكومته، وكلما طال الوقت كلما ازداد موقفه ضعفا، اما ناصر فقد كانت قبضته تزداد إحكاما كل يوم وصلاته تتوثق مع الروس، ولهذا فإنه يرى أن الفرصة المناسبة السانحة الآن قد تضيع. وعدد بينو ثلاثة أسباب للقيام بالعمل فوراً هى: أن البحر الابيض المتوسط ستشتد أمواجه بعد هذا الشهر ولن يصلح للنزال، وأن امريكا مشغولة فى انتخابات الرئاسة ولا وقت لديها للشرق الأوسط، وأن روسيا مشغولة فى مشاكل داخلية فى بولندا وغيرها.

وعاد بن جوريون الى تأكيد انه لا يريد حل كل المشاكل مرة واحدة، وانما على مراحل، وهكذا نشأ الخلاف بين بن جوريون والوفد الفرنسى على أساس شخصى، فبن جوريون كان يحبذ الحلول الشاملة، أما الفرنسيون فكانوا يبحثون عن الترتيبات العملية للغزو العسكرى الذى يعتزمونه مع البريطانيين، وكان بن جوريون يريد انتهاز فرصة وجود اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا لتحقيق سياسة متفق عليها تغطى كل مشاكل الشرق الأوسط.

وأوضح وزير الدفاع الفرنسى انه ما لم تتم العملية خلال أيام فإن فرنسا ستنسحب منها، اذ لم يعد ثمة داع لحشد كل هذه السفن، كما أكد استعداد البحرية الفرنسية لحماية شواطئ اسرائيل، بل والمشاركة فى الدفاع ضد الطائرات، كذلك فقد وافق علي ابقاء قوات جوية فرنسية فى اسرائيل

واشراكها اذا اقتضى الأمر فى الدفاع الجوى.

وفى الساعة السابعة مساء وصل سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا، ولم يشترك معنا فى الاجتماع وانما التقى بالفرنسيين فى غرفة مجاورة حيث لخصوا له ما تم حتى الآن من محادثات، ثم عاد الفرنسيون بمفردهم واستمر الاجتماع، وبات واضحاً ان الموقف وصل الى طريق مسدود لا مخرج منه، فلم يكن بن جوريون مستعدا لقبول المقترحات البريطانية وأبدى استعداده للسفر إلى إسرائيل صباح اليوم التالى، وهدد رئيس وزراء فرنسا بتسريح قواته المعبأة ما لم يتخذ قرار حاسم وسريع.

وعاد بينو الى قراءة الجدول الزمنى الذى وضعته بريطانيا بدءاً من تحرك اسرائيل ثم الانذار البريطانى الفرنسى فقصف المطارات المصرية ان رفضت مصر، وتقرر عقد اجتماع آخر مع البريطانيين على أن ننضم نحن اليهم، واستمر الاجتماع ساعة ونصفاً ثم استؤنف بعد العشاء حيث عاد لويد الى لندن لابلاغ حكومته.

كان الاجتماع غريباً، فقد بدأه بن جوريون وسلوين لويد بمواقف غاية فى التشدد ثم انهياه بقدر مفاجئ من الاستعداد والتفاهم، ويبدو انهما وجدا استحالة فى التفاهم بينهما، الأمر الذى لا تجدى معه أية تفسيرات أو توضيحات، ولذا قررا المضى مباشرة الى نقاط الاتفاق النهائية بينهما، وبرغم رقة وزير خارجية انجلترا، فانه لم يخف امتعاضه من الاجتماع والحاضرين وموضوع البحث.

وبدأ لويد حديثه كتاجر يقايض على بضاعته، فقال انه سوف يصل الى اتفاق مع مصر حول القناة خلال سبعة ايام، وان محادثاته مع فوزى وزير خارجية مصر قد أسفرت عن موافقة مصر على الاعتراف بهيئة المنتفعين بالقناة، وقبول الإشراف الدولى عليها، وتحمل العقوبات التى ينص عليها ميثاق الأمم المتحدة فى حالة خرق هذه التعهدات.

أما لماذا نحن هنا الآن ما دامت الأمور على هذا النحو؟ فقد أجاب لويد على هذا التساؤل بقوله ان ذلك سوف يزيد من قوة عبد الناصر.

وحيث إن حكومة صاحبة الجلالة تريد اقصاء عبد الناصر، فإنها مستعدة للقيام بعمل عسكرى مشترك وفقاً للخطة الفرنسية البريطانية، ويتم بمقتضاها غزو الجيش الإسرائيلى لسيناء ٤٨ ساعة، تقوم خلالها فرنسا وانجلترا بتوجيه الإنذار، فاذا لم تذعن مصر، بدأ الغزو البريطانى الفرنسى وأقصى عبد الناصر، ولن تقوم بريطانيا بمساعدة مصرَ ولا بمساعدة الأردن اذا ما هاجمت اسرائيل، لكنها سوف تساعد الأردن اذا ما هاجمتها اسرائيل.

وكان رد بن جوريون حازماً ومختصراً، فاسرائيل ليست مستعدة لأن توصم بالعدوان ثم تتلقى انذاراً بالجلاء عن القناة، وهناك احتمال بأن يكون رد فعل مصر هو قصف المدن الإسرائيلية، مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال دعم سلاح الجو المصرى بالمتطوعين البولنديين والتشيك.

ولذا فان اسرائيل ليست على استعداد للبدء فى الهجوم على مصر واذا ما هاجمتها مصر فهى قادرة على هزيمتها ولو تطلب الأمر تضحيات وخسائر جسيمة.

وبعد أن شرح بن جوريون ما لم نكن على استعداد لعمله، أستأذنت منه لشرح ما نحن مستعدون لعمله، وشرحت خطتنا التى تتلخص فى قيام قوة اسرائيلية بعبور الحدود المصرية الساعة الخامسة مساء يوم محدد، ويتم ذلك بإسقاط مظليين قرب القناة وراء الخطوط المصرية. وفى مساء اليوم نفسه يجتمع الفرنسيون والبريطانيون ويطلبون من مصر سحب قواتها من القناة لضمان سيولة الملاحة، ثم يطلبون من اسرائيل ألا تتقدم قواتها بعد القناة ونستجيب نحن لذلك، فاذا لم تستجب مصر قامت القوات الجوية الفرنسية والبريطانية بقصف المطارات المصرية صباح اليوم التالى.

ولم يبد على سلوين لويد أنه قد فوجئ أو صدم بهذه الخطة، ولم يطلب سوى ألا تكون القوة الإسرائيلية صغيرة وإنما ان تشن (عملا حربياً حقيقياً)، وإلا ما كان هناك داع للإنذار ولظهرت بريطانيا كمعتد، وكان لويد يرى أن لبريطانيا أصدقاء كالدول الإسكندنافية لا ترضى عن قيام بريطانيا ببدء الحرب، ولم اجرؤ على النظر إلى بن جوريون وهو يسمع لويد، ولا اشك فى أنه بذل جهداً كبيراً كى لا تفلت منه مشاعره ويظهر غضبه.

ثم تحدث رئيس وزراء فرنسا فوعد بتقديم مساعدة جوية فرنسية لإسرائيل وبإدخال القوات الجوية الفرنسية عند الطوارئ انطلاقاً من قواعدها فى قبرص، وعلى الفور اعلن لويد معارضته لذلك.

وهنا لم يتمالك بن جوريون اعصابه وسأله عما اذا كانت حكومته قد قدرت مدى الخسائر التى قد تتعرض لها المدن الإسرائيلية خلال اليومين اللذين ستخوض فيهما الحرب بمفردها؟ ورد لويد بأنه جاء الى باريس لكى يناقش الخطة الفرنسية البريطانية كما وضعت، لكنه يواجه الآن اقتراحاً جديداً، ولم يبد على لويد انه رفض هذا الاقتراح اذ عاد الى السؤال عن القوات الإسرائيلية التى ستعبر الحدود فأكدت له انها ستكون (عملا حربياً حقيقياً) وهنا اقترح هو أن يصدر الإنذار فى نفس الليلة التى نبدأ فيها الحرب.

وسافر لويد الى لندن عند منتصف الليل، وقرر بينو أن يسافر غداً للقاء رئيس الوزراء البريطانى على ان يعود يوم ٢٤ أكتوبر (ت١).

وكان بن جوريون حريصاً على أن يسمى الخطة التى عرضتها بـ (خطة ديان)، واعتقد انه لم يكن يناور بذلك أمام البريطانيين والفرنسيين، وإنما كانت لدية بالفعل شكوك حولها.

وعكفت على مراجعة البرقيات التى وصلتنى فوجدت إحداها تفيد بأن رئيس الوزراء الأردنى المقبل هو سليمان النابلسى المعادى للبريطانيين والذى

أعلن انه سيلغى المعاهدة مع بريطانيا، كذلك فإن الأردن سوف ينضم الى القيادة العسكرية السورية المصرية المشتركة وسوف ينعقد فى عمان فى نفس اليوم اجتماع لرؤساء أركان حرب الجيوش الثلاثة المصرية والسورية والأردنية برئاسة عبد الحكيم عامر.

وتصاعد التوتر الدولى، وحل الدور على فرنسا، فبعد تلك الضربة التى وجهتها الأردن الى بريطانيا ومجىء رئيس وزراء معاد لها، اكتشفت إحدى السفن المصرية وهى تحاول تهريب الأسلحة الى الثوار الجزائريين وثارت ثورة البرلمان الفرنسى على التدخل المصرى فى الشئون الداخلية الفرنسية، وقبلها كانت فرنسا قد اجبرت طائرة بن بيلا ورفاقه على الهبوط، وهكذا تضاءل دور عبد الناصر فى معاداة الغرب.

وأثناء تناول الغداء كانت هذه الموضوعات مثار حديثنا، ودار النقاش بيننا وبين الفرنسيين حول الخلافات بيننا وبين بريطانيا، وحاول بينو أن يحصل على (كلمتنا الأخيرة) ليحملها معه الى لندن. ووعدناه بأن نعطيه هذه الكلمة بعد اجتماع منفصل لوفدنا، وكانت هذه الاجتماعات المنفصلة غالباً ما تتم أثناء الاجتماعات إما فى ركن من القاعة او فى غرفة مجاورة.

وكانت هذه الاجتماعات المنفصلة لوفدنا مختلفة عن الاجتماعات المنفصلة للوفد الفرنسى، فهم ذوو رتب ومناصب عالية يستطيعون اصدار القرار كل فيما يخصه، أما وفدنا فكانت الفجوة فيه واسعة بين مناصب كل منا ورتبته، ولذا كان وفدنا فى الحقيقة هو بن جوريون، كان كالحاخام وكنا نحن اتباعه. ولم تكن اجتماعاتنا معه للنقاش أو البحث وإنما كنت أنا وبيريز فقط نحاول اقناعه باقتراحاتنا اذا لم يكن قد قرر قراره بعد.

وكنا ندرك أن هذا الاجتماع المنفصل حاسم، اذ لابد أن نعطى بينو كلمة يحملها الى لندن فإما أن نشترك فى الحرب او تلغى الخطة.

ولم يكن بن جوريون قد وصل الى قرار، لكنه كان مستاء من عدم قبول اسرائيل كشريك كامل فى العملية، ولم يكن بالفعل مستعداً لاتخاذ مواقف مرنة أو تنازلات، وكنت أعتقد أنه يبالغ فى تصوير مدى الخراب الذى قد يلحقه الطيران المصرى بمدننا خلال الساعات الأولى من الحرب، وربما كان يتخذ ذلك ذريعة للانسحاب من العملية.

واقترح بيريز ان نرسل مركباً اسرائيلياً الى بورسعيد، وعندما يمنعه المصريون تتوفر لدينا الحجة للحرب وللتدخل الفرنسى البريطانى، واستقبل بن جوريون الاقتراح بالصمت، وقلت أنا أننى من الوجهة العسكرية البحتة أحبذ قبول العرض البريطانى، اذ أن فى امكاننا الصمود خلال الساعات الأولى للحرب، فقال بن جوريون انهم يريدون منا قوة كبيرة نبدأ بها الحرب، فماذا يحدث لو حوصرت قوات المظليين كما حدث فى قلقيلية؟ وقال: هل نسينا الحالة التى وصل اليها شعبنا عندئذ؟

وأجبت بأن شعبنا ثار ضد عملية قلقيلية لأنها لم تحسم شيئاً اذ استمرت اعمال التخريب، أما عندما يدرك شعبنا، بعد اليوم الأول ان هذه الحرب حاسمة وانها فرصة تاريخية لا يجب إضاعتها، فسوف يقبلها هى وتضحياتها، وإلا تحتم علينا المضى وحدنا فى الحرب وتحمل خسائر أكبر، وأتبعت ذلك بشرح للخطة حيث نسقط كتيبة مظلات فى اليوم التالى ليحتل تماده ونخل، الى أن يصل الى ممر متلا.

وأضفت الى ذلك أننا سوف نقصر العمليات طوال اليوم على معارك أرضية بلا طيران بحيث يفسرها المصريون على أنها عملية انتقامية كبيرة ولا يقلبونها الى حرب شاملة، فلا يعبرون الحدود ولا يضربون المدن الإسرائيلية بالطائرات، وأشرت الى أن ذلك يحقق كل المطالب التى تقدمت بها بريطانيا، وسوف نخبرهم بحجم القوات لكننا لن نخبرهم بمواقع العملية، اذ سينصرف ذهن البريطانيين الى أننا سنتحرك على محور العريش -

القنطرة. فى حين سيكون تحركنا بالفعل نحو الجنوب فى سيناء. وعندئذ لن تحاصر قوة المظليين، وإنما ستصلها الإمدادات فى اليوم التالى.

وأستمع بن جوريون الى حديثى دون ان يبدى اى تعليق، ثم وافق على أن أقوم بإبلاغ بينو بتفاصيل العملية على أن أفهمه جيداً أن الخطة خطتى ولا دخل لبن جوريون بها، كما وافق على ابلاغه أيضاً باقتراح بيريز، وتركنا وصعد الى غرفته، وكان معنى ذلك أن خطتنا ليس لها سند رسمى.

وعدت أنا وبيريز الى الاجتماع مع الفرنسيين، وعرض بيريز اقتراحه بشأن المركب الإسرائيلية الى بورسعيد، ومع أن الفرنسيين وافقوا على الفكرة فقد عارضوا ادخال اقتراحات جديدة فى هذه المرحلة لأن ذلك سوف يعطى البريطانيين مبرراً للتأخير وربما لتأجيل العملية كلها.

وبعد أن شرحت الخطوط العامة للعملية، طلب منى بينو ان أعيدها لكى يكتبها ويحملها الى لقائه مع ايدن، وعندما أكدت له أن بن جوريون لم يوافق بعد على خطتى هذه قال لى (إننى اعرف كيف تعملون سوياً).

وحسدته على هذه الثقة، وسافر بينو الى لندن، وبقى بن جوريون فى غرفته، وقررت أنا وبيريز أن تكون الليلية (إجازة)، ولكننا لم نستطع الاستماع بالعرض العارى الذى شاهدناه فى أحد الملاهى الليلية، اذ كانت أذهاننا مشغولة بما هو أهم.

وعدت الى الفندق أفكر فى الموقف. فالقوات الجوية الفرنسية التى وعدنا بها كافية، ومادام البريطانيون عازمون على التدخل فإن تأخيرهم عدة ساعات ليس مهماً، كانت المشكلة هى موقف بن جوريون، فقد تأكدت أن لديه شكوكاً وقلقاً كبيرين حول خطتى، وأنه مازال يفكر: هل نشترك أم لا نشترك، فهو من ناحية لم يكن يشارك الفرنسيين تفاؤلهم بشأن الموقف الأمريكى، وقد خابت آماله من ناحية أخرى لعدم امكانة اقناعهم ببحث حل شامل

للشرق الأوسط، وكانت قناعته كبيرة بأنه ما لم تكن العملية العسكرية جزءا من سياسة شاملة، فإن مصيرنا الفشل، وزاد من مخاوفه ذلك الموقف غير (الجنتلمان) الذى وقفته بريطانيا معنا.

وكنت من ناحيتى مؤمناً بتفاصيل الخطة وبأنها كافية لخداع المصريين وايهامهم بأن العملية لا تعدو كونها غارة كبيرة، صحيح أن التصرف وفق هذه الافتراضات كان أمرا يحمل فى طيه كثيراً من المغامرة، اذ كان من الممكن أن تتعرض مدننا لقصف مصرى رهيب، لكننى لم أكن أتوقع ذلك من جانب رئيس الأركان المصرية، بناء على التقارير التى ستصله من المواقع التى ستهاجمها قواتنا خلال اليوم الأول والتى لن تعطيه انطباعاً بحرب شاملة، وعند هذا الحد من التفكير أسلمت عينى للنعاس.

وفى الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالى، ٢٤ أكتوبر (ت١) استدعانى بن جوريون أنا وبيريز لاجراء مشاورات نهائية، وطلب منى أن أعيد شرح الخطة، فاستعنت على ذلك بعلبة سجائر بيريز رسمت عليها خريطة للعمليات والأهداف، ورسمت ثلاثة أسهم تحدد مسار قواتنا، وكنت سعيداً بعدم وجود خريطة سليمة معى اذ بدت العملية نحو الجنوب لاحتلال شرم الشيخ، فوق ورق علبة السجائر، عملية بسيطة سهلة التنفيذ.... فعلى هذه الورقة لا توجد جبال ولا وديان ولا صحارى.

وبعد ذلك سحب بن جوريون ورقة كان قد كتب عليها عدداً من الأسئلة التى تبين أنه قد وصل الى قرار ايجابى بشأن الخطة، اذ كانت كلها تدور حول (كيف) و(متى) و(ماذا) ولم يكن بينها ما يبدأ ب (اذا). وكانت أجوبتى على بعض الأسئلة، هى:

■ تكون ساعة الصفر بالنسبة للجيش الإسرائيلى، يوم الأثنين ٢٩ أكتوبر (ت١) الساعة الخامسة.

■ تكون ساعة الصفر للبريطانيين والفرنسيين يوم الأربعاء.

■ فى حالة رفض مصر، تبدأ القوات الفرنسية والبريطانية قصف المطارات المصرية فجر يوم الأربعاء، ويتم انزال فرقتين فرنسيتين يوم ٢ نوفمبر (ت٢).

■ أننى لا اعرف ما اذا كانت القوات البريطانية والفرنسية ستسيطر على ضفتى القناة الغربية فقط.

■ أننى لا أعلم اذا ما كانوا سيزحفون الى القاهرة، وأشك فى ذلك.

■ بالنسبة لخطتهم فيما يتعلق بسيناء فإننى أذكر أن سلوين لويد قال لى أثناء العشاء (آمل ألا تكون لديك احلام بانتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على سيناء).

■ لا أعرف ما اذا كان المصريون سيقيمون نظام حكم جديد.

■ إن لويد قال إن بريطانيا لن تحارب اسرائيل، لكنها سوف تتدخل اذا هاجمتنا الأردن وردنا عليها.

■ إن الفرنسيين والبريطانيين لا يمانعون استيلاءنا على مضايق تيران.

■ إننى أفكر فى تأخير الاستيلاء على غزة ورفح الى أن تستوعب القوات المصرية فيهما حقيقة ما يحدث.

كانت القوات المصرية فى غزة تتكون من فرقتين احداهما فلسطينية، وكان تقديرى أن الامدادات سوف تأتى من مصر الى غزة يومى الأثنين والثلاثاء، وعندما تتدخل بريطانيا وفرسنا، فسوف يكون تحرك القوات المصرية فى الاتجاه المضاد عائدة الى مصر.

واستمرت المناقشات حتى الثانية بعد الظهر، وقبل ان ننهى الاجتماع قال بن جوريون (ان خطة ديان جديدة، إنها تنقذ الأرواح). وبعدها مباشرة انتقل للحديث عن المملكة اليهودية التى كان يقرأ عنها خلال الرحلة فى الطائرة

فى كتاب للمؤرخ بروكوبيوس، وقال (إننى أتعجب كيف قامت هذه المملكة فى يوتفات بدون وجود مياه. لماذا دأب اليهود على تحطيم موسى حول مشكلة مياه الشرب؟).

وفى الساعة الرابعة عاد بينو من لندن، واستدعينا للاجتماع به، حيث أبلغنا ان وفداً بريطانياً سوف يصل حالاً، وأن انطباعات ايدن خلال لقائه به كانت أكثر حرارة من انطباعات لويد.

وفيما يتعلق ب (الحجة) فقد أصر البريطانيون على أن تكون العملية (حرباً حقيقية)، ووافقوا على تقديم تحركهم بحيث يتم فى الساعة الرابعة من فجر الأربعاء، كما وافقوا على تضمين الإنذار فقرة تتعلق بوقف النار، حتى اذا ما قصفت مصر المدن الإسرائيلية اعتبر ذلك خرقاً للإنذار، كذلك استبدلوا كلمة (الإنذار) بسحب القوات من القنال ب (المناشدة).

وفى الساعة الرابعة والنصف وصل الوفد البريطانى برئاسة باتريك دين وعضوية سكرتير لويد المدعو لوجان.... اى ان مستوى التمثيل فى الوفد قد انخفض. وبدأ الاجتماع بتقديم من بينو، ثم آثار بن جوريون مسأله المساعدة البريطانية للأردن وتصممنا على الاستيلاء على مضايق تيران لأنها (قناة السويس الإسرائيلية). وعندما سأل البريطانيون عن خطة عملياتنا، لم أبلغهم - لا هم ولا الفرنسيين - بالتفاصيل واكتفيت بتأكيد التزامنا بحجم القوات المطلوبة وأن انزال المظليين سيتم بالقرب من مدينة السويس لا مدينة بورسعيد.

وبعد لقاء جانبى لوفدنا استمر ساعتين، عدنا، وتم اقرار الخطة رسمياً على النحو التالى:

■ بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر (ت١) ١٩٥٦، تقوم القوات الإسرائيلية بهجوم واسع النطاق على القوات المصرية بهدف الوصول الى قناة السويس فى اليوم التالى.

■ فى يوم ٣٠ أكتوبر (ت١) تقوم حكومتا بريطانيا وفرنسا بتسليم حكومتى اسرائيل ومصر ـ كل على حدة وفى نفس الوقت ـ طلباً قائماً على الخطوط الأساسية التالية:

إلى حكومة مصر:

■ وقف مطلق لاطلاق النار.

■ انسحاب القوات الى بعد ١٠ أميال من قناة السويس.

■ قبول احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية على القناة، من أجل تسهيل الملاحة لكل سفن العالم، والى ان يتم التوصل الى ترتيبات نهائية.

إلى حكومة إسرائيل:

■ انسحاب قواتها الى بعد ١٠ اميال شرقى القناة.

■ سيتم ابلاغ الحكومة الإسرائيلية بقبول مصر، فاذا اعترضت احدى الدولتين أو لم تعلن قبولها خلال ١٢ ساعة، فللقوات الفرنسية والإنجليزية اتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان تنفيذ مطالبها.

■ لن يطلب من اسرائيل تنفيذ الطلب المقدم اليها فى حالة رفض مصر.

■ فى حالة رفض مصر تشن عليها القوات الفرنسية والبريطانية هجوماً فى الساعات الأولى من صباح ٣١ اكتوبر (ت١) ١٩٥٦م.

■ ترسل إسرائيل قواتها للاستيلاء على خليج العقبة ومضايق تيران وصنافير لتأمين الملاحة فى هذا الخليج.

■ لن تهاجم إسرائيل الأردن خلال عملياتها ضد مصر، فإذا هاجمت الأردن اسرائيل فسوف تقف بريطانيا الى جانب الأردن.

ولم يستطع بن جوريون إخفاء توتر اعصابه... واخذ يعيد قراءة هذه

الفقرات مرات ومرات وكلمة كلمة، ثم طوى الورقة ووضعها داخل جيب سترته.

كانت أهداف الأطراف واضحة، والفرق الوحيد هو أن احتلال قناة السويس بواسطة الفرنسيين والإنجليز كان مؤقتاً، أما احتلالنا لخليج العقبة فقد نص عليه الاتفاق وعلى أنه ليس مؤقتاً، وكانت هناك خطة اخرى هى أن فرنسا وبريطانيا أبلغتا اسرائيل باحتلالهما وحدهما للقناة، كذلك فإن اسرائيل ابلغتهما بأنها ستحتل خليج العقبة وحدها.

يضاف الى ذلك انه لم يعد هناك انذار الا لمصر، أما لاسرائيل فقد أصبح الأمر طلباً يمثل جزءاً من العملية.

وتسللت من الاجتماع حيث أرسلت برقية عاجلة الى رئيس العمليات أبلغته بأن عملية قادش قد حانت، وطلبت اليه أن يعبئ القوات فوراً، وان يحافظ على السرية، وأن يستعمل الخداع بحيث تبدو العمليات وكأنها موجهة ضد الأردن بسبب دخول القوات العراقية اليه، وقفلت عائداً الى قاعة الاجتماع حيث وجدت الأعصاب متوترة والجميع لا يدرون ماذا يفعلون، لكن الحاضرين كانوا راضين عما توصلوا اليه، وبدأ البريطانيون بمغادرة القاعة، ثم تبعناهم مودعين مضيفينا بحرارة.

ووصلنا الى اسرائيل فى منتصف ٢٥ أكتوبر (ت١) وتوجهنا من فورنا الى مقر قيادة الأركان حيث كنت قد اعددت خلال الرحلة الأوامر اللازمة لاصدارها على الفور وخاصة فيما يتعلق بالعمليات، وتم تغيير أهداف الخطة الأساسية لتصبح وفقاً لالتزامنا بالخطة، تهديد قناة السويس، والاستيلاء على خليج العقبة، وهزيمة القوات المصرية.

وكنت فيما يتعلق بالهدف الأخير، قد تناقشت طويلا مع بن جوريون خلال وجودنا فى باريس، ففى حالة الصراع القائم فى منطقتنا، لم يكن الأمر كما هو الحال فى كل الحروب، وانما كان الحرص هنا على إراقة أقل

قدر من الدماء، ولذا حددت الأوامر بالالتزام (باشاعة الفوضى بين القوات المصرية وتحقيق انهيارها).

أما التغيير الآخر فى خطتنا الأساسية فكان يتعلق بالطيران، ولم تعد الهجمة الجوية من جانبنا هى نقطة البدء، وإنما يقوم الطيران بنقل المظليين ويبقى جاهزاً فى مواقعه، فإذا ما استخدم المصريون طيرانهم قابلناهم بالمثل مع تحديد القتال فى منطقة المعارك.

وعندما خرجت من الطائرة عائداً من باريس، كنت آمل ألا يحدث أى تغيير آخر فى الخطة، فلم يعد باقيا إلا أربعة أيام فقط.

■ ■ ■

١٥ ـ معركة سيناء

كان علينا ان نحارب فى صحارى وجبال تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة اسرائيل آنئذ، وبدأت المعركة مساء يوم ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) عندما تم اسقاط ٣٩٥ مظلياً من الفرقة ٢٠٢ عند المدخل الشرقى لممر متلا على بعد ٣٠ ميلا من القناة، وفى الساعة الخامسة والثلث كانوا قد اقلعوا ب ١٦ طائرة طراز داكوتا تطير على ارتفاع منخفض لتجنب الرادار المصرى، وقبل ان تصل الطائرات الى منطقة الإسقاط بدقيقتين علت الطائرات الى الارتفاع اللازم للإسقاط، وكانت اربع من طائراتنا طراز موستانج قد قامت قبل ذلك بساعتين بقطع كافة اسلاك التليفونات المصرية فى سيناء بمحركاتها وأجنحتها، وهى تطير على ارتفاع أربع أقدام فقط. فى نفس الوقت كانت بقية قوات المظليين تحتشد على الجبهة الأردنية لتخدع المصريين وحلفاءهم، وكان عليهم ان يقطعوا ٦٥ميلا من الصحراء فى النقب، الى أن يصلوا الى حدود اسرائيل الجنوبية، ليبدأوا سيرهم بعدها نحو المعركة، ومضى قائدهم أريك شارون نحو الحدود المصرية، لا يعوقه عائق، فوصلنا بعد تسع ساعات، حيث هاجم اول موقع مصرى الكونتلا، وما أن اقتربوا حتى فر المصريون، واستمروا على الطريق الصحراوى بعد أن فقدوا عدداً من العربات والدبابات التى اصبحت دبابتين من أصل ١٣ دبابة، وخاضوا اول معركة لهم عند موقع تمادة الحصين، الذى سقط بعد معركة مريرة استمرت ٤٠ دقيقة.

وفى نفس الوقت اخترقت وحدات اخرى من وحدات شارون الخط المصرى حتى وصلت الى نخل واستولت عليه بعد عشرين دقيقة. وهناك

وعلى بعد ١٨٠ ميلا من نقطة انطلاقها، التقت الوحدة بالمظليين الذين أسقطوا قبل ذلك، وهكذا تم تأمين المحور الجنوبى، دون أن تتعرض الوحدة التى تم اسقاطها للحصار.

وفى نفس الليلة كان موقع النقب قد سقط، واستولت الفرقة الرابعة على موقع القسيمة وبذلك تم فتح الطريق نحو الجناح الجنوبى للجيش المصرى، وبذلك تحققت المرحلة الأولى من المعركة، وتم تحقيق الأهداف الأربعة التى تم وضعها لخطة اليوم الأول.

وكان رد الفعل المصرى وفق ما توقعته، اذا لم يستغلوا الميزة المتوفرة لديهم سواء فى الأسلحة أو الطائرات السوفيتية، ووصلتنى الأنباء عن استيلاء وحدة الاستطلاع فى الفرقة السابقة على موقع ديكا على بعد ١٠٥ أميال غربى الكونتلا، وكان معنى ذلك أن هذه الفرقة سوف تخوض اعنف المعارك فى المنطقة التى ركز فيها المصريون غالبية قواتهم... وكانت تلك هى معارك الحسم.

وعندما عدت من الجنوب الى مقر القيادة، علمت ان القوات الفرنسية والإنجليزية قد أجلت هجمتها على المطارات المصرية فجر يوم ٣١ كما خططت، وتوجهت الى بن جوريون، وكان مريضاً، فوجدت القلق مستبداً به ان يؤدى ذلك الى حصار فرقة المظليين فى ممر متلا، وطلب سحب هذه الفرقة فوراً فى تلك الليلة، وحاولت ان أؤكد له انه حتى لو انسحبت بريطانيا وفرنسا من الغزو فإننا قادرون على الانتصار، وأن تعزيز القوات أفضل من سحبها، وتنازل بن جوريون عن فكرة الجلاء، وإن بقى القلق مستبداً به على أرواح المظليين.

وفى المساء أصدر البريطانيون والفرنسيون إنذارهم الى مصر واسرائيل بوقف القتال والانسحاب الى بعد عشرة اميال عن القناة، وكان على مصر، خلال اثنتى عشرة ساعة، أن تقبل احتلال مدن القناة لضمان سهولة الملاحة فيها.

فى نفس الوقت كانت الولايات المتحدة أيضاً نشطة، ولكن فى الاتجاه المعاكس، فقد تلقى بن جوريون برقية من الرئيس ايزنهاور يطلب منه فيها انسحاب القوات الإسرائيلية، وأن ذلك سوف يحظى بتقدير الرئيس، وعندما لم يأت رد من اسرائيل، طلب هنرى كابوت لودج ممثل أمريكا فى الأمم المتحدة، عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن، وقدم فيه مشروعاً بقرار بأن تسحب اسرائيل قواتها وأن تمنع الدول الاخرى عن استعمال القوة او التهديد بها، وعندما انتهت فترة التأجيل التى طلبتها فرنسا وبريطانيا واسرائيل لمدة خمس ساعات كانت أنباء الإنذار البريطانى الفرنسى قد وصلت، واعتبر ايزنهاور ذلك عملاً من اعمال الخداع والخيانة من جانب حلفائه.

وبالطبع استخدمت فرنسا وبريطانيا حق الفيتو ضد قرار الأمم المتحدة.

وفى الوقت نفسه كانت اسرائيل قد ردت على الإنذار بالإيجاب شريطة ان يصل رد إيجابى من الجانب المصرى. وكما كان متوقعاً فقد ردت مصر بعدم استعدادها لقبول الإنذار.

ومع ذلك فإن الطيران البريطانى والفرنسى لم يقصف المطارات المصرية، وبقيت القوات الإسرائيلية فى سيناء تحارب تحت تهديد الطيران المصرى طوال يوم ٣١ أكتوبر (ت١) وسارع المصريون بإرسال التعزيزات الى سيناء وشرم الشيخ، وشرع سلاحها البحرى فى مهاجمة الشواطئ الإسرائيلية، وحتى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم لم يكن الطيران الأنجلو فرنسى قد هاجم قواعد الطيران المصرية.

لكن ذلك لم يمنع الفرقة السابعة المدرعة من خوض اعنف المعارك والاستيلاء على أبو عجيلة وبير حسنة، وجبل لفنى، وبير حما.

وبذلك اتيحت الفرصة للفرقة للتقدم بسرعة، رغم أنها بقيت خلال يومين غير قادرة على استدعاء الطران الإسرائيلى نظراً لسوء معدات الإشارة.

وكان على هذه الفرقة أن تستولى على منطقة روفادام لتحكم الخناق حول المصريين فى أم كتف وام شيهان. ومع ان الرجال كانوا مرهقين، بعد أن ظلوا يحاربون ثلاثة أيام، فإن قائدهم ظل يحفز هممهم لاستغلال فرصة الاختراق الذى أحدثوه، وواجه الرجال خنادق ومواقع مضادة للدبابات مجهزة بكافة أنواع المدافع، وخاضوا معركة خسرنا فيها كثيراً لكنها انتهت بتراجع المصريين الى العريش.

وأصبحنا بذلك مسيطرين على الطرق الثلاثة التى تتحكم فى جنوب سيناء.

أما فرقة المظليين فى ممر متلا فقد استمرت تقاتل طوال يوم ٣١ (ت١) لمدة سبع ساعات ابتداء من الثانية عشرة والنصف ظهراً.

وكان قائد الفرقة قد طلب الإذن باحتلال الممر، فمنح اذن بارسال دورية فقط بشرط ألا تشترك فى قتال جدى، لكن القائد لم يرسل دورية وانما ارسل كتيبة كاملة بعرباتها المدرعة، وما ان دخلت الكتيبة الى الممر حتى انهالت عليها النيران من الجانبين. وتعرضت مقدمة الكتيبة لخسائر كبيرة، فحاول قائد الكتيبة الإسراع لنجدتها عند الطرف الغربى للممر، لكنه وجد نفسه محاصا أيضا تحت النيران الكثيفة.

واستمر القتال من الواحدة بعد الظهر حتى الساعة الثامنة، عندما استطاع جنودنا الاستيلاء على الممر فى معركة لم تخض مثلها وحدة مقاتلة من قبل، وبقدر من الخسائر لم تلحق أى وحدة مقاتلة من قبل، اذ اسفرت عن مقتل ٣٨ وجرح ١٢٠ وكانت الفرقة فى بداية المعركة قد فقدت عربة الوقود وعربة الذخيرة وبعض العربات الأخرى.

وقتل قائدها بينما كان يقفز من عربته، ولم يكن امام الجنود الا ان يتسلقوا جوانب الممر ويهاجموا المصريين فى معركة بالسلاح الأبيض.

المهم اننا بعد احتلال الممر تخلينا عنه لكى تمضى قواتنا جنوباً نحو شرم

الشيخ، وقد أبلغنى عدد من ضباط الأركان عدم موافقتهم على أننى غفرت للمظليين هجومهم على الممر والخسائر التى ترتبت عليه. صحيح أن الأسف تملكنا على هذه الخسائر، لكننى كنت آسفاً على شيء آخر وهو أن الفرقة استعملت كلمة (دورية)لكى (ترضى) القيادة، وكنت أتمنى لو انهم عندما أرادوا تحدى الأوامر ودخول المعركة، قد فعلوا ذلك صراحة ودون مواربة، وكان بوسعى أن أفهم تصرف القائد الصغير المعاكس للأوامر الصادرة اليه، حيث سمح له موقعه ودرايته المباشرة بالعدو ان يتخذ القرار بالمعركة.

أما الخطأ الذى ارتكبته الفرقة فكان تاكتيكيا، اذ دخلت القوات الممر محمولة على عربات فى هيئة طابور، وتصور القائد أن المصريين لم يضعوا قوات كبيرة على جنبات الوادى، وقد دفعت الفرقة ثمن أخطائها بالدم، أما فيما يتعلق بخرق الأوامر فكنت ارى أن الأمر يصبح خطيراً لو فشلت الفرقة فى تنفيذ مهمتها، لا عندما تؤدى من المهام اكثر مما كان مطلوباً منها.

وأدان العالم معركة سيناء، وتصاعدت حدة الانتقادات بالتدخل الأنجلو فرنسى أولاً بالإنذار ثم بقصف المطارات المصرية مساء يوم ٣١أكتوبر (ت١)، وقادت الولايات المتحدة الحملة ضدنا فى الغرب، وأتخذت روسيا بالطبع نفس الموقف احتجاجا على الهجوم ضد صديقتها مصر، وانضمت اليهما مجموعة من ينادون ب (السلام بأى ثمن).

أما أخطر ردود الفعل فكان فى بريطانيا، حيث اتجه النقد اساساً ضد رئيس الوزراء ايدن، ولم يكن هناك شك فى أن الرأى العام كله بل وغالبيه الوزارة يرفضون تصرفه فى السويس، وساهم قادة الجيش البريطانى فى جعل العملية أكثر صعوبة، اذ قدروا أن الجيش المصرى يمتلك قوات كبيرة، ولذلك أخروا موعد انزال قواتهم الأرضية.

وساد الأمم المتحدة نشاط محموم، فبعد ان استخدمت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو، دعيت الجمعية العامة لاجتماع عاجل ليلة ١ نوفمبر (ت٢) وبات

واضحاً لى أن العمل السياسى يسير ضدنا وأن الضغوط الدولية سوف تتصاعد لإيقاف القتال، وهكذا لم يعد أمام قواتنا إلا وقت قليل لاتمام مهمتها بأسرع ما يمكن.

وقمت بزيارة الفرقة العاشرة فى مقر القيادة الجنوبية، لأحثهم على الإسراع بالاستيلاء على مواقع ام كتف، اذ بقى هذا الموقع هو وأم شيهان فى قبضة العدو عائقاً أمام تقدمنا نحو القطاع الأوسط من سيناء، ولم يكن اجتماعى بقادة الفرقة مرضيا، اذ كانت لديهم شكاوي كثيرة من عدم وصول الإمدادات، وارهاق الجنود الذين كانوا من الاحتياطى قليلى التدريب، ومن حاجة الأسلحة والعربات الى الاصلاح.... ونفد صبرى فلم يكن لدى حل لهذه المشاكل، ولم اكن استطيع تغيير النقب، ولم يكن أمامى الا أن افتح الطريق.

وقاموا بمهاجمة ام كتف، لكنهم فشلوا. وحدث من ناحية أخرى أن حاولت وحدة من الفرقة السابعة والثلاثين المدرعة التقدم أيضاً، لكنها فشلت كذلك، والى جانب بعض العراقيل فقد ساهمت انا فى هذا الفشل، اذ ألححت على قائد القيادة الجنوبية فى ضرورة الإسراع نحو فتح الطريق من أم كتف، وضغط هو بالتالى على قادة القيادة قائلا إنه ابلغنى ان الطريق سوف يفتح عند أول ضوء، والواقع أن أوامرى كانت فتح الطريق حتى الظهر مع الاشتباك فى الجبهة حتى ولو حدثت خسائر كبيرة.

وعلى أثر فشل الفرقة العاشرة، قام قائد القيادة الجنوبية بتغيير قائدها، ووافقته على ذلك، وكان رأيى أن من يفشل فى القيادة لا يعاقب بل يترك الفرصة أمام غيره ليقود، وكان تقديرى أن فشل الفرقة راجع الى أنها لم تبذل الجهد الكافى للدخول فى معركة.

استطعنا تقدير مدى كفاءة الجنود المصريين، فهم يحاربون جيداً من مواقع ثابتة محصنة ومزودة بالمدافع اللازمة وكانت هجماتهم المضادة ضعيفة، وقد بالغوا فى تقدير أهمية أبو عجيلة كموقع حصين يستطيع وقف

وفى صباح اليوم التالى، ٣ نوفمبر (ت٢) ركبت طائرة من طراز داكوتا طرت بها فوق طابور الفرقة التاسعة وتحدثت مع قائدها، ثم توجهت الى الطور، حيث طلبت من المظليين الإسراع نحو مداخل شرم الشيخ، ثم توجهت الى متلا وبيرحما فالعريش، ثم عدت فى المساء الى القيادة العامة.

أما فى الولايات المتحدة، فقد انعقدت الجمعية العامة فى جلستها الطارئة يوم ١ نوفمبر (تشرين الثانى) وأصدرت القرار الذى تقدم به جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الأمريكى، داعياً الى وقف إطلاق النار فوراً ـ وكان بذلك موجها الى بريطانيا وفرنسا واسرائيل ـ والى الانسحاب الى خطوط الهدنة، متوجها بذلك الى اسرائيل. وفى اليوم التالى اغرقت مصر سفينتين فى القناة فأغلقتها، وكان ذلك بمثابة ضربة للحكومة البريطانية التى كانت قد اخبرت شعبها أن الهدف هو إبقاء هذا الممر المائى مفتوحاً وحراً، ومما يثير الدهشة ان بريطانيا كانت قد علمت بنوايا مصر، واعتزمت إغراق السفينتين فى بورسعيد قبل ابحارهما، لكنها فشلت.

وجاءنى احد العسكريين الفرنسيين ليبلغنى انزعاج فرنسا من تصميم بريطانيا على أن يكون يوم ٦ نوفمبر (ت٢) هو موعد الإنزال الأنجلو فرنسى من منطقة القناة، وكانت فرنسا تخشى صدور قرار معاد من الأمم المتحدة ولذا كانت تتعجل الإنزال قبل هذا الموعد بيومين، ولم يكن البريطانيون يريدون أو قادرين على تقديم موعد الإنزال وتغيير خطتهم، ولم يكن موعد الإنزال بالنسبة الينا يحمل أى اهمية عسكرية، فلم يعد باقياً أمامنا ونحن نحارب بمفردنا إلا شرم الشيخ بعد أن حققنا كل اهدافنا.

وازدادت حدة الضغط السياسى ضد التدخل العسكرى بعد ان عادت الجمعية العامة الى استئناف اجتماعها يوم ٣ نوفمبر (ت٢).

وكان داج همر شلد، السكرتير العام للأمم المتحدة، قد اعلن أن فرنسا

الآخر بقى يعمل كقناصة. وقد حدث أن وقفت أرقب الطريق فلمحنى احد القناصة واطلق رصاصة نحوى، فأصاب رجل الإشارات الذى سقط بجوارى.

ولم تتلكأ الفرقة فى المدينة طويلاً، فسرعان ما اتجهت الوحدات المقاتلة غرباً نحو القنطرة، واندفعت وحدات أخرى نحو مطار العريش لتأمينه وضمان طريق أبو عجيلة، وفى الساعة الحادية عشرة ركبت طائرة خفيفة من مطار العريش، لكنها لم تستطع الطيران على ارتفاع منخفض لشدة وكثافة النيران المصرية، لكننى لمحت طابوراً من فرقتنا المدرعة يتقدم غرباً نحو القناة، وهكذا انتهت تقريباً معركة المحور الشمالى فى سيناء.

وبعد عودتى من العريش توجهت لمقابلة بن جوريون، فوجدت روحه المعنوية عالية، وسألنى عما تم فى معارك العريش ورفح وغيرهما من الجبهات، وعندما لخص له معاونوه ما يجرى فى الأمم المتحدة قال لهم (لماذا أنتم قلقون هكذا؟ ما داموا جالسين فى نيويورك ونحن جالسون فى سيناء، فالموقف ليس سيئاً).

كانت خسائرنا حتى ذلك الحين ١٠٠ قتيل و٧٠٠ جريح، ولم نكن قد أحصينا خسائر المصريين وإن كنا قد أسرنا كثيرين منهم.

وفى يوم ٢ نوفمبر (ت٢) أتمت الفرقة ٢٧ المدرعة الاستيلاء على محور القسيمة - جبل لفنى - الإسماعيلية، وتم فى نفس اليوم الاستيلاء على قطاع غزة. وبقيت المهمة النهائية وهى الاستيلاء على شرم الشيخ، وعُهد الى الفرقة التاسعة بالقيام بها، فبدأت تحركها فى الخامسة صباحاً عبر الساحل الغربى لخليج العقبة. وتم اسقاط كتيبتى مظليين فى مطار الطور، وتبعتهما كتيبة مشاة، ومن ناحية ممر متلا تقدمت وحدة من فرقة المظليين ٢٠٢ جنوبا فى طريقها الى الطور، وكانت الخطة تقضى بأن تهاجم الفرقة التاسعة شرم الشيخ من الشمال ويهاجمها المظليون من الطور جنوباً.

أية قوة تريد التسلل الى سيناء، ولو كانوا قد زودوها بقوات متحركة تواجه القوات المتسللة لكانت بالفعل موقعاً حصيناً.

وطوال ليلة ٣١ أكتوبر (ت١)، بعد ٤٨ ساعة من بدء المعركة، وطوال اليوم التالى، انتقل القتال الى القطاع الشمالى عند رفح والعريش، وكانت دفاعات منطقة رفح عبارة عن مجموعة كبيرة من الخنادق، فانقسمت قواتنا الى مجموعات صغيرة تشق كل منها طريقها عبر الأسلاك الشائكة وحقول الألغام وتحارب معركة مستقلة بذاتها.

وتقدمت دبابات المقدمة فى الفرقة السابعة والعشرين نحو مفترق الطريق الى العريش، يحوطها تهليل قوات الفرقة الأولى المشاة التى كانت قد استولت عليه، ووصلت فى أعقاب بداية هجوم الفرقة السابعة والعشرين، الذى بدأ فى الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وعند منطقة جرادى فى منتصف الطريق نحو هدفنا نشبت معركة استمرت ساعة، ووصلنا الى مشارف العريش قبيل حلول الظلام.

وأجلنا دخول العريش حتى صباح اليوم التالى بعد أن اشتد تعب الرجال واحتاجت الدبابات الى التموين بالوقود.

وقبل أن أخلد الى النوم اعطيت أوامرى الى القيادة بأن تبدأ الفرقة التاسعة مشاة سيرها نحو شرم الشيخ صباح اليوم التالى ٢ نوفمبر (ت٢)، والى الفرقة الحادية عشرة مشاة لتبدأ عملياتها فى غزة، وكنا عندئذ فى طريقنا الى تنفيذ المرحلة الثالثة من المعركة.

ودخلنا العريش فى الساعة السادسة صباحاً دون أى مقاومة، بعد أن انسحبت الوحدات المصرية خلال الليل، وبدا واضحاً من مخلفات السلاح أن كل فرد، عندما صدر قرار الانسحاب، لم يفعلوا شيئاً سوى اللحاق بالقوافل المغادرة، وفى الوقت الذى استسلمت فيه القوات التى لم تنسحب، فإن البعض

وبريطانيا واسرائيل ردت رداً سلبياً على قرار وقف النار والانسحاب، وقال ان مصر من ناحية اخرى قد وافقت، وطالبت روسيا وتوابعها بضرورة الالتزام الكامل من جانب (المعتدين الثلاثة)، واقترح كابوت لودج تشكيل لجنتين دوليتين تعالجان مسألتى النزاع العربى الاسرائيلى ومشكلة السويس، وأخيرا وافقت الجمعية العامة على الاقتراح الكندى الذى قدمه ليستر بيرسون بتشكيل قوة عسكرية دولية تضمن تنفيذ القرار.

وفى نهاية الاجتماع الذى استمر حتى فجر ٤ نوفمبر (ت٢) تمت الموافقة على الطلب مجدداً الى فرنسا وبريطانيا واسرائيل بوقف اطلاق النار، ورد ممثل إسرائيل بموافقتها شريطة أن ترد مصر بالمثل، ووضع ممثلنا فى اعتباره أنه فى الوقت الذى تكون فيه مصر قد ردت، يكون شرم الشيخ قد وقع فى قبضتنا. وازاء الضغط الرهيب بدت اسرائيل وكأنها تلتزم بقرارات الأمم المتحدة.

وأصيب ممثلا فرنسا وانجلترا بالفزع، اذ أن قبول اسرائيل سوف يزيل (الحجة) للتدخل العسكرى ولذا طلب البريطانيون معونة الفرنسيين فى اقناعنا بسحب هذا الإعلان، وأصدر بن جوريون تعليماته الى ممثلنا فى الأمم المتحدة بابلاغ همرشولد ان موقفنا قد أسىء فهمه، وأننا نقبل وقف اطلاق النار شريطة أن تعلن بدون قيد أو شرط قبولها لذلك، وتدين سياسة حالة الحرب بينها وبين اسرائيل، وتبدى استعدادها للتفاوض معنا، وتوقف المقاطعة الاقتصادية وترفع الحصار عن الملاحة الإسرائيلية.

واشتهر الغضب ببن جوريون، فقد استجاب لطلب الفرنسيين، فى حين أن البريطانيين الذين كانت أمامهم ستة أيام من القتال من ١٠/٢٩ حتى ١١/٤، لم يتحركوا بعد وكان الوقت مفتوحاً أمامهم الى مالا نهاية، وأصبحت اسرائيل الآن، برفضها قرارات الأمم المتحدة، فى موقف سيئ على الساحة الدولية.

وفى ٥ نوفمبر (ت٢) ارسلت بريطانيا فرقة من المظليين احتلت مطار

الجميل، بينما احتلت فرقة مظليين فرنسية كوبرى بورسعيد، وفى نفس الليلة بعث نيكولاى بودجورنى رئيس الوزراء السوفيتى بإنذار شديد اللهجة الى رؤساء وزراء فرنسا وبريطانيا واسرائيل.

وتضمن الإنذار الموجه الى بن جوريون (الإدانة القصوى) لكل الأعمال الإجرامية التى ارتكبها المعتدون ضد مصر، ودعا اسرائيل الى وقف العمليات العسكرية فورا والانسحاب من الأراضى المصرية.

وأشارت الرسالة الى أن اسرائيل - كأداة للقوى الاستعمارية - تتلاعب بمصير السلام وبمصير شعبها، بل وتثير التساؤلات حول وجودها ذاته كدولة، وأن الحكومة السوفيتية المهتمة بحفظ السلام والهدوء، تتخذ فى هذه اللحظة الخطوات الكفيلة بوضع حد للحرب وكبح المعتدين. واختتمت الرسالة بإبلاغ اسرائيل بقطع علاقاتها الدبلوماسية معنا.

وعندما قابلت بن جوريون لاحظت انه وان لم يكن متجاهلا خطورة هذا الإنذار، فإنه لم يكن مرتعد الفرائص، لم يكن مذعوراً بل العكس وجدت الإنذار يحفزه على مواصلة الصراع، لكن ما اغضبه فعلا هو اختلاف الرسالة الموجهة الى اسرائيل عن هاتين الموجهتين الى فرنسا وبريطانيا، فالرسالة الموجهة الى اسرائيل صيغت باحتقار وازدراء وهددت وجود الدولة ذاته، أما الرسالتان الموجهتان لبريطانيا وفرنسا، فبرغم التهديد باستعمال الصواريخ الموجهة ضدهما، فإنهما لم تتوجها بالتهديد الى استقلالهما السياسى، وخلتا من أى تهكم او سخرية.

ولقد سررت للبرود الذى قابل به بن جوريون هذا التطور الجديد، وسرحت خواطرى فى مدى الفزع الذى ربما أصاب كثيراً من القادة فيما لو كانوا فى نفس موقع رئاسة الوزراء.

ويبدو أن التدخل الروسى فى المجر لكبت ثورتها هو الذى أدى الى تأخر

الإنذار حتى ليلة ٥ نوفمبر (ت٢)، وجاء ذلك بالضبط بعد اثنتى عشرة ساعة من إطلاق آخر رصاصة فى معركة سيناء، ففى صباح هذا اليوم كنا قد استولينا على شرم الشيخ.

وكنت حريصاً على التأكد من استيلاء الفرقة التاسعة على شرم الشيخ فركبت طائرة الى الطور، حيث وجدت المظليين قد غادروه متوجهين نحو المدخل الجنوبى لشرم الشيخ وأنطلقت فى قافلة من ثلاث سيارات لكى ألحق بالمظليين، مصحوباً ببعض جنود الاحتياطى، وعلى طول الطريق كان الأمر يشبه الكابوس المفزع، فالشمس حارقة والبخار يتصاعد من القار المدهون به الطريق، وفلول الجنود المصريين عائدة من شرم الشيخ وقد استبد بهم الإرهاق والتعب، ولم يفارقنى ولو للحظة واحدة الإحساس بأننا لو توقفنا فى منتصف الطريق فسوف تكون تلك نهايتنا... لقد كان عددنا قليلا وكان بوسع المصريين أن يمزقونا إرباً حتى ولو بأيديهم. وأدركت ان فرصتنا فى الوصول الى شرم الشيخ تكمن فى أمرين: ألا تنطلق رصاصة واحدة وألا نتوقف ولو دقيقة، واخيراً لمحنا على البعد عربات الفرقة التاسعة.

وعلمت من الضابط المكلف بحراسة الطريق أن الفرقة احتلت المداخل الجنوبية لشرم الشيخ فى الساعة الخامسة صباحاً، وفى السادسة والنصف حلقت طائرة خفيفة وطلبت من الفرقة التقدم نحو شرم الشيخ، وتنفيذاً لذلك وصل قائد الفرقة فى التاسعة والنصف الى حافة الموقع، وعلى الفور تقدمت نحو الميناء بمناظره الطبيعية الخلابة التى لم أشهد فى مثل جمالها ابداً، وبتلك النهاية كانت الفرقة التاسعة، وهى من رجال الاحتياطى بقيادة ابراهام يوفى، قد أنجزت أشق المهام فى هذه الحرب.

وكان هناك بعد سياسى لهذه المهمة، فان احتلال شرم الشيخ يعنى احتلال مضايق تيران، وبالتالى فك الحصار عن الملاحة الإسرائيلية، وهو الهدف الرئيسى لهذه المعركة.

والواقع أن هذه الفرقة قطعت الطريق الى شرم الشيخ وسط رمال ووديان ومرتفعات كانت تضطرها احياناً الى السير بسرعة ميلين ونصف فى الساعة، ووصلت الى اول نقاط العدو المصرية فى واحة دهب يوم ٣ نوفمبر (ت٢) واستطاع رجالها هزيمة، الرجال العشرة من راكبى الجمال الذين كانوا يحرسونها، وفقدنا ثلاثة قتلى، وعند وادى قيد أصبح عرض الطريق لا يزيد على البوصتين فاضطر المهندسون الى نسف الصخور لإفساح الطريق.

وما ان شقت فرقة الاستطلاع طريقها حتى وقعت فى كمين فقدت فيه إحدى سيارات الجيب، واضطرت الى التراجع فى الساعة السادسة مساء، وفى صباح اليوم التالى وجد الموقع المصرى خالياً ولكن الطريق ملغم. وبعد ازالة الألغام وفى الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة وصلت الفرقة الى الدفاعات المصرية فى رأس نصرانى وشرم الشيخ، وهكذا وصلت الفرقة الى هدفها بعد مسيرة استمرت ثلاثة أيام وليلتين.

وفوجئ المصريون والقائد المصرى بالقوة الإسرائيلية وهى تهاجم من هذا الطريق الوعرة وذلك برغم البلاغ الذى بعثت به الوحدة المصرية فى منطقة يوسيت على بعد ٤٠ ميلا جنوبى ايلات، والذى يفيد تقدم فرقة اسرائيلية.

وعندما وصل الطابور الإسرائيلى الى رأس نصرانى وجدها خالية، اذ قرر القائد المصرى تركيز دفاعاته داخل شرم الشيخ، وكان المصريون قبل مغادرتهم قد أفسدوا المدافع التى كانوا قد نصبوها فى رأس نصرانى لنسف أية سفينة تحاول عبور خليج العقبة.

ورغم هبوط الظلام فقد حاولت الفرقة الهجوم على المواقع المصرية، لكنها فشلت، وفى الصباح المبكر عاودت الهجوم مدعومة بالطيران والمدفيعة الثقيلة، واستمر القتال، وبقى أحد المواقع المصرية يقاوم الى أن أصيب اصابة مباشرة، وفى التاسعة والنصف من صباح ٥ نوفمبر (ت٢) سقط شرم الشيخ آخر المواقع المصرية فى سيناء.

صحيح إن اسرائيل حققت أهدافها من هذه الحرب، لكنها لم تحقق هدفها فى المفاوضات المباشرة مع مصر، اذ تم التوصل الى اتفاقية عن طريق السكرتير العام للأمم المتحدة كوسيط للفصل بين الطرفين، وكان شرطنا للجلاء عن الأراضى المصرية، ضمان حرية الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة.

وفى ١٦ مارس (آذار) ١٩٥٧، بعد اربعة أشهر ونصف من المعركة، عادت القوات الإسرائيلية الى حدودها، وكانت آخر القوات الأنجلو فرنسية قد غادرت القناة قبل هذا الموعد بشهرين ونصف، ولم تعد شرم الشيخ أو غزة الى مصر وإنما وضعتا تحت اشراف قوات الطوارئ الدولية.

■ ■ ■

الباب الرابع

من وزير
إلى مواطن عادى
(١٩٥٨ ـ ١٩٦٧)

خلع السترة العسكرية بعد أن قام بالدور العدوانى المطلوب منه... وبدأت فترة الإعداد لمرحلة جديدة عدوانية وهجومية على الدول العربية قضاها ديان بين الجامعة للدراسة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.... ثم انتقل بعد ذلك الى فيتنام ليحارب مع القوات الأمريكية فى دراسة عملية لقمع الشعوب الثائرة ومكافحة الذين يسعون لاستقلال بلادهم وخروجها عن تلك الإمبريالية العالمية.... إنها فترة إعداد وانتظار للانقضاض والاستمرار فى سياسة إسرائيل العدوانية والتوسعية.

١٦ ـ الحرية والسياسة

عندما انتهت فترة رئاستى للأركان، خلعت سترتى العسكرية، والتحقت كطالب منتظم بجامعة القدس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فرع شئون الشرق الأوسط، ولم يختلف الأمر فى الجامعة عنه فى رئاسة الأركان، ففى كلا المكانين كنت مضطرا الى الجلوس الى مكتبى وسط الأوراق، وإعمال الفكر، والمحاضرات.... الخ. كان الفارق الوحيد بينهما انتفاء المسئولية، ومرت السنتان فى الجامعة كأنهما عطلة، وكما هو الحال فى العطلات دائما، فإن السنتين لم تتركا فى نفسى أى أثر.

ثم انفتح الميدان السياسى أمامنا، فقد طلب منى حزب الماباى حزب عمال اسرائيل، برئاسة بن جوريون، التقدم كمرشح فى الانتخابات يوم ٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٩م. والكنيست هو برلماننا الذى يضم ١٢٠ مقعداً، تجرى الانتخابات عليها بالتمثيل النسبى، فيقدم كل حزب قائمة من ١٢٠ مرشحاً فى كل انحاء البلد على رأسها أسماء شخصيات فى الحزب البارزة، وبحسب نسبة الأصوات التى يحصل عليها كل حزب، يكون عدد المقاعد التى يفوز بها.

وحصل حزب الماباى على ٥٢ مقعدا، وكالعادة حصل على اكبر عدد، لكنه كالعادة أيضاً لم يفز بالأغلبية المطلقة، ولذا تحتم عليه تشكيل ائتلاف حكومى، وأصبح بن جوريون رئيساً للوزراء، وفى ١٦ ديسمبر (كانون الأول) قدم اعضاء حكومته الجديدة الى الكنيست، وكنت فيها وزيراً للزراعة.

لم أكن غريباً عن عالم السياسة، ولم أكن عرضة لأى هجوم ضدى، اذ كان وزير الدفاع هو المسئول عن تصرفات رئيس الأركان ومسلكه فى الشئون

العسكرية، ولكن ذلك كله تغير بعد أن أصبحت عضوا فى الكنيست وعضوا فى الحكومة.

ووجهت جل اهتمامى الى عملى كوزير للزراعة... وهو العمل الذى لاءمنى الى حد كبير، فقد ولدت ونشأت فى بيئة زراعية، بل أننى لم أنفصل عن هذه البيئة عند اشتغالى بالجيش، وظلت ناحلال موطنى وبيتى، والواقع أن الزراعة والحقول والحظائر كانت أقرب الى قلبى من الخبرة العسكرية.

وتتميز اسرائيل بأن الدفاع والأمن يرتبطان باستيطان الأرض، وبعد قيام الدولة وجهت الحكومة اهتماماً خاصا الى انشاء المستوطنات على حدود فى التلال شمال البلد ووسطها وفى النقب فى طرفها الجنوبى، وكنت خلال عملى رئيساً للأركان حريصاً على تشجيع إنشاء المستعمرات وخاصة فى النقب.

وعندما بدأت عملى كوزير للزراعة وجدت ان المستعمرات تواجه أزمة اقتصادية، فقد انخفض دخل الفلاح عن معدل الدخل العام بنسبة ٢٠ الى ٣٠٪، فى حين ان الدخل العام نفسه كان منخفضاً، وكانت الضربة الكبرى موجهة الى مستعمرات الموشاف والكيبوتز التى لم تستطع التغلب على انخفاض أسعار المنتجات الزراعية وارتفاع نفقات الإنتاج الزراعى وعدم توافر رؤوس الأموال والقروض للحصول على الميكنة الزراعية، وفوق ذلك فقد واجهت منطقة النجف فترة جفاف استمرت مدة ثلاث سنوات.

كان ذلك كله يتطلب خطة مركزية للسيطرة على الإنتاج لتجنب انخفاض الأسعار، وكذلك تنظيم احتياجات الفلاحين الجدد الذين يحتاجون الى حصص من الأراضى والمياه، وأنشأت جهازا للتخطيط ومجالس للإنتاج والتسويق لكل فرع من فروع الزراعة، ومكاتب إقليمية محلية يستطيع من خلالها المزارعون تلقى الخدمات والإرشاد الزراعى.

وكانت معركتى الأولى لترشيد الإنتاج تتضمن البقر المدر للحليب،

واستمرت هذه السياسة طوال الخمس سنوات التى عملت فيها وزيراً للزراعة، وبرغم انخفاض الدخل فإن المزارعين القدامى كانوا أحسن حالا من زملائهم الجدد وخاصة المهاجرين الوافدين الجدد، ولذا كان لزاماً على ان أقدم لهم يد المساعدة، وتحولت المستعمرات الجديدة إلى مزارع ألبان فاحتاجت الى عشرة آلاف رأس من البقر الحلوب، بالإضافة الى ما هو موجود حالياً، وقررت وقف الإنتاج فى المستعمرات القديمة ونقل كل حصصها فى الإنتاج الى المستعمرات الجديدة، ووعدت بتعويض أصحاب المستعمرات القديمة، أما بالنسبة لمستعمرات الحدود، فقد رفعت شعار (الأرض لمن يفلحها)، ولكن مزارع الألبان التى أغلقتها سببت لى مشكلة، اذ دأب سكانها على القيام بمظاهرات عنيفة أمام مكتبى، ولكن ذلك لم يمنعنى من تنفيذ القرار، وكانت هناك عدة مشاكل أخرى، لكن أهم ما كان يشغلنى هو موضوع توزيع السكان بشكل مناسب على البلاد.

كانت حوالى ٩٠٪ من أراضى اسرائيل ملك الدولة، فكانت هناك الأراضى الأولى التى اشتراها الصندوق القومى اليهودى، وهو الجهاز الذى أنشأته المنظمة الصهيونية عام ١٩٠١ لشراء الأراضى، وهذه الأراضى انتقلت الى الدولة بعد الاستقلال ولم يكن للفرد أن يشتريها أو يقتنيها، وهناك الأراضى التى كانت تملكها قوات الانتداب البريطانية، وهذه وقعت تحت سيطرة الدولة وتبلغ نسبتها ٧١٪، هذا بالإضافة الى الأراضى العربية التى تركها أصحابها وهربوا بعد حرب الاستقلال وهذه أصبحت الدولة وصية عليها.

ووافق مجلس الوزراء على سياستى بالنسبة للأراضى، وكان أحد عناصر تلك السياسة هو السماح بانشاء مشاريع إسكان خاصة فى وسط وشمال وجنوب اسرائيل ولكن بعيداً عن المناطق المزدحمة على الساحل، بالإضافة الى إعمار ساحل البحر الأبيض المتوسط لجذب السياحة، وحرصت على

تخصيص شواطئ محددة للجماهير لتقضى فيها عطلاتها الصيفية.

وبينما كنا نحاول حل مشاكلنا تلقينا طلبات عديدة للحصول على خبرتنا الزراعية من دول أفريقية ومن دول فى أمريكا اللاتينية، وأصبح خبراؤنا الزراعيون يعملون فى قبرص وتركيا وكريت وفى نيبال وتايلاند والفلبين وسيلان وكمبوديا.

وقد بدأت مساعداتنا الخارجية تأخذ شكلا واسعاً عندما حصلت الكثير من الدول الأفريقية على استقلالها، وقد رحبت اسرائيل بزيارة القادة الأفارقة ورتبت لهم جولات فى مستعمرات الكيبوتز والموشاف خلال إقامتهم، وفى مستعمرات النجف ايضاً حيث شرح لهم رجالنا كيف يمكن تحويل الصحراء الى أراض زراعية وكيف تحول المهاجرون الجدد الذين لم تكن لهم أية خبرة زراعية، الى خبراء فى الزراعة، وكنا نجد صعوبة فى إفهام هؤلاء الزوار ظروفنا الخاصة التى مكنتنا من انشاء هذه المستعمرات وصعوبة نقل هذه الخبرة الى بلاد اخرى. ومما لاشك فيه انه كان بامكاننا مساعدة الأفريقيين فى تنمية وسائل الزراعة لديهم، لكن على ألا يتم ذلك من خلال الترجمة الحرفية لما فعلناه فى اسرائيل وإنما من خلال اختيار الرجال والنساء اللائقين لهذه المهمة، والمستعدين لخدمة هؤلاء الأفارقة كما خدموا مهاجرينا، واجرينا دراسة للمشاكل الزراعية فى أفريقيا، وكأنها مشاكلنا نحن.

وبحلول عام ١٩٦٣ كان رجالنا قد عملوا لفترة كافية مكنتهم من الحكم على نشاطاتهم، وكنت أقابل هؤلاء العائدين وأستمع منهم الى التقارير، ولكن ذلك لم يكن كافياً، وكان من الضرورى زيارة هذه المواقع بنفسى. وبحثت الموضوع مع جولدا مائير، وزيرة الخارجية آنئذ، وبناء على اقتراحها قررت القيام بجولة فى دول غرب أفريقيا فى خريف ١٩٦٣، زرت خلالها توجو والكاميرون وساحل العاج وجمهورية أفريقيا الوسطى وغانا وفى يوليو (تموز) ١٩٦٤ مثلت اسرائيل فى احتفالات الاستقلال فى مالاوى (نياسالاند سابقا)

واستكملت رحلتى فى شرق أفريقيا حيث زرت كينيا وتنزانيا (تانجانيقا وزنزبار حينذاك) والتقيت فى كل هذه الدول الفريقية مع رؤسائها ووزراء الدولة والمواطنين الذين يعملون فيها مع خبرائنا، ولكننى قضيت معظم وقتى فى زيارة الحقول، وكان نشاطنا محل إعجاب كل القادة الأفارقة، وطلب الكثيرون منهم زيادة حجم مساعدتنا.

وكانت هناك دول اخرى كثيرة تساعد الدول الأفريقية، فقد انشأ الروس مزارع فى غانا... وكان هناك أيضاً فى أفريقيا خبراء صينيون وفرنسيون وبريطانيون وفرق السلام الأمريكية، وعلى أية حال فقد كان هناك ناس من كل انحاء العالم يدقون أبواب أفريقيا ويعرضون مساعدتهم، وبالرغم من ذلك فان الكل، فيما عدا الإسرائيليين والصينيين، كانوا لا يعملون بإيديهم ولا يعملون مع الأفارقة أنفسهم، فالفرنسيون والإنجليز والروس أقاموا مراكز تجريبية وكانوا من خلالها يوزعون التقاوى والأسمدة، وفرق السلام الأمريكية - التى تتكون من الرواد - اهتمت ببناء مراكز تجريبية وبتعليم اللغة الإنجليزية.

ومن ناحية أخرى فإن ممثلينا، الذين نشأوا فى أحضان الكيبوتز والموشاف، أقاموا علاقات قوية مع المزارعين فى قراهم، وكان الإسرائيليون والصينيون هم الوحيدون الذين يعملون فى الحقول يدا بيد مع الفلاحين وفى جمع القطن وفى مزارع تربية الدواجن، وكان هذا الارتباط هو العامل الرئيسى وراء النجاح الذى حققناه.

وعند عودتى من افريقيا، اقترحت على الحكومة زيادة معونتنا الفنية الى أفريقيا، وتمت زيادة عدد الخبراء، وأنشئ مركز لتدريب هؤلاء الخبراء، وأسست لجنة برئاستى تشرف على شئونهم وتحل مشاكلهم.

وعلى الرغم من الجهد الذى بذلته اسرائيل كدولة، وبذله الأفراد بإخلاص، فإنه لا يمكننى الزعم بأن برنامج المساعدة الخارجية قد لاقى

نجاحاً كاملاً، اذ كان علينا فيما بعد ان نحصد خيبة الأمل فى كل مكان عملنا فيه، فقد أجبر الإسرائيليون على العودة إلى إسرائيل، وهجرت المزارع والقرى التى أنشأناها، بسبب التقارب الذى حدث بين الدول الأفريقية حديثة الاستقلال والكتلة العربية المناهضة لاسرائيل، والواقع ان هناك أسباباً أخرى اكثر عمقاً توضح السر وراء عدم نجاحنا هذا.

لم يكن من السهل تغيير الأجيال او المجتمعات... ففى كل مكان ذهبنا اليه فى افريقيا علمناهم كل الأساليب والوسائل، لكنهم كانوا يقلدون ما نعلمهم اياه دون ان يتغيروا هم. ولم يكن تغيرهم هينا بعد ان سيطرت عليهم طيلة القرون روح القدرية وانعدام المبادرة الشخصية.

كذلك فقد توالت الانقلابات العسكرية، وأصبح من المؤسف ان نرى القادة الأفارقة يهتمون بالحكم اكثر من اهتمامهم بتحسين احوال شعوبهم، كذلك استخدمت القرى النموذجية كوسيلة للاستعراض أمام الزوار من الأجانب، ولم تكن هناك إلا استجابة ضئيلة للطلبات التى كنا نقدمها لزيادة الأعتمادات المالية اللازمة، الأمر الذى ترتب عليه فشل مشروعاتنا.

واستمر بن جوريون يتابع باهتمام برنامج المعونة الفنية التى نقدمها للدول النامية، الى ان ترك منصبه قبل نهاية مدته، عندما استقال من رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع يوم ١٦ يونيو (حزيران) ١٩٦٣م... وبعد ستة أيام خلفه ليفى أشكول فى المنصبين.

وكانت الأحداث التى وصلت الى هذا الحد قد بدأت قبل هذا التاريخ بثلاثة اعوام، بل وتعود الى عام ١٩٥٤عندما وقعت حادثة لافون ـ وزير الدفاع ـ التى أنكر فيها انه أصدر الأمر المعروف، ثم استقال بعد ان أكد الضابط المتهم بأنه تلقى الأوامر من لافون، وانتهت القضية باستقالته.

وفى سبتمبر (أيلول) ١٩٦٠ جرى تحقيق عسكرى فى قضية أخرى، طلب

على أثره لافون من بن جوريون تصحيح اوضاعه، فأبلغه بن جوريون انه لا يقدر على ذلك وانه لابد من حكم يصدره قاض فى هذا الشأن، ولجأ لافون الى عرض الموضوع على لجنة من الكنيست، وتسربت الى الصحف التهم التى وجهها الى وزير الدفاع، وبناء على طلب الضابط المتهم الى رئيس الأركان تشكيل لجنة تحقيق عسكرية، عرض بن جوريون الموضوع على الحكومة التى شكلت لجنة وزارية مهمتها تحديد الجهة التى أصدرت الأمر، هل هى الضابط المتهم أم وزيره. وفى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٠برأت اللجنة لافون وألقت المسئولية على الضابط المتهم، وأصدرت الوزارة قرارها مع التصويت عليه فى غياب اربعة من الوزراء كنت واحداً منهم.

ولم يشترك بن جوريون نفسه فى التصويت، على أساس أن الحكومة شكلت لجنة ليست لها صلاحية اجراء المحاكمة، وأجرت تحقيقاً خاصاً بها، ولم يكن لها الحق فى اصدار حكم بين طرفين، وان ذلك كله يمكن ان يعهد به الى لجنة قضائية كاملة، وعلى الفور اعلن بن جوريون تخليه عن مسئوليته عن هذه اللجنة وعن النتائج التى توصلت اليها، ثم ترك مكتبه ولم يعد اليه الا بعد عدة اسابيع لكى يقدم استقالته.

وبعد ثلاثة عشر عاماً، فى اليوم الذى توفى فيه بن جوريون، جاءنى حاييم يسرائيلى، مدير مكتبى الذى كان يعمل مع بن جوريون عندما كان وزيراً للدفاع، وقص لى الحكاية التالية: فى شهر ديسمبر (ك١) ١٩٦٠ دعيت اللجنة المركزية لحزب الماباى الى اجتماع طارئ تليت فيه رسالة من بن جوريون تفيد قراره بالاستقالة على أثر ظهور نتائج اللجنة الحكومية. وقد صدم الحاضرون من هذا القرار، وقالوا إن الحزب لن يشترك فى الوزارة بدون بن جوريون، لكننى عارضت ذلك مؤكدا أن مصلحة الدولة فوق الجميع بل وفوق بن جوريون.

وأبلغنى يسرائيلى أن بن جوريون، عقب هذه الواقعة بأربعة أعوام، كان

يكتب مذكراته عن هذه الفترة فطلب محاضر اجتماع اللجنة المركزية للماباى، وأحضرها له يوسف الموجى، الرجل الحزبى القديم فى الماباى وسكرتيره آنئذٍ. ولم يدرك الموجى أن هذا المحضر يتضمن اقتراحى بإنشاء حكومة بدون بن جوريون، إلا متأخرا.. اذ كان بن جوريون قد أطلع بالفعل على المحضر وقرأ ما قلته فيه وقال ليسرائيلى (إن موشى هو الوحيد الذى قال كلاما معقولا - فأنا كإنسان لست مهما، وانما المهم هو الطريق الذى رسمته.. فهذا هو ما سوف يبقى). وقد هزنى هذا التقدير.

وفى أغسطس (آب) ١٩٦١ جرت الانتخابات، وعاد بن جوريون رئيسا للحكومة. لكن الخلافات استمرت بينه وبين أعضاء وزارته الذين اشتركوا فى اللجنة الحكومية الخاصة بلافون، وانتهى الخلاف بأن ترك العمل ولم يعد اليه مرة ثانية.

وبقيت فى الوزارة ١٦ شهرا بعد ذلك الى أن قدمت استقالتى يوم ٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٤م. ولم يكن الدافع لذلك هو غياب بن جوريون عن السلطة، وانما كان لإحساسى بأنى غير مرغوب فى وجودى بين الفريق. وعلمت فيما بعد أنه كان مخططا لى أن أقع، لولا أن تركت الوزارة واقفا على قدمى فى الوقت المناسب.

ولم يتوقف بن جوريون، وهو فى تقاعده فى سيدى بوكر، عن مهاجمة حكومة أشكول بسبب قضية لافون، ثم أعلن فى يونيو (حزيران) ١٩٦٥ أنشقاقه عن حزب الماباى وتأليفه حزبا جديدا باسم رافى، انضم اليه على الفور سبعة من أعضاء الكنيست. وبعد عدة شهور انضممت الى رافى.

وحرصت عند مغادرتى وزارة الزراعة على أن أجمع الكتب والصور التى أضعها بجوارى أينما عملت. من بين هذه الكتب التوراة العبرية، وأشعار بياليك شاعرنا القومى، وأشعار ناتان أولترمان شاعر الجيل الذى عشته. ويمثل أولترمان واحدة من الصور الثلاث التى مازلت أضعها فى مكتبتى حتى

الآن، أما الصورتان الاخريان فهما لبن جوريون وحاييهم شيبا. ومع أننى لست ممن يعبدون الابطال، الا أن هؤلاء الثلاثة لهم فى نفسى خليط من التقدير والاحترام والحب.

وقد تعرفت على أولترمان خلال عملى كرئيس للاركان عندما عرفنى به بن جوريون اذ كانا صديقين، وقد جسد أولترمان معاناة شعبه وما قاساه خلال السنين الطوال، وكانت أشعاره ومقالاته تلهب عواطفنا على الدوام. كان بالفعل أكبر معلم لجيلى. وحفزت كلماته كل الشباب على أن يجعلوا بعث الاستقلال اليهودى قضية شخصية لكل منهم.

أما وقد أصبحت الآن خارج الحكومة وبعيدا عن الجيش، فقد كنت أقسم وقتى بين حضور جلسات الكنيست ضمن حزب معارض صغير، وادارة شركة لصيد الاسمال، وكتابة كتاب عن معركة سيناء، لكننى ظللت مهتما بأمور الدفاع والامن فى بلدى، وبقيت أتطلع الى المساهمة بأى مقياس فى تشكيل سياسة الدفاع فى البلاد.

ورغم التقارير والقراءات التى كنت أقوم بها، فقد بقيت بعيدا عن ميدان الحرب. ولكنى الآن، فى عام ١٩٦٦، قررت أن أشاهد بنفسى وعلى الطبيعة، كيف تسير الحرب الحديثة وكيف تتطور أحداثها، وهل يمكن نقل ذلك الى استخداماتنا نحن.

وكانت فيتنام هى (المعمل) الافضل والوحيد آنئذٍ. وقبلت العمل كمراسل حربى لإحدى الصحف. وعلمت فيما بعد أن روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الامريكى عندما عرف بذلك أبلغ القائد الامريكى فى فيتنام، الجنرال وستمورلاند، بفتح كل الابواب أمامى مع عدم تعريضى للخطر. وهكذا وجدت نفسى فى أول أغسطس (آب) ١٩٦٦ على متن هليكوبتر أمريكية متوجها من دانانج الى الفرقة الاولى الجوية الامريكية للاشتراك فى دورية فى الغابة.

ورأيت القاعدة من الجو، حيث الطائرات الهليكوبتر فى وسطها، تحيط بها الخيام، تحيطها أبراج الدفاع والمراقبة، فمواقع المدافع الثقلية، ومن حولها الغابة الكثيفة التى لم احارب فى مثلها من قبل. واستقبلنى الجنرال جون نورتون بالترحيب وطلب منى ألا أختار واحدة من وحداته لكى أموت فيها. ثم دعانى الى عشاء حضره الكولونيل بوندسويج قائد الكتيبة الثانية التى سوف تتحرك بعد قليل وستصحبنى معها. وكانت العملية التى ستتم على الحدود مع لاوس وكمبوديا بحثا عن الفيتكونج.

كانت المعركة أساسا تعتمد على طائرات الهليكوبتر، حيث بلغ عددها ١٧٠٠ طائرة عند وصولى، أى ما يفوق كل ما لدى أوروبا من هذه الطائرات. واضطرت أمريكا لاستعمالها لقهر الغابات. وكنت معتادا على مثل هذه العمليات حيث كانت هذه الطائرات توفر سهولة النقل دون ما حاجة لاستعمال الطرق أو العربات أو المطارات. ففى خلال أربع ساعات من صدور الانذار كان من الممكن نقل كتيبة بأكملها الى قلب المعركة سواء فى الغابة أو على الجبال.

وتقرر بدء العملية عند الظهيرة بدلا من الصباح الباكر نظرا لانخفاض السحب وكثافتها. كانت الخطة تقضى بانزال الجنود الامريكان وسط قوات الفيتكونج المعسكرة داخل الغابة. لكن النقص الوحيد فى الخطة تمثل فى فشل الاستطلاع الامريكى الحديث فى اكتشاف المواقع الحقيقية للفيتكونج. وانطلقت الطائرات فى الساعة الواحدة وخمس دقائق فى مجموعات تضم كل منها ١٦ طائرة، وقد اتخذ رجال المدافع اماكنهم فيها.

وسبقت عملية انزالنا عملية قصف واسعة لتنظيف الحقل الذى كنا سنهبط فيه. وقفزنا مسرعين من الطائرة واحتمينا داخل الحشائش الطويلة، وأقلعت الطائرات عائدة. وجاءت طائرات الهليكوبتر من طراز شينوك فأنزلت المدافع ١٠٥ وتبعتها الطائرات من طراز كرين حاملة المدافع ١٥٥

والبـولدوزرات وقـوافل الاتصـالات. ولم أكن أتمالك مـشـاعرى عند مشـاهدة هذه الطـائرات العـمـلاقـة التى تتكلف الواحـدة منهـا ٧ مـلايين دولار، من أن اتذكر مـدى المعـاناة مع وزارة الدفـاع الاسـرائيليـة واضطرارى مثـلا الى الغاء رحلة دراسية لمجموعة من الضباط لكى أوفـر ٧٠ ألف دولار لقطع الغيار. آه يا أمريكا. أه يا اسرائيل.

لكننى تسـاءلت أين الحـرب، إن العـمليـة تشبـه مشـاهدة مناورة من جـانب واحـد. إن أكبر سـلاح لدى الفيتكونج هو المورتار الذى يمكن لرجل أن يحمله على ظهـره.. لكن على كل حـال أين الفيـتكونج؟ وأين الحـرب؟. وبعـد نصف سـاعـه بدأت الحـرب واتضح أنهم مـوجـودون على بعـد ٣٠٠ ياردة، وتمكنوا من ايقاع المجموعة الثانيـة فى كمين. وتم نقلى الى مقـر القيادة مرة أخـرى. وكان الفيتكونـج قـد أخفوا مواقـعهم على طول الممر الذى سارت عليه المجموعة الى أن أصبحت كلها تحت النيران.. وكانت الخسـائر ٢٥ قتيـلا و ٥٠ جريحا منهم قائد المجموعة.

وأسـرعت القـيـادة بإرسـال مـجـمـوعـة أخـرى للمسـاعـدة فى نقل الجـرحى والقـتـلى، أمـا الهـجـوم المضـاد فـتـم ـ كـالعـادة ـ بواسـطة القـصـف بالمدافع وبالطـائـرات. وكثـيـرا مـا كـانت الطـائرات تسـتدعـى لقـصف مـواقـع ربما يكون عدد الموجودين فيها قليلا وربما كان فيها قناص واحـد. ولم تكن المشكلة أمام القوات التاريخية هى اجتياح مواقع العدو، وانما كانت اكتشاف مواقعهم، أما الهجوم والاجتياح فكان يتم بالمدفعية والقصف الجوى.

وكانت القاذفات الثقيلة هى السـلاح الامريكى الفعال. اذ كانت ترمى قنابلها الموجهه الكترونيا وهـى تطير عالية فتحدث الدمار الشامل المطلوب بدقة.

ولم يكن الصدام الذى وقع بين المجموعة الامريكية والفيتكونج عصر هذا اليوم أمـرا عـارضا، بل تلك كـانت هـى سـمة المواجـهة بين الطرفين باسـتمـرار. وكانت تلك هـى النتيجة المباشـرة لتاكتيك الفيتكونج واسـتراتيجية الامريكيين.

كان تاكتيك الفيتكونج هو تدمير العدو عندما تكون الفرصة سانحة ومضمونة النجاح، وذلك ما حدث عصر اليوم ـ فقد كانوا فى مخابئهم عندما مرت المجموعة الأمريكية ـ فى طابور طويل ـ أمامهم، وبالفعل فإن ٩٠٪ من المعارك فى حرب فيتنام بدأت على هذا النحو عندما وجد الفيتناميون الفرصة سانحة أمامهم.

وكان هدف الأمريكيين أيضاً هو تدمير العدو، ولكن فى اى وقت وفى اى فرصة حتى ولو كان التفوق الأول للفيتناميين اذ سرعان ما تبدأ المدفعية والطيران فى قصف المواقع التى يتم اكتشافها.

إن العدوانية التى تميزت بها معارك الجيش الأمريكى لم تكن نابعة من طبيعة هذا الجيش، بل من السياسة والاستراتيجية والطريقة التى كان يأمل من يديرون الخطوات العسكرية فى أمريكا تحقيق النصر بها.

وحتى أستمع الى المزيد عن الاستراتيجية الأمريكية فقد طرت الى سايجون عن طريق واشنطون، والتقيت بالجنرال ماكسويل تباور وروبرت ماكنمار، وكان مفتاح النصر ـ ببساطة ـ فى نظر أمريكا هو تحطيم الروح القتالية لدى هانوى، وذلك عن طريق قصف ثقيل ومستمر على فيتنام الشمالية وتدمير قوات الفيتكونج فى فيتنام الجنوبية وكان رأى ماكنمارا وتيلور أن استمرار هذه الأستراتيجية سوف يجبر هوشى منه المعارك والجلوس معهم الى مائدة المفاوضات.

وقد تواءمت هذه الاستراتيجية مع السمات العدوانية للقادة الأمريكيين، فإن من يرى الجنرال نورتون وهو يحفز رجاله على اطلاق النار قبل أن يستقل طائرته بمدافعها ١٥٥، لا يتمالك نفسه من اى يذكر منظر (الشريف) فى الغرب الأمريكى وهو يقفز على ظهر حصانه فى طريقه الى معركة يخوضها حتى النهاية.

وأعود الى عصر ذلك اليوم، ففى الخامسة والنصف مساء توجهت من مقر القيادة بصحبة نورتون الى مقر قيادة الجنرال ووكر حيث تناولنا العشاء، وبعدها بدأ نورتون الحديث حول الخطوة المقبلة للفيتكونج، وهل سيستفيدون من الظلام فى الانسحاب كعادتهم فى جماعات صغيرة، وكان رأى ووكر أنهم سوف ينسحبون ليلاً الى كمبوديا التى تبعد حدودها عشرة أميال، وأبدى نورتون قناعته بأن الفيتكونج جاءوا من الشمال بعد مسيرة ثلاثة أشهر لكى يحاربوا الأمريكيين، وذلك بالضبط ما سوف يفعلونه.

وأبديت رأيى فى فعالية الهليكوبتر، رغم ضخامة تكاليفها، لكنى بينت ان الأمريكيين يفقدون عنصر السرية اذ أن الهليكوبتر تعلن عن نفسها خلال كل بوصة من الطريق وعند الإنزال، فى حين يخفى الفيتكونج أنفسهم حتى خلال مسيرة الأشهر الثلاثة، وأستمع الى نورتون بانتباه تام، ثم قال لى (لا تقلق يا جنرال سوف نفوز بهم).

وبعد تناول العشاء نقلت بالطائرة الى منطقة تبعد عن الحدود الكمبودية بثلاثة أميال للاشتراك مع فرقة (البيريهات الخضراء) فى دورية لمدة يومين، وفى الصباح الباكر وردت برقية من نورتون تفيد أن هجوماً كبيراً من الفيتكونج قد وقع قرب المنطقة، ويقترح ايفادى الى موقع المعركة.

وكان الهجوم قد تم ليلاً وأسفر بعد فشله عن ٢٣٧ قتيلاً تركهم الفيتكونج خلفهم، وكانت بالموقع مجموعة من الكوريين الذين أقاموا دفاعات وتحصينات قوية وأحسنوا إخفاءها، وكانت غلطة قائد الفيتكونج انه تصور أنه يقاتل الكوريين فقط، دون ان يحسب حساب المدفعية والطيران والدبابات.

وهكذا فإن الأقوى هزم الأضعف، صحيح أن المواجهة بين داود وجوليات فى بلادى كانت واقعة نادرة، لكن الشىء نفسه يحدث هنا فى مملكة الدبابات والمدافع، فقد انهالت على الفيتكونج ٢١ الف قذيفة، أو ما يفوق كل ما أطلقته اسرائيل خلال معركة سيناء وحرب الاستقلال مجتمعتين، الغريب ان بعض

الفيتكونج وصلوا الى الأسوار واستطاعوا القاء بعض القنابل اليدوية.

ولفت انتباهى أثناء جولتى خلال الحطام، حداثة سن الفيتكونج، ونظافة هندامهم، وعنايتهم بمظهرهم رغم أنهم ينتعلون الصنادل، بل كان بعضهم حافى القدمين، وكانت أسلحتهم مختلفة ما بين بنادق ماوزر من الحرب العالمية الثانية الى بنادق نصف آلية سوفيتية التصميم صينية الصنع الى مدافع رشاشة خفيفة.

ولقد شهدت الكثير فى فيتنام، وسمعت الكثير، وكنت سعيداً بوجودى هناك، لقد رأيت كيف تكون الحرب فى منتصف الستينات، ولم أكن أعلم، وأنا أغادرها فى طريقى الى بلدى، إننى سوف أعود بعد اقل من عشرة أشهر الى الحكومة فى وسط الشئون العسكرية مسئولا عن ادارة واحدة من أكثر المعارك دراماتيكية.

■ ■ ■

الباب الخامس

حرب الأيام الستة
(١٩٦٧)

فى هذا الباب يتحدث موشى ديان بمنتهى الصلف والغرور عن حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، أو كما جرى العرف عندهم على تسميتها بحرب الأيام الستة .

ومن حقه أن يتكلم كما يشاء ، فإن ما حدث كان خارجاً عن حدود العقل والمنطق ، ولم يدر بخلد إسرائيل نفسها أن تتحق هزيمة الجيوش العربية فى هذا الزمن القياسى ، ولكن (ديان) بالرغم من ذلك يكذب ويخادع إذ يصور الجيش المصرى والجيوش العربية بصورة الوحش المفترس جاء ليفترس الحمل الإسرائيلى الوديع الذى لم يجد أمامه من سبيل سوى الدفاع عن نفسه ضد جيرانه من الوحوش المتربصين به شراً .

١٧ ـ الانتظار الطويل الأول

فى ليلة الأحد ١٤ مايو (آيار) ١٩٦٧، أثناء احتفال اسرائيل بعيد استقلالها التاسع عشر، وردت انباء من المخابرات بأن القوات المصرية تعبر القناة الى سيناء، وبعدها بثلاثة أيام طلب عبد الناصر سحب قوات الطوارئ الدولية ووافقه السكرتير العام للأمم المتحدة على ذلك، وفى خلال عدة أيام وصل عدد القوات المصرية فى سيناء الى ٨٠,٠٠٠ جندى و٨٠٠ دبابة.

وفى ٢٢ مايو (آيار) اعلن عبد الناصر إغلاق مضايق تيران فى وجه السفن المتجهة من وإلى إسرائيل، وكانت اسرائيل قد حددت موقفها بوضوح تام للجميع عندما انسحبت من شرم الشيخ بعد معركة سيناء، وهو ان إعادة فرض الحصار سوف يعد عملاً من اعمال الحرب. وفى ٢٦ مايو (آيار) أعلن عبد الناصر أن مصر سوف تدمر اسرائيل، وأعلن الملك حسين وضع قواته تحت القيادة المصرية، وتلته العراق. وانضمت وحدات جزائرية وكويتية للاشتراك مع القوات المصرية فى سيناء، وهكذا وجدت اسرائيل نفسها فى مطلع شهر يونيو (حزيران) تحت تهديد من كل الجبهات العربية من جانب جيوش تفوقها عدداً وعدة، وأصبحت اسرائيل فى نظر العالم محكوما عليها بالفناء.

تمت تعبئة جزئية للاحتياطى فى اسرائيل، وجرى نفض الأتربة عن خطط الطوارئ وتم تعديلها، وكان أمام الحكومة الإسرائيلية برئاسة ليفى اشكول خياران: إما أن تأمر قواتها بالتحرك المباشر، أو أن تسعى الى بذل جهود دبلوماسية للضغط على عبد الناصر، وقررت الحكومة البدء باجراء الاتصالات الدبلوماسية، وبقيت القوات معبأة فى مواقعها اثنين وعشرين يوما فى انتظار الأنباء الجديدة، واخيرا وفى صباح ٥ يونيو (حزيران) انطلقت

صفارات الإنذار معلنة أن إسرائيل تحارب.

كانت حرب الأيام الستة، كما أسميت فيما بعد، هى الصراع المسلح الثالث الذى تخوضه اسرائيل فى تسعة عشر عاماً من استقلالها. وقد نشبت هذه الحرب بسبب القرارات الخاطئة للرئيس المصرى جمال عبد الناصر، كانت الأسباب المباشرة تتمثل فى سلسلة من الحوادث بين اسرائيل وسوريا (والأردن أيضا) وفى رد فعل مصر، أو فلنقل رد فعل رئيسها، كان عبد الناصر يعلم أن اسرائيل سوف تعتبر أعماله العدوانة، وخاصة اغلاق المضايق، بمثابة عمل حربى، لكنه كان يفترض أن القوى الكبرى سوف تمنع إسرائيل من الحركة، أو ان اسرائيل لن تستطيع اختراق الخطوط المصرية فى سيناء، ولابد لمجلس الأمن أن يتحرك ويأمر بوقف القتال فيتحقق لعبد الناصر فرض الحصار البحرى بشكل مستمر.

وكانت احدى الدوريات الإسرائيلية على الحدود الأردنية قد أصيبت بلغم فقتل منها ثلاثة وجرح ستة، وفى اليوم التالى دخلت القوات الإسرائيلية قرية ساموا عند جبل الشيخ ونسفت عشرة بيوت وبلغت خسائر الأردنيين عشرين قتيلاً و٣٥ جريحاً، واندفعت الصحافة والاذاعة الأردنية تسخر من عبد الناصر الذى وعد بمساعدة العرب ضد اسرائيل فى الوقت الذى تختفى فيه قواته وراء قوات الأمم المتحدة التى أمنت الملاحة الإسرائيلية من وإلى ايلات.

ومن ناحية اخرى فقد كانت هناك سوريا بنظامها المتطرف وكراهيتها لاسرائيل، ومحاولاتها لتحويل منابع المياه من نهر الأردن، ورعاية جيشها لنشاطات الارهابيين، وكانت سوريا أكثر عداوة لاسرائيل من غيرها من الدول العربية الأخرى. وكانت سيطرتها على مرتفعات الجولان تتيح لها ميزة طبوغرافية هائلة مكنتها من قصف المستعمرات فى وادى الأردن والحولة، وكانت المساعدات السوفيتية لسوريا بلا حساب.

وبعد عدة اشتباكات وحوادث على الحدود مع سوريا، وفى ٧ ابريل

(نيسان) ١٩٦٧، قام الطيران الإسرائيلى بعملية انتقامية فخرجت للقائه الطائرات السورية، وكانت النتيجة اسقاط ست طائرات مبراج سورية، ولم يخسر الطيران الإسرائيلى ولا طائرة واحدة.

واتجهت سوريا نحو الاتحاد السوفيتى تطلب مزيداً من الأسلحة وخاصة الصواريخ الموجهة، نحو عبد الناصر طالبة اشتراك مصر الفعال فى الدفاع عن سوريا، ولم تفاجأ اسرائيل بذلك لأنها كانت تدرى مدى الجرح الذى أصاب سوريا عندما أسقط الطيارون الإسرائيليون الطائرات السورية فوق دمشق.

ثم جاءت الشكوى السورية من ان اسرائيل تركز (تحشد) على حدودها، وكانت هذه التهمة باطلة تماماً، ويبدو ان السوريين تصوروا هذا الأمر بعد الاشتباك الجوى، وقد حاولت اسرائيل تفنيد هذه الشكوى، غير ان الاتحاد السوفيتى جعل من الشكوى قضية، فاضطر ليفى أشكول الى دعوة السفير الروسى لمصاحبته فى جولة عبر الحدود للتأكد بنفسه، لكن السفير رفض.

ووجد عبد الناصر نفسه أمام المشكلة بوجهها الحاد، وخاصة كيفية مساعدة سوريا التى ارتبطت معها مصر بمعاهدة للدفاع المشترك فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٦، وأضيفت الى ذلك تلك (المعلومات) التى ظل عبدالناصر يتلقاها من مصادر سورية وسوفيتية عن حشد اسرائيل لقواتها على الحدود بهدف الاستيلاء على العاصمة دمشق واسقاط نظامها اليسارى، واختار عبد الناصر الوقوف بجانب سوريا وأعلن فى خطبة له يوم أول مايو (آيار) أنه سوف يضع تحت تصرف سوريا كل احتياجاتها من الطائرات والطيارين.

وأشعل الروس الموقف، ففى ١٢ مايو (آيار) ١٩٦٧ نقل احد رجال المخابرات فى السفارة السوفيتية فى القاهرة الى المخابرات المصرية (تأكيدات) للتقارير السورية بأن اسرائيل تحشد قواتها على الحدود السورية، وفى اليوم التالى كرر نيكولاى بودجورنى هذا الإدعاء فى حديثه مع انور السادات (زميل عبد الناصر الوثيق أثناء زيارت لموسكو) وأضاف بودجورنى

ان روسيا سوف تساعد سوريا ومصر وقال (يجب ألا تؤخذ مصر على حين غرة) فالأيام المقبلة حاسمة. وردد وزير الخارجية السوفيتى للضيف المصرى نفس الأقوال مضيفاً أن اسرائيل سوف تتحرك ما بين ١٦ و٢٢ مايو (آيار).

وسارع السادات بإبلاغ عبد الناصر، الذى أمر يوم ١٤ بارسال فرقتين إلى سيناء بالإضافة إلى الفرقة الموجودة فيها بالفعل وكانت تلك هى المعلومات التى وصلت خلال احتفالات اسرائيل بالاستقلال، وطبقا لما قاله محمد حسنين هيكل، رئيس أكبر الصحف المصرية، والصديق المقرب لعبدالناصر، فان هذا التحرك كان لعاملين أولهما تأكيد لسوريا بأن مصر سوف تحارب الى جانبها والثانى اجبار اسرائيل على سحب قواتها من الحدود السورية لمواجهة التهديد المصرى جنوباً.

وكانت الخطوة التالية لعبد الناصر هى طلب سحب قوات الطوارئ الدولية، اى من غزة الى ايلات، وقال الجنرال المصرى الشرقاوى للجنرال ريكى - قائد قوات الطوارئ - إن مصر تريد حدودها مفتوحة نظرا لأن الأعمال الحربية قد تندلع بينها وبين اسرائيل، ولم يتضمن الطلب سحب قوات الطوارئ من شرم الشيخ وغزة.

وبناء على نصيحة الدكتور رالف بانش، رفض يوثانت - السكرتير العام للأمم المتحدة - ترك قوات الطوارئ فى شرم الشيخ وغزة محتجا بأن القوات لا يمكنها طبقاً لمهمتها ان تبقى فى مواقع وتترك غيرها، فكلها أجزاء متكاملة من عمل واحد، وجاء رد فعل عبد الناصر يوم ١٧ مايو (آيار) بالأمر باخراج كل قوات الطوارئ بما فيها تلك الموجودة فى شرم الشيخ، ووافق يوثانت وتم انسحاب القوات بعدها بيومين وعلى الفور احتل جيش التحرير الفلسطينى مواقع الأمم المتحدة فى غزة.

ثم جاء قرار عبد الناصر الذى شكل الخطوة الحاسمة نحو الحرب وذلك خلال اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للتحاد الاشتراكى العربى فى

منزله يوم ٢١ (أيار)، حيث تقرر اغلاق ميناء ايلات من خلال اغلاق مضايق تيران وعدم السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور او للسفن الأجنبية التى تحمل مواد استراتيجية من والى اسرائيل، وفى اليوم التالى خلال زيارة عبد الناصر الى قاعدة أبو صوير الجوية أعلن اغلاق خليج العقبة فى وجه اسرائيل، وفى اليوم التالى ٢٢ مايو (آيار) أوقفت سفينتان ألمانيتان وتمت مراجعة أوراقهما وسمح لهما بالمرور بعد التأكد من أن وجهتهما هى ميناء العقبة الأردنى وليست ايلات.

وفى نفس اليوم الذى أعلن فيه عبد الناصر إغلاق خليج العقبة قابل السفير السوفيتى بالقاهرة الذى سأله عما إذا كان يرغب فى أن يعلن الاتحاد السوفيتى أنه إذا هاجمت إسرائيل العرب فإن القوات السوفيتية ستشترك مع العرب فى المعركة، اجاب عبد الناصر انه يفضل ان يوجه السوفيت هذا الإنذار للولايات المتحدة الأمريكية.

وهبطت التحركات العسكرية لعبد الناصر هبوط الصاعقة على إسرائيل، ربما لأن الصورة التى كانت موجودة قبل ١٥ مايو تمثلت فى مجرد أن سوريا طلبت مساعدة مصر فى مواجهة اسرائيل، أما الآن فقد تغيرت الصورة، وأصبحت مصر ـ لا سوريا ـ هى التى تهدد اسرائيل بالحرب.

لقد حركت مصر أكثر من نصف قواتها المسلحة الى سيناء وسحبت قوات الطوارئ، وأغلقت مضايق تران ولم تكن الحكومة الإسرائيلية ولا الشعب يتوقعان هذا العمل، ولم تكن اسرائيل تريد الحرب، لكنها أيضاً لم يكن فى استطاعتها تجاهل خطورة اغلاق مضايق تيران على ميناء ايلات ولا تجاهل التهديد المصرى الذى يدفع بكامل قوته العسكرية نحو الحدود الإسرائيلية.

وعلى الفور بدأت مشاورات فى داخل اسرائيل، واتصالات دبلوماسية واسعة النطاق فى عواصم العالم، لرفع الحصار عن مضايق تيران وانهاء التهديد المصرى.

واتضح فيما بعد أن عبد الناصر كان مخطئا فى قياسه للنتائج التى ستسفر عنها المواجهة العسكرية لكنه كان مصيبا فى حكمه على الموقف الذى ستتخذه الدول الكبرى، وقد عمل ممثلو السوفيت فى القاهرة على تغذية مصر بتقارير زائفة عن الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية، بل ووعدت روسيا بايفاد قوات فى حالة نشوب الحرب.

أما فرنسا فلم تكن ترغب فى قيام الحرب، لكن الرئيس ديجول كان يساعد عبد الناصر فى محاولة الحصول على ما يطلبه بدون حرب، وقد اوقف الرئيس ديجول كل شحنات الأسلحة التى طلبتها اسرائيل من فرنسا، ودفعت ثمنها، وشرح الرئيس ديجول ذلك لممثل إسرائيل قائلاً: إنه اوقف شحن هذه الأسلحة حتى يمنع اسرائيل من البدء فى الحرب، وجاء هذا القرار الفرنسى فى الوقت الذى كانت مصر تتلقى فيه كميات هائلة من الأسلحة من الاتحاد السوفيتى، ومضى الرئيس ديجول فاتخذ موقفاً يقضى بأن اسرائيل يجب ان تنسى موضوع اغلاق مضايق تيران، بل وذهب الى حد انه لابد من عودة اللاجئين الفلسطينيين لأراضيهم والاعتراف (بحقوق الفلسطينيين)، وانه يجب على الدول الأربع الكبار ان تعالج هذه الموضوعات، وكان ديجول يريد ان يوضح لنا من هذا الإعلان ان فترة التعاون الفرنسى الاسرائيلى عام ١٩٥٦ قد انتهت وان فرنسا الآن تسعى الى علاقات طيبة مع العرب.

وكان موقف بريطانيا نشيطاً ولكن بدون نتائج، وكان رئيس الوزراء هارولد ويلسون يزور واشنطون فى هذه الأيام، واعلن تأييده لاقتراح الرئيس الامريكى جونسون بارسال قوة بحرية للتدخل بالقوة وانهاء الموقف، ولكن الاقتراح تجمد كما ان وزير الخارجية البريطانى جورج براون حاول البحث عن حلول، لكن زملاءه فى مجلس الوزراء البريطانى خذلوه، ورفضت ايطاليا وأسبانيا التعاون خوفا من اغضاب مصر، ورفضت فرنسا التوقيع على اعلان حرية الملاحة فى خليج العقبة الذى اقترحته الولايات المتحدة، واخيراً طار

براون الى موسكو يوم ٢٤ مايو (أيار) وقدم مقترحاته للقادة السوفيت، ولكن كوسيجين هزأ به قائلا: (هل تريد سويس اخرى) ورفض كوسيجين اقتراحين آخرين لبراون هما ان تتعاون روسيا مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة لعودة قوات الطوارئ الدولية لمواقعها السابقة، وان تضغط موسكو على مصر للجلاء عن شرم الشيخ، وعاد وزير الخارجية البريطانى الى لندن بعد يومين من المباحثات الفاشلة فى موسكو.

أما الولايات المتحدة فلم تكن توافق على تحركات عبد الناصر، لكنها لم تقبع ساكنة، كذلك فان مقترحاتها لم توضع موضع التنفيذ أو التحرك الفعلى، وفى ٢٣ مايو (آيار) التقى السفير الأمريكى فى القاهرة بوزير الخارجية محمود رياض وأبلغه ان موقف الولايات المتحدة يتلخص فى أنها تعارض فى جلاء القوات الدولية وفى احتلال المصريين لشرم الشيخ الا اذا اعلنت مصر قبولها حق حرية الملاحة فى خليج العقبة، كما تعارض الولايات المتحدة دخول الجيش المصرى لقطاع غزة.

وبعد أسبوع فى أول يونيو (حزيران)، بعث الرئيس الأمريكى جونسون بمبعوث خاص الى القاهرة هو روبرت اندرسون الذى كان على معرفة وثيقة بعبد الناصر، وسلمه رسالة شخصية من الرئيس الأمريكى وطبقاً لرواية محمد حسنين هيكل فان الرئيس جونسون أبلغ عبد الناصر فى هذه الرسالة أن الولايات المتحدة لن تشترك فى ارسال أى قوة بحرية لمضايق تيران، ولكن الرئيس الأمريكى مهتم بأمن اسرائيل وتنميتها وينسحب ذلك على حرية اسرائيل فى الملاحة البحرية، فى مضايق تيران، ولذا فهو يرى أنه يمكن الوصول الى حل وسط فى ضوء كل ذلك وتجنب الحرب.

وكان الرد الرسمى لعبد الناصر انه يقبل اقتراح يوثانت بتأجيل اغلاق المضايق لمدة اسبوعين، يتم خلالهما الوصول الى حل معقول تقبله كل الأطراف وقد اكدت مهمة اندرسون تقدير عبد الناصر واعتقاده فى ان القوة

الكبرى لا ترغب فى الحرب وان روسيا وامريكا ستعملان على وقف الحرب كما فعلتا عام ١٩٥٦م.

وفى نفس الوقت استمر المصريون فى تقوية قواتهم فى سيناء وتلقوا امدادت جديدة من الجيوش العربية، وبدأوا فى وضع اللمسات الخيرة فى خطةِ الحرب، ففى الجنوب يستطيع المصريون اغلاق ايلات بالاشتراك مع القوات الاردنية، وفى الشمال تستطيع القوات السورية مع القوات العراقية الاستيلاء على الجليل الأعلى والسيطرة عليه.

وفى يوم ٢٦ مايو (أيار)، من خلال حديثه مع وفود العمال العرب، أثنى عبد الناصر على الاتحاد السوفيتى وهدد بتدمير اسرائيل، وقال ان مصر سمحت لقوات الطوارئ الدولية بالبقاء على أرضها حتى تستكمل مصر بناء قواتها المسلحة، وعندما تم لها ذلك ذهبت الى شرم الشيخ، وقد سنحت الفرصة لذلك عندما هددت اسرائيل سوريا.

وأعلن الرئيس المصرى ان الجيشين السورى والمصرى الآن جيش واحد، وانه يأمل ان تنضم بقية الدول العربية التى تحيط باسرائيل فى جبهة عسكرية واحدة.

وفى يوم ٣٠ مايو (آيار) اعلنت الاردن انضمامها الى الحلف العسكرى المصرى والسورى، وكانت علاقة الملك حسين سيئة مع عبد الناصر، ومع ذلك سافر الملك حسين الى القاهرة بدون ان يتلقى اخطارا بالترحيب باستقباله، وبعد ساعات قليلة من وصوله وقع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر وسوريا.

ومع انضمام الملك حسين فانه لم يبق الا معنى واحد، هو الحرب، وكان حسين يخشى ان تهاجم الجيوش العربية اسرائيل وتحرز النصر ويصبح موقفه سيئاً اذا وقف مكتوف الأيدى.

وعند عودته الى عمان من القاهرة أدلى بحديث لمراسل جريدة الحياة

البيروتية قال فيه ان توقيعه على اتفاقية الدفاع المشترك فى القاهرة عمل تاريخى وانها وثيقة تحمل معنى الإدارة القوية نحو العمل، واعرب الملك حسين عن امله فى ان تشترك الدول العربية شرقاً وغرباً فى محو العار وتحرير فلسطين، وتم تعيين الجنرال عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الشرقية والقوات الأردنية.

واستحكمت الحلقة حول اسرائيل يوم ٤ يونيو (حزيران) بتوقيع العراق للمعاهدة الثلاثية لتصبح رباعية، ووصلت الى الأردن طائرات حربية مصرية وكتيبتان مصريتان وبدأت القوات العراقية تحركها نحو الأردن وعلى رأسها لواء ميكانيكى وكتيبة مدرعات.

ومع انضمام حسين لاتفاقية الدفاع المشترك، ووضع الجيش الأردنى تحت القيادة المصرية، لم يعد فى وسع اسرائيل أن تبقى بدون عمل ايجابى وتترك نفسها معرضة لهجوم من الشمال والشرق والجنوب ولم يعد السؤال فى اسرائيل موضوع اغلاق مضايق تيران أو اذا كانت هناك حرب أم لا، وانما أصبح السؤال هل ننتظر الهجوم العربى أم نبدأ نحن بالضربة الأولى؟

وعندما بدأت القوات المصرية تحركها فى سيناء، وبعد أربعة أيام من هذا التحرك، بدأت إسرائيل فى تعبئة قواتها الاحتياطية، وكان ذلك مدعاة لانتشار القلق بين الناس، علاوة على حدوث شلل فى الوضع الاقتصادى فى اسرائيل، وعندما تابع عبد الناصر تحركاته العسكرية بقرار اغلاق مضايق تيران فى ٢٢ مايو (آيار) لم يعد فى وسع اسرائيل تحمل هذا الاعتداء، وكان الرأى العام الإسرائيلى يطالب القادة بأن يتخذوا موقفاً صارماً من هذا الأمر، ولما لم يحدث ذلك ساد الشعور بأن ليفى اشكول رئيس الوزراء غير قادر على اتخاذ قراره، وبدأ الرأى العام يشك فى قدرة الحكومة على مباشرة مثل هذه الامور، وكان الحزب الحاكم (الماباى) منذ انشقاق حزب رافى قد فقد الكثير من الشخصيات من بينهم بن جوريون وغيره من ذوى الخبرة فى

شئون الدفاع مثل يعقوب دورى، اول رئيس للأركان، وشيمون بيريز الذى شغل منصب نائب وزير الدفاع، وانا الذى عملت رئيساً للأركان لمدة خمس سنوات متصلة، وزفى تسور الذى عمل أيضا لفترة رئيساً للأركان.

قبل بداية حرب الأيام الستة بأسبوعين لطالما سميت ب (المنعزل) وكنت بالفعل اعيش هذه الحالة بل أننى لم أكن أناقش أصدقائى العسكريين والسياسيين فى أى من الأمور التى تمر بالبلاد، ولم أشعر من قبل أننى قريب من الناس مثلما كنت هذه الأيام فى مشاكلهم التى يواجهونها. فعلى السطح كانت المشكلة تبدو سياسية عسكرية، لكننى كنت اعلم انها المشكلة التاريخية لليهود، وكنت اعلم أيضاً ان الحرب لابد منها، وأن الجهود الدبلوماسية لن تؤدى الى شىء، وانه اذا نشبت الحرب فسوف اشترك فيها ولو حتى كجندى عادى، وأن كنت اتولى منصباً قيادياً.

ومن وجهة النظر العامة، كانت أمامى فرصتان للعمل: الأولى ان احمل مسئوليتى كعضو فى الكنيست، أشارك فى أعمال اللجان الوزارية التى لا أشعر نحوها بأى أهتمام، أو حضور اجتماعات لجنتى الشئون الخارجية والامن التى كانت تستغرقها النصائح والخطب الطويلة من جانب بعض أعضائها الجهلاء أو أن أشترك مع بن جوريون وشيمون بيريز فى مناقشاتهما، وان كنت أؤمن بأن هذه المناقشات عقيمة الجدوى نظرا لابتعاد حزب رافى عن أى نفوذ فى الحكومة.

أما الخيار الأخير فهو الاشتراك فى القتال ولو كأى جندى عادى وفى يوم٢٠ مايو (أيار) اتصلت بالكولونيل اسرائيل ليور مساعد رئيس الوزراء وطلبت الإذن بزيارة الوحدات فى الجنوب للاطلاع على استعداداتهم وإمكانياتهم القتالية وطاقاتهم وخططهم لمواجهة المصريين وقد اتصل بى الجنرال اهارون ياريف قائد المخابرات بعد عدة ساعات وسألنى عما اذا كنت أرغب فى الانتظار لمدة اسبوعين خاصة وأن الرجال مشغولون فى هذه

الأيام، ولكنى قلت له إننى لا أقوم برحلة سياحية وتقرر البدء فى رحلتى يوم ٢٣ مايو (ايار) على أن أرتدى الملابس الرسمية وصرفت لى سيارة، على أن يصحبنى المقدم ياريف. وبعد يومين، وفى ليلة تحركى حضر إلى منزلى الجنرال إسحاق رابين رئيس الأركان (رئيس الوزراء فيما بعد) وسألنى عن تقديرى للموقف. فقلت له إن عبد الناصر سيغلق الممرات (وهذا ما فعله بعد ٤٨ ساعة) لذلك فيجب على إسرائيل القيام بعمل عسكرى وأن هذا التحرك الحالى لا يكون باحتلال شرم الشيخ، وانما يجب أن يتجه إلى جر الأعداء إلى المعركة فى المكان المناسب لنا، ثم بعد ذلك تتحول الحملة جنوبا نحو المضايق، وقال رابين إن تلك هى نفس وجهة نظره، ويرى أن المكان المناسب للبداية هو غزة على أساس أن المصريين سيدفعون قواتهم إلى هناك، وقلت إن ذلك لا يبدو مناسبا لى نظرا لوجود معسكرات لاجئين فلسطينيين بكثرة هناك، بالإضافة إلى كونها منطقة سكانية أكثر منها عسكرية وإننى أفضل أن يكون الصدام الأول مع هدف عسكرى.

وأضاف رابين أن من المناسب لنا لابد أن نبدأ بضربة جوية اجهاضية قوية. وقلت له إننى أشك فى أنه سيحصل على تصديق على هذه الخطة مع الظروف والقيادة السياسية القائمة.

وقد كان الارهاق والتعب واضحين على رابين، وكان عصبيا يدخن بكثرة غير عادية. وشكا لى من أنه بدلاً من ان يتفرغ لمهامه العسكرية فإنه سيتدعى كل يوم لحضور المشاورات الحكومية. وأن الخط السياسى والعسكرى لأشكول غير واضح. وأبلغنى أنه قابل بن جوريون فى اليوم السابق واستمع منه إلى وجهة نظره التى تطابق وجهة نظرى.

وكنت حريصا على أن أعهرف انطباعه عن المقابلة فقال لى إنه رجل واضح، يجيب بنعم ولا، وما يمكن عمله وما يجب تجنبه وكان انطباعى الشخصى عن رابين هذه الليلة أنه يعانى من التمزق.

وفى صباح يوم ٢٣ مايو تحركت مع مرافقى المقدم بارليف نحو الجنوب، وفى الطريق استوقفنى واحد من رجال الشرطة العسكرية وأبلغنى بضرورة عودتى الى تل أبيب لاجتماع عاجل مع رئيس الوزراء وعندما عدت تبينت ان الاجتماع سيتم بيْن اللجنة الوزارية للدفاع مع زعماء المعارضة فى الكينسست، فى جانب الحكومة كان هناك أشكول وأبا إيبان واسرائيل جاليلى وارانى وزير التعليم وشابيرو وزير الداخلية ومن المعارضة كان هناك مناحم بيجين وشمعون بيريز وأنا وآخرون، وكان هناك ايضاً رابين وعيزر وايزمان رئيس العمليات وجولدا مائير التى كانت سكرتيرة حزب الماباى فى ذلك الوقت.

وافتتح رئيس الوزراء الحديث قائلا: إن الولايات المتحدة طلبت منه الانتظار ٤٨ ساعة قبل ارسال مظاهرة بحرية اسرائيلية تحاول اختراق المضايق بعد اعلان عبد الناصر اغلاقها، وأقترح أبا ايبان ان نطلب من الولايات المتحدة ارسال مدمرة امريكية لتصاحب هذه المظاهرة، وذلك لنتأكد من موقفها، وقيل لنا ان الولايات المتحدة أبلغت اسرائيل بأنها اذا كانت تريد مشاركتها فى المسئولية، فيجب ان يؤخذ رأيها قبل أى خطوة، وكانت وجهة نظرى التى عرضتها انه لا بأس من انتظار ٤٨ ساعة، لنرى اذا كانت الولايات المتحدة ستشترك معنا فى فتح المضايق بالقوة، وإن كنت اعتقد انها لن تفعل ذلك ولذا اذا انتهت المهلة فإنى أرى أن نقوم بالهجوم المفاجئ على الجيش المصرى بغرض تحطيمه وأن لا ننسى ان نضع فى اعتبارنا أن الأردن والدول العربية الأخرى تهاجمنا، ولذا فيجب ألا نمكن الأردن من الاستيلاء على جبل المكبر. ولا يجب ان ننسى أيضا أحتمال تحرك العرب الإسرائيليين اذا وجدوا انفسهم فى موقع يسمح لهم بذلك.

وأضفت قائلا أننا لم نسمع شيئاً عن الخطة العسكرية، وأننى اتصور انه لا يجب ان تحدث لنا أى نكسة فى الضربة الأولى، ولذا فإنى أتصور أنه يجب القضاء على مئات الدبابات فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام، وكان أيبان ـ رغم

توتره ـ هو الوحيد الذى فهم الموقف كما شرحته، أما اشكول فقد بقى متماسكا باقتراح المدمرة الأمريكية، فى حين ان ذلك كان يعنى انه بدون وجود الحماية الأمريكية فلن يمكننا اختبار امكانية الملاحة الإسرائيلية ولا ضمانها.

ويبدو أن اشكول لم يفهم كلامى عن الخطة السياسية العسكرية الشاملة، اذ قال ان الجيش الإسرائيلى اعد خططا لكل الجبهات من حيث العمليات.

وفى نهاية الاجتماع وافق الجميع على مهلة الـ ٤٨ ساعة، ولم يوافقوا على طلب مساعدة البحرية الأمريكية، ووافقوا ايضا على إعلان التعبئة الشاملة، وبعد انتهاء الاجتماع اقترح شمعون بيريز ان نتصل ببن جوريون، ولكن رفضت لان موقف بن جوريون قد يجعله يطلب منا عدم التعاون مع رئيس الوزراء وهذا ما لا يمكن أن أقبله فى هذه الظروف، وقلت لبيرز انه يجب أن نستمر فى حضور مثل هذه الاجتماعات ولكن كممثلين للمعارضة، وأن لا نشترك فى حكومة أشكول اذا ما طلب منا ذلك، أما خلع أشكول فأمره يجب أن يترك الى حزبه «الماباى».

■ ■ ■

١٨ ـ الانتظار الطويل الثانى

وأخيراً وصلت قيادة الجبهة الجنوبية بعد ظهر يوم ٢٣ مايو (أيار) بعد تسعة أيام من بدء تحرك القوات المصرية، وكان الجنرال شايبك «يشعياهو جافيتنس» موجوداً فى القيادة العامة فى تل ابيب وعلمت من رئيس أركانه كل شىء عن مواقع القوات المصرية والاسرائلية، وأن هناك ثلاثة تشكيلات مدرعة فى القيادة الجنوبية بقيادة الجنرالات اسرائيل تال وافراهام يوفى وأريك شارون، ووجدت أن خطة العمليات لم تكن محددة المعالم بصفة نهائية، ووجدتها معقدة وينقصها استغلال أهم ميزة لنا وهى المرونة، بحيث يمكن تغيير الخطة أثناء المعارك لدفع المصريين الى تغيير خططهم وإحداث الارتباك فى صفوفهم ولكننى احتفظت بهذه الملاحظات لنفسى.

وانتقلت من قيادة الجبهة الجنوبية الى تشكيل الجنرال تال وذهبت بالطائرة الى اللواء السابع، وقابلنى قائده الكولونيل شموئيل جونين وقد سعدت بهذه الجولة لانى وجدت القائد واثقا من نفسه وقدرته، ورجاله به، وهو على استعداد لدخول معركة فورية حتى بدون مساعدات مدفعية أو غطاء جوى، وعدت الى فندق الصحراء فى بئر سبع لقضاء ليلتى، وفى العاشرة والنصف قابلت الجنرال شاييك جافيتش، فأبلغنى نتائج اجتماعه مع رئاسة الاركان، حيث قررت التعبئة العامة، وتم تحديد ساعة الصفر للقتال بعد ٧٢ ساعة من اغلاق عبد الناصر للمضايق، وقد صدرت الاوامر بضرب المطارات المصرية واحتلال قطاع غزة.

ولم أبذل مجهودا لاخفاء خيبة أملى، وكان الى جوار شاييك قادة الوحدات وكنت قد حضرت لأسمع فقط، ولكننى تكلمت بعد أن قال إنه يجب أن نناقش

كل احتمالات العمليات وقال إنه تحدث مع رئيس الاركان وسمح له بمناقشة هذه الخطط معى، وشرح شاييك صعوبة اقتحام النقاط المصرية القوية، وهو يرى أن احتلال قطاع غزة يمكن أن يكون ورقة فى ايدينا نساوم بها فى مقابل حرية الملاحة فى المضايق، وان القوات المصرية التى ستسارع الى غزة لن تستطيع عمل أى شىء تحت ظروف تمسكنا بالقطاع والسيطرة عليه.

وقلت إن هذه الخطة لا توافقنى لأسباب عسكرية وسياسية، أولها ان قطاع غزة محمل بالمشاكل وسوف تجد اسرائيل نفسها مغروزة مع ربع مليون لاجئ فلسطينى، وفى نفس الوقت فإن مصر لا تعتبر القطاع ورقة رابحة بالنسبة لها، واما السبب الاهم فهو سبب عسكرى لأن الغرض من الحرب هو الصدام المسلح مع عبد الناصر، ولم يكن غرض عبد الناصر إطلاقا هو اغلاق المضايق بقدر رغبته فى اثباته ان اسرائيل عاجزة عن مواجهة العرب، وان الواجب علينا ان نثبت عكس ذلك، وهذا يتأتى عن طريقين، إما أن نحتل شرم الشيخ... فاذا كان ذلك صعبا بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر، فلابد لنا أن نواجه المصريين فى معارك واسعة النطاق، نحطم فيها القوة العسكرية المصرية، واحتلال قطاع غزة لن يصل بنا إلى تلك النتيجة خاصة وأن عبد الناصر لن يدفع بقواته لانقاذ غزة وقلت اننى لذلك أرى انه لا خيار امامنا سوى ان ندخل مباشرة الى قلب تلك القوة العسكرية ونواجهها.

واستمرت مناقشاتنا حول خطط العمليات حتى منتصف الليل، ولمست لدى الرجال تشككا حول جدوى التضحيات التى سنقدمها فى مثل هذه العمليات وأصبح واضحا لى أن الحكومة قد قصر عزمها على الاكتفاء باحتلال غزة، وأن أشكول لن يوافق على ما هو أكثر من ذلك وأبلغوننى ان رابين سوف يقوم بزيارة للمنطقة الجنوبية، لكننى علمت صباح ٢٤ مايو (آيار) أنه لن يقوم بهذه الجولة نظرا لملازمته فراش المرض مصابا بتسمم من النيكوتين.

وفى اليوم التالى زرت تشكيل أريك شارون ولمعت عيناه عندما وصف لى

خطته فى اقتحام المواقع الدفاعية فى القسيمة وأم شيهان وأم كتف وأخبرنى أن أحدا لم يوافقه على تلك الخطة، وان كل ما ابلغوه به هو احتلال قطاع غزة، وبعد ذلك اتجهت الى التشكيلات الفرعية التى يرأسها الكولونيل يكوتيل آدم - قائد لواء من المشاة - وكانت تربطنى به صلة قديمة من خلال هوايتنا فى اكتشاف الآثار... وقد قدم لى خلال هذه الزيارة بعض الاثار الجديدة التى عثر عليها فى منطقة على الحدود بين النقب وسيناء، والتى تعود الى القرن الثانى قبل الميلاد، والتى اشتهرت بها مصر الفرعونية، ولكنها كانت نادرة فى اسرائيل القديمة.

وعند الظهر عدت الى القيادة الجنوبية ووجدت اجتماعا للقادة فى مجموعة أوامر، إذ أن ساعات الانتظار الطويلة قد انتهت واقترب يوم القتال الذى تحدد له اليوم التالى ٢٥ مايو (آيار) وستبدأ العملية بضربة جوية على المطارات المصرية، وباقتراب ساعة الصفر، كنت حريصا على أن أنضم للواء السابع.

وعلى الغداء كان واضحا أنه ليس هناك اية تأكيدات من الحكومة باعطاء النور الأخضر للجيش للبدء فى العملية ومازال رابين مريضا، وتحسنت أوامر المعركة، صحيح إن احتلال قطاع غزة بقى أمراً لابد منه إلا ان اللواء السابع سيتقدم فى سيناء لاحتلال العريش، ثم يتقدم غربا نحو القناة وطلبت سترة عمليات بدون رتب، وحذاء ومسدسا، وقررت أن أعمل فى اللواء السابع كجندى، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر علمت أن ساعة الصفر قد تأجلت لمدة أربع وعشرين ساعة، فعدت مرة أخرى إلى بئر سبع وقررت أن أسير فى شوارعها متحاشيا أن يرانى أحد، وكانت غلطة اذ عرفنى الكثير من الجالسين على المقاهى وأخذوا ينادوننى باسمى.

وكان الرأى العام فى اسرائيل يطالب من خلال الصحافة بتغيير الحكومة والاستعانة بوزراء ممن لهم خبرة، ويعلمون كيف يقودون اسرائيل فى الطريق السليم، وبدأ الهمس يتردد حول عدم الثقة بالحكومة وان شخصية بن

جوريون هى التى تستطيع ان تجعل اسرائيل تقف على قدميها، ولكن حكومة أشكول استمرت واستمر هو رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع، وفى اليوم التالى انضممت الى دورية ضمن لواء يهودا راشيف، وزرت عدة مستعمرات على الحدود فى قطاع غزة، وشاهدت جميع نقاط قوات الطوارئ وقد تم اخلاؤها بينما وقف الجنود المصريون على بعد عدة ياردات من الحدود وكانت القوات المصرية منتشرة عبر خطوطها القديمة، وكانت القرى على الحدود تعمل كالمعتاد فى جميع المحاصيل فقد كان الوقت أوان الحصاد.

وتوجهت الى تل أبيب حيث التقيت بعيزر وايزمان، طلبت منه ادراجى ضمن التعبئة ثم توجهت الى مائير آميت رئيس فرع الخدمات الخاصة، واستمعت منه الى وجهة نظره وتقديره للموقف، وأبلغنى عن اتصالاتنا مع واشنطن، وأخبرنى أن كل الدول العربية تستعد لشن الهجوم قريبا جدا، وان هذه الصورة قد نقلت الى واشنطن مع سؤالها: هل الولايات المتحدة مستعدة الآن لأن تسارع للدفاع عن إسرائيل، وكنت قد علمت من وايزمان أن الهجوم سيبدأ غدا - ٢٦ - على المصريين.. وسألنى مائير عما إذا كنت أقبل فيما لو عرض على منصب مسئول الآن، وقلت إننى أقبل، وكتبت مذكرة لأشكول طلبت منه أن يوصلها له فى الصباح، قلت منها:

«عزيزى أشكول لقد طلبت من وايزمان ان يستدعينى رسميا حتى يكون عملى العسكرى فى أى وحدة عسكرية منطقيا وملائما، واذا رأيت أنت ورئيس الاركان أن وجودى أثناء الحرب، من خلال عمل فعل سيكون مفيدا، فإننى أقبل على الفور، أما إذا لم تريا ذلك، فأستمر فى اتصالى بالوحدات حيث أستطيع أن أنقل لكم وجهة نظرى فى تقوية الجيش وفيما يمكن أن يؤديه، موشى ديان - ١٩٦٧/٥/٢٥م.

ثم ذهبت لمقابلة ابنتى يائيل التى استدعيتها من أثينا، تماما مثلما فعلت عشية معركة سيناء، لأنى أعلم أن أى شخص يهودى يكون فى الخارج بينما

بلاده تحارب، يشعر بشعور مخيف.

وبعد أن صحبت يائيل الى العشاء، تركت تل ابيب فى الساعة الحادية عشرة مساء متجها الى الجنوب لانضم الى اللواء السابع، حيث كان مقررا ان نبدأ عملياته بعد عدة ساعات، وفى القيادة العامة وجدت الجميع مستغرقين فى النوم، وقال لى الضابط النوبتجى ان ساعة الصفر قد تحدد لها التاسعة صباحا، ولذا فقد ذهب الجميع الى النوم لاخذ قسط من الراحة قبل العمليات واكتشفت مرة اخرى ان العمليات البرية قد تأجلت الى ما بعد الضربة الجوية ولم أكن أدرى كيف سنبدأ العمليات قبل اجتماع إيبان بالرئيس جونسون فى اليوم التالى، اذ لم يكن امامنا سوى طريقتين: اما ان نمضى بدون اخطار جونسون أو ننتظر رد جونسون، وفى النهاية تأجلت ساعة الصفر مرة أخرى.

وكنت قلقا من أمرين الاول ان المحادثات مع جونسون لم تكن حول حرية اسرائيل فى الملاحة فى مضايق تيران، وانما حول الضمانات الامريكية فى حالة هجوم العرب على اسرائيل، والامر الثانى هو اقتراح أشكول بانضمام «جحال ورافى» كحزبين رئيسيين فى المعارضة، الى اللجنة الوزارية للدفاع، وكانت اللجنة قد تشكلت من سبعة أعضاء، ومعنى اقتراح رئيس الوزراء ان تتم اضافة اعضاء جدد اليها فى حين ان الحرب تحتاج الى وزارة صغيرة لا يزيد اعضاؤها عن الاربعة.

وكنت أؤمن بأن أهم ما يواجهنا الآن هو أن نلاقى الجيش المصرى ونهزمه، وأن المصير سوف يسوء لو أن اسرائيل وقعت فريسة خوفها التاريخى، ومضينا نطرق أبواب القوى الكبرى نطلب منها المساعدة وإنقاذنا.. وكنت أعتقد اعتقادا جازما بأن فى امكاننا تحطيم المصريين.

أما الاتصال بالدول الاخرى والامم المتحدة، وتقديم الموقف الراهن لهم لكى نبين لهم أن الحق فى جانبنا، ونشرح لهم خطورة اغلاق مصر لقناة

السويس، بعد ان يتأكدوا من أن الحق معنا ويقومون فى النهاية بتقديم اقتراحاتهم لتسوية الموقف... ذلك كله كان فى تقدير ى سذاجة وغباء بل يستوى فى ذلك أن نبلغهم أنه إزاء خطورة أعمال عبد الناصر، فإنه لابد لنا من أن نضرب مصر فورا.

وقضيت صباح يوم ٢٦ فى زيارة اللواءين التابعين لابراهام يوفى، وبمراجعة خطط المعارك معه اكتشفت ان هناك شعورا بعدم الرضا بين القادة وقيادة الجيش مع اقتراب العمليات وتسلمت رسالة من أشكول يطلب فيها أن يرانى وطرت الى بئر سبع وأنا أتساءل هل نهاجم فى اليوم التالى؟ كنت أعتقد انه الوقت المناسب...

وفى السابعة والنصف مساء قابلت رئيس الوزراء فى فندق دان فى تل أبيب، وقال لى أنه يريد أن يشكل لجنة وزارية للدفاع والشئون الخارجية تشمل خمسة وزراء منهم هو وايبان وايجال آلون واثنان من الوزراء الآخرين يمثلان الأحزاب الأخرى المشتركة فى الائتلاف الحكومى وعضوان من المعارضة فى الكنيست هما مناحم بيجن من «جحال» وأنا من «رافى»، وأخبرته أننى لن اشترك فى هذه اللجنة، وقلت له إنه إذا سألنى - من ناحية أخرى - هو أو رئيس الاركان أو أى مسئول رأيى، بعد أن تتم تعبئتى حسب طلبى، فإننى سأقوله لهم على الفور، ولم أقترح أن أكون مستشاراً لوزارة الدفاع أو ما شابه ذلك، وانما طلبت عملا فى مهام عسكرية ثم طلب منى أن أخبره عن انطباعاتى عن زيارتى للجنوب، وفى النهاية وعدنى بأنه سيجيب على طلبى الخاص باستدعائى للخدمة خلال ٢٤ ساعة، وبعد ذلك قابلت مائير وشرحت له رأيى فى خطة العمليات واقتراحاتى الخاصة بالتغيير، وهى كالاتى:

مادام سببنا المباشر للحرب هو كسر إغلاق مصر للمضايق، فلابد أن توجه حملتنا الى تحقيق هدفنا الرئيسى وهو اعادة فتح المضايق وذلك بأن نهاجم كل القوات المصرية فى سيناء مع مهاجمة المطارات والمدرعات وكل

التشكيلات التى توجد بين مصر واسرائيل.

يجب ان يكون هدف المعركة هو مواجهة وتدمير القوات المسلحة المصرية وعارضت فكرة احتلال أراض جديدة ومساومة مصر عليها فى مقابل اعادة فتح المضايق، وكذلك عارضت احتلال قطاع غزة المملوء بالمشاكل.

وكنت أيضا ضد فكرة الوصول الى قناة السويس التى قد فجرت مشكلة دولية، ومن الواضح ان فكرة اغلاق القناة ومقايضة فتحها بفتح المضايق، سوف تثير ضدنا كل المنتفعين بالقناة، أما اذا نجحنا فى تدمير القوات المصرية فيمكننا التقدم لاحتلال المضايق.. واقتنع مائير بآرائى وإن لم يوافق على بعض المقترحات، اذ كان من محبذى التوجه مباشرة الى قناة السويس، وطلب منى السماح له بنقلها لرئيس الوزراء، وان يطلب منه أن يسمعها منى شخصيا.

وقد كررت ملاحظاتى لعيزر وايزمان رئيس العمليات، عندما حضر لرؤيتى صباح اليوم التالى ٢٧ مايو (آيار) وقال لى ان مقترحاتى قد تكون قابلة للتنفيذ من وجهة نظر القوات الجوية وأبلغنى انه يواجه مشكلتين عاجلتين، الاولى هى رئيس الاركان، واخبرنى أن اسحاق رابين قد أبلغه منذ عدة أيام بأنه يشعر بضرورة استقالته.. والثانية هى توقيت الهجوم، وهو يرى أننا إن لم نهاجم حالا، فسنكون قد تأخرنا كثيرا لأن مصر قد تبدأ بالضربة الاولى، وقلت له اننى غير متأكد من نوايا المصريين، وطلبت الاطلاع على تقارير المخابرات حتى يمكننى تكوين رأيى بصددها.

وفى الساعة الثامنة بعد الظهر أحضر لى نائب مدير المخابرات التقارير التى طلبتها، وعلمت منها أن للمصريين فى سيناء ٩٠٠ دبابة و ٢٠٠ طائرة حربية و ٨٠ الف مقاتل، وهناك أيضا معلومات أن مصر تعد المزيد من الطائرات للقيام مع القوات البرية بالهجوم الجوى أو الرد علينا فى حالة بداية الهجوم من ناحيتنا، وعرض علىَّ أيضا معلومات عن نتائج المحادثات مع الرئيس جونسون الذى قال «أولا أعطونا الوقت الكافى، وسنقوم بفتح المضايق

وضمان حرية الملاحة فى المضايق، وثانيا اذا قمتم بأى عمل منفردين فستظلون منفردين، واذا لم تبدأوا الهجوم وهاجم المصريون فسنساعدكم».

ومن ناحية أخرى فقد وردتنا معلومات بأن الامريكيين يحاولون التقرب من مصر، وان جونسون على استعداد لدعوة عبد الناصر الى واشنطن واعطائه منحا وقروضا، وقد أخبر السفير الامريكى فى القاهرة عبد الناصر أن الولايات المتحدة ليست مع اسرائيل، ومن ناحية أخرى، فإن المعلومات تقول ان السفير قد طلب رسميا من مصر فتح المضايق، واعادة قوات الطوارئ الدولية، وسحب القوات المسلحة المصرية من الحدود ـ وكانت التعليمات التى أعطتها الحكومة لأيبان ان يصور لامريكا عمل المصريين على انه المسألة الرئيسية، ولم يشعر الامريكيون ـ من جانبهم ـ أن هذا التصور حقيقى وأرسلوا لنا قائمة لا نهاية لها بأسئلة لتوضيح الأمور.

وفى يوم ٢٨ مايو (آيار) وجه اشكول حديثا كانت كل الامة تترقبه وجلس كل فرد من أفراد الامة بآذان مشدودة يستمع لجهاز الراديو وهو يتوقع شرحا لكل الامور، ولكن كل ما سمعه الرأى العام من رئيس الوزراء كان عدة عبارات متقطعة متلعثمة من رجل غير متأكد من نفسه، وأصيب الرأى العام بصدمة اذ شعر الجميع بالأسى، وانعكس ذلك على الصحافة اذ ظهرت افتتاحيات تحمل اقتراحات بأن يتولى بن جوريون رئاسة الوزراء، وبعودتى كوزير للدفاع، وان يتخلى أشكول عن هذه المناصب.

وفى المساء توجهت الى الجنوب، وكان مقررا ان يعود ايبان من مهمته الدبلوماسية هذا المساء، على ان يعقد اجتماع مجلس وزراء، فاذا كان هناك قرار بالحرب تم التحرك قبل الفجر ولكن اليوم التالى ٢٩ مايو (آيار) مر بدون أى عمل وهكذا أمضيت اليوم فى زيارة بعض الوحدات والمستعمرات.

وتوقفت فى مستعمرة نحال عوز، ومررت على النقاط الدفاعية ثم توجهت الى مستعمرة أخرى هى ميفالسيم، وعندما علم المزارعون اننى هناك أسرعوا

الى حجرة السكرتارية وأمطرونى بشكاواهم واسئلتهم ووجدتنى مضطرا للدفاع عن موقف الحكومة فى تأجيل العمل العسكرى حتى يتضح الموقف السياسى مع الدول الاخرى بأى شىء وقد سعدت بلقاء هؤلاء المزارعين ومعظمهم من أمريكا اللاتينية، حيث كانت صراحتهم وصداقتهم تميزانهم عن غيرهم من (السابرا) أو من الوافدين من البلاد الانجلوساكسونية.

وفى اليوم التالى ٣٠ مايو (آيار) طرت الى ايلات وقابلت قائد القطاع وتناولت الغداء مع قائد البحرية، وخلال عودتنا تحدث مراقبى معى عما أسماه التفاف الرأى العام حولى، ورفض صاحب المطعم فى ايلات ان يتقاضى ثمن الغداء، وفى كل مكان كان الناس يصرون على عودتى للحكومة لتولى مسئولية الدفاع، وكانت الصحف خلال تلك الايام تناقش مسألة عودتى الى تولى مسئولية الدفاع، وظهرت احدى الصحف فى هذا اليوم وفيها اعلان فى الصفحة الاولى يدعو الى تغيير هذه الحكومة بحكومة وحدة قومية أخرى قبل فوات الاوان، وقد وقَّع هذا الاعلان مجموعة من الرجال والنساء الذين نظموا أنفسهم عام ١٩٦٥، لهزيمة بن جوريون وتأييد أشكول.

وكان ذلك بمثابة ضربة قوية للحكومة، اذ اتسع نطاق الدعوة الى تشكيل وزارة قومية، وتبناها وزير الداخلية شايير والذى يرأس الحزب القومى الدينى، ودعا الى تولى بن جوريون رئاسة الوزراء، وحتى مناحم بيجن، المعارض الفعلى لبن جوريون، طالب أشكول بأن يترك رئاسة الوزراء لبن جوريون وان يعمل معه تحت رئاسته وكان شمعون بيريز، سكرتير عام حزب رافى، يبذل نشاطا واسعا وصل الى حد اقتراح ان يوافق حزب رافى على الانضمام مرة أخرى الى الماباى إذا كان ذلك شرطا لتعيينى وزيرا للدفاع.

وفى يوم ٣٠ مايو (آيار)، عندما طار الملك حسين الى القاهرة ووقَّع اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر، وأصبح الموقف سيئا بعد أن أصبحنا نواجه ثلاث جبهات، وأصبح واضحا اننا قد تأخرنا للغاية، وفى الرابعة بعد الظهر

استدعانى أشكول وعرض علىَّ منصب نائب رئيس الوزراء، بينما يتولى ايجال آلون وزارة الدفاع ورفضت تولى اى منصب استشارى كهذا واقترحت تعيينى قائدا للجبهة الجنوبية تحت رئاسة رابين.

وبعد عودتى الى المنزل استدعيت مرة أخرى، وذهبت الى مكتب رئيس الوزراء فوجدت معه رابين الذى ظل يسألنى ما الذى أريده بالضبط؟ فأخبرته اننى اريد ان أتولى قيادة الجبهة الجنوبية المواجهة للمصريين، ولكنه عاد ليسألنى هل أريد أن أحل محله رئيسا للأركان؟ فنفيت ذلك، وابلغته بأننى لم أتصل برئيس الوزراء وانما هو الذى اتصل بى، واننى أخبرت رئيس الوزراء اننى لا ارغب فى اى منصب استشارى بل اننى أرغب فى محاربة المصريين، وان وظيفة قائد الجبهة الجنوبية هى الوظيفة التى أفضلها عن أى وظيفة أخرى.

وفى صباح اليوم التالى أول يونيو (حزيران) توجهت الى القيادة الوسطى للتفتيش على منطقة القدس، واتصلت برابين وسألته عما اذا كان قد تقرر تعيينى قائدا للمنطقة الجنوبية أم لا، فقال لى انه سيبحث الموضوع مع رئيس الوزراء، فاذا ما قرر شيئا ما يتطلب عودتى فإنه سيتصل بى خلال جولتى التفتيشية، وان لم يتصل بى فعلى الاتصال به بعد عودتى، واخبرنى انه لم يتحدث بعد (لشاييك جافيس) قائد الجبهة الجنوبية، فطلبت منه أن يبلغه اذا تحدث معه برغبتى فى لقائه معى كنائب لى، أو كرئيس لأركان القيادة، وبعد ظهر نفس اليوم، وفى اجتماع سكرتارية حزب الماباى، وضح أن الأغلبية تريد عودتى وزيرا للدفاع، ثم طلب ايجال آلوان سحب ترشيحه وزيرا للدفاع، وبينما كان هذا الاجتماع منعقدا، جرت مظاهرة نسائية أمام مقر الحزب تطالب بتشكيل حكومة قومية وتعيين موشى ديان وزيرا للدفاع.

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر طلب منى مكتب رئيس الوزراء ان احضر فورا، واخبرنى أشكول أنه سيعرض على الحكومة توصية بتعيينى وزيرا للدفاع، وفى المساء اجتمعت سكرتارية حزب الماباى ثانية، وقدم رئيس الوزراء

تقريرا عن المشاورات التى أجرتها لجنة وزارية محدودة مع حزبى جحال ورافى لتوسيع نطاق الوزارة الائتلافية، وفى الساعة السابعة مساء طلبنى أشكول تليفونيا، وأبلغنى أن مجلس الوزراء قد اجتمع الآن ووافق على تعيينى وزيرا للدفاع، وكما قلت لونستون تشرشل الابن فى حديث صحفى نشر فى اليوم التالى، فإن دخول ٨٠ الف جندى مصرى الى سيناء كان السبب فى عودتى مرة أخرى الى الوزارة.

■ ■ ■

١٩ ـ القـــرار

وبعد قـرار مـجلس الوزراء مـسـاء يوم أول يونيـو بضم وزراء جدد انعـقـد المجلس الجـديـد، وافـتـتـح الاجـتـمـاع أشكول بأن أعلن ان الحـكومـة الجـديدة ستكون حكومة وحدة قومية، ورحب بالوزراء الجدد، ثم رد مناحم بيجن بكلمة قصيـرة تضـمنت بعض الفـقـرات من التـوراة، وكان أشكول يردد بعـده ـ بروح مـرحـة ـ (آمـين، آمـين)، ثم قـدم رئيس الاركـان تقـريرا عن قـوات الاعـداء ومناطق انتـشارها، وابدى مـلاحظة مؤداها أننا لو هاجـمنا منذ خمـسـة ايام لكانت كل المميزات فى صالحنا.

ثم قدم أيبان تقـريرا عن الجهود الدبلومـاسيـة، وبعـد ذلك بدأت مناقشـة الموقف، واستـمـر الاجـتـمـاع حتى منتصف الليل، وكان لابد للوزراء الجـدد أن يتفـهـموا الحـقـائق قبل إبداء أية مقـترحـات، وكان علىَّ أن أجـتمع طويلا مع رئيس الاركان لمعـرفـة الصـورة العـسكرية كاملة، وقـد تقـرر أن تجـتـمـع اللجـنة الوزارية للدفـاع اجـتمـاعـا عـاجـلا فـى صبـاح اليوم التـالى فى القـيـادة العـامـة، على أن يحضر الاجتماع كل الضباط الكبار فى رئاسة الأركان.

وبدأت عملى فـى اليوم التالى ٢ يونيـو (حزيران) باجتماع مع زفى تسور، أحـد رؤسـاء الاركـان السـابقـين، وطلبت منه العـمل مـعى باعـتـبـاره الشـخص الثانى بعدى، ويمكنه ان يسمى نفسه مـستشارا أو مـساعدا كمـا يحلو له، وقد وافق وأصبح لقبـه مـسـاعـد وزير الدفـاع، وطلبت منه ان يعـمل كل التـرتيبـات الإحاطة بن جوريون باستـمـرار بكل التطورات، كمـا قـررت الاستـفادة من خبـرة شـمـعـون بيـريز، وطلبت من تسـور أن يكلفـه بمهـمـة ذات مـسـتـوى عـال فـى الوزارة، وابلغت تسـور ان مـسـئولياته فـى الوزارة تقـتـصـر على الجـانب المدنى،

ولن يكون له ضلع بالعمل العسكرى الذى أتعامل فيه انا مع رئيس الاركان مباشرة، وبعد ذلك مباشرة قابلت رابين ثم تقابلت مع لجنة الدفاع وضباط رئاسة الاركان، وطلبت منهم ان يتكلموا عما يدور فى ذهنهم وقد فعلوا ذلك بدون تردد... واتضح أن التوقيت وخطة العمليات لم يعرضا بالطريقة السليمة، وفكرت فى ضرورة التركيز على ثلاث نقاط رئيسية أولاها اننا اذا كنا سنحارب فكلما انتظرنا كلما زاد الامر سوءا، لان المصريين يعززون مواقعهم.. والنقطة الثانية هى مدة استمرار المعركة، فالوقت سوف يكون محدودا اذ سنتعرض لتدخل الامن ولضغط القوى الكبرى لإيقاف القتال وسيتحول انتصارنا الى فشل اذا تم ذلك فى منتصف الحملة قبل تدمير الجيش المصرى فى سيناء، والنقطة الثالثة ان الحملة يجب ان تسير فى مرحلتين، الاولى احتلال شمال سيناء، والثانية احتلال شرم الشيخ، فاذا انتهت المرحلة الاولى بالانتصار ننتقل الى الثانية.

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف، حضرت اجتماعا محدودا فى مكتب رئيس الوزراء، ضم أشكول وأيبان ويجال آلون ورابين، وكان هذا هو أهم اجتماع حضرته حتى الآن وطلب رئيس الوزراء توضيح وجهة نظرنا استعداداً لاجتماع لجنة الدفاع مساء يوم السبت فى القدس وطلب منى أن أبدا الحديث، وقلت اننا يجب ان نبدأ هجوما عسكريا بلا ادنى تأخير، فاذا اتخذ مجلس الوزراء قرار الحرب فى اجتماعه القادم مساء يوم الاحد ٤ يونيو (حزيران) فيجب ان نبدأ صباح اليوم التالى، ويكون الهدف من هجومنا هو تحطيم القوات المصرية فى وسط سيناء، دون أى هدف جغرافى، فلا يجب أن ندخل قطاع غزة داخل نطاق خطتنا الا اذا تهددنا بدخول القوات العراقية، وسوف تستمر المعركة ما بين ثلاثة وخمسة ايام.

وتكلم بعدى أيجال آلوان، ويجب أن أقول إننى أصبت بخيبة أمل وكان قد مضى وقت طويل منذ أن اشتركنا سويا فى نقاش سياسى عسكرى وقد

وافق ايجال على كل ما قلته بصفه عامة ، ولكنه قال انه يجب ان نحاول الوصول الى قناة السويس لنشكل تهديدا للملاحة فيها، وحتى يتضح اننا نستطيع إغلاق قناة السويس اذا فكر المصريون مرة اخرى فى اغلاق المضايق، وقال انه يجب احتلال قطاع غزة والتخطيط لنقل اللاجئين الفلسطينيين الى مصر، وقد اعترضت على الاقتراحين، وقلت ان تهديدا لقناة السويس سيكون خطأ فادحا، لأنه سيؤثر على اهتمامات القوى الكبرى وسيجعلها تنقلب ضدنا، كما أنه سيجعل الكثيرين من أصدقائنا يتخذون موقفا معاديا لنا، ولذا فإنه يجب علينا ان لا نقترب كثيرا من القناة، وألا نهدد بإغلاقها، أما بالنسبة لاقتراح نقل اللاجئين الفلسطينيين لمصر، فإن تنفيذه ليس بهذه البساطة، كما ان هذه العملية ستبدو بربرية وغير انسانية، كذلك فإننا يجب ان نؤكد مسئولية الامم المتحدة عن اللاجئين، اذ لو فصلت غزة عن مصر فإن معونات الامم المتحدة وهيئة الاغاثة ستصل الى اللاجئين عن طريق اسرائيل، وربما لا توافق الامم المتحدة على ذلك.

وكان واضحا من كلام ايبان انه غير متحمس للعمل العسكرى، اما اشكول فقد كان واضحا أنه فى صف العمل العسكرى، وتم الاتفاق على ان يستمر التشاور فى اجتماع الليلة القادمة بالقدس، وتناولت طعام الغداء مع الجنرال يجال يادين، احد رؤساء الاركان السابقين، الذى يعمل الآن استاذا للآثار فى الجامعة العبرية.. وكان أشكول طلب منه أن يقترح أسس التعاون بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع، وان ينسق العلاقة بينهما، ومسئولية كل منهما وكانت هذه المرة الثالثة منذ قيام دولة اسرائيل التى تنفصل فيها وزارة الدفاع عن رئاسة الوزراء، الاولى فى الفترة ما بين ١٩٥٣، ١٩٥٥ عند تقاعد بن جوريون، وكان موشى شاريت رئيسا للوزارة وبنحاس لافون وزيرا للدفاع، والثانية عام ١٩٥٥ عندما عاد بن جوريون وزيرا للدفاع، تحت رئاسة موشى شاريت وهذه هى المرة الثالثة، ولهذا لم يكن معروفا ـ بل ولم تكن قد نوقشت

ـ أية سلطات منفصلة بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع، وفى هذه المرة فإن فصل هذه السلطات كان مطلوبا لامرين ان السلطات المنفصلة بدأت بالفعل فى عشية الحرب، علاوة على ان العلاقة بينى وبين اشكول لم تكن ـ كالعلاقة المفروض انها كانت جيدة ـ بين شاريت وبن جوريون أو بين شاريت ولافون، وكان يادين قد أعد مذكرة حول هذه العلاقة قبلتها مع تعديلات طفيفة، وكانت أهم نقاط هذه المذكرة أن وزير الدفاع لا يعمل على القيام بهجوم ضد أى دولة دون موافقة رئيس الوزراء، وان وزير الدفاع لا يقذف أى دولة بالقنابل إلا إذا بدأت هذه الدولة بضرب اسرائيل.

وفى المساء تم إعداد الخطة النهائية للعمليات فى سيناء، بعد ادخال عده مراجعات عليها ووافقت عليها، وكانت تضم اربعة محاور.. اثنان فى رفح جنوب قطاع غزة.. واثنان فى وسط سيناء، ولم يكن هناك أى تقدم نحو غزة أو وصول لقناة السويس، مع عدم التقدم نحو مضايق تيران.

واستمر اجتماعنا حتى الحادية عشرة مساء، وبعد ذلك توجهت الى منزل شمعون بيريز، حيث اجتمع بن جوريون وآخرون لشرب نخب تعيينى.

وقضيت اليوم التالى ـ السبت ـ ٣ يونيو (حزيران) أنظم العمل بالوزارة من خلال اجتماعى مع الضباط الكبار فى رئاسة الاركان، ثم عقدت مؤتمرا صحفيا للمراسلين الاجانب والمحليين، ثم اجريت مشاورات مع رئيس الوزراء للاستعداد لاجتماع مجلس الوزراء فى اليوم التالى، وفى المؤتمر الصحفى تلوت ملخصا عن الحالة، ثم استمعت الى الاسئلة وأجبت عليها، ودارت كلها حول ما اذا كنت أظن أن الازمة ستتقرر فى مجلس الامن أو فى ميدان القتال، وحاولت أن أنقل انطباعا بأننا نأمل فى أن تحل الأزمة من خلال الجهود الدبلوماسية.

وفى المساء توجهت الى القدس، حيث حضرت اجتماعا مع رئيس الوزراء ويجال آلون ويجال يادين ومائير اميت وسفيرنا فى واشنطن، وكان مائير قد عاد

من رحلة سريعة الى واشنطن، وقدم تقريرا عن محادثاته مع ماكنمارا وزير الدفاع وآخرين، وكان ـ رأيه الخاص ان الولايات المتحدة لن تعمل شيئا لفتح المضايق وانها ايضا لن تفعل شيئا اذا دخلنا الحرب وهناك احتمال أن تساعدنا الولايات المتحدة فى المجال السياسى فى مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة، وهكذا أصبح واضحا للجميع، بمن فيهم أشكول انه يدعو لجنة الدفاع الوزارية للاجتماع وإصدار قرار حاسم ورسمى فى الموضوع.

واجتمعت لجنة الدفاع فى القدس فى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى ٤ يونيو (حزيران)، وبدأ ايبان بتقرير عن الجهود الدبلوماسية، وكان آخر ما عرضه مذكرة من الرئيس جونسون لرئيس الوزراء تقول إن الولايات المتحدة تأمل فى الحصول على توقيع كل الدول التى اتصلت بها عن إعلان بحرية الملاحة فى المضايق، فيما عدا فرنسا فقد رفض ديجول التوقيع، علما بأن فرنسا وقعت على الوثيقة الاصلية لحرية الملاحة فى الممرات البحرية عام ١٩٥٧، وأضافت المذكرة ان الولايات المتحدة تعمل من أجل انشاء قوة بحرية لإقرار حرية الملاحة فى المضايق، وهى تأمل ان تنضم الى هذه المظاهرة ست دول تشمل بريطانيا وهولندا واستراليا وواحدة من دول امريكا اللاتينية، وكان مقررا لهذه المظاهرة يوم ١١ يونيو (حزيران)، حيث تتحرك سفينة اسرائيلية بصحبة القوة البحرية نحو المضايق، فإذا فتح المصريون النيران، ترد السفينة الحربية عليهم بإطلاق النار.

علاوة على ذلك فإن الولايات المتحدة تركز على (من يطلق الرصاصة الاولى) اذ ستحدد موقفها على هذا الاساس، وترى الولايات المتحدة ان العمل العسكرى ليس واردا الآن، بالرغم من قرار عبد الناصر بسحب قوات الطوارئ الدولية وإغلاق المضايق وهو ما تعتبره الولايات المتحدة من أعمال الحرب ضد اسرائيل، وقبل ذلك بيومين كان السفير الاسرائيلى فى موسكو قد استدعى لمقابلة وزير الخارجية جروميكو الذى سلمه مذكرة رسمية لنقلها

الى الحكومة الاسرائيلية، فى خاتمتها فقرة تقول (إن الحكومة السوفيتية تكرر وتوضح انها ستبذل كل وسعها لمنع نشوب الحرب، وجهودها الان تتجه نحو هذا الهدف ولكنه اذا أخذت حكومة اسرائيل على عاتقها مسئولية نشوب الحرب فإنها ستدفع ثمنا غاليا).

وفى فرنسا قامت مظاهرات يوم ٢ يونيو (حزيران) لتأييد اسرائيل، ولكنها لم تؤثر على موقف ديجول وقد اجتمع مجلس الوزراء الفرنسى وقرر ان فرنسا حريصة على عدم التدخل فى الشرق الأوسط، أو اتخاذ صف أحد الجانبين، ولكن الجانب الذى يبدأ اطلاق النار سيفقد تأييد فرنسا، وان مشاكل المنطقة كاللاجئين الفلسطينين وحقوق الشعب الفلسطينى وعلاقة الجوار بين دول المنطقة يجب ان تبحث كلها كمشكلة واحدة فى اجتماع يضم الاربعة الكبار فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا، وفى اليوم التالى ٣ يونيو أعلن ان فرنسا قد قررت بصفة قاطعة تأجيل شحن الاسلحة الى اسرائيل، وفى مقابلة لسفيرنا مع ديجول قرر ديجول ان وضع فرنسا بالنسبة لاسرائيل عام ١٩٦٧ يختلف عن عام ١٩٥٦، وقد جددت فرنسا علاقاتها مع العرب وهى حريصة على تنمية هذه العلاقات وقال ديجول ان فرنسا أوقفت شحنات الاسلحة لاسرائيل لمنعها من الدخول فى حرب أما بريطانيا، فتقوم بتنسيق علاقاتها مع أمريكا، وقد رحب هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا، الذى كان يزور الولايات المتحدة فى هذا الوقت، بالاشتراك فى الاعلان الذى يقترحه الرئيس جونسون حول حرية الملاحة، وايضا فى الاشتراك فى المظاهرة الحربية.

وبعد هذا التقرير الذى قدمه ايبان، عرض ياريف رئيس المخابرات الخطوط الرئيسية وأهداف التحرك العربى، فمصر تعتبر أن الاشتباك العسكرى معنا أمر لا يمكن تجنبه، ولذا فقد عملت على تقوية قواتها فى سيناء وهناك لواء مدرع كويتى على وشك دخول سيناء، وهناك كتيبة عراقية

فى طريقها الى قطاع غزة، وقد وعدت ليبيا والسودان بإرسال قوات الى مصر، ولكن هذه القوات لم تصل سيناء بعد، وكانت هناك عدة مؤشرات تشير إلى ان مصر على وشك القيام بهجوم، ففى نفس اليوم أصدر الفريق مرتجى قائد القوات المصرية فى سيناء أمرا يوميا يقول فيه: «إن أنظار العالم تتجه إليك فى حربك المجيدة ضد إسرائيل التى تمثل الاعتداء الاستعمارى على أرض أجدادك.. إن حربك هى لاسترداد حقوق أمتك العربية واستعادة أرض فلسطين بفضل الله والحق وبقوة سلاحك ووحدة ايمانك».

وكان عبد الناصر يعمل من جانبه على ضمان دخول سوريا والاردن فى الحرب، وتم انشاء قيادة فرعية تحت قيادة الفريق المصرى عبد المنعم رياض، الذى أمر كل القوات الاردنية بالانتشار على كل حدود إسرائيل وقد وعد العراق بإرسال أربعة لواءات مشاة وقوة مدرعة فورا إلى الأردن.

وعندما انتهى ياريف من عرض تقريره، اضاف أيبان انه يرى من خلال اتصالاته فى الولايات المتحدة بدين راسك وروبرت ماكسارا أن الولايات المتحدة ترى أنه بالرغم من أن مصر تقوم بالإعداد لأعمال الحرب ضد إسرائيل، فإن الهجوم الفورى غير متوقع، وبالنسبة لطلباتنا من الأسلحة الأمريكية فإن وزارة الدفاع ترى أنه حتى فى حالة الموافقة على هذه الأسلحة فإن وقتا طويلا سيضيع إلى أن تصل الأسلحة لإسرائيل.

وعندما انتهى ايبان وياريف سألنى أشكول عن رأيى، وكنت قد سلمته ورقة تتضمن اقتراحا بالقرار الذى أتوقع ان نتخذه فقلت ان هناك تغييرين رئيسيين حدثا فى الايام القليلة الماضية هما محاولة مصر لفتح جبهة جديدة فى الاردن، والثانى هو استعدادات مصر لهجوم فورى وان هناك وحدتى كوماندوز قد أرسلتهما مصر الى الاردن منذ يومين، وقد لا يشن المصريون هجومهم صباح الغد، لكنهم حريصون على أن يقوموا بالضربة الاولى اذا عرفوا ان ذلك هو هدفنا ايضا، واذا حدث هذا فسنفقد كل مزايا المفاجأة.

وسيكون هناك عاملان حاسمان لو فقدنا عامل المفاجأة فسوف نفقد القدرة على الضربة الجوية الحاسمة، وبقواتنا المحدودة فإننا لن نستطيع تحقيق النصر، وعندما أخبرنا رئيس المخابرات أن مصر جلبت طائرات جديدة من العراق هززنا رؤوسنا وقلنا وماذا بعد؟ ان كل هذه الاضافات تزيد من الصعاب التى تواجهنا ويجب ان أنبه الى أن كل يوم يمر يزيد من الصعوبات أمامنا، فالتحرك مثلا الى رفح وغزة، الذى كان معدا له منذ أسبوع، قد أصبح الان أكثر تعقيدا بعد أن أصبح مملوءا بالدبابات والرجال والاسلحة، الامر سيكلفنا الكثير من رجالنا إن أى واحد يشجع على انتظار أسبوع آخر حتى نؤمن بالموقف السياسى، سوف يشعر بالندم على كل يوم يمر، والآن يجب علينا أن نتخذ قرارنا.. هل نبدأ بالضربة الاولى أم لا؟ اننا ان أخذنا العدو بالمفاجأة، فسنضرب له على الاقل مائة طائرة ونمنعها من العمل، وذلك بالنسبة لنا يمثل قدرا من الامدادات كنا قد نتلقاها خلال ستة شهور ومن يبدأ بالضربة الاولى والطلقة الاولى، من وجهة نظرى، سوف يغير ميزان القوى.

كذلك فإننا اذا بدأنا بضربة جوية، فإن انتصارنا سيتأكد، لانه خلال هذه الضربة ستتحرك قواتنا المدرعة فى قلب سيناء وتهاجم المواقع المصرية وتفرض عليهم الحرب وفقا لخطتنا نحن، ويمكن بقوة صغيرة الصمود على الجبهات الاخرى، وسوف يكون الموقف بالغ الخطورة اذا تركنا العدو يبدأ بالضربة الاولى، ويجب ان نتخذ قرارا بالبدء بالضربة الاولى.

وأثناء حديث رئيس الوزراء ـ بعدى ـ وصلت رسالة من الرئيس الامريكى جونسون بدأت بالعبارات التقليدية التى استخدمها كل الرؤساء الامريكيين منذ قيام دولة إسرائيل، وهى: «إننا نحترم أراضى إسرائيل واستقلالها كما نحترم سيادة كل الدول فى المنطقة على أراضيها»، ويؤكد الرئيس محاولة ايجاد حل حاسم لحرية الملاحة فى المضايق بالاشتراك مع الدول البحرية

الكبرى، وان الولايات المتحدة لن تعمل بمفردها، وقال إن الولايات المتحدة تدرس اقتراح بريطانيا بالتواجد الدولى فى مياه المضايق ووصف أشكول رسالة جونسون بأنها مخيبة للآمال، وقال إن موقفنا خطر، وإنه يجب أن نفعل ما يجب فعله وكأنه لا يريد أن ينطق كلمه (حرب)، وختم حديثه باقتراح إصدار أمر الى الجيش باختيار الوقت والمكان والاسلوب الملائمين، وكان ذلك بأسلوب رئيس الوزراء يعنى البدء فى الهجوم على حسب ما يتراءى للجيش.

وعقد اجتماع اللجنة الوزارية للدفاع على فترتين، توسطهما اجتماع مجلس الوزراء وحضر جميع الوزراء، وطرح رئيس الوزراء اقتراحين للتصويت، أحدهما منى والاخر من ممثل حزب مابام الجناح اليسارى لحزب العمل وكان اقتراحى ان تتخذ الحكومة عملا عسكريا لتحرير نفسها من القبضة الخانقة التى بدأت تهددنا، ولمنع الهجوم الوشيك عليها بواسطة قوات القيادة العربية المشتركة، وعلى الحكومة ان تمنح السلطات لرئيس الوزراء ووزير الدفاع للموافقة على التوقيت لرئيس اركان حرب جيش الدفاع الاسرائيلى.

وكان اقتراح وزراء الماباى ان تعود الحكومة ـ من أجل كسر الحصار القوى للعدو ـ إلى التحرك الذى تقرر فى ٢٧ مايو (أيار)، وهو تأجيل أى عمل عسكرى، واتاحة الفرصة لجهود الرئيس جونسون، وإرسال أسطول دولى يكسر إغلاق المضايق، بينما نوضح لكل القوى أننا وحدودنا فى خطر، وطلب المزيد من الإمدادات لنؤمن أمننا وسلامنا، وحصل اقتراح المابام على صوتين فقط هما صوتا وزيرى الحرب، أما باقى الوزراء فقد صوتوا الى جانب اقتراحى، والذى أصبح الان قراراً للحكومة، وطلبت رابين تليفونيا، وابلغته أن خطة العمليات بما فيها ساعة الصفر ٧,٤٥ صباح اليوم التالى، قد تمت الموافقة عليها.

وعدت إلى تل ابيب حيث اجتمعت مع رئيس الاركان ونائبه رئيس

العمليات لمراجعة خطة العمليات فى الجنوب ثم طرت الى الشمال للاجتماع مع قائد الجبهة الشمالية دافيد اليعازار، واستمعت الى تقريره عن الموقف ومقترحاته، وكنت أرى عدم تنشيط الجبهة السورية، ولذا فلا داعى لأى عمل أو احتلال ثلاث مستعمرات كما كان يرغب، بل أننى أريد أن نقوى دفاعنا وان نتوسع فى حقول الالغام، اما المنطقة الوحيدة التى نستطيع التحرك منها فهى منطقة الحمة، ثم نتقدم غربا بمحاذاة نهر اليرموك لنؤكد مشاركتنا فى مياه النهر وفقا لمشروع جونسون (٥٣ ـ ١٩٥٥) الذى رفضت سوريا فى آخر لحظة بتأييد من مصر التوقيع على اتفاقيته التى كانت تخول لنا المشاركة فى مياه النهر مع سوريا والاردن.

وتقرر عقد اجتماع لمجلس الوزراء فى العاشرة صباحا وتم تجهيز حجرة لى فى القيادة العامة لأنام فيها فاذا لم تحدث أى تطورات غير متوقعة، فإن الحرب ستبدأ فى الساعة ٧,٤٥ صباح اليوم التالى ولم يحدث أى شىء يذكر خلال الليل، وقرب الفجر كانت كل قواتنا مستعدة للتحرك، واتصلت براحيل وطلبت منها تناول الافطار معى، ولم يكن قد بقى على الحرب سوى ساعة، وكنت أرغب فى رؤيتها ولو لبضع دقائق، وفى مطعم صغير على بعد عدة ياردات من القيادة تناولنا إفطارنا دون أن أبلغها شيئا عما سيحدث بعد قليل، وعدت الى مكتبى الساعة السابعة والنصف... وكانت هذه هى المرة الثالثة التى أعين فيها فى مركز رئيسى فى أمور الدولة، الاولى، عندما عينت رئيسا للاركان، والثانية عندما عينت وزيرا للزراعة ولكن الشعور هذه المرة كان مختلفا، ففى هذه المرة كان كل اهتمامى منصبا على الحرب وأصبحت الآن ممسكا بمفاتيح الدولة أى حارسها، وكانت تسيطر على كل حواسى حالة الحرب.

وفى هذه الحالة يتغير كل شىء فى الانسان، واعترف أننى شعرت بالرضا والفخر لأننى اخترت لأتولى هذه المسئولية، فى أكثر لحظات الامة حرجا،

واننى قد حييت بمظاهرات التأييد سواء فى الجيش أو من الرأى العام، وكنت على ثقة من أننى أعرف ما الذى سوف أعمله، وما لا أعمله، بالنسبة للعمل العسكرى والسياسى أثناء الحرب، ومع ذلك فقد كنت أعى جيدا تحذيرات بن جوريون من هذه الحرب، واراء ديجول، وملاحظات دين راسك.

وفى هذه المرة كنت أتصرف تحت مسئوليتى المباشرة، فلَم يكن أشكول فوقى مثل بن جوريون فى حملة سيناء، وبالرغم من أن بن جوريون كان قريبا من مقر قيادتى، فإننى لم أحاول استشارته، لانه أصبح يمثل العالم القديم بالنسبة لى، فهو ما زال يقدر ديجول ويحترمه، وما زال يبالغ فى قوة عبد الناصر، وما زال غير واثق من قدرة جيش الدفاع الاسرائيلى، وبدأت العجلات تدور فى الحرب التى أخوضها وحدى.

■ ■ ■

٢٠ـ الانفجــار

يوم القتال ٥ يونيو (حزيران) ساعة الصفر ٧,٤٥ صباحا.

فى تمام السابعة والنصف، وفى مقر قيادة القوات الجوية، كان الشعور مرهفا ولم تبعد أى عين عن مائدة الحرب، ولا غفلت أذن عن جهاز الراديو الخاص بالعمليات وعندما وصلت طائراتنا الى أهدافها وكان واضحا أن أمرها لم يكتشف، سارعت ضربات قلبى.. لقد نجحت البداية وبدأت الطائرات فى قذف أهدافها، ونقلت القيادة الجنوبية أمر القتال (ناحشوميم: تحرك، حظا سعيدا).

وتحركت أيضا مدرعاتنا.

وفى غضون ساعة، بدأت تقارير الطيارين ترد الينا: مئات من طائرات العدو دمرت على الارض ومواقع الصواريخ إما دمرت أو أصبحت غير صالحة للاستعمال، ونادرا ما كانت تصاب طائرة واحدة وهكذا سحقنا قوة العدو الجوية، وما زالت دباباتنا لم تشترك مع مدرعات العدو، وان الحرب لم تبدأ إلا من لحظات ولكنها بداية مشجعة للغاية، وقد أصبحت مصر بلا طيران، ولم يكفل ذلك إبعاد الخطر عن مناطقنا السكانية فحسب، بل أضاف ميزة ضخمة لقواتنا البرية التى أصبح بوسعها أن تعمل بمساعدة الطيران بينما تعمل القوات المصرية بلا غطاء جوى.

وقد تم هجومنا على قواعد الطيران المصرية على موجتين أولاهما بين الساعة ٧,١٤ و٨,٣٥ صباحا، وقد هوجمت خلالها ١١ قاعدة جوية، ودمرت ١٨٩ طائرة على الارض و٨ فى الجو خلال معارك جوية، وأصبحت ٦ مطارات غير صالحة للاستعمال، ٤ فى سيناء، واثنان فى فايد وكبريت غرب قناة السويس، وكذلك أصبحت ١٦ محطة رادار غير صالحة للعمل... وفى

الموجة الثانية هاجمت ١٦٤ طائرة اسرائلية ١٤ قاعدة جوية ودمرت ١٠٧ طائرات للعدو، وكانت خسائرنا ١١ طياراً منهم ٦ قتلى (خمسة فى الموجة الاولى وواحد فى الموجة الثانية) و٢ أسير، و٣ جرحى، وعادت ٦ طائرات سالمة رغم ضربها، وتم اصلاحها، وقد فقد المصريون فى هذا الصباح ثلاثة أرباع طيرانهم (٣٠٤ طائرات من ٤١٩)، وقد نفذت خطة العمليات فى الموجة الاولى تماما كما وضعت، وكان تخطيطا سليما فى أن الضباط المصريين الكبار يكونون فى هذا الوقت فى طريقهم من منازلهم الى مقر القيادة، كذلك فقد ساعد الطيران المنخفض على عدم اكتشاف الطائرات بالرادار الى ان وصلت الى أهدافها.

وقد أصدر موردخاى هود قائد الطيران الاوامر الى قادة الاجنحة بعد ظهر يوم ٤ يونيو (حزيران) الذين أبلغوها الى قادة الاسراب فى الثامنة من مساء نفس اليوم، وفى صباح اليوم التالى تم إيقاظ الطيارين فى الساعة ٣,٤٥ صباحا وبدأ العمل بقذف بير جفجافة، وبعدها بدقيقة قامت التشكيلات التالية بضرب قاعدتى بنى سويف وغرب القاهرة (تعرض لـ ٢٢ طلعة) وتعتبر تلك الثلاث أكبر القواعد كانت تفضى باحتلال مدينة العريش خلال يوم أو أثنين، وسنكون فى حاجة الى المطار، وكانت أكثر المطارات تعرضا للخسائر هى أبوصوير (فتعرض لـ ٢٧ طلعة) وفايد (وتعرض لـ ٢٤ طلعة) وغرب القاهرة (تعرض لـ ٢٢ طلعة)، وتعتبر تلك الثلاثة أكبر القواعد الجوية تعرضاً للاعداء، اذ تحتوى على أكبر عدد من الطائرات وبسبب خطأ فى الملاحة وصل أحد تشكيلاتنا الى مطار القاهرة الدولى، ولما وجده خاليا من الطائرات الحربية، لم يمس المطار.

وفى الساعة ٩,٣٤ صباحا خرجت الموجة الثانية، وقد هاجمت هذه الموجة ١٤ قاعدة من بينها ٦ لم تكن قد هوجمت من قبل، وقد ضمت الموجة الثانية ١٦٤ طلعة ١١٥ طلعة تهاجم المطارات، و١٣ طلعة تهاجم محطات

الرادار، والباقى للقيام بدوريات تغطية وحماية للآخرين، وقد هوجمت فى هذه الموجة مطارات بعيدة مثل المنصورة وبلبيس وحلوان والمليز والغردقة والاقصر، وكان مطار أبو صوير هو الذى تعرض للموجتين حيث دمرت فيه ١٦ طائرة بعد ٥٢ طلعة، تعرضت طائراتنا فى كثير من القواعد لمقاومة أرضية عنيفة.

وبينما كان هجومنا دائرا على الجبهة المصرية، بدأت الطائرات السورية والعراقية والاردنية فى مهاجمة إسرائيل، وكان السوريون أول من هاجم، فقد هجمت ١٢ طائرة من طراز ميج ١٧ على اسرائيل، فقد هجمت اثنتان على مستعمرة دجانيا، وعلى نقطة قوية فى بيت يارح، وعلى سد نهر الاردن، وقد أسقطت إحدى هذه الطائرات وأخطات أخرى - خطأ - مستعمرة عين هايفرآتز، على انها مستودعات البترول فى حيفا، وهاجمت البقية مستعمرات كفار هاحوربش.

وكانت الطائرات الاردنية هى التالية فى الهجوم، اذ أقلعت الطائرات الهنتر عند الظهر وهاجمت ناتانيا ومطار سبركين وهناك دمرت طائرة نقل، وبعد ساعة هاجمت ثلاث طائرات هنتر عراقية مستعمرة ناحلال - موطنى- متصورة أنها تقذف مطار رامات دافيد، وما أن وصلت التقارير الخاصة بالهجوم السورى والاردنى، حتى أمر موردخاى هود قواته بضرب سوريا والاردن، بأسرع ما يمكن وفى خلال دقائق ثم تحويل ثمانية تشكيلات فى الجو لتتوجه لضرب القواعد الجوية فى سوريا والاردن.

وفى الساعة الثانية عشرة والربع بعد الظهر، انطلقت موجة ثالثة لضرب القواعد الجوية فى الاردن، ضربت قاعدتى المفرق وعمان فى ٥٢ طلعة دمرت كل الطائرات الاثنتين وعشرين التى تملكها الاردن، وكذلك ممرات المطارات.. وفقدت سوريا ٥٠ ٪ من قواتها الجوية، اذ تم تدمير ٥٣ من بين ١١٢ طائرة، فى ٨٢ طلعة على طائرات فى دمر ودمشق ومارجاربال وت ٤،

وفقد العراق عشر طائرات فى قاعدة هـ ٣، وكانت خسائرنا عشر طائرات ومن الطيارين ٥ قتلى، وجريحان، وأسر اثنان، وكان اليوم بالنسبة لرجالنا طويلا مرهقا، لكنه تميز بروعة التخطيط وجرأة العمليات.

وكانت خطوتنا الاولى مع مصر، لكننا كنا نواجه الآن مشكلة هامة لابد من الاجابة عليها فورا مع سوريا والاردن واضعين فى اعتبارنا اتهام العالم حتما بأننا أصحاب الطلقة الاولى.

وقد حاولت خلال هذا النشاط الجوى المثير ان أبقى لأطول وقت فى قيادة الطيران وكانت أمامنا لوحة العمليات الزجاجية، نتابع عليها النشاط من خلال الاشارات التى نتلقاها من الطيارين، وكان السكوت مُطبقا فى غرفة العمليات، ليتيحوا لموردخاى هود فرصة متابعة الموقف والتفكير ثم إصدار أوامره الحاسمة، وكنت أشاهد سير المعركة على وجوه الرجال.. قلما يبتسمون اذا ما ضرب هدف أو يفكرون بعمق اذا أصيبت طائرة لنا.

كانت تربطنى بموردخاى هود صلة قوية فهو أحد أبناء مستعمرة دجانيا مثلى، وعندما ولد كنت قد انتقلت مع عائلتى الى ناحلال، لكن الصلة ظلت قوية، فقد كان خاله أحد مؤسسى ناحلال، وكان أبوه هو مرشدى فى دورية قمت بها فى سوريا عام ١٩٤١، والان وأنا أرقب لهفة موردخاى على طياريه، تذكرت صورة والده وهو ينتظر عودتى قلقا من تلك الدوريات.

وكنت قد التقيت فى الصباح فى مطار تل ابيب مع أعضاء لجنة الشئون الخارجية والامن فى الكنيست الذين كان مفروضا ان يتوجهوا الى الجبهة الشمالية فى زيارة تم ترتيبها منذ أسبوع، ولم أشأ أن أؤجلها حرصا على السرية، وقد سألونى بمجرد وصولى عمن أطلق الطلقة الاولى، فقرأت عليهم بيان المتحدث العسكرى الذى أذيع فى الصباح وجاء فيه (حدث اشتباك عنيف صباح اليوم بين القوات الجوية المصرية والمدرعات المتقدمة نحو حدودنا وبين قواتنا التى تقدمت لايقافها) ولم أجب سؤالهم الخاص بالطلقة

الاولى، لكننى بينت لهم أهمية قيامنا بالمبادرة، وعندئذ لم يعودوا فى حاجة الى أن يخمنوا من أطلق الرصاصة الاولى.

وفى نفس الوقت أعلن راديو القاهرة أنه أسقط ٤٠ طائرة إسرائيلية، وكان هذا البيان ـ بالطبع ـ غير صحيح، لكنى أمرت بعدم الاشارة الى انتصاراتنا على الأقل فى اليوم الاول.

ولم يكن العالم الخارجى فقط هو الذى يحتاج لإيضاح، بل أن شعبنا وجنودنا أيضا كانوا فى حاجة لايضاح، وتحدث رئيس الوزراء الى الشعب، وتحدثت أنا الى الجنود فى إذاعة الجيش وقلت لهم (إن الفريق مرتجى القائد المصرى قد أذاع على جنوده أن العالم كله ينتظر منهم استعادة أرض فلسطين السليبة) وقلت ايضا (يا جنود إسرائيل نحن لا نهدف إلى الغزو، وإنما نريد الدفاع عن اراضينا التى تحاول مصر الاعتداء عليها، والدفاع عن مياهنا التى أغلقتها مصر فى وجوهنا).

وقد طلبت مصر المساعدة من سوريا والاردن والعراق وعبأت قواتهم تحت قيادتها، وطلبت أيضا امدادات وصلت اليها وحدات من الكويت الى الجزائر، انهم أكثر منا عددا، ولكننا سنتغلب عليهم، فنحن أمة صغيرة لكنها قوية، تحب السلام، ومستعدة للقتال دفاعا عن حياتنا وعن بلادنا بقواتنا فى الجو والارض والبحر، وان آمالنا وأمتنا أمانة بين أيديكم).

ودخلت سوريا والاردن المعركة فى الساعة ١١,٤٥ صباحا، إذ فتح الاردنيون نيران مدفعيتهم على الحى اليهودى فى القدس، على طول خط إيقاف اطلاق النار، وبعد نصف ساعة بدأت سوريا بهجوم جوى قصفت فيه مدينتى طبرية ومجيدو، وآثار الهجوم الاردنى ثلاثة أسئلة، الأول يتعلق بالقدس التى كان يتمركز فيها لواء من احتياطى: ما هو العمل الذى يجب اتخاذه ومتى؟ والسؤال الثانى إن اضطررنا إلى تعبئة كل قواتنا فى الجبهة المصرية لتحقيق نصر محقق وسريع، فمن أين أذن نستطيع ان نأتى بالجنود

الى الجبهة الشرقية؟ وكان السؤال الثالث كيف نحمى المدنيين من نيران الأردنيين، فالجبهة الأردنية ليست كالمصرية بل هى ملتصقة بتجمعاتنا السكانية، وكانت المشكلة التى أثارها دخول سوريا المعركة، هى: هل نرد بحرب شاملة.. ام بعمليات محدودة فى قصف وهجوم جوى؟، وكانت وجهة نظرى أنه يكفينا جبهتان، ويجب أن نتجنب فتح جبهة ثالثة. علاوة على أنه ليس هناك أهداف حيوية لنا فى سوريا كشرم الشيخ أو القدس والضفة الغربية التى تعتبر جزءا من لحم وعظام بل وروح اسرائيل.

وبعد عدة مشاورات فى حجرة العمليات مع رئيس الاركان وضباطه أصدرت الاوامر التالية:

■ تبدأ قواتنا الجوية العمل ضد أى دولة تهاجمنا طائراتها.

■ فى القدس ترد قواتنا على نيران الاعداء ولكنها لا تقصف المدينة القديمة.

■ تعد القوات لعمل حاسم فى الاردن سواء فى القدس بواسطة اللواء العاشر أو فى الشمال بواسطة قوات القيادة الشمالية.

وفى الساعة الثانية عشرة والنصف كانت هناك مشاورات مع رئيس الوزراء وافق فيها على رأيى بأن يحتل اللواء العاشر جبل المكبر وأن تتعامل القوات الجوية مع الأهداف الحيوية فى الاردن وسوريا، وأن تحتل قوات القيادة الشمالية منطقة جنين لإبعاد قاعدتنا الجنوبية فى رامات دافيد عن مرمى المدفعية الأردنية.

وسألنى رئيس الاركان: هل يمكن خلال عملية جنين احتلال «ياعباد» التى تقع على بعد أميال الى الغرب من جنين، فوافقت، ولقرية «ياعباد» خلفية تاريخية، فهناك بيع يوسف منذ ٣٥٠٠ سنة الى تجار مدين، وهناك أيضا أيام الانتداب باعت امرأة عربية عز الدين القسام ورفاقه الذين كانوا مختبئين فى كهف للقوات البريطانية.

٢١ ـ الحــرب

خلال السنوات العشر التى أعقبت حملة سيناء عام ١٩٥٦ قام المصريون بنقل قوات كبيرة الى سيناء، وبناء استحكامات قوية لخدمة غرضى الهجوم والدفاع، وكانت منطقة النقب الاسرائيلية المجاورة للحدود، مكانا ملائما للمصريين للإعداد.. إما لغزو اسرائيل أو للتصدى لأى هجوم اسرائيلى على سيناء، كما تمت اقامة مراكز قوية فى الداخل فى اعماق سيناء، لتغذية الجبهة الشمالية بالامدادات ولتأمين خطوط دفاعية خلفية اذا ما سقطت الخطوط الامامية.

وكانت أقوى الاستحكامات الشرقية، تلك التى تتحكم فى الطرق الموصلة الى اسرائيل والتى يمكن استخدامها فى الغزو المصرى، والتى تقف فى نفس الوقت عقبة اضافية أمام أى محاولة اسرائيلية لعبور سيناء، وكانت الطريق الوحيدة التى يمكن استخدامها فى سيناء لعبور السيارات العسكرية الثقيلة هى تلك الطرق التى تقع فى شمال شبه الجزيرة، لأنها متسعة ومسطحة، ويختلف الامر تماما فى المثلث الجنوبى الجبلى الذى يحده خليج السويس من الغرب وخليج العقبة من الشرق وعند قمة المثلث تقع شرم الشيخ، ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق الساحل الممتد من خليج السويس، ولذا كانت عملية اختراق الطريق الساحلى لخليج العقبة، التى قام بها اللواء التاسع عام ١٩٥٦، مفاجئة ضخمة للمصريين.

ومع ذلك فإن الطرق الرئيسية فى شمال سيناء كانت عبارة عن طريقين، الشمالى والاوسط وطريق جنوبى فرعى، وكانت هذه الطرق متصلة بطرق أخرى فرعية وممرات الى الطريق الساحلى الشمالى الذى يتجه إلى القنطرة على

ضفة قناة السويس، وقام المصريون بإنشاء ممر إلى رفح فى الركن الشمالى من سيناء، يقع فى طرف غزة الجنوبى، ويمكن لهذا الطريق أيضا أن يكون نقطة انطلاق للقوات المصرية على الساحل الجنوبى لاسرائيل، وفى عام ١٩٤٨ استخدم المصريون رفح وقطاع غزة كنقطة للهجوم على دولة اسرائيل الجديدة.

وأنشأ المصريون عدة ممرات للدفاع عن حامية أبوعجيلة وأم كتف وبذلك كان فى استطاعة المصريين استخدام أبوعجبلة كقاعدة هجوم على اسرائيل وتهديد بئر سبع، وكذلك أنشأوا ممرات الى القسيمة، والكونتلا، توصل الى الطريق الجنوبى الرئيسى حتى بور توفيق كما أن طرق القسيمة والكونتلا تخدم الهجوم المصرى على ايلات.

وكانت استحكامات خط الدفاع المصرى على الجبهة تصل الى عمق ٢٠ ميلا مزودة بالمدفعية والمدافع المضادة للدبابات، كما أن بها دشما للدبابات ومواقع للمراقبة والحراسة، والآن، وفى العملية التى أسميت فيما بعد بحرب الايام الستة، لم تكن هناك فقط تلك الاستحكامات القوية، بل أيضا تلك التشكيلات الضخمة من المدرعات والمشاة التى دخلت الى سيناء خلال الاسابيع الثلاثة الماضية.

كانت خطة اسرائيل الهجومية تقضى بأن يبدأ الهجوم على رفح التى تمثل أقوى الاستحكامات فى القطاع الشمالى، وأبو عجيلة التى تمثل أقوى الاستحكامات فى القطاع الاوسط، وان الهجوم من اتجاه غير متوقع ومن طرق غير متوقعة ثم نتقدم من خلال الثغرات، وقد نتسابق نحو قناة السويس، ونحتل أو نعزل قواعد العدو التى فى طريقنا، ونتشابك مع مدرعات العدو، ونوقع قوات العدو فى سيناء فى فخ أثناء محاولتها الفرار، ونؤمن الطريق البرى الى شرم الشيخ، وقام بالهجوم على المصريين فى سيناء ثلاثة تشكيلات بقيادة الجنرالات اسرائيل طال واريك شارون وافراهمام يوفى تحت قيادة قائد الجبهة الجنوبية يشعياهو جافيش.

وفى أثناء قيام الطائرات بضربتها الجوية صباح يوم الأثنين ٥ يونيو (حزيران) كان متجها إلى رفح لواء شاميل المدرع، وفتح الطريق الساحلى الشمالى واحمل قيادة التشكيل المصرى الى ان وصل الى مشارف العريش مع حلول الظلام، وقد استغرق احتلال رفح يوما كاملا من القتال، ولقى هذا التشكيل مساعدة من الجنوب بواسطة لواء المظلات بقيادة رافول ايتان، وكان هناك ايضا قتال عنيف فى ذلك اليوم فى الطريق الغربى قرب العريش وسقطت العريش فى اليوم التالى، وكذلك مطارها الذى بدأت قواتنا الجوية فى استخدامه فورا وانطلقت وحدة استطلاع ووحدة مظلات فى سيارات نصف مجنزرة غربا نحو قناة السويس، وفى هذه الاثناء اتجهت الوحدات المدرعة للهجوم على العدو فى قلب سيناء والالتحام مع قواتنا التى تقدمت فى القطاع الاوسط.

وقاد الهجوم على القطاع الاوسط اريك شارون فى عملية معقدة راعى فيها التوقيت والتنسيق بين المدرعات والمشاة وقوات المظلات.

وقد بدأ شارون هجومه على أم كنف ليسيطر على مفترق الطرق الى أبو عجيلة، ونزلت قوات المظلات خلف خطوط الاعداء ودمرت مواقع المدفعية التى كانت تقصف قوات شارون المتقدمة نحو أم كنف، وتقدم لواء مشاة تحت وابل من النيران وهاجم الاستحكامات وطهرها فى اشتباك رجل لرجل، واشتبك اللواء المدرع مع الدبابات فى أم كنف، بينما تقدمت كتيبة مدرعة غربا ثم قامت بحركة التفاف دائرية لاقتحام أبو عجيلة، وقبل ان تنتهى المعركة انضم لواء مدرع من قوات يوفى للاشتراك فى هذه المعركة فى تنسيق كامل مع شارون بتحرك اللواء المدرع على خطوط شارون، وضغط على الناحية الغربية وفى نفس الوقت وصل لواء آخر من قوات يوفى، وتحركت دباباته بين القطاعين الشمالى والأوسط، واستغرق اختراق هذا المحور يومين، ولم يكن الهجوم على هذا المحور مفاجأة للمصريين، بل كانوا مستعدين للدفاع بكل اسلحتهم، لكن المصريين هزموا بسبب المفاجأة التى

ظهرت من قدراتنا القتالية الهائلة فى مجالين، أولهما تصميمنا ـ مهما كانت الخسائر ـ على التقدم واحتلال الهدف رغم كل الصعوبات، وثانيهما أن المصريين كانت تنقصهم الخبرة التى لابد منها للمحترفين، مثل التعاون بين مختلف الاسلحة والتقدم السريع فى الخطط لمواجهة تغيرات الموقف، والمهارة القتالية التى بدت من خلال عمل تشكيلاتنا الثلاثة.

وفى نهاية اليوم التالى بدأ المصريون فى المواقع المتقدمة فى الانسحاب بعد أن تلقوا أمراً بذلك من القاهرة، وعندما علمنا أن العدو أخذ يخلى قواته من شرم الشيخ، صممنا بسرعة على تقديم موعد تقدمنا الى شرم الشيخ، وقررت اسقاط وحدة مظلات فورا دون انتظار وصول قواتنا البرية اليها، وفى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٧ يونيه (حزيران) وصلت طائرات الهليكوبتر محملة بجنود المظلات الى شرم الشيخ فوجدت زورقى طوربيد اسرائيليين فى الميناء، وكانت قوة بحرية بقيادة الكولونيل بوتزر قد وصلت فى الحادية عشرة والنصف صباحا ووجدت شرم الشيخ خالية، وبعد ثلاثة أرباع الساعة رفع العلم الاسرائيلى على سطح المستشفى الذى أنشأته قوات الطوارئ الدولية قبل مغادرتها بناء على أمر عبدالناصر، ووقع أول فوج من الأسرى المصريين فى المنطقة فى أيدى القوات البحرية الاسرائيلية، وكانوا ٢٣ من قوات الكوماندوز يحتلون جزيرة تيران، وقد قبض عليهم بكامل أسلحتهم عندما كانوا يحاولون الهرب الى مصر فى قارب صيد، وهكذا تم بالحظ وبدون دراما رفع العلم الاسرائيلى مرة أخرى على شرم الشيخ وانتهى اغلاق المضايق، وتحقق أهم أهداف حملتنا.

وفى مساء نفس اليوم ٧ يونيو (حزيران) علمنا أن مجلس الأمن سيجتمع صباح اليوم التالى وهناك احتمال ـ تحت ضغط الاتحاد السوفيتى ـ بأن يصدر قرارا فوريا بإيقاف اطلاق النار، وتمت مشاورات سريعة أصدر رئيس الأركان بعدها أوامر فورية فى العاشرة مساء لتشكيلين بالتقدم فورا نحو

القناة ونحو رأس سدر فى خليج السويس، وكان على قوات طال أن تمنع القوات المصرية المنسحبة من عبور قناة السويس وتأمين اتصال خط القتال مع قواتنا فى شرم الشيخ.

وتقدمت احدى وحدات طال الى مسافة عشرة أميال من قناة السويس، وتبع ذلك اسقاط لواء مظلات، وبعد معركة عنيفة مع الكوماندوز المصريين، وصلت قواتنا الى قناة السويس وقامت باحتلال القنطرة شرق ثم تقدمت جنوبا مع اول ضوء، وفى السابعة والنصف صباحا يوم ٩ يونيو (حزيران) وصلت الى مفترق طريق الاسماعلية عند كوبرى الفردان، وبوصولنا الى كوبرى الفردان تم اغلاق المعبر الرئيسى للقوات المصرية المنسحبة.

وفى نفس الوقت قام لواء من قوات يوفى بعمله النهائى ناحية الجنوب الغربى وقطع طريق الانسحاب على المصريين من ممر متلا، الذى سدته بالسيارات المحترقة التى هوجمت بالطائرات، وعندما وصلت قواتنا كانت مئات الدبابات والسيارات المدرعة الخفيفة، وسيارات النقل التابعة للعدو متجهة فى قوافل نحو ممر متلا للهرب، واخترقت احدى وحداتنا (٩ دبابات) طريقا مختصرا لقطع الطريق الى الممر أمام القوات المنسحبة، وتم تدعيم هذه الوحدة بعشر دبابات اضافية فى صباح اليوم التالى، وأحالت الطائرات الممر الى مقبرة للمعدات المصرية المنسحبة.

وقامت قوات يوفى باحتلال ممرى متلا والجدى، وتقدمت الى القناة بعد ان خاضت معركة عنيفة ضد دبابات مصرية أحسن انتشارها بهدف اتاحة الفرصة للقوات المنسحبة للمرور، ثم توجه أحد ألوية يوفى بعد ذلك جنوبا على الساحل الشرقى لقناة السويس وقامت قوات اريك شارون بعد معارك الاختراق التى تمت بالاتجاه جنوبا وجنوب غرب لتحطيم القوات المدرعة للعدو أثناء انسحابها، وبعد أن نصب كمينا ضخما لدبابات العدو فى نخل، اتجه الى متلا.

وكان قطاع غزة قد هوجم فى اليوم الاول، رغم أننى كنت أعارض هذا الهجوم، لأن تصورى أن القطاع سيسقط ويستسلم بدون معركة اذا تم احتلال رفح والعريش، ولكن المدفعية فى غزة بدأت تقصف مستعمرات الحدود، مما اضطر قائد الجبهة الجنوبية الى طلب اصدار الاوامر باحتلال القطاع فورا، واستغرق القتال أكثر من يومين لاحتلاله وقد كان من الممكن تجنب معركة غزة.

واستكملت عملية الاستيلاء على سيناء مساء يوم ١٠ يونيو (حزيران) بالاستيلاء على أبو زنيمة، وهى قرية صيد صغيرة على الساحل الشرقى للقناة، وتحركت قوات من رأس سدر الى الجنوب وتحركت قوات المظلات من شرم الشيخ الى الشمال، حيث احتلت فى طرقها الطور ومنطقة آبار البترول الغنية فى أبو رديس، وتأخرت عملية التحام القوات المتجهة الى ابو زنيمة جنوبا وشمالا ٤٤ ساعة وعندما وصلت اليها كنت غاضبا ولكنى وجدت أبو زنيمة مسترخية فهنا ومنذ ٣٥٠٠ سنة رست المراكب لتأخذ الرخام والفيروز لبناء قصور فراعنة مصر.

وبعد معارك دموية استمرت أربعة أيام، وبعد الفشل والصدمة التى واجهها عبد الناصر وجنوده ورفاقه السياسيون والعسكريون فى فهم رد فعل اسرائيل ازاء اغلاق المضايق البحرية، رغم ان المؤشرات كانت واضحة أمامهم، وخاصة بعد تشكيل حكومة الوحدة القومية فى اسرائيل، اذ بات واضحا أن اسرائيل تنوى كسر اغلاق المضايق، و لا بد أن يبدأ ذلك بمعركة فى قلب سيناء ومع ذلك فقد أقنع المصريون أنفسهم بأن اسرائيل لن تجرؤ على القيام بأى عمل، وقد سمع عبدالناصر بأذنيه أن الحرب بدأت وسمع انفجارات فى مطار غرب القاهرة أما قائد الجيش عبد الحكيم عامر فقد رأى بعينه قيام الحرب عندما شاهد أعمدة الدخان ترتفع من مطار أبوصوير، وقد فشل عبدالناصر وقادته فى تطويق خطة العمليات الاسرائيلية

بعد بداية المعارك، وفشلوا أيضا فى تقدير سير المعارك على الوجه الصحيح إلا عندما أصبح الوقت متأخرا لعمل مضاد، وأخيرا فإنهم فشلوا فى الرد السريع على ضربتنا الجوية الاولى، وكان تأثير الصدمة نفسيا أكثر منه قتاليا فى بداية الحرب، لان اسرائيل سيطرت على السماء ولم تقصف المدن المصرية وكان فى وسع القوات المدرعة المصرية فى الجبهة أن تخوض معارك حتى بدون غطاء جوى.

وفى الساعة ٩,٣٥ مساء يوم ٨ يونيو أخطر يوثانت سكرتير عام الامم المتحدة مجلس الامن ان ممثل مصر قد أبلغه بموافقة مصر غير المشروطة على ايقاف اطلاق النار، وكان ذلك يعنى موقفا عكسياً كاملا من جانب مصر، فقبل ذلك بسبعة دقائق، كان المندوب السوفيتى فى مجلس الامن قد قدم مشروعا بانسحاب كامل لاسرائيل حتى حدود عام ١٩٤٩، وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة كان عبد الناصر قد أبلغ رؤساء الجزائر والعراق وسوريا والملك حسين أن مصر لن توقف القتال ما دام هناك جندى اسرائيلى واحد على تراب مصر، وقد قال عبد الناصر ذلك بعد أن أصدر مجلس الامن قرارا بإيقاف اطلاق النار اعتبارا من العاشرة مساء يوم ٧ يونيو (حزيران)، ولم يكن عبد الناصر يطلق شعارات فارغة، بل كان - يريده - ويعتقد أن فى إمكانه عمل ذلك، وفى نفس المساء أصدرت القيادة العامة المصرية أمرا بالقيام بهجوم مضاد، وحاولت احدى الوحدات المصرية ذلك فعلا، وعلم عبدالناصر بحقيقة الموقف ليلة ٨ يونيو (حزيران) عندما سمع أن القنطرة شرق قد سقطت، وانه ليس هناك أمل فى إقامة خط دفاعى، وعندئذ أرسل تعليمات لممثل ممصر فى الأمم المتحدة بقبول وقف اطلاق النار.

وكانت قواتنا قد أصبحت بالفعل على قناة السويس عندما قامت مصر بوقف اطلاق النار، وبدأت أفكر فى انشاء خط يبعد عن القناة بمسافة ١٢,٥ ميل، بحيث يسمح لمصر بالحفاظ على الحياة الطبيعية فى منطقة القناة، وبعد

مشاورات عاجلة مع رئيس الوزراء ورئيس الاركان وجدنا أن مصر، بالرغم من قبولها وقف اطلاق النار فإن القوات المتبقية يمكنها أن تستمر فى محاولة دفع قواتنا الى الوراء وان الولايات المتحدة على وشك تقديم اقتراح لمجلس الامن بأن تسحب كل من مصر واسرائيل قواتها لمسافة ستة أميال من القناة، وعلى ذلك تقرر الغاء الامر القديم، على ان ينفذ بعد أن تنتهى الحرب.

وبعد أن بدأت ضربتنا الجوية على مصر يوم ٥ يونيو (حزيران) أرسلنا رسالة الى الملك حسين عن طريق قائد هيئة مراقبة الهدنة الجنرال النرويجى أود بول، وأخبرناه فى هذه الرسالة أنه اذا ظل بعيدا عن القتال الدائر فلن يصيبه أى أذى، وأرسل حسين رده الساعة الحادية عشرة حيث قال اننا ما دمنا قد هاجمنا مصر فإننا سنتلقى الاجابة الاردنية من الجو، وبعد ذلك بقليل بدأت القوات الاردنية فى مهاجمة اسرائيل ثم اتبعتها بقصف عنيف على الحى اليهودى بالقدس وعدة مراكز اسرائيلية أخرى وأيضا على مطارنا الدولى فى اللد، وفى الساعة ١,٥٥ بعد الظهر تلقينا رسالة من الجنرال أود بول تقول إن مبنى قيادته خارج القدس، والذى يقع بين الخطوط الاسرائيلية والاردنية، قد احتله الاردنيون.

ولم يعد امامنا الآن الا ان نشتبك مع الاردن على نطاق واسع رغم أننا لم نكن نود أن نستدعى قوات من سيناء، وبدأ الطيران الاسرائيلى مهمته وفى خلال ساعات، كان الطيران الاردنى كله قد انتهى وتلقى الجنرال عوزى ناركيس قائد الجبهة الوسطى، الامر بأن يسترد مبنى هيئة الامم المتحدة وأن يمضى لاحتلال قرية عربية تقع بين بيت لحم والخليل، وبعد ذلك اقتحمت وحدات من القوات الشمالية الحدود الشمالية ودخلت سماريا، واحتلت عدة مواقع اردنية متقدمة، وكان لابد علينا ان نستمر فى المعركة على هذه الجبهة بكل قوتنا، وكانت اهم نقطة جغرافيًا وسياسياً بالنسبة لنا هى القدس، التى قسمت منذ عام ١٩٤٨ الى نصفين، فأصبحت المدينة القديمة تحت سيطرة العرب، وكان

هناك لواء احتياطى بقيادة الكولونيل يورى بن آرى على مسافة عشرة أميال غرب القدس، كما كان هناك لواء مظلات احتياطى بقيادة الكولونيل موتا جور يستعد للإقلاع لعملية فى سيناء، فتلقى أمرا بالتوجه الى القدس.

وبينما كانت هذه الوحدات تتحرك، كنت انا ايضا فى طريقى الى القدس لاداء واجب دستورى، اذ كان تعيينى وزيرا للدفاع منذ أربعة أيام يتطلب موافقة الكنيست، وعندما وصلت الى الكنيست كانت الاجزاء اليهودية من القدس تتعرض لقصف أردنى وكان الجميع فى المخبأ فعدت الى القيادة، وفى مساء نفس اليوم أبلغت أن الكنيست قد وافق على التعيينات الوزارية الجديدة، ويمكننى أداء القسم فى أى وقت بعد الحرب، وكان ممثلو الحزب الشيوعى الاربعة هم الوحيدون الذين عارضوا تعيينى، وقال أحدهم، وهو عربى (توفيق طوبى) إن ذلك معناه أن أربعة يؤيدون السلام ويدينون الحرب.

وابان اجتماع الكنيست كان لواء بن آرى يخترق المواقع الاردنية على التل الواقع غربى القدس، واستمر فى تقدمه طوال الليل مشتبكا فى معارك عنيفة ليصل الى القدس من الشمال بالقرب من جبل المكبر الذى يطل على كل المدينة القديمة ظهر اليوم التالى ٦ يونيو (حزيران) وهناك التقى مع كتيبة المظلات التى قاتلت قتالا عنيفا لفتح طريق الى جبل المكبر وتعرضت لخسائر كبيرة، وبدأت قوات موتا جور عملياتها فى الساعة ٢,٣٠ صباح يوم ٦ يونيو (حزيران) بدون أى عمليات استطلاع نظرا لتغيير المهمة التى كلفت بها، وكان أول عمل لها أن تفتح طريقا الى جبل المكبر وجبل الزيتون، ولكى يتم ذلك كان لابد من اقتحام منطقة متقدمة تحتلها مدرسة البوليس الاردنية، وخلال الاقتحام تكبدت قواتنا خسائر كبيرة الى ان احتلت هذا المركز، واستمر اندفاع القوات نحو التل الذى يقع خلفه، حيث دمرت كل المواقع فى طريقها، وكانت الدماء تراق بغزارة فى كل خطوة تتقدمها القوات، وتم احتلال آخر نقطة للعدو فى الساعة ٦,١٥ صباح يوم ٦ يونيو (حزيران)،

وكانت معركة التل من أعنف المعارك خلال الاشتباك مع القوات الاردنية، واشترك فيها خيرة رجال جيش الدفاع الاسرائيلى، وقد كلفتنا هذه المعارك ثمنا غاليا للوصول الى الاهداف اذ قتل ٢١ وجرح أكثر من نصف الضباط والقوات التى اشتركت فيها.

وعندما وصلت الى جبل المكبر بعد ذلك، أخبرنى ناركيس ان قوات المظلات ستقوم بعد الظهر باحتلال مبنى أوجستا فيكتوريا الذى يقع بين جبل المكبر وجبل الزيتون، حتى يمكن عزل القدس من الشرق، غير أن الخسائر الكبيرة التى تعرضنا لها حتمت ارجاء العملية لليوم التالى، وباحتلالنا مبنى أوجستا فيكتوريا صباح يوم الاربعاء ٧ يونيو (حزيران)، وسيطرتنا على الطريق الرئيسى الى أريحا، كانت عملية حصار القدس قد تمت، ومن نقطة المراقبة أمام فندق انتركونتننتال فى جبل الزيتون، أصدر موتا أوامره لقيادة الكتائب بالتقدم الى بوابة الاسود ودخول المدينة القديمة، فدخلوا من البوابة ثم استداروا غربا من ناحية جبل المعبد ثم أتجهوا الى الحائط الغربى، وفى نفس الوقت كان لواء القدس بقيادة اليزر آقنياى يستعد لدخول المدينة من الجنوب وبعد ساعة ونصف كان قد استولى على كل المواقع العربية وطهر المنطقة الواقعة عند جبل صهيون من حقول الألغام، وبعد ذلك مباشرة دخلت القدس المحررة واتجهت الى الحائط الغربى.

وقام لواء يورى بن آرى المدرع باحتلال الرملة وأريحا التى تركزت فيها قوات ضخمة من الدبابات وسيارات النقل تنتظر دورها فى الانسحاب لعبور نهر الاردن، ثم عبرت بعض الوحدات النهر الى الضفة الشرقية، ونتيجة لذلك تسلمنا رسالة عاجلة من السفير الامريكى، فقد كان الملك حسين قد اتصل بالسفير الامريكى فى عمان وأخبره أن القوات الاسرائيلية عبرت نهر الاردن متجهة الى عمان والسلط، وعلى الفور أمرت بأن تعود القوات الاسرائيلية الى الضفة الغربية وأن نقوم بنسف الجسور دليلا على نيتنا فى

عزل أنفسنا عن الضفة الشرقية، وهكذا وصلنا الى الحد الشرقى من حدود القتال، وكانت مدينة أريحا أو مدينة النخل كما تقول عنها التوراة هى أقدم مدينة فى العالم، وهنا جرت أحداث التاريخ اليهودى القديم، ومازال إحدى آبار المياه يحمل اسما يهوديا قديما.

ودارت معركة أخرى بالدبابات بعد ظهر نفس اليوم الاربعاء ٧ يونيو (حزيران) وهى معركة احتلال نابلس قرب مدينة سكيم فى التوراة، وواجه ملازم بأربع دبابات طابورا من دبابات باتون القوية دمر سبعا منها، علاوة على بعض المعدات الاخرى.

وقبيل ظهر يوم الخميس أبلغت القيادة الوسطى القيادة العامة أن لواء القدس قد اتجه جنوبا والتحم مع قوات القيادة الجنوبية، واستولوا على بيت لحم والخليل، وتوجهت الى القدس وصحبت معى ناركيس، حيث عبرنا الحدود القديمة بين القدس وبيت لحم، ومن هناك حتى الخليل اختفى كل أثر للحرب، وفيما عدا السيارات العسكرية فقد كانت الحياة تمضى كالمعتاد.. والحقول عامرة بالكروم والزيتون والتين.

ثم مررنا على منطقة عصيون التى دمر العرب المستعمرات الاربع التى كانت موجودة فيها حتى عام ١٩٤٨، وسرحت خواطرى مع الرواد الاوائل الذين بنوا هذه المستعمرات، وقلت لنفسى إنه لابد من اعادة انشاء هذه المستعمرات، وذلك بالفعل ما حدث بعد عدة أشهر اذ عاد اولاد هؤلاء الرواد ليبنوها من جديد ويجعلوا منها مقرا دائما لحياة أطفالهم وأحفادهم.

وبعد ذلك ذهبنا الى الخليل حيث زرنا المسجد الابراهيمى ودخلنا الى مقبرة (مكفيلا) التى دفن فيها أنبياء اليهود كابراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم واهتزت مشاعرى عندما أحسست بأن اليهود سوف يعودون الى زيارة هذه الاماكن المقدسة بعد أن حرموا منها طويلا وقررت ان اسمح لليهود والمسلمين بزيارة هذا المكان والصلاة فيه.

وفى خلال هذه الجولة أعطيت قائد القوات الجنوبية توجيهاتى بإنشاء مستعمرات دائمة فى منطقة جبل الخليل ومنطقة القدس، وبعد ذلك تستكمل الحلقة فى الشمال بإنشاء المستعمرات والمعسكرات فى جنين ونابلس ورام الله لنتمكن من السيطرة على نهر الاردن بأقل قوات ممكنة.

وحتى هذه اللحظة كانت كل من اسرائيل والاردن قد أعلنتا استعدادهما لإيقاف القتال، فى حين رفضت مصر وسوريا الانصياع لقرار مجلس الامن، وطلبنا عقد اجتماع مع ممثلى لبنان اذ بدأ الوقت المناسب لاجراء محادثات من أجل عقد اتفاقية سلام بيننا أو التوصل الى اتفاقية أخرى قد تكون مفيدة، ولكنهم رفضوا الاتصال بنا قائلين انه على الصعيد الرسمى فإن لبنان مازال فى حالة حرب مع اسرائيل.

وكان لخروج الاردن السريع من الحملة أثران هامان، اولهما عسكرى هو انه أصبح بمقدورنا نقل قواتنا من الجبهة الاردنية الى الجبهة السورية، وثانيهما سياسى، وهو ان الفلسطينيين لم يشتركوا فى هذه الحرب، ولم يتعرضوا لأية خسائر، وكان ذلك كفيلا بالمساعدة على وضع أسس جديدة لعلاقتنا مع الفلسطينيين الموجودين فى الضفة الغربية.

وفى اليوم الاول من الحرب كانت مصر قد طلبت من سوريا أن تبدأ هجوما شاملا علينا، ولكن الرد السورى كان مجرد عدة عمليات تافهة كقصف بعض القرى، وعندما قامت قواتنا بضرب القواعد الجوية السورية وحطمت ٥٣ طائرة سورية، أصدرت الحكومة قراراً هاما كان له تأثيره البالغ على الحرب، وكان القرار بإلغاء (عملية عبدالناصر) وبأن تبدأ عملية جهاد، وفى ضوء الخطة الجديدة قام السوريون يوم ٦ يونيو (حزيران) بهجومين فاشلين فى القطاع الشمالي على بعض المستعمرات والمواقع العسكرية.

وفى الساعة ١١,٣٠ صباح الجمعة ٩ يونيو (حزيران)، بعد أن خرجت الاردن ومصر من المعركة، قامت قواتنا بالهجوم على سوريا وبدأت بالمواقع

الامامية، وبعدها بيوم ونصف سرى مفعول وقف اطلاق النار، واستمرت عملية الاختراق سبع ساعات، ولكنها كانت ساعات عنيفة وأثناء الليل لم يبق الا موقع سورى ظل يحارب، وبعد اختراقنا النقاط الامامية اهتز النظام العسكرى السورى بأكمله، وفى ظهر نفس اليوم عندما اكتشف القادة السوريون أن مرتفعات الجولان أصبحت مهددة زادوا من نشاطهم فى محورين: الاول من أجل الوصول الى ايقاف اطلاق النار، والثانى على الصعيد العسكرى حيث قاموا بالانسحاب من الجولان القوية لعمل خط دفاعى لحماية دمشق.

وتحولت معركة الجولان لتصبح معركة من مرحلة واحدة هى عملية الاختراق فقط، وتم ذلك بعد عدة معارك عنيفة تعرضنا فيها لخسائر كبيرة، وقد بدأت العملية بلواء البرت المدرع ولواء الجولان بقيادة يونا، بينما قام اللواء المدرع ولواء المشاة باختراق الحدود وعبورها وعندما بدأت عملية الجولان ارتكبت كتيبة المقدمة خطأ فادحا فبدلا من ان تهاجم زاعورة ثم تتجه الى كالا، اتجهت مباشرة الى كالا التى تغطيها حقول الالغام والمدافع المضادة للمدرعات، واكتشف قائد المقدمة خطأه فقرر ان يهاجم من وضعه الخاطئ من الجنوب بدلا من الشمال وكانت معركة رهيبة تعرضت خلالها قواتنا للقصف ولحقول الالغام والمدافع المضادة للدبابات وارتفعت الخسائر بمعدل عال، وجرح قائد الكتيبة وقتل نائبه بعد عشر دقائق وتولى القيادة ضابط صغير، ولم يبق معه سوى دبابتين وقتل ١٢ رجلا وجرح ٣٢، وعندئذ تدخلت القوات الجوية لتدفع الدبابات السوفيتية الى الانسحاب، وانتهت عملية احتلال كالا فى الساعة ٦,٣٠ مساء وسرعان ما سقطت زاعورة بعد قتال عنيد.

وقامت كتيبة مشاة ميكانيكية باحتلال الموقع الثالث على الجولان وهو تل فخر، وكانت تساند الكتيبة جماعة دبابات وبينما كانوا فى طريقهم الى

هدفهم، وقعوا تحت نيران المواقع السورية المتمركزة فوقهم وأصيب ٦ سيارات نصف مجنزرة، وتحطمت أربع دبابات، وسدت الطريق، وبعد عدة دقائق نسفت السيارة نصف المجنزرة التى تحمل المورتار وانقسمت المجموعة ـ على الاقدام ـ الى جماعتين فى كل منهما ١٣ فردا، ولكنهم لم ينجحوا اذ لم يبق منهم على قيد الحياة الا فردان، ولم يتسن احتلال تل فخر الا بعد وصول امدادات ومعدات قادها نائب لواء الجولان. وفى صباح اليوم التالى، السبت ١٠ يونيو (حزيران)، وجدت قواتنا كل المواقع السورية خالية بعد أن أخلاها العدو أثناء الليل، تاركين خلفهم مدافع مضادة للدبابات ومدافع أوتوماتيكية خفيفة وثقيلة، وقد تسببت هزيمة اليوم السابق وقصف الطائرات الاسرائيلية فى تحطيم روحهم المعنوية، كذلك فقد ساهم فى تحطيم معنوياتهم ما أذاعه راديو دمشق من اننا احتللنا مدينة القنطرة، وقد أذاعت الحكومة السورية هذا الاعلان فى الساعة الثامنة والنصف صباحا لتدفع مجلس الأمن الى اصدار قرار بإيقاف إطلاق النار والحقيقة أنه ـ حتى تلك اللحظة ـ لم يكن هناك جندى اسرائيلى واحد فى مرمى النظر من مدينة القنيطرة وما أن سمع الجنود السوريون هذا الاعلان حتى هجروا مواقعهم وأخلدوا الى الفرار وعندما دخلنا القنيطرة ظهراً كآخر هدف فى غزو الجولان وجدناها جالية، وكان خط ايقاف النار يمتد ما بين مسعده شرقا مارا بالقنيطرة، ثم رافد غربا وكان هذا هو الخط الذى حددته لكى تقف عنده قواتنا فى الجبهة السورية.. لم تكن هناك قناة السويس أو نهر الأردن، ولذا كان لابد أن تقام حدود بيننا وبين السوريين تعكس وضع موقفنا عسكرياً وموقفنا سياسياً، وكان هذا الخط من الناحية الجغرافية ممتازا فى الدفاع، اذ كان يبعد ١٥ ميلا عن نهر الأردن، الأمر الذى يعنى أن مستعمراتنا فى شمال الجليل ستكون بعيدة عن مرمى نيران المدفعية السورية، وكان على السوريين أن يروا أن موقفنا الحالى خطير، ليس فقط بسبب اننا احتللنا جزءا من اراضيهم، وانما لأننا الآن فوق مرتفعات الجولان ونبعد عن دمشق مسافة ٤٠ ميلاً

فقط ولا يوجد أى عائق يمكن أن يوقف تقدمنا نحوها عندما يحلو لنا.

وقد حدث ذلك بالفعل اذ تخيل السوريون اننا فى طريقنا لاحتلال دمشق، واتصلوا بالسوفيت، الذين اتصلوا بدورهم بالرئيس الامريكى محذرين من أنه ما لم يوقف التقدم الاسرائيلى فإنهم سيتدخلون لمساعدة السوريين واتصل دين راسك بأبا ايبان وبسفيرنا فى واشنطن وأخبرهما أننا اذا لم نمتثل لقرار مجلس الامن بإيقاف اطلاق النار، فان موقفنا سيكون سيئا، وأخبرناهم بدورنا أننا لا نهتم باحتلال دمشق، وانما نحن نريد فقط أن نبعد مستعمراتنا على الحدود الشمالية عن مرمى نيران المدفعية السورية، ولهذا فنحن مستعدون لقبول وقف اطلاق النار المتبادل، ولم أعرف ما الذى قاله الامريكيون للروس على لساننا، لكن سفيرنا فى موسكو تسلم مذكرة شديدة اللهجة تتضمن تهديدات وابلاغاً بأن الاتحاد السوفيتى قطع علاقاته الدبلوماسية معنا.

وفى نفس الوقت كانت هناك أحداث تجرى فى مصر، ففى الساعة الرابعة بعد الظهر يوم ٩ يونيو (حزيران) أعلن راديو القاهرة أن الرئيس عبد الناصر قد قبل استقالة قادة الجيش والطيران والبحرية وبعد ذلك بساعتين أى فى حوالى السادسة مساء أعلن أنه هو نفسه قد استقال، وفى الساعة ١١,١٠ من صباح اليوم التالى أعلن الراديو أن الاستقالة قد سحبت.

وبعد أربعة ايام، فى يوم ١٣ يونيو (حزيران) قدمت لزملائى فى مجلس الوزراء تقريرا عن الحرب، وكان معى رئيس الاركان، وقلت لهم اننى سأتحدث بصراحة، وقلت انه فى فترة ما قبل الحرب وقعت الحكومة والجيش فى ثلاثة أخطاء.. الاول: اننا عالجنا موضوع رد الفعل بالنسبة لعمليتنا ضد سوريا ببساطة، وكنا نعتقد أن مصر غارقة فى حربها فى اليمن ولن تهب لمساعدة سوريا، وتمسكنا بتحذير عبد الناصر لسوريا بعدم الحرب مع اسرائيل من أجل عمليات بسيطة مثل القصف البسيط، وكان هذا أيضا

تقديرنا بالنسبة لرد الفعل على عملية الاردن، وكان تقديرنا أن مصر لن تقدم مساعدة فورية للاردن وستظل تسمح بمرور سفننا فى مضايق تيران.

وكان الخطأ الثانى فى التقدير عندما نظرنا الى وصول القوات المسلحة المصرية الى سيناء على اعتبار أنها مجرد استعراض، أو مظاهرة عسكرية، وقد أخطأنا التقدير لان تحرك الجيش المصرى فى سيناء لم يكن بتلك البساطة، وكان خطؤنا الثالث عندما تصورنا أن عبد الناصر لا يستطيع ان يأمر بانسحاب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ وتصورنا أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك بمثل هذه السهولة، وكان درسا قاسيا لنا، اذ وضح لنا مدى السهولة التى يمكن بها التخلص من هذه الأداة الدولية المسماة بقوات طوارئ الامم المتحدة.

ومضيت أقول إن سياستنا السابقة قبل المعركة كانت خاطئة أيضا بسبب فشل اسرائيل فى الرد الفورى عن اغلاق المضايق، ولذا فقد ظهرت قضية من الذى يطلق النار أولاً، وأخذت هذه القضية قيمة كبيرة، وفى الحقيقة ففى تصورى أن المصريين هم الذين أطلقوا الطلقة الاولى، لان اغلاقهم المضايق يعد عملا من أعمال الحرب يعطينا الحق الشرعى فى عمل عسكرى مضاد، يضاف الى ذلك أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة لتعقيد علاقاتها مع مصر من أجل ضمان حرية الملاحة فى المضايق لنا، حتى اذا كانت مشكلة المضايق قد حلت، فسوف تبقى القوة العسكرية المصرية التى دخلت سيناء مشكلة على حدودنا.

ومع أن المصريين أغلقوا المضايق فأطلقوا بذلك الطلقة الاولى، فإن الطلقة الاولى كانت من جانبنا نحن وكانت طلقة ناجحة، ففى اليوم الاول دمرنا ٧٠٪ من طائرات الدول العربية، والجدير بالذكر أن قضية من أطلق الطلقة الاولى يجب أن تنسحب أيضا على الاردن وسوريا فهما اللتان بدأتا بالطلقة الاولى بالقصف الجوى والمدفعى فى اليوم الاول من القتال.

وكان الوضع الوحيد المعقد هو وضع سوريا، فالأعمال التى قامت بها سوريا خلال أسبوع لم تكن تستحق أن نشن عليها حربا شاملة، وكان مجلس الوزراء قد وافق على ان تكون الجبهة السورية هى آخر جبهة نتعامل معها، وكنت أنا شخصيا أعارض بشدة أى عمل واسع ضد سوريا فكل ما كنا نريده هو تأمين مستعمراتنا من القصف.. أما الحرب الشاملة واحتلال مرتفعات الجولان فلم تكن فى تخطيطنا، ولكن الظروف تغيرت.. ففى منتصف تلك الليلة كنت فى القيادة العامة عندما علمت ان مصر قبلت وقف إطلاق النار، وفى الثالثة صباحا أعلنت سوريا أنها هى الأخرى قد قبلت وقف اطلاق النار، وجاء تقرير من المخابرات يفيد ان القنيطرة خالية، وازاء كل هذه المعلومات والتقارير فقد غيرت رأيى، وأمرت فى الساعة السابعة صباحا بالهجوم على سوريا.

وكان ضباط رئاسة الاركان فى صف الهجوم، لديهم خطة معدة ولكنها محدودة المدى لا تتضمن احتلال مرتفعات الجولان، ولكنها على أية حال كانت تصلح لفتح المحور، وتم توسيع الخطة النهائية لتهدف الى دفع السوريين الى الوراء ١٢,٥ ميل لتأمين بعض مستعمراتنا عن مرمى المدفعية ومعنى ذلك احتلال القنيطرة ورافد.

وها قد أنهينا حرب الايام الستة وقد وصلت خطوطنا الى أقصاها على كل الجبهات.

وأخيرا قلت لزملائى الوزراء اننى قد طلبت من رئيس الاركان ان يعد تقريرا عن الوضع فى المستقبل، والوقت الذى ستستغرقه الدول العربية فى اعادة بناء جيوشها، ونظرا لخسائر العرب ولانهم لن يستطيعوا اعادة بناء جيوشهم فى وقت قصير فإنهم سيركزون جهودهم الان فى التحرك السياسى الدولى والاحتمال الثانى الاتحاد السوفيتى وامكانيات اشتراكه فى الحرب ضدنا.

وأعتقد أن ذلك الاجتماع كان مفيدا لكننى لم أكن سعيدا عندما غادرته، كنت أحس ببرودة الجو تجاهى وخاصة من قبل رئيس الوزراء ووزراء الماباى، وكنت أعرف أن ذلك على الدوام كان شعورهم بالنسبة لى، وانهم لم ينسوا اننى عينت وزيرا للدفاع رغما عنهم، وانهم سوف يتصيدون لى الاخطاء فى كل ما أفعله.

■ ■ ■

الباب السادس

الجسور المفتوحة
(١٩٦٧ ـ ١٩٧٣)

في هذا الباب وعن غير قصد فضح موشى ديان قومه وأبان عن نواياهم العدوانية ، وأقحم الدين كمبرر لارتكابهم أبشع الجرائم بحجة تمكين اليهود المساكين والمضطهدين أبداً من تأدية شعائرهم الدينية ، في محاولة لتغطية وجه الخيانة البشع بقناع من الشرعية ، وبدعوى تصحيح أوضاع قديمة وتنفيذ ما جاءت به التوراة وهو بالطبع يكذب ويعرف جيدا أنه كاذب .

٢٢ـ العصر الجديد

بانتهاء القتال، أصدرت أوامرى بنزع كل العلامات التى كانت تحدد خط تقسيم القدس، وعادت القدس الشرقية والغربية مرة أخرى لتصبحا مدينة واحدة، كما أصدرت الاوامر بازالة كل الاسوار والاسلاك الشائكة وتطهير حقول الالغام، وكنت أريد أن تصبح وحدة القدس كاملة وبأسرع ما يمكن وأن يتقارب المجتمعان العربى واليهودى.

وما أن أصدرت هذه الاوامر حتى ارتفعت أصوات المعارضة من بعض الرسميين الذين حاولوا اتهامى بالتسرع، وكان هناك رجاء عاجل من وزارة الداخلية ومن تيدى كوليك عمدة القدس اليهودية، والذى أصبح مجلسه البلدى الآن مسئولا عن معالجة شئون القدس العربية أيضا، وقد طلب منى كوليك أن أؤجل هذه الاوامر قليلا ولكن قرارى بقى كما هو، ان العلامات يجب أن تمحى الآن، وقد وافقت على عقد اجتماع معهم قبل تنفيذ أوامرى، وطلب منى العمدة وممثل وزارة الداخلية وقف تنفيذ قرارى، لان اليهود الذين سيحاولون المرور فى حوارى المدينة سوف يذبحون على أيدى العرب، وسينتقم اليهود من أى عربى يعثر عليه فى المدينة الجديدة.

وبعد أن اسمعت اليهم قلت إننى لا أجد سببا لتغيير الاوامر ومن خلال قراءتى للحالة النفسية للعرب واليهود، فاننى لا أتوقع أية أحداث، وان حرية الحركة بين الجزأين ستؤدى الى مزيد من التقارب بين العرب واليهود دون نقاط تفتيش أو تصاريح خاصة، وعلينا أن نتحرك على الفور فى ضوء الواقع، ونتعامل فيما بعد مع أية مشاكل قد تحدث.

ونفذت الاوامر وعادت القدس مدينة واحدة، ولم يحدث قتل أو صدام أو

اضطرابات أو أى شىء.. وكان العرب يتزاحمون فى ميدان صهيون فى قلب المدينة الجديدة، واليهود يملأون المحال فى أسواق المدينة القديمة، وكانت المشكلة أمام البوليس هى تنظيم المرور.

وكان على الحكومة بعد ذلك ان تحل مشكلة الاماكن المقدسة لليهود والمسلمين والمسيحيين، واقترحت أن ترفع كل القيود والحواجز التى فرضها الأردنيون وان نسمح لكل المسلمين والمسيحيين سواء من الضفة الغربية أو قطاع غزة أو مواطنين اسرائيليين بزيارة وممارسة عباداتهم فى قبة الصخرة والمسجد الاقصى وكنيسة القيامة.

وقد ظل العرب لسنوات طويلة مضت يمنعون اليهود من زيارة أقدس أماكنهم المقدسة وهى الحائط الغربى (حائط المبكى) ومقبرة الأنبياء فى الخليل، والآن وقد أصبح كل شىء تحت سيطرتنا فقد أخذت على عاتقى مسئولية مخاطر الأمن التى قد تترتب على هذه السياسة.

وكانت الأماكن المقدسة اليهودية التى أثارت المشاكل هى جبل المعبد فى المدينة القديمة، وكان جزءا من معبد الملك سليمان بناه فى القرن العاشر قبل الميلاد، وأعيد بناؤه فى القرن السادس ثم دمره الرومان مرة أخرى سنة ٧٠ ق. م، والمكان الثانى هو مقبرة الأنبياء فى الخليل، وعندما حدث الفتح الاسلامى فى القرن السابع الميلادى بنى المسلمون مسجدين فوق جبل المعبد هما مسجد القبة (الصخرة) والمسجد الأقصى، وهكذا أصبحت هناك أماكن مقدسة للمسلمين واليهود.

وبدا لى ضروريا أن نزيل القيود المصطنعة التى فرضها المسلمون وسلطات الانتداب حول زيارة اليهود للاماكن المقدسة، دون أن نؤذى شعور المسلمين، ويجب من ناحية أخرى أن نتأكد أن هذه المسألة الحساسة لن تخلق جوا يلهب العواطف ويتسبب فى حدوث مظاهرات ويثير موقفاً دولياً ضدنا وخاصة من الدول الاسلامية، وفى يوم السبت التالى للحرب زرت

المسجد الاقصى مارا بالحائط الغربى الذى حرمنا من زيارته لمدة ١٩ عاما ووجدت جماهير غفيرة من اليهود تتعبد عند السور ومررت من بوابة المغربى حيث وصلت الى منطقة المسجد الاقصى ووجدت مجموعة من المسئولين المسلمين يكسو وجوههم مزيج من الحزن لانتصارنا والخوف مما قد أفعله، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد السايح رئيس قضاة المسلمين ومعه مفتى القدس والوصى على جبل المسجد.

وقبل دخولى المسجد، طلبت من الضباط الإسرائيليين الذين كانوا يصاحبوننى أن يخلعوا أحذيتهم ويتركوا أسلحتهم، وطلبت من المسلمين أن يتكلموا عن المستقبل، لكنهم رفضوا فى بادئ الامر ولكنى عندما جلست على السجادة بالطريقة الاسلامية، فعلوا مثلى ثم بدأ الحديث، كانت المياه والكهرباء قد انقطعت عنهم نتيجة لمعركة القدس فوعدتهم بأنه سيتم إصلاح هذا الامر خلال ٤٨ ساعة، ودخلت مباشرة فى الموضوع الرئيسى وقلت إن الحرب قد انتهت الان ويجب أن تعود الحياة الطبيعية الى مجراها، وطلبت منهم أن يقيموا الشعائر الدينية فى المسجد يوم الجمعة القادم وقلت لهم إننى لا أرغب أن أفعل مثلما كان الاردنيون يفعلون، من حيث فرض الرقابة على خطبة الجمعة قبل اذاعتها، وأضفت أننى آمل أن لا يستخدم المسلمون هذه الحرب فى خطب قد تعكر صفو الامن، وانه اذا حدث ذلك فإننا بالطبع سوف نتخذ الاجراء الملائم.

وقلت لهم إن القوات الإسرائيلية ستبتعد عن منطقة المسجد، وان السلطات الاسرائيلية هى المسئولة عن الأمن، ولكننا لن نتدخل فى شئون المسلمين الخاصة بمقدساتهم، وكان هؤلاء الناس يعلمون أننى أمرت عندما احتللنا مسجد الصخرة بإنزال العلم الاسرائيلى من فوق المئذنة، وأضفت أن الأمر الجديد هو السماح للزوار اليهود بدخول الحرم الشريف بدون أذن أو دفع رسوم، وهذا المكان كما يعلم أولئك الناس هو معبد الجبل الذى كان

فيه المعبد فى الأزمنة القديمة، ولم يكن معقولا ألا يسمح لليهود بدخول هذا المكان المقدس، والقدس كلها تحت سيطرتنا.

ولم يرتح مضيفى لملاحظتى الاخيرة، لكن لم تكن لهم القدرة على تغيير قرارى.

وانفجرت مشكلة حادة يوم ١٦ أغسطس (آب) يوم ذكرى تحطيم المعبد، فقد قرر الحاخام شلولوجورين رئيس حاخامات الجيش هو وبعض رجال الدين أن يؤدوا الصلاة هذا اليوم فى مكان معبد الجبل أى فى الحرم الشريف، وأحضروا معهم التوراة، وقد علمت بذلك عندما فشل الماجور دافيد فارحى ضابط الاتصال مع العرب فى منع الحاخام والذين معه من الصلاة، وبحثت الحكومة المسألة، ولم يجرؤ أى وزير على أن يتخذ موقفا يحسب عليه فيما بعد فى انه منع اليهود من الصلاة فى أماكنهم المقدسة، وانما تقرر بناء (السياسة الحالية على ما هى عليه)، أى منع اليهود من الصلاة هناك، وكان رأيى انه مادامت الامور فى يدنا فلنتخذ موقفا مثاليا فى التسامح، لم تشهده النظم التى تعاقبت عبر القرون، وهو أن نترك العرب يمارسون شعائرهم فى جبل المعبد الذى توجد فيه الآن مقدسات إسلامية، وإن كان فى الأساس جبلاً مقدساً لدى اليهود.

أما فيما يتعلق بمقبرة الانبياء فى الخليل، فقد أختلفت الترتيبات فيها عن القدس، فلم يكن هناك تقسيم للسلطة والحقوق، وإنما الهدف هو التعايش بين اليهود والمسلمين، ويمثل هذا الكهف أقدم المدافن اليهودية فقد دفن فيه إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب وكذلك زوجاتهم سارة وربيكا وليا وراشيل زوجة يعقوب المفضلة، وكان المسلمون أيضا يحترمون إبراهيم، لانه كان صديقهم وابا اسماعيل ولذا فإن الكهف كان يمثل أيضا بالنسبة لهم شيئا ذا أهمية.

وخلال أربعمائة عام حكم فيها العثمانيون، وثلاثين سنة من الانتداب

البريطانى ظل المسلمون يمنعون اليهود من دخول الكهف او المبنى المقام فيه، والذى كان قد تحول الى كنيسة ثم مسجد، وكان يسمح لليهود بصعود سبع درجات فقط من السلم الامامى، وها نحن الان فى موقف يسمح لنا بإزالة هذا العار لكننى كنت أيضا لا اريد تعريض مشاعر المسلمين للأذى الذى تعرضوا لمثله لعدة قرون، وكان كل ما أريده هو أن يسمح لليهود بالزيارة دون أن يزعجوا المسلمين فى صلواتهم.

وكان مفتاح الحل فى تقسيم المكان جغرافيا بسهولة، لان الكهف يقع فى الجانب الغربى، بينما تقع ساحة المسجد فى الجانب الشرقى، أما الصعوبة فكانت فى وضع جدول مواقيت للزيارة والصلاة لا يتعارض مع مواعيد المسلمين، فالصلاة عند المسلمين خمس مرات يوميا، أما فى شهر رمضان فالمسجد مأهول طوال اليوم، أما بالنسبة لليهود فصلواتهم ثلاث مرات يوميا عدا أيام السبت والأعياد وأيام الصيام حيث تطول فترة الصلاة.. وكنت من أنصار أن يقصر الكهف على الزيارة والحج والصلوات غير الرسمية، أما ان بدأت الصلاة تمارس فيه فلن أستطيع منعها بعد ذلك، وأثناء البحث عن حل، اقترح أحدهم أن ندخل من باب آخر ـ كان موجودا من قديم ـ أسفل الجامع يقودنا الى الكهف مباشرة ولكن البحث عن هذا الباب لم يسفر عن نتيجة، ويهمنى هنا أن أشير الى أن النظر الى داخل الكهف ممكن من خلال فتحة فى أرضية المسجد.

وقد وجدت أنا المخرج لهذه المشكلة فى اجتماعى مع ممثلى المسلمين يوم أول أغسطس (آب) فى الخليل، وكانت الخليل منذ سقطت تحت ايدينا منذ ستة أسابيع تموج بالحجاج اليهود كل يوم لزيارة الاماكن المقدسة، وكنت قبل اجتماعى بالشخصيات الاسلامية، قد اجتمعت باللجنة الوزارية للاماكن المقدسة وطرحت افتراحاتى وتمت الموافقة عليها، وكانت المشكلة التى بقيت معلقة هى هل نطلب من اليهود أن يخلعوا أحذيتهم قبل دخول المسجد؟

واستغرق ذلك منا مناقشات عديدة ثم تركت الحكومة المسألة لقرارى، وكنت أرى ألا يخلع اليهود أحذيتهم وأن يتجنبوا منطقة صلاة المسلمين.

وحضر الاجتماع معى بعض الضباط وروفائيل ليفى المستشار فى الشئون العربية، وهو نفسه من أبناء الخليل ويجيد لغتهم، ويعرف كل تقاليدهم، ويعرف معظمهم، وكان ممثلو المسلمين برئاسة عمدة الخليل والمفتى وإمام المسجد، وبعد مناقشة وصلنا الى الاتفاق التالى:

■ رفع حظر التجوال حتى يستطيع المسلمون الصلاة فى الساعة الثالثة صباحا.

■ يسمح لغير المسلمين بدخول المعبد فى الاوقات مابين ٧,٣٠ صباحا الى ١١ صباحا وبين ١٢ ظهرا والخامسة مساء.

■ يسمح للمؤذن بدعوة المسلمين للصلاة خمس مرات يومياً.

■ بين الساعة ١,٣٠ بعد الظهر و ٥ مساء يسمح للمسلمين بالصلاة على أن يدخلوا من باب منفصل.

■ الزوار غير المسلمين، لابد أن يرتدوا ملابس متحشمة، ولا يسمح بالتدخين وبيع الشموع أو المشروبات الروحية.

ووقع الاتفاقية عن المسلمين رئيس المجلس الاسلامى، وعن اليهود أنا وروفائيل ليفى، ولم تكن هذه الاتفاقية هى الاجابة الحاسمة على كل المشاكل لكنها كانت طريقا للوصول الى إضافات أخرى بعد ذلك مثلما حدث عندما تزايد عدد الزوار والمصلين فى الفترة ما بين رأس السنة اليهودى (ويوم الغفران) يوم كيبور، وحللنا المشكلة عن طريق استخدام (الساحة الغربية للمسجد فى الصلاة) وقد قضيت وقتا طويلا فى حل مشكلة الاماكن المقدسة فى الخليل وفى القدس بصفة خاصة فقد كنت أعتبر أن حل هذه المشكلة يخلق جسرا يتم من خلاله وضع أسس التقارب بين العرب و اليهود فى القدس الموحدة.

وسرعان ما اندمج المجتمعان العربى واليهودى فى القدس، ففى المحلات التجارية، وفى الاعمال، وفى وسائل المواصلات كنت ترى العرب واليهود سويا، وبالنسبة للتعليم كان أطفال العرب يذهبون الى مدارسهم الخاصة ليتعلموا لغتهم وتاريخهم وعقيدتهم، وكنت أرى ضرورة أن يحترم كل طرف آمال ومطامح الطرف الآخر.

وكان من أهم ما قمت به فى الاسبوع التالى للحرب زيارة القرى العربية فى الضفة الغربية والاجتماع بالعمد، وقد تم رفع حظر التجوال الذى كان مفروضا أثناء الحرب، وعادت الحياة التى طبيعتها، ولم يبق من آثار الحرب سوى دبابة محترقة هنا أو سيارة مدمرة هناك، وكان ما اصطلح على تسميته بالضفة الغربية، ويعرف فى كتبنا المقدسة باسم يهوديا وسامرا، وكان هذا الجزء يمثل لى ذكريات طفولتى عندما كنت فى ناحلال فى الثلاثينيات وهى مازالت مستعمرة فقيرة وكنا ننتهز الفترة بين الحصاد والبذر أنا وزملائى للقيام برحلات فى أنحاء البلاد سيرا على الاقدام.

وكان من أسباب انجذابى الى هذه المنطقة انها قد ذكرت كثيرا فى التوراة ففيها مثلا سيلوه حيث تجمعت قبائل الاسرائيليين قبل نزول التوراة، وتيكوه مسقط رأس النبى عاموسى، وبيت ايل حيث تجمع أبراهام مع يعقوب، وحيث أعد شاؤل قواته لمحاربة الفلسطينيين ورغم ان الآثار قد اندثرت، فإن اسماء هذه الاماكن بقيت لنا كما هى لم تتغير، بل أن السنين والمعارك والامم التى تعاقبت لم تستطع أن تغير مصدر هذه الاسماء.

وها أنا الآن أمر على القرى التى يسكنها العرب فى يهوديا وسامرا وكانت علاقتى على الدوام جيدة مع العرب، وبرغم المعارك والحروب فإننى لم أكن أضمر لهم أى عداء شخصى، صحيح أن هذه العلاقات كانت تحطمها الحرب، لكنها كانت تعود مرة أخرى الى طبيعتها بعد أن تضع الحرب أوزارها.

وكانت هناك ثلاثة أقاليم قد أصابها دمار كبير من خلال الحرب أولهما

إقليم اللاطرون الذى دار فيه قتال عنيف عندما هاجم الاردنيون اسرائيل بالمدفعية منه، وكذلك منطقة قليقلية التى تعرض ثلث مبانيها للنسف والتدمير بالديناميت، واخبرنى الحاج حسين على، عمدة قليقلية ان هناك ٨٠٠ مسكن لم تعد صالحة للسكنى، وان عدد السكان الذين تركوا المدينة وصل الى ١٢ الف شخص، يقيم بعضهم مع أقاربهم الان فى مدينة نابلس والبعض الآخر يعيش فى بيارات الزيتون وذهبت لزيارتهم فى البيارات فالتفوا حولنا وأمطرونى بالاسئلة وطلبوا فقط أن يعودوا الى منازلهم وان نمدهم بمعدات ميكانيكية لازالة آثار التدمير.

وقد منحتهم الإذن بالعودة فورا ووعدت بمساعدتهم فى تحقيق كل طلباتهم، ولكن لم أرد على ما لم يقولوه، وان كان قد بقى معلقا فوق الرؤوس، وهو ماذا نريد منهم ؟ وكنت أعلم جيدا أنه إذا تحققت آمالهم وانتصر العرب فانهم ما كانوا سيكلفون بتدمير منازلنا وقرانا ومدننا بل كانوا سيذبحوننا، وكانوا هم أيضا يعلمون ذلك، ولذا كانوا يقبلون تدمير منازلهم نتيجة لهزيمتهم، ولم يكن باستطاعتى ان اقول لهم إننى كوزير الدفاع أعتذر عما فعله الجنود من تدمير لمنازلهم، لكننى وعدتهم بمساعدة الحكومة لهم، وفى المنطقة الثالثة فى القرى الواقعة غرب الخليل وعدت الاهالى بأن الحكومة ستمدهم بالاسمنت والحديد لاصلاح منازلهم، ولم يكونوا بحاجة الى الأحجار لأن المنطقة كانت مليئة بها.

■ ■ ■

٢٣ـ التعايش!!

كان من اول الاعمال التى قمت بها بعد الحرب، عندما توليت إدارة الاراضى المحتلة، ان أصدرت أوامرى بأن تكون لأى عربى سواء من سكان الضفة الغربية أو من لاجئى غزة، حرية الحركة فى كل مكان وبدون إذن، وكان صدى هذه الأوامر ممتازا عند العرب، فما كانوا يتوقعون ذلك من ادارة الاحتلال، وان كان كثير من الاسرائيليين قد أبدوا عدم ارتياحهم، وكانت حجتهم أن السماح للإرهابيين بحرية الحركة سيعرض الامن الاسرائيلى للخطر.

ودفعنى لاصدار هذه الاوامر ما حدث خلال الايام الاولى للدولة عندما أمرت بضرورة حصول العرب على تصاريح للتنقل داخل البلاد وتذكرت صور الطوابير الطويلة للحصول على تصاريح ونقاط المراجعة والتفتيش، والمراجعة الطويلة للوثائق، حيث أدى كل ذلك الى تعميق الشعور العدائى لدى العرب، ولم أكن مستعدا لسلوك نفس الطريق، وقد وقع حادث شاهدته بنفسى جعلنى أسرع فى اتخاذ هذه الخطوة حينما استوقف الجنود فى احدى نقاط التفتيش سيارة تحمل سمكا فى طريقها الى الخليل، وقد عبأ الصيادون السمك فى صناديق ووضعوها بعناية فائقة بين قطع الثلج وغطوها بالحشائش، ونتيجة للتفتيش تبعثر كل هذا الجهد على الارض، وقررت أن أتجنب تكرار هذا المنظر مرة أخرى وحتى ولو كان على حساب مخاطر الامن.

ولا شك أن أهم تطور قدمناه فى علاقاتنا مع العرب هو سياسة الجسور المفتوحة، وهو تشجيع حرية حركة الناس والبضائع عبر نهر الاردن، وكان العبور من جسر اللنبى يصل الى القدس وبيت لحم والخليل وغزة، أما جسر داميا فيخدم نابلس، وجنين، وكان الهدف من هذه السياسة عدم عزل العرب

عن أخوانهم فى العالم العربى.

وقد سمحت هذه السياسة لأبناء العرب بأن يلتحقوا بالجامعات المصرية والسورية واللبنانية، وسمحت لنوابهم بدخول البرلمان فى عمان، ولممثليهم بأن يعقدوا لقاءات علنية مع زعماء الدول العربية وممثلى منظمات التخريب الفلسطينية، كما سمحت بتبادل الزيارات مع عائلاتهم من شمال أفريقيا حتى السعودية.

وكنت أرى أن سياسة الجسور المفتوحة يمكن لها أن تؤدى فى المستقبل الى اتصال مع الدول العربية، صحيح أن هذه الدول لا تسمح لاى اسرائيلى بزيارتها ولكننا نستطيع السماح لمواطنيها بزيارتنا، ولم أكن أعتقد أنهم عندما يشاهدون اسرائيل للمرة الاولى سيحبوننا ويعجبون بنا، ولكنهم سيكشفون امكانية التعايش معنا كمجتمع مفتوح يعتبر كل الناس سواء، ونحن أيضا أمة مفتوحة متقدمة، صحيح أننا لم نصل الى المستوى التكنولوجى للولايات المتحدة، لكنهم سيجدون أن مستواه جدير بالاهتمام فى مجالات الزراعة والصناعة والدواء والصحة العامة وغيرها.... وعندما علمت بعد الحرب أن عملية عبور التجارة عبر نهر الاردن مستمرة، رحبت بذلك وأمرت كل القوات بالانسحاب من القرى العربية وأن ينقلوا مواقعهم على التلال، لأن وظيفتهم هى حماية الامن الاسرائيلى وليس ادارة الحياة فى القرى العربية.

وفى يوم ٢ أغسطس (آب) قمت وبصحبتى قائد الجبهة الشمالية ناركيس بزيارة منطقة العبور عند جسر داميا، التى اسماها جنودنا (سوق الخضار)، حيث تعبرها السيارات محملة بالخضروات والبضائع المختلفة، فسيارات النقل الثقيلة والخفيفة، حتى العربات الخفيفة تتدفق على النهر، وكان معدل العبور يوميا لا يقل عن مائة سيارة محملة بالخضروات والفاكهة وزيت الزيتون والبضائع الأخرى مثل منتجات البلاستيك من بيت لحم وأحجار البناء من الرملة، وخلال الزيارة تجمع حولى الناس وطلبوا منى

وثيقة أعلن فيها السماح للذين خرجوا بالعودة.

وكان هناك حوالى ٢٠٠ الف شخص قد هربوا أثناء الحرب نصفهم من اللاجئين والنصف الآخر من سكان الضفة الغربية، وقد وافق مجلس الوزراء على عودتهم فى جلسة تالية، وأعلن ان كل من يريد العودة سيسمح له بذلك حتى يوم ١٠ أغسطس (آب)، ولكن القليلين هم الذين عادوا.

وعندما أقترب الشتاء، ولتسهيل مهمة قوافل النقل، أرسلت حمدى كنعان عمدة نابلس الى عمان ليقدم اقتراحاً بإعادة بناء الجسور وقبلت عمان على أن تقوم هى بعملية البناء، ولم أعترض وتم بناء جسرين فى نفس أماكن اللنبى وجسر داميا.

وكان استمرار سياسة الجسنور المفتوحة مرهوناً بموافقة الطرفين، وبالنسبة لاسرائيل فنحن لم نكن نرغب فيها فحسب، بل نحن الذين بدأناها، أما بالنسبة للاردن فقد كان قبولهم قبولا للامر الواقع، وكانت الضفة الغربية خلال الحكم الاردنى فى التسعة عشر عاما الماضية قد نزعت لمحاولات كثيرة لتضييق علاقاتها مع الضفة الشرقية، غير أن عمد المدن كانوا يذهبون للملك حسين وللحكومة الأردنية ويرجونهم فك هذه القيود، وكانت هناك عائلات كبيرة يقيم أفرادها فى مختلف مدن الضفتين، ولم يكن من الممكن الفصل بينهم، مثل عائلات طوقان والمصرى والحجرى.

وعلى العموم فإن العلاقة بين العرب فى الاراضى المحتلة وبين الادارة العسكرية، كانت طبيعية، وكذلك كانت بينهم وبين اليهود، ومن ناحية أخرى فقد ارتفع مستوى معيشة العرب واتسعت فرص العمل أمامهم، وانفتحت سوق العمل اليهودى أمامهم كأعمال الميكانيكا والبناء ووظائف الفنادق، وارتفعت أسعار منتجاتهم الزراعية التى كانت دائما موضع طلب فى اسرائيل.

أما فى مخيمات اللاجئين فى قطاع غزة، فقد حدثت تغييرات اقتصادية دورية، اذ أن اللاجئين الذين ظلوا طوال التسعة عشر عاما الماضية يقضون وقتهم خارج خيامهم فى لعب الطاولة، بدأوا الأن يجدون عملا يكتسبون منه أموالا كثيرة، بينما استمروا يحصلون على قوتهم والخدمات الصحية والتعليمية المجانية من هيئة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة وأصبحوا قادرين على تغيير مستوى وطريقة معيشتهم والحصول على ملابس جديدة وأثاث ومعدات للمطابخ، وهجر الكثير منهم مخيمات اللاجئين الى المساكن الجديدة التى بدأ بناؤها وظهرت هوائيات (ايريالات) التليفزيون على كثير من الأسطح، كما كان لدى الكثير منهم ثلاجات (برادات) كهربائية، وتم التوصل الى صيغة مؤداها أن العمد لا يقدمون أى مساعدة للاعمال التخريبية ضدنا، وان أولئك الذين يعارضون احتلالنا، لهم الحرية فى التعبير السياسى والنقد من خلال القول أو الكتابة على أن لا يسمح بأى عمل خارج على القانون.

وبشكل عام، فإن الخطوط الرئيسية لهذه الصيغة جرى اتباعها والالتزام بها فيما عدا بعض أعمال التخريب والعنف التى كان يقوم بها متسللون من الاردن وسوريا ولبنان، وكان هؤلاء يجدون مخابئ لهم فى بيوت أقربائهم وفى قراهم السابقة، وكان لابد لنا من موقف حازم، فكنا بعد أن نجلى السكان، ننسف المنازل التى نعرف أنها وفرت الحماية للمخربين أو التى كنا نعثر فيها على اسلحة ومتفجرات، وأثبت هذا الاسلوب فعاليته وجدواه، أما الاسلوب الآخر فهو نفى الزعامات التى تشجع الاعمال التخريبية أو تحرض عليها، وكان أول من نفى من العمد روحى الخطيب عمدة القدس السابق وتلاه قاض سابق ثم عمدة البيرة وأثبت أسلوب النفى فعاليته، وان كان قد أثار غضبا شعبيا.

وكان شهر سبتمبر (أيلول) وأكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٧ هما أصعب الشهور فى الضفة الغربية، حيث قادت نابليس عملية إضراب كانت تهدف

من ورائها أن يشمل الاضراب الضفة الغربية كلها.

وبدأ الاضراب بإغلاق المدارس والأسواق والمتاجر، وبدأت المرحلة الثانية فى ١٩ سبتمبر (أيلول) بداية دورة الامم المتحدة، واستمر الاضراب عدة اسابيع أغلقت فيها المحلات وتوقفت كل وسائل المواصلات وأخيرا اكتشفوا أن الضفة الغربية لم تشاركهم الاضراب، بل أن سائقى جنيزة عملوا بدلا منهم فى حمل المنتجات الخاصة بالتصدير ونقلها، وأخيرا اكتشف القادة أن هذا الاضراب لم يحقق أى نتيجة وفى أول نوفمبر (تشرين الثانى) عادت الحياة الى طبيعتها وقد تسبب إضراب نابلس ومظاهرات رام الله وأعمال العنف فى غزة فى خلق التوتر بين قادة العرب والحكومة العسكرية، وبالرغم من قيام بعض المخربين بإطلاق النار على زملائهم العرب أثناء توجههم للعمل فى المصانع الاسرائيلية، فإن العلاقات بين العرب والحكومة كانت تسير بخطوات واسعة نحو التقدم، ولم تؤد هذه الاحداث الى نشوب صدامات بين العرب واليهود حتى عندما نسف المخربون دارا للسينما فى تل أبيب ونسفوا سيارة فى السوق فى القدس، فإن اليهود أثارهم مشاهدة منظر القتلى والجرحى ولم ينتقموا من العرب الموجودين فى وسطهم، وقد أدت سياسة الجسور المفتوحة فى النهاية الى اقتناع الطرفين بإمكانية التعايش سويا.

وكانت حلقة الصلة بين المواطنين العرب وبين السلطات الاسرائيلية هى العمد، وكان أكبر ثلاثتهم محمد على الجعبرى عمدة الخليل، وهو أقواهم لانه كان يتجاهل كل ما يأتى من عمان ويقرر كل شىء على أساس فهمه هو للحقائق والاثنان الأخران هما حمدى كنعان عمدة نابلس الذى لم يكن مستندا إلى قوة لان النفوذ كله كان فى يد عائلتى المصرى وطوقان، والثالث هو رشاد الشوا عمدة غزة، وكان تائها بين السلطة الاسرائيلية وبين خوفه من المخربين الذين كان يقابل زعماءهم خلال رحلاته الى بيروت، واتذكر أنه فى آخر يوم صيام للمسلمين فى رمضان ١٩٧١ طلبنى الجنرال بونديك حاكم

غزة العسكرى تليفونيا، وأخبرنى أن رشاد الشوا أبلغه الآن أن زياد الحسينى قائد المخربين فى القطاع قد انتحر فى منزله وأنه يرغب فى مقابلتى، وطلبت من المحافظ أن يرسله بمفرده.

وكان رشاد الشوا قد سبق أن طلب منى أن أساعد زياد الحسينى ومجموعته على الهرب الى لبنان لانهم فشلوا فى عملهم فى القطاع ولكنى رفضت ذلك، وقلت إنهم لابد أن يقدموا للمحاكمة، ولما علم زياد الحسينى أن كل الطرق سدت فى وجهه، انتحر بعد أن ترك خطابين أحدهما (لضيفه) العمدة يشكره على أنه ساعده بإخفائه فى منزله والثانى وصيته تتضمن أسماء الخونة المتعاونين مع اليهود، ومنهم رشاد الشوا نفسه باعتباه عميلا صهيونا، وكانت مشكلة رشاد عويصة، ولذا عرضتها على جولدا مائير وموشى سابيرو وزير العدل الذى قال لى إنه تحت ظل الحكم العسكرى فالأمر متروك للحاكم العسكرى، فإما أن يرسل الشوا .. للمحاكمة بتهمة التعاون مع المخربين أو يكتفى بانذاره وببقائه عمدة وتركت جولدا القرار لى.

وقد قررت أن يظل الشوا فى عمله، وكان ذلك من أجل أن يفهم قادة العرب أننا ندرك مشاكلهم ونقدرها ولم تكن قواتنا العسكرية فى حاجة الى مساعدة من جانب القادة العرب ضد التخريب، لكننا من موضع القوة نتجاهل موقف رشاد الشوا وقد أكدنا على عائلة زياد الحسينى أن يدفن بدون مراسم ولا مظاهرات ولا خطب على القبر، ونفذوا كل ذلك، وقد اتخذت هذا الاجراء عن عمد لانى كنت أفكر فى المستقبل، وفى وجوب ازالة كل حقول الالغام من طريقنا لاقرار الهدوء والحياة الطبيعية فى الاراضى المحتلة.

وفى علاقاتى الشخصية مع العرب كنت قريبا جدا من بدو جنوب غزة، وقد أصبح لهم الآن أرضهم الدائمة بدلا من التجوال فى الصحراء، وساعدهم ذلك على زراعتها بحيث أصبحت جزيرة خضراء فى وسط رمال الصحراء، وأصبحت هذه المزارع الآن تنتج البرتقال الشموطى ذا النكهة

الخاصة، وتنتج الخضروات كالخيار والطماطم والباذنجان والفلفل فى الصيف، أما فى الشتاء تنتج الكرنب والقرنبيط، وقد تولى خبراء زراعيون من اسرائيل تعليم هؤلاء البدو كل ما يتعلق بالزراعة واستبدلوا التقاوى المحلية بنوعية ممتازة، وأصبح سوق التصدير يرحب بانتاجهم من الشمام والبطيخ والفراولة التى أصبحت شهيرة فى زيورخ ولندن.

وكان هناك بدويان أحب أن أزورهما دائما هما الحاج محمد أبو سليم وحامد، وكان الحاج محمد رئيس قبيلة فى دير البلح فى قطاع غزة وكانت كلمته بمثابة قانون لأفراد القبيلة، وتتوسط الفيلا الفخمة التى يسكنها غابة من النخيل تمتد فى لون أخضر جميل الى ان تصل بزرقة البحر الأبيض، وكان الحاج أبو سليم بدويا فى كل شىء، لكنه كان يدرك إلى أين يتجه العالم، ولذا فقد أرسل ابنه فرحان ليدرس الطب فى ألمانيا بل قام بعمل غير مألوف للبدو إذ سمح لبناته أن يدرسن فى الخارج، وعندما قابلته لأول مرة كان مريضا جدا فعندما انسحبنا من سيناء بعد سنة ١٩٥٦ قبض المصريون على كل من اشتبه فى انهم على علاقة معنا، وكان من بينهم الحاج أبو سليم بالرغم أننا لم نكن قد اتصلنا به فى ذلك الوقت، وقضى فى السجن سنوات طويلة الى ان احتللنا قطاع غزة عام ١٩٦٧ وقد حاولنا علاجه بقدر الامكان وفى عام ١٩٧٠ مات فى مستشفى تل هاشومير فى اسرائيل.

أما الشخص الآخر الذى كنت أفضله فهو حامد، ولم يكن يملك فيلا او غنيا بل كان يقيم فى خيمة من جلود الماعز ويعمل قصاص أثر، ولكننى فى كلا المكانين، وعند كلا الرجلين كنت أشعر بالراحة وبكرم الضيافة والادب، وكنت أتمنى أن أتعلم من حامد مهارته الفائقة فى متابعة الأثار على الرمال، وكان حامد قد عثر على كمية من الآثار موجودة تحت أرض مزرعة لثرى يدعى أبو ملاك، فأثناء حفر الارض لإعدادها للزراعة التقطت عينا حامد الماهرتان آثاراً قادت الى تابوت أحد ضباط الفرعون رمسيس الثانى الذى

دفن فى هذا المكان فى القرن الثالث عشر ق. م وبجانبه كالعادة متعلقاته الشخصية وقلائده وأساوره الذهبية.

وكان كل اتصالى بقادة العرب هى عملى الاساسى خلال الحكم العسكرى، وكان على رأس هؤلاء القادة محمد على الجعفرى عمدة الخليل، اذ عقدت عدة اجتماعات تحدثنا فيها كثيرا بصراحة، ولكنى كنت أعرف أن هذا غير كاف لتحقيق الهدف الذى أرمى اليه، صحيح كل هذه الاتصالات قد تساعد على حل المشاكل، ولكنهم كانوا دائما ينظرون لى كوزير الدفاع وعلى أنى الاجنبى الذى هزمهم، والحاكم الجديد الذى حول بلادهم المستقلة الى جزء من اسرائيل، وعلى أية حال فإننى أعتقد ان المحادثات وجها لوجه مع بعض الكتاب والمفكرين العرب ستجعلنا أكثر قربا من بعضنا البعض، قد نظل على اختلاف فى وجهات نظرنا ولكننا على الاقل سنفهم بعضنا.

وسمعت عن شاعرة فى نابلس تدعى فدوى طوقان، وطلبت أن أراها، وقبلت زيارتى فى منزلى وحضرت هى وخالها الدكتور قدرى طوقان ومحافظ نابلس حمدى كنعان يوم ١٢ اكتوبر (ت١) سنة ١٩٦٨، وكان معى دايفيد فرحى ودافيد زكريا المتخصصان فى الشئون العربية، وكانت فدوى أقل الموجودين كلاما، لكنها كانت أكثرهم صراحة، كان خالها يتحدث باسمها أحيانا، وكان كنعان يتحدث عندما تفتح موضوعات سياسية، وقال خالها إنه أغلق على نفسه باب داره منذ بداية الاحتلال لان قلبه لا يسمح لعينه بأن تنظر الى ارضه ويجدها محتلة، وكان يصر على أن نظرة العرب لاسرائيل قد تغيرت الان وانه اذا انسحبنا من الاراضى التى احتللناها وسمحنا للاجئين العرب منذ عام ١٩٤٨ بالعودة سيعترفون باسرائيل ونعيش فى سلام سويا.

وكانت فدوى مهتمة بالمنزل وبالآثار الموجودة فى الحديث، وسألت ابنتى يائيل عدة اسئلة عن طفولتها وعن ناحلال حيث ولدت، وأعتقد أنها كشاعرة

تستطيع التعبير بالكتابة أكثر من الكلام وخاصة مع الاغراب، أما شعرها القوى الدموى فيخرج من روحها مباشرة وكانت هذه الروح تصرخ ولكن دون أن تسمع، وفى نهاية الزيارة قلت للدكتور قدرى إنه اذا كان يرى فرصا للسلام فليته يذهب الى عبد الناصر ويرى مدى استعداده للدخول معنا فى مباحثات حول هذا الموضوع، وسكت الدكتور قدرى، ولكن فدوى قالت له (قدرى اذهب الى جمال) وحاول الدكتور قدرى تجنب الموضوع وضحك قائلا من جمال؟ ولكن فدوى أصرت وقالت (قدرى اذهب الى جمال واطلب منه أن يبدأ محادثات مع اسرائيل حول السلام ـ قدرى اذهب الى جمال) وكانت نغمة صوتها مزيجا من الرجاء، والامر وبدا للحظة ان الدموع ستنفجر من عينيها.

وبعد شهرين تقابلت مع فدوى فى فندق الملك داوود بالقدس وكانت قد زارت مصر، وأخبرتنى أنها قابلت عبد الناصر وأنه أخبرها ان دين راسك شجعه على عمل ترتيبات مع اسرائيل مقابل الانسحاب الكامل من سيناء، ولكن عبد الناصر رفض لان الاتفاق لايشمل الضفة الغربية، وقالت انها أخبرته عن مقابلتها لى ولكنه لامها ووبخها، وقالت إن الشخص الوحيد الذى قابلها فى مصر وشجعها على الاستمرار فى الاتصال بى كان محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام السابق وصديق عبد الناصر الحميم، وقد عادت دون أى أنباء ايجابية لا فى مصر فقط بل فى الاردن أيضا، إذاً فالطريق الى السلام مسدود كذلك فإن فدوى ـ كما قلت ـ تعارض أى أتفاقية، وقالت لى إنها تعتقد أن كل الناس فى الضفة الغربية يريدون السلام والحل السلمى للمشكلة الفلسطينية ولكن قادتهم جبناء حتى خالها قدرى ايضا يخشى تعريض نفسه ومركزه السياسى للخطر.

وقلت لها اننى قد تحدثت قريبا مع احد أعضاء منظمة فتح كان قد سلم نفسه لقواتنا واقترحت الافراج عنه على ان يذهب الى أبو عمار، أى ياسر عرفات، ويخبره أننى أريد أن أقابله، ولكن الاسير رفض وفضل السجن،

وقــالت فــدوى (أنا امــرأة ولكنى لست جــبــانة، أنا أرغب فى الســلام، وعبدالناصر لا يريد السلام معكم، ولكنى عندما أذهب الى بيروت سأقابل أبوعمار وأقترح عليه ان يقابلك، ويجب أن نعمل من أجل السلام).

وبلا جدال فان فدوى امرأة شجاعة ولست أعرف اذا ما كانت قد قابلت أبو عمار أو لم تقابله، اذ لم أسمع عنها ثانية بعد ذلك.

■ ■ ■

٢٤ ـ حادث بين الآثار

فى الوقت الذى وجدنا فيه اننا نستطيع العيش فى وئام مع العرب داخل حدودنا، بدأت عمليات التخريب من الدول المجاورة، وأخذت عمليات تسلل المخربين تتزايد خلال السنوات الثلاث التالية لحرب الايام الستة وكانت معظم هذه العمليات تأتى من الاردن، ورغم ان الملك حسين فضل اختيار الطريق السياسى ولم يرفع كغيره شعار (ماأخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة) وقد ارتبطت الاردن بالمواطنين بالضفة الغربية ونشأت مصالح بينهما يمكن لأى حرب أن تدمرها.

وبالرغم من هذا فإن معظم عمليات العنف كانت تأتى من قطاع الاردن، بسبب تنظيمات المخربين، ومع أنهم أعلنوا بعد الحرب بعشرة أيام أنهم نقلوا قيادتهم من الاردن الى الارض المحتلة، فإن ياسر عرفات بعد أن أمضى وقتا قصيرا فى الضفة الغربية لتنظيم العمل داخل الارض المحتلة، فشل فغادرها الى الاردن فى سبتمبر (أيلول)، وتبعه بقية القادة المحليين للمخربين فى قطاع غزة والضفة الغربية، وتوزيع المخربون ما بين الاردن ولبنان وانطلق المخربون عبر الحدود مع الاردن ليضعوا الألغام فى الطرق الرئيسية، وقصفوا المستعمرات القريبة من الحدود فى منطقة شيعان، وبالرغم من أن الجيش الاردنى لم يقم بأى عمل ضد إسرائيل، فإن وحداته على الحدود كانت تساعد المخربين فى عبور نهر الاردن، وتغطى أنسحابهم بإطلاق النيران.

وانتهت ثلاث سنوات مستمرة من عمل المخربين ورد الفعل الاسرائيلى فى خريف ١٩٧٠ فى سبتمبر (أيلول) الأسود، ويتضح من الاحصائيات عن تلك السنوات أن ٥٨٤٠ عملية قام بها المخربون من الحدود الاردنية، وأن

خسائرنا فى هذه العمليات بلغت ١٤١ قتيلا و٨٠٠ جريح، وتعرضت مستعمرة كفار روبين على الحدود الاردنية للقصف ٥٨ مرة ومستعمرة بيت شيعان ٤٠ مرة، وقد بدأت أول عملية للمخربين بعد ٩ أيام من ايقاف اطلاق النار فى ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٦٧، حيث انفجرت عبوة ناسفة قرب مستعمرة حيشر فى وادى نهر الاردن، وبعد ستة أسابيع أطلقت النار من كمين نصبه المخربون على جرار زراعى فى الطريق بين مستعمرتى معاز حاييم وكفار روبين، وفى أول أكتوبر (تشرين الاول) أطلق كمين آخر للمخربين النار على أحد أعضاء مستعمرة هامادیا فقتلوه ونسفوا أحد مبانى المستعمرة.

وتوجهت فى ٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٧ الى زماخ لحضور اجتماع مع ممثلى كل المستعمرات والمدن فى وادى الاردن، ثم قمت بعد ذلك بجولة تفتيشية على الحدود، وشكا ممثلو المستعمرات من تعرضهم لعمليات التخريب ونقص الاسلحة لديهم، وكانوا محقين فى شكواهم لأن عمليات التخريب حولت مستعمرات وادى الاردن الى خط أمامى، وكان لابد علينا أن نعد أنفسنا فى هذا القطاع لأسلوب جديد للمواجهة.

وعدت بعد أسبوعين الى المنطقة ومعى لواء مدرع، وقررت أن تتمركز الدبابات والمدفعية فى هذه المنطقة للرد الفورى على أى عملية، وقد رفضت بحزم أن يكون رد فعلنا على أى عملية، أن نطلق النار على المزارعين الذين يعملون فى حقولهم داخل الضفة الشرقية، وأننا اذا فعلنا ذلك لهربوا على الفور، ونحن لا نريد منهم الهرب، بل يجب ان نتبع سياسة تشجيع المزارعين على العمل فى مزارعهم القريبة من الحدود كما نفعل نحن.

ودخلت فى المناقشة بعد عدة أسابيع عندما زرت مستعمرتى معاز حاييم وكفار روبين، وكانا قد تعرضتا للقصف منذ قليل، وقال لى سكان المستعمرتين إننا لو أجبرنا المزارعين على ترك مزارعهم فى الضفة الشرقية، لفكر المخربون مرتين قبل أن يقوموا بأى عملية قصف، وقلت لهم إن هذه

العمليات موجودة من قبل ومع ذلك فإنها لم توقف العمل التخريبى، وان قصف الفلاحين لن يجعل الوضع على الحدود هادئا، وقلت إن نشاط المخربين يتزايد لان الملك حسين فشل فى وقف نشاطهم، ولذا فإن الخطة الصحيحة هى ان نهاجم وحدات الجيش الاردنى التى تتعاون مع المخربين.

وعدت الى مستعمرات معاز حاييم وكفار روبين وجيشر ليلة ١٥ فبراير (شباط) ١٩٦٨ عندما تعرضت للقصف وتحطمت بعض مبانيها، أما كفار روبين فقد تعرض مكان مبيت الاطفال لضربة مباشرة وكان الاطفال لحسن الحظ فى المخبأ، وبينما كنت فى جيشر تجدد القصف مرة أخرى ثقيلا، وعلى الفور أمرت رئيس الاركان بأن يستخدم القوات الجوية والمدفعية، فى ضربة قوية ضد مواقع المدفعية الاردنية وكل المواقع العسكرية على الحدود، وكانت تلك هى المرة الاولى التى تشترك فيها قواتنا الجوية فى عملية منذ الحرب.

وفى ١٨ مارس (آذار) ١٩٦٨ كانت احدى سيارات الاتوبيس تحمل أطفالا من مدرسة هرزيليا فى تل أبيب فى رحلة الى النقب، ومرت السيارة فوق لغم فى منطقة بير أورح على مسافة ٢٥ ميلا شمالى ايلات وقد قتل طفلان وجرح ٢٧ طفلا، وللرد على هذا العمل وغيره قام الجيش الاسرائيلى بعمليتين هجوميتين على قواعد المخربين داخل الضفة الشرقية للنهر، الاولى فى الكرامة شرقى النهر، والثانية فى زافى جنوب البحر الميت.

وتحولت معركة الكرامة الى غير ما توقعنا اذ أن قواتنا وخاصة المدرعة منها لم تلتزم بالبقاء فى الكرامة بل ارتقت الجبال، وهناك اشتبكت مع الدبابات الاردنية، واستمرت المعركة طوال اليوم حتى حلول الظلام، وكانت خسائرنا فيها ٢٩ قتيلا، وما يزيد على ٩٠ جريحا وتركنا فى ميدان المعركة أربع دبابات محطمة وأربع سيارات مدرعة أما خسائر الاردنيين والمخربين الفلسطينيين فقد كانت ٢٣٢ قتيلا و٣٠ دبابة واستسلم ١٣٢ مخربا، أخذوا أسرى، ولم تتمكن قوات المظليين من النزول فى الوقت المناسب على التلال

المحيطة بالكرامة، بسبب الضباب واستطاع المخربون الهرب، ومن بينهم ياسر عرفات الذى هرب مع مجموعة من رجاله الى عمان بالسيارة.

ولم أستطع مراقبة عملية الكرامة عن كثب لأننى كنت فى المستشفى لأعالج من أصابات حدثت لى فى اليوم السابق نتيجة حادث، فبينما كنت أقوم بفحص بعض الحفريات فى منطقة أزور قرب تل ابيب، اذ بى أجد نفسى تحت الرمال والاحجار نتيجة انهيار ترابى، وكانت تلك هى المرة الثانية التى ظننت فيها أن حياتى انتهت، وكانت المرة الاولى أثناء الحادث الذى وقع لى فى سوريا عام ١٩٤١، وفقدت فيه عينى، وكنت قد اشتركت يوم ١٩ مارس (آذار) فى القيادة العامة فى وضع خطة الكرامة التى كان المفروض أن تنفذ بعد ٣٦ ساعة وانتهزت الفرصة لأذهب الى أزور للقيام ببعض الحفريات ووقع لى الحادث.

وكان يشاركنى فى الحفريات صديقى منذ الصغر آرييه روربوم الذى أصيب مثلى بمرض الآثار، وأصبح بمرور الوقت خبيرا بكل الاثار الموجودة فى أزور، وكان يتصل بى عندما يجد شيئا يظن أنه يهمنى وكانت أزور مدينة معروفة فى القرن الثامن قبل الميلاد، بنى فيها الاشوريون مدينتهم بعد الفى سنة، وقد عثرت أنا شخصيا فى آخر حفرياتى على بعض الآثار التى يرجع تاريخها الى خمسة آلاف عام وأخبرنى آرييه هذا المساء أن بعض البلدوزرات ستعمل فى الصباح وقد تعثر على شيء جديد، وعندما صعدت على تل من الرمال معد للنقل شاهدت بعض الآثار تظهر من بين الرمال وعرفت بالفحص انها بعض أجزاء من الاوعية التى كانت تستخدم فى العصر البرونزى (٣١٥٠ - ٢٢٠٠ ق. م) وكانوا فى هذا العصر لا يستخدمون هذا النوع من الاوعية التى كانت تصنع باليد.

وقمت بالحفر بيدى بحثا عن الكهف فوجدته وتدليت بنصفى فى الحفرة التى حفرتها فوجدت نفسى فى كهف كان يقطنه أناس منذ أكثر من خمسة

آلاف عام، ولم أعثر على شىء وفجأة انهارت الرمال فوقى وأيقنت أن نهايتى حلت فلم أكن قادرا على التنفس أو الحركة، وكان آريبه خلفى ولم يصب فاستنجد بالناس، فأسرع شقيقان يملكان ورشة، واستطاعا اخراجى بعد ان حفرا حولى، وكنت قد شعرت بأن الموت يدنو منى، ولكننى عندما أحسست بالهواء الرطب ووجدت نفسى ممدا على الارض، شعرت بأننى قد بعثت من جديد.

ونقلت بسرعة الى مستشفى تل هاشمور، خارج تل ابيب، واعيا ولكنى لا استطيع الكلام، وبعد الفحص قرر الأطباء أننى قد أصبت فى عمودى الفقرى وانقطع أحد الاحبال الصوتية، وتم وضعى داخل قميص من الجبس وأتوا لى بطبيب أخصائى فى الحنجرة، وكان أول سؤال لى عندما شعرت بالتحسن هو متى أستطيع الخروج، ولم يكن ذلك مستطاعا قبل ٢٥ يوماً أى فى يوم ١٤ أبريل، وقد خرجت فعلا فى ذلك اليوم وتوجهت الى مكتبى، وتذكرت أثناء وجودى بالمستشفى ذلك الموقف المشابه، عندما فقدت عينى وظننت أننى لن أقاتل بعدها ولكنى فى هذه المرة قررت أن أعود الى عملى مباشرة بعد الخروج وكأن شيئا لم يحدث.

وظل جسمى لعدة شهور ملفوفا بالبلاستر لكى تعود عظام الظهر الى مكانها الصحيح، ولكنى كنت قادرا بمساعدة كرسى خاص، على الحركة والعمل، وتم تدريبى على الحديث مستعملا حبلا صوتيا واحداً لكى أعوض الحبل الذى انقطع، ومازلت حتى الان أشعر بالارهاق كلما تحدثت لفترة طويلة وكنت قد طلبت من رئيس الاركان ان يحل محلى، كما لو كنت غائبا، وان يتلقى التعليمات من رئيس الوزراء وقد أخبرت رئيس الوزراء بذلك عندما حضر لزيارتى.

وكان من بين الزوار عمد ووجهاء مدن الضفة الغربية، وقد تأثرت جدا بزيارة محافظ قليقلية الذى أحضر معه بعض البرتقال الطازج، وكانت

العلاقة بينى وبينه قد نمت منذ أن شاهدته فى المرة الاولى ووعدته بإعادة بناء المدينة، وشاركنا سويا فى هذا الامر ولم تعد علاقة عمدة تحت الاحتلال بوزير دفاع، بل أصبحت علاقة أصدقاء يشتركون فى عمل واحد هو رعاية الناس وكانت راحيل تأتى لزيارتى بعد إطفاء الأنوار وانصراف كل الزوار، وكنت أؤكد لها دائما أننى سأسترد لياقتى، غير أن هذا التأكيد كانت تنفيه الاربطة التى تلف وجهى والجبس حول جسمى.

وكان ابنى أودى (ايجود) أكثر الناس حرقة لانه صحبنى من المستشفى الى المنزل، وشعر بضعفى عندما نزلت من السيارة واستندت عليه كالكسيح أو المشلول، وعندما حضر بن جوريون لرؤيتى صدم هو الآخر، وخاصة ازاء اللون الازرق الذى يكسو جسدى، ولم أستطع أبدا ان أصرف ذهنى عن الالم والعذاب اللذين أحس بهما فى ظهرى.

وأنذرنى الطبيب بأننى ان لم اتوقف عن تعاطى الحبوب المهدئة فإننى سأدمنها وسألته متى تظن أننى يجب أن أتوقف عنها، أجاب: بأسرع ما يمكن، فجمعت كل ما لدى من مهدئات وسلمته له، وعندما شعرت بقدرتى على الحركة توجهت الى أزور لأبحث عن الآثار التى كنت أريدها وشاهدتنى امرأة فصاحت قائلة لصديقها انظر موشى ديان يبحث عن نفسه مرة أخرى تحت الارض.

واستمرت عمليات التخريب والاصطدامات عبر الحدود وتسببت فى جعل الحياة غير محتملة لسكان الوادى شرق نهر الاردن، وخاصة بعد ان دمرت حقولهم ومنازلهم وأخيرا اضطروا الى الرحيل وترك أرضهم، وهكذا أصبح العرب الابرياء ضحايا مباشرين للارهاب العربى، أما فى الضفة الغربية، فقد كان المزارعون اليهود يعملون فى حقولهم ومستعمراتهم، وكيفوا أمورهم مع حالة الحرب فبنوا المخابئ والطرق الداخلية وقاموا بالحراسة المشددة ووضعوا أنواراً كاشفة وأسواراً حول المستعمرات ولم يهجر السكان

قرية واحدة ولم يخلوا هتكارا واحدا من الارض.

وذات يوم أثناء زيارتى لبيت شيعان لمراجعة خطة الامن مع ممثلى المنطقة، وضعت المبادئ الاربعة الرئيسية تحكم هجومنا المضاد للمخربين الذين يتسللون من الاردن:

■ ان مخربى فتح لا يستطيعون الاحتماء بايقاف النار من ناحيتنا، فهذا جزء من مسئولية الاردن واذا استمروا فى عملياتهم فستشن الحرب عليهم.

■ تحركنا لن يأخذ شكل العقاب، بل سيأخذ حملة عسكرية كاملة بكل معانيها.

وخلال إطار العمل هذا - وكان ذلك هو الهدف الرئيسى من الاجتماع - فتتحول كل قرانا على الحدود الى وحدات مقاتلة تستطيع الدفاع عن نفسها، وتعتبر جزءا من نظام الامن، مع استمرارها فى العمل العادى.

وأثناء الحديث قال أحد أعضاء المستعمرة إنه لن يكون هناك محصول فى إحدى المناطق التى تتعرض للقصف المستمر، فقلت له ان العمل يجب أن يستمر وأن يكون هناك محصول فى كل المناطق.

وقلت له أيضا: إننى سوف أطلب متطوعين للحضور والاشتراك فى زراعة الارض وحمايتها، وتم ذلك بالفعل.

ثم قررت أن أنضم الى عملية كمين على الحدود مع كتيبة المظلات التى يقودها دان شامرون، وكانت هذه الكتيبة هى خليفة الكتيبة ٨٩ التى أنشأتها منذ عشرين عاما، ولبست خوذة وأمسكت بمدفع رشاش عوزى وقلت لهم إننى جئت لاشاهد عمليتهم وقدرات الرجال الجدد الذين انضموا الى الجيش بعد حرب الايام الستة، وبدأنا العملية ووصلنا الى طرف منطقة الكمين بعد أن قطعنا المسافة من المعسكر سيرا على الاقدام وانتشرنا فى مجموعات صغيرة، وانضممت أنا وماتى مساعدى، لمجموعة من أربعة رجال بقيادة

عريف، ورقدت فى حفرة، وكان مستوى نظرى على حافة الحفرة، وفى لحظات حل الظلام، وبعد ربع ساعة سمعنا أصوات أقدام تقترب منا وبعد دقائق ميزنا أشباح أربعة أشخاص، وعندما أصبحوا على مسافة ٥٠ ياردة فتحت مجموعتنا النيران، ثم انطلقوا الى الوادى الذى اختفوا فيه، فى ممر يصل نهر الاردن بجبال الضفة الغربية، وعثرنا على جثث ثلاثة شباب وهرب الباقون، ولم يحدث شيء يذكر بقية الليلة، وعند الفجر شكرت الرجال وعدت الى القدس.

وخلال عام ١٩٦٨ وبداية عام ١٩٦٩ استمر العمل التخريبى وكان علينا أن نقوى دفاعنا على الحدود بنقاط قوية، وخاصة عند الممرات التى يستخدمها المخربون فى عبور نهر الاردن الى الضفة الغربية، وعندما كانت تحدث عمليات تسلل من تلك الممرات، كانت المطاردة تبدأ فورا على الاقدام وبالهليكوبتر، دفعنا ثمنا غاليا من أجل تأمين سلامة البلاد، وتم اختيار مجموعة لقيادة عمليات الهجوم المضاد والمطاردة من بين أحسن ضباطنا الكولونيل أريك ريجيف كواحد من خيرة ضباط الجيش الاسرائيلى، وعندما زرت أرمتله ذكرتنى بالمناقشة التى دارت بينى وبينه بعد فتح القدس، كما رواها لها، اذ قال إنه يرجو الغاء قرارى الخاص بنزع علامات الحدود فى القدس لتوحيد الجزأين ولكننى قلت له (أيها الشاب ليس مهما ما قلته، ولكن المهم أن لديك الشجاعة لقوله).

وخلال العشرين سنة منذ إنشاء دولة اسرائيل، لم تتوقف الحرب فترة: حرب الاستقلال ـ عمليات الرد ـ حملة سيناء ـ حوادث الحدود ـ حرب الايام الستة ـ والآن الحملة ضد المخربين، حربا بعد حرب، ومعركة بعد معركة، ولكننا كنا دائما قادرين على الصمود من أجل تحقيق أهدافنا، بفضل رجال مثل ريجيف.

وانتهى الهجوم التخريبى الذى استمر ثلاثة أعوام ضد اسرائيل من

الحدود الاردنية، فبفضل الاعمال التى كانت تقوم بها اسرائيل ضدهم، وبفضل سلوك المخربين داخل الاردن اضطر الملك حسين لاتخاذ موقفه من المخربين، وفى فبراير (شباط) ١٩٧٠ أصدرت الحكومة الاردنية اجراءات لتقييد حركتهم داخل الاردن، ولكن القرار انتهى قبل أن يبدأ تنفيذه بضغط من مصر والعراق اللتين كانتا تؤيدان حرية الحركة لهم حتى يستطيعوا القيام بعمليات التخريب، وفى ٢٦ يوليو (تموز) قبل الملك حسين مشروع روجرز الخاص بالسلام، وحاول المخربون نسف هذا القرار بتكثيف عملياتهم داخل اسرائيل من الحدود الاردنية واضعين فى حسابهم ما سيترتب عليها من أضرار للاردن، وأصبحت حكومة الملك حسين فى وضع تحتم فيه عليها أن تحدد الجبهة التى تحكم البلاد.

وبدا الصدام وشيكاً بين الملك حسين وبين ياسر عرفات وجورج حبش، زعيمى الارهابيين، وجاء الانفجار فى سبتمبر (أيلول).

■ ■ ■

٢٥ ـ سبتمبر (أيلول الأسود)

فى اوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ حاول الارهابيون اغتيال الملك حسين، وتبع ذلك صدام من الجيش الاردنى، وفى ٦ سبتمبر (ايلول) قاموا بخطف ٤ طائرات مدنية من اوربا، وفشلت محاولة لخطف طائرة اسرائيلية، حيث استطاع طاقمها التغلب على الارهابيين بجرح أحد المختطفين والقبض على زميلته ليلى خالد وتسليمها للبوليس الانجليزى ونجح الارهابيون فى الاستيلاء على الطائرات الثلاث الأخرى وتتبع شركة بان امريكان والخطوط الجوية العالمية وسويس آير... وأجبرت طائرة البان امريكان الجامبو على الهبوط فى مطار القاهرة حيث نسفها الارهابيون بعد اخلائها من الركاب، واجبرت الطائرتان الاخريان على الهبوط فى الاردن فى منطقة قريبة من الزرقا واحتفظ بالركاب كرهائن داخل الطائرات.

وأعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مسئوليتها عن الحادث ثم أعلنت بعد ذلك عن عدة طلبات من حكومات سويسرا وألمانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة واسرائيل، وذلك حتى يمكن اطلاق سراح الركاب وهددت بأنه ما لم تجب تلك الطلبات، أو اذا حاول الجيش الاردنى التدخل للسيطرة على الطائرات، فإنهم سينسفونها بركابها وحتى يؤكدوا تهديدهم وضعوا شحنات الديناميت حول الطائرتين، وطلب الارهابيون من سويسرا الافراج عن ثلاثة من زملائهم حكم عليهم بالسجن ١٢ عاما بعد هجومهم على إحدى طائرات العال فى مطار زيورخ فى فبراير (شباط) ١٩٦٩، وطلبوا من ألمانيا الغربية الافراج عن ليلى خالد، ومن الولايات المتحدة الافراج عن سرحان بشارة سرحان المتهم بقتل روبرت كيندى، وطلبوا من اسرائيل الافراج

عن قائمة طويلة من المسجونين، وفى اليوم الثالث أضيفت طائرة جديدة الى الطائرتين المحتجزتين فى الزرقا، وكانت طائرة الخطوط الجوية البريطانية التى خطفت أثناء رحلتها من البحرين الى لندن، وقال متحدث باسم الجبهة الشعبية ان هذا العمل تم من أجل الاسراع بالافراج عن ليلى خالد.

وكانت حكومات سويسرا وألمانيا الغربية وبريطانيا قد قررت الاستجابة لمطالب الارهابيين، غير انهم بعد مقابلة روجرز وزير الخارجية الامريكى قرروا عدم القيام بتصرف منفرد وأعلنوا أنهم لن يستجيبوا لمطالب الارهابيين قبل الافراج عن ركاب الطائرات بمن فيهم الاسرائليون واليهود.

واجتمع مجلس الامن فى جلسة عاجلة وطالب الارهابيين بالاجماع بالافراج عن الركاب وأطقم الطائرات، وحاول قائد الجيش الاردنى أقناع الارهابيين بالافراج عن النساء والاطفال والنساء اليهود وحاولت حكومة العراق ايضا اقناعهم بالافراج عن الركاب والطائرات دون جدوى وبعد ستة أيام طلب الارهابيون من الركاب مغادرة الطائرات ثم نسفوها يوم ١٢ سبتمبر (أيلول) فى الساعة الثالثة بعد الظهر، وسمح لـ ٢٨٠ راكبا وأطقم الطائرات بالذهاب الى عمان، ولكن الارهابيين احتفظوا بأربعين راكبا (كأسرى حرب) ونقلوهم الى أحد معسكرات اللاجئين، وأفرج عنهم بعد ذلك عندما احتلت إحدى وحدات الجيش الاردنى المعسكر.

بإحضار الطائرات المختطفة الى الاردن، وتحدى السلطات الاردنية، وصلت المسألة بين الارهابيين والجيش الاردنى الى صدام مباشر، وانفجر القتال فى منطقة عمان، ورغم الهدنة المتكررة التى أعلنها الطرفان، فقد استمرت المعارك وقامت بعض وحدات الجيش بالهجوم على قواعد الارهابيين على الحدود السورية، رغم ان ذلك كان ضد أوامر رئيس الاركان الاردنى، وتزايدت الصدامات لتصبح معارك عنيفة تغطى كل انحاء المملكة، وشكا الارهابيون من أن الدبابات الاردنية هاجمت قواعدهم فى شمال وادى

الاردن وطالب زعماؤهم الملك حسين بتغيير الوزراة ورئيس الوزراء زيد الرفاعى الذى كان مشهورا بمعاداته للفلسطينيين.

وفى محاولة من الملك حسين لانقاذ عرشه ومملكته، أقال الحكومة المدنية وشكل وزارة طوارئ عسكرية من اثنى عشر جنرالا برئاسة محمد داود الذى كان أسيرا فى حرب ٦٧ ثم أفرج عنه... تم انفجرت الحرب الاهلية، وفى عمان وضواحيها قتل الارهابيون الذين لم يستطيعوا الهرب وتم القبض على الآخرين وأرسلت الحكومات العربية رجاء عاجلا للملك حسين لايقاف هذه العمليات ضد الارهابيين ولكنه تمسك بموقفه بحزم، ودفع السوريون ببعض قواتهم لمساعدة الارهابيين، عبرت الحدود فى ١٨ سبتمبر (أيلول) واحتلت نقطة للبوليس، وفى اليوم التالى دخلت وحدات اضافية من الدبابات السورية، ومعها أيضا وحدات عراقية وبدأت تقدمها نحو العاصمة عمان، طلب الملك حسين المساعدة من الولايات المتحدة، فوافقت واشنطن ووضعت الفرقة الجوية الثانية والثمانين على أهبة الاستعداد وأرسلت فى الوقت نفسه انذاراً الى سوريا، وتحركت وحدة اسرائيلية مدرعة نحو الحدود الشمالية المتاخمة لمنطقة المعركة، واكتشف السوريون هذا التحرك، وكان ذلك مقصودا.

وهاجم الجيش الاردنى قوات الغزو السورى وأحدث بها خسائر فادحة، مما أضطرها الى الانسحاب الى سوريا، وسافر رئيس الاركان المصرى الى الاردن، وعرض على حسين وعرفات طلبا من حكام مصر وليبيا والسودان لايقاف اطلاق النار، وعندما بدا واضحا لحسين انه أصبح صاحب اليد العليا، قبل دعوة عبدالناصر وطار الى القاهرة يوم ٢٧ سبتمبر، وقابل ياسر عرفات وتوصل معه الى اتفاق، على الأقل على الورق وفى اليوم التالى ٢٨ سبتمبر (أيلول) توفى عبد الناصر على أثر أزمة قلبية.

ولم تتوقف الصدامات بين الارهابيين والجيش الاردنى، ففى بداية يناير (كانون الثانى) ١٩٧١، اقتحمت بعض وحدات الجيش مخيم اللاجئين

الفلسطينيين بالقرب من عمان وطردت الارهابيين وطاردتهم، وفى نفس الوقت طهرت وحدات أخرى قواعد الارهابيين فى جرش والسلط، وفى ٦ إبريل (نيسان) وجه الملك حسين تحذيرا الى قادة الارهابيين مطالبا إياهم فيه بتسليم أسلحتهم، وبعد يومين بدأ الجيش فى مطاردة الارهابيين والبحث عنهم حول جرش وعجلون مدعما بوحدات الدبابات والمدفعية، وبعد معركة دامت ثلاثة أيام لم يبق إرهابى واحد فى الاردن، وهرب أولئك الذين لم يقتلوا ولم يؤسروا، ومنهم مجموعة تقدر بحوالى مائة شخص عبروا الى اسرائيل وسلموا انفسهم بأسلحتهم.

وهكذا انتهى الصراع بين الملك حسين والارهابيين، وانتهى نشاطهم فى الاردن، وتوقف بالنسبة لنا، ولكن الارهابيين استمروا يعدون العدة لاغتيال رئيس الوزراء الجديد وصفى التل، الذى اغتيل فى القاهرة بمساعدة المصريين، وكان وصفى التل قد وصل الى القاهرة لحضور اجتماعات مجلس الدفاع العربى فى ٢٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧١، وقتل فى اليوم التالى عند مدخل فندق شيراتون الذى يقيم فيه وقبض على القتلة، الذين أفرج عنهم بعد قليل.

وبتصفية منظمات الارهابيين داخل الاردن، بدأت الحياة تعود الى طبيعتها، وعاد السكان الهاربون من وادى الاردن الى أرضهم ثانية، وساعدتهم الحكومة الاردنية فى اعادة بناء مساكنهم، كما أحضرت لهم معدات لرفع المياه من نهر اليرموك، وكان لخروج المخربين من الاردن أثره الضخم على المزارعين عندنا، الذين استعادوا حياتهم الطبيعية فى الحقول وخاصة فى وادى الاردن وبيت شيعان وتحسنت العلاقات بين اسرائيل والاردن، وكان ممكنا أن تضيع كل انجازات التعايش التى تحققت منذ حرب الايام الستة لو لم تقع أحداث سبتمبر (أيلول) الاسود.

وأستمر النشاط الارهابى بقدر طفيف، فبدأت منظمات الارهابيين

العمل من مخيمات اللاجئيين فى لبنان التى أصبحت تعرف باسم أرض فتح، ولكنهم كانوا يلقون عونا ضئيلا للغاية من العرب المقيمين فى الاراضى المحتلة... وكان نظام العقاب والثواب قد وصل الى نتائج جيدة، فمن يمتنع عن التعاون مع الارهابيين يحق له التمتع بالميزات المتاحة والتى لم يسبق أن تمتعوا بها تحت أى حكم سابق، أما القلة التى كانت تشترك مع الارهابيين فى عملياتهم، فكانوا يقتلون أو يقبض عليهم.

وكانت الاردن هى الدولة الوحيدة، من بين الدول التى خاضت ضدنا حرب الايام الستة، التى ترى انه يمكن حل المشاكل بينها وبين اسرائيل بطرق هادئة فيما يتعلق بالامور اليومية العادية، ولكن ليس فيما يتعلق بقضية السلام الدائم، فقد أصرت الاردن على عودة كل الاراضى التى فقدتها خلال حرب الايام الستة، كما كانت على استعداد لعقد اتفاقية خاصة بالقدس واعتبارها مدينة مفتوحة يسمح فيها بحرية التنقل مع عودة الجزء الشرقى اليها.

ووافقت الاردن على نزع سلاح الضفة الغربية، مع عدم احداث تغييرات رئيسية فى الحدود، أما بالنسبة للمستعمرات التى أنشئت بالضفة الغربية ووادى الاردن بعد حرب الايام الستة فقد طلبت الاردن اخلاءها، وقد كانت هذه الاتصالات مفيدة لكل من اسرائيل والاردن، لذا عرفنا مواقف كل منهما، وأدى هذا الى تجنب الكثير من سوء التفاهم الذى قد يظهر فى المواقف الحساسة مثلما حدث فى حرب يوم كيبور الاخيرة، اذ اننا لم نفاجأ عندما أرسل الاردنيون بعض وحداتهم لمساعدة السوريين.

والرجل الذى يقود الاردن الآن هو الملك حسين مثل جده عبدالله، لديه الكثير من الشجاعة فهو يستطيع أن يتحرك وسط الجماهير، أو أن يزور وحدات الجيش بدون حراسة وبدون خوف على حياته، ولا شك انه يعرف تأثيره المحدود فى العالم العربى، وان ما يريد أن يتبعه من اتجاهات قد يكون غير مقبول لدى الرأى فى العالم العربى، غير أنه عندما يتحدث عن

تسوية المشكلة يتجاهل أنه أنكر حق اليهود فى العبادة عند حائط المبكى لمدة عشرين عاما، وانه انضم سنة ١٩٦٧ الى عبد الناصر فى حربه ضدنا رغم انه لم يطلب منه ذلك، ورغم ان رئيس الوزراء أشكول حذره من ذلك، فهو لا يستطيع ان يتجاهل ان بعض وحدات جيشه اشتركت مع المخربين فى عملياتهم ضد اسرائيل.

ولكن حسين - رغم هذه الحقائق - مازال يعتقد أن إسرائيل يمكن أن تعود الى حدود ما قبل ١٩٦٧، وان تفتح فصلا جديدا فى علاقاتها مع الاردن، وقد أعلن أن المواقف التى اتخذها ضد إسرائيل فى السابق هى (أخطاء) لن تتكرر، وأن العالم العربى سيسلك سلوكا مختلفا مع اسرائيل يتميز بالمحبة والوئام اذا عادت اسرائيل لحدودها القديمة، وان المنطقة سيسودها السلام والاستقرار.

ولكنه أنكر حقوق اسرائيل، وادعى انها فشلت فى استيعاب حقيقة أن عصرا جديدا قد يظهر فى الشرق الأوسط، وأنها ستفقد فرصتها التاريخية برفضها الانسحاب الى حدود ١٩٤٨، ولا أعرف ما اذا كان الوزراء الذين يحيطون به كرئيس وزرائه زيد الرفاعى ينظرون للامور بنفس المنظار الوردى، ولعل حسين يعتقد اعتقادا مخلصا فيما أعلنه.

■ ■ ■

٢٦ـ وزير الدفاع أثناء العمل

لم تكن هناك حجرة خاصة لوزير الدفاع فى الوزارة، لأن سلفى أشكول كان يمارس عمله كوزير للدفاع من مكتبه فى رئاسة الوزراء، وأخذت مكتب موشى كاشتى، مدير عام الوزارة، وكانت غرفة متسعة فقمت بتقسيمها الى حجرتين احداهما لى والاخرى للاجتماعات، وغيرت الديكور فاستبدلت البار بمكتبة، وأصبحت أقدم لزوارى الشاى والفاكهة، واستبدلت الصور المعلقة فوق مكتبى بصور لأربعة أماكن تمثل تاريخ اسرائيل القديم منها صورة خاصة للقدس التقطت من الجو.

ومع أن العمل فى وزارة الدفاع كان بعيدا عن الروتين، فقد كانت هناك مواعيد محددة، مثل اجتماع مجلس الوزراء صباح كل أحد واجتماع رئاسة الاركان يوم الاثنين، وهناك جزء من يوم الخميس للنقاش فى حزب العمل، وفى يوم الجمعة أقابل رئيس الاركان وكبار الضباط فى الوزارة، أما بقية الأيام فأقوم فيها بالتفتيش على وحدات الجيش، وادارة الاراضى المحتلة حيث أتحدث مع المواطنين العرب، علاوة على حضورى جلسات الكنيست للاجابة على الاسئلة الخاصة بأمور الدفاع، ومع مقابلات رئيس الوزراء فى حالة الضرورة، وكنت أذهب الى مكتبى فى الساعة ٧,٣٠ صباحا وأغادره فى وقت متأخر فى المساء، ولم آخذ إجازة قط، وقد عوَّدت نفسى على النوم (أو على الأقل الاغفاء فى سيارة أو هليكوبتر فى خلال رحلاتى المتصلة، وكنت دائما احتفظ ببطانة ووسادة).

وكان الباب بين مكتبى وغرفة السكرتارية مفتوحا دائما، وكان فى استطاعة زفى سور مساعدى، أو رئيس أركانى، أو مدير عام الوزارة،

الدخول مباشرة الى حجرتى لإيضاح نقطة خاصة بقرار أو إحضار معلومات سريعة وعاجلة، وأعترف أننى قليل الصبر، أهتم بالاحاديث القصيرة، وفى جولاتى للوحدات لم أكن أقدر على إجراء حوار مرح مع الجنود، وانما كنت أدير حوارا عبر ساعات معهم عن أحوالهم وأرائهم وأفكارهم، وكان هذا السلوك يشجع الرجال دائمة على الحرية والصراحة فى الحديث، وكانت زيارتى لوحدات الجيش بدون احتفالات رسمية وبدون تحية من حرس الشرف وعندما أصدرت أوامرى بإلغاء هذا الاسلوب، قيل لى إن ذلك خطر على النظام فى الجيش ولا بد من تحية حرس الشرف للقادة الكبار فى الجيش، وعلى أى حال فقد طبقت هذا الأمر على نفسى فقط، ورغم أننى لم أكن حريصا على أن تكون ملابسى مكوية، فإننى كنت أهتم دائما بالذقن حليقة والحذاء لامعا، وقد تعلمت تلميع الحذاء أثناء عملى فى الشرطة الإنجليزية منذ ٤٠ عاما، واعتقد أن اهتمامى بتلميع الحذاء يعود الى رغبتى فى أن أخلو لنفسى عدة دقائق.. وهو أمر صعب فى مركزى.

وتنقسم وزارة الدفاع الى ثلاثة أفرع، خدمات الجيش، والمعدات، وادارة الاراضى المختلفة، ورئيس الاركان هو القمة فى هذا التقسيم، وتعينه الحكومة، بناء على توصية وزير الدفاع، ولم يحدث أى خلاف من قبل لأن وزارة الدفاع كانت دائما مقترنة برئاسة الوزارة، وعندما أصبحت وزيرا للدفاع بات واضحا لى اننى لن استطيع اقتراح اسم شخص لا يقبله رئيس الوزراء ومعظم الوزراء، ولذا فإنه عندما انتهت مدة حاييم بارليف، اضطررت لقبول قرار رئيس الوزراء بالرغم من أننى كنت قد أقترحت اسما آخر وبالنسبة لقطاع امدادات الجيش والتنظيم فقد كنت أصدر القرارات وأترك تنفيذها لسور، الذى أنجز أعماله بكفاءة بعد أن منحته كل السلطات اللازمة فيما عدا المسئولية البرلمانية.

وخلال فترة السنوات الست من ١٩٦٧ الى ١٩٧٣ قررنا تغيير نظام

تسليح الجيش بعد الحظر الفعلى على توريد السلاح الينا من الدول الغربية كالطائرات ومختلف الاسلحة، وقد بذلنا جهوداً ضخمة لانشاء صناعة الاسلحة، وحتى عام ١٩٧٣ كانت كل الاسلحة القيمة الجديدة قد وضعت فى خدمة القتال، وشمل التصنيع المحلى للسلاح الطائرة الهجومية (كافير)، والمدافع المتوسطة، والبنادق بعيدة المدى، وصواريخ شافرير جو/ جو، وصواريخ جو/ أرض، وصواريخ الزوارق رشيف، وصواريخ جبرييلى بحر/ بحر، بالإضافة الى أنماط كثيرة من أجهزة التحكم والسيطرة، ولم أكن أعتقد أن إسرائيل تستطيع الاستغناء عن استيراد السلاح، لكنها على الاقل قادرة على انتاج بعض الاسلحة وتوفير احتياجاتها منها، وكانت الاحتياجات لنفقات التسليح وتصنيعه تتطلب ميزانية ضخمة للدفاع، وارتفعت الميزانية تدريجيا الى أن وصلت ضعف ما كانت عليه ١٩٦٧، وقد زيدت النسبة المخصصة فى الميزانية للطيران والمدرعات على حساب المشاة، ففى ميزانية ٧٣ ـ ٧٤، التى ووفق عليها قبل حرب يوم كيبور، كانت النسبة المخصصة للطيران ٥٠٪ والمدرعات ٣٠٪، وتم انفاق الكثير فى بناء الطرق والاستحكامات الامامية فى الجولان وسيناء ووادى الاردن.

واذا كان خط بارليف وخط الدفاع الثانى قد فشلا فى الصمود فى حرب يوم كيبور، فإن ذلك يرجع الى اسلوب الرجال وليس الى قوة الخط نفسه، ولعل الخطأ الذى حدث فى هذه الحرب يرجع الى النظام الذى كان يجب أن يحكم تلك الاستحكامات مع قواعدنا المتقدمة فى سيناء، وان نبقى متمسكين بهذه التحصينات ما دامت قادرة على اداء وظيفتها، فإذا تغيرت الاحوال أخليناها.

ولم يكن عمل وزارة الدفاع فقط هو الذى يستغرق وقتى، بل كان هناك أيضا العمل السياسى، ففى ١٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٧ قرر حزب رافى أن نتحالف وندخل فى وحدة مع حزب الماباى وحزب احدوث هاعفودا،

لنشكل حزب العمل، وقد ووفق على القرار بالأغلبية، ورغم معارضة بن جوريون وهجومه على نظام الماباى الفاسد، وكنت أعتقد أنه حتى لو بقى حزب رافى مستقلا فإن بن جوريون لابد ان يعتزل العمل السياسى، وبعد ستة أسابيع أنضم تسعة من الأعضاء العشرة فى حزب رافى الى حزب العمل وبقى بن جوريون - العضو العاشر - وحيدا فى الكنيست.

وكان بن جوريون صاحب تأثير ضخم بسبب قوة شخصيته، وكان الناس دائما يشعرون بأن القرارات التى يتخذها نابعة منهم، ومن هنا كانت قوة بن جوريون، اذ أن ما يفعله أو يقرره كان يلقى قبول الشعب فورا لأنهم كانوا يثقون فيه.

وتذكرت منذ سنوات تلك الخطبة التى عدد فيها الاشخاص الستة الذين يعتبرهم أكبر من ساهم فى تنفيذ الفكرة الصهيونية ومبادئها، وكان الاعتقاد أنه سيذكر هرتزل ووايزمان، ولكنه بدلا من ذلك ذكر قائمة من ثلاثة من اليهود الفرنسيين وثلاثة من اليهود الاسرائيليين، وكان الثلاثة الفرنسيون هم أدولف كريمبيه الذى ألغى الرقيق فى المستعمرات الفرنسية وخلص يهود الجزائر من عبوديتهم وأنقذ أيضا يهود دمشق من عمليات العنف التى كانت تمارس ضدهم خلال الفترة الدموية فى دمشق عام ١٨٤٠ والثانى هو شارلز نيتر الذى أنشأ أول مدرسة زراعية يهودية فى فلسطين عام ١٨٧٠ والثالث أدموند دى روتشيلد الذى رصد الاستثمارات لانشاء أول مستعمرة زراعية فى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واما الثلاثة الآخرون من يهود فلسطين فهم جوشوا ستامبر وهو من أصل مجرى، ودافيد مائير جوتمان وموسى سولومون من مواليد القدس، وقد أنشأوا فى عام ١٨٧٨ أول قرية يهودية فى فلسطين وهى بتاح تيكفا.

ولا شك ان بن جوريون كان شبيها بهؤلاء الستة، فهو ممن قرنوا الفكرة بالعمل على تحقيقها، ولا أظن أن هرتزل أو وايزمان يتساويان مع بن جوريون،

فقد كان هو قادرا على الربط بين الرؤية وبين وضعها موضع التنفيذ.

وكان بن جوريون يصر دائما على أن يتولى مسئولية الدفاع، وكان يردد دائما أننا نستطيع أن نهزم العرب مائة مرة دون أن نحل مشاكلنا، ولكنهم لو هزمونا مرة واحدة لكان فى ذلك نهايتنا، وكانت فكرتا الامن والدفاع تسيطران على كل تفكيره، ولذا احتفظ دائما بوزارة الدفاع ايمانا منه بأهمية اصدار الامر النهائى بشأنها، وكان يمقت الخطب والكلمات، مؤمنا بأن الله فقط هو الذى يخلق بكلمة منه، أما الافراد فيخلقون بأفعالهم.

وقابلت بن جوريون لآخر مرة فى فندق الملك داوود بالقدس، ودخل معى فى مناقشة حول امور الدفاع وقال لى إن ما يهمنا الآن فى مجال الدفاع أن نحصل على أحسن المهاجرين نوعية لا عددا، وخاصة المهاجرين من الدول الغربية. ورغم بعده عن الميدان، فقد كان حديثه حول أهم أمور الدفاع ـ بالرجال ـ لا بالسلاح.. كان يتحدث بطريقة بن جوريون التى تتميز ببعد النظر.

وفى يوم ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٦٩ مات ليفى أشكول، ورشح حزب العمل جولدا مائير خلفا له، ووافق الكنيست. وبناء على طلبها، بقيت وزيرا للدفاع، وقد سبق لى أن عملت مع جولدا مائير عندما كنت وزيراً للزراعة وهى وزيرة للخارجية، اذ كنا نتعاون فى مسألة الخبراء الذين يذهبون لافريقيا وآسيا وبرامج المعونة الخارجية وقد امتنعت عن التصويت عند ترشيحها، لاننى لم اكن اعتقد انها ستضيف افاقا جديدة لزعامة الحزب، غير ان ذلك لم يؤثر فى علاقاتنا. وكنا نهتم بالحاضر والمستقبل، وكانت مناقشاتنا تنتهى دائما بقرار واضح. انها لم تكن محاطة بسكرتارية صحفية تقوم لها بدعاية صحفية، وكان لها اصدقاؤها المقربون، الذين لم اكن بينهم. ولكن المهم انه لم تكن بيننا اية حواجز عندما تصل الامور الى ميدان اختصاصى وهو الدفاع.

■ ■ ■

٢٧ـ حرب الاستنزاف

بعد انتهاء حرب الأيام الستة بستة أشهر، بدا واضحا أن السلام بعيد المنال، وبالرغم من أن الولايات المتحدة أبلغت الرئيس عبدالناصر أنها ستعمل على انسحاب اسرائيل الى الحدود الدولية فى إطار معاهدة سلام مع مصر وسوريا، فقد ظل متمسكا بموقفه المتشدد مع اسرائيل.

وبمجرد أن أفاق من هزيمته العسكرية بدأ فى إعادة بناء القوات المسلحة وفى توحيد العرب من أجل نضال سياسى ضد إسرائيل.

وفى ٢٩ أغسطس (آب) ١٩٦٧ عقد مؤتمر للقمة فى الخرطوم، حضره قادة إحدى عشرة دولة عربية هى مصر والعراق والاردن ولبنان والسعودية والكويت وليبيا والسودان وتونس والمغرب والجزائر، ولم تحضر سوريا، ومثل ياسر عرفات منظمة التحرير الفلسطينية.

وبناء على اقتراح الرئيس المصرى، أصدر المؤتمر النقاط الاربع الرئيسية التى تبنى عليها الدول العربية سياستها وهى لا سلام مع اسرائيل، ولا اعتراف بها، ولا مفاوضات معها، ولا تفريط فى حقوق الشعب الفلسطينى.

وكذلك قررت دول البترول رصد مساعدات مالية لمصر تعويضا عن إغلاق قناة السويس، فوعدت السعودية بـ ١٢٠ مليون دولار سنويا، والكويت بـ ١٣٢ مليون دولار، وليبيا بـ ٧٢ مليون دولار، وقد زادت ايضا المساعدات العسكرية التى يقدمها الاتحاد السوفيتى من معدات وخبراء لاعادة بناء الجيشين المصرى والسورى.

وفى يونيو (حزيران) ١٩٦٧، وبعد انتهاء حرب الايام الستة بعدة أيام،

وصلت الى مصر بعثة عسكرية على مستوى عال تضم ٩١ من كبار الضباط برئاسة المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان الحرب، للتحرى عما حدث، وفى النهاية أبلغ زخاروف عبد الناصر أنه لو كل دبابة من الدبابات المتمركزة فى سيناء أطلقت عشر دانات فقط، لكسب العرب الحرب، وأضاف أن الروس (سيعلمون المصريين كيف يقاتلون).

وبعد أسبوع من انتهاء الحرب بدأ الروس فى ارسال امدادات الى مصر، بحرا وجوا، وفى خلال ١٨ شهرا لم يكتف الروس بتعويض مصر عما فقدته فى الحرب بل جعلوا الجيش المصرى أقوى مما كان عليه عشية الحرب، وقام الاتحاد السوفيتى بنفس العمل مع سوريا، وفى أغسطس (آب) ١٩٦٧ دعا وزير الدفاع السوفيتى وزير الدفاع السورى الجنرال حافظ الاسد لزيارة موسكو، وأبلغ السوفييت الاسد بأنهم لن يزودا سوريا بالأسلحة الا اذا كانت الوحدات السورية تحت سيطرة الخبراء السوفييت، واجاب الاسد أن سوريا ستنفذ ذلك، وطار آلاف الخبراء والمستشارين السوفييت الى سوريا لتدريب وإدارة الجيش السورى، تماما كما يفعل زملاؤهم فى مصر.

وفى ٢١ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٧، أى بعد أربعة أشهر من انتهاء حرب الايام الستة، وقع أول حادث خطير اذ أصاب صاروخ روسى أطلقه زورق طوربيد من طراز كومار السفينة الاسرائيلية ايلات على مسافة ١٣,٥ ميل من بورسعيد خارج المياه الاقليمية المصرية.

وقد انطلق صاروخان أصاب أولهما ماكينات السفينة وأوقفها، وتسبب الثانى فى غرقها، وكانت خسائرنا ٤٧ قتيلا ورددنا على الفور بقصف مصفاة البترول على ساحل مدينة السويس وأشعلنا الحرائق الضخمة فى المستودعات، ورد علينا المصريون وتبادلنا نيران المدفعية على طول الجبهة، وتم إخلاء مدن السويس والاسماعلية والقنطرة من السكان.

وطرت الى منطقة القناة وكانت النيران ما زالت مشتعلة وشاهدتها من

نقطة فى خطوطنا الامامية، وبينما كنت هناك، وصلت أنباء بأن المصريين جددوا القصف فى قطاع آخر، وكان معى قائد الجبهة الجنوبية فطلبت منه أن يبقى الاشتباكات محلية، وبعد تلك الاشتباكات ظلت الجبهة شبه هادئة لمدة عام، وخلال هذه الفترة قام المصريون تحت إشراف الخبراء السوفييت بتنظيم أنفسهم، وأقاموا عدة نقاط متقدمة حصينة فى الضفة الغربية من القناة، وفى أبريل (نيسان) ١٩٦٧ قال عبد الناصر لشعبه إننا (وصلنا الآن الى مرحلة الصمود) وبعد خمسة أشهر أعلن وزير الدفاع المصرى أن مرحلة الصمود قد انتهت، وأن الجيش المصرى بدأ مرحلة أخرى هى (الردع النشيط)، أخذت شكل القصف المدفعى وإطلاق نيران الاسلحة الخفيفة على الجبهة الاسرائيلية الامامية، ووقعت لدينا بعض الخسائر، ولكن المصريين لم يعلنوا عن شن هجوم شامل لاستعادة الاراضى التى احتللناها.

وازدادت الحوادث عنفا فى سبتمبر (أيلول) عندما فتح المصريون نيرانهم فى القطاع الشمالى على قواتنا وقتلوا عشرة من رجالنا وأصابوا ١٨، وبعد أسبوعين قام المصريون بضرب كل النقاط المتقدمة بالمدفعية على طول الجبهة لمدة تسع ساعات متصلة، وكانت خسائرنا كبيرة اذ قتل ١٥ و جرح ٣٤ وتحت ستار الظلام أرسل المصريون قوات الكوماندوز الذين حاولوا دخول أحد مواقعنا القوية، واشتبكوا مع إحدى دورياتنا ثم انسحبوا بعد أن استمر القتال الى ما قبل الفجر بقليل، وطرت فى اليوم التالى الى الجنوب فى منطقة الاستحكامات (الكوبرا) حيث سقطت معظم دانات المصريين، وكانت المنطقة تبدو وكأن إعصاراً مر بها، وسقطت دانة ١٦٠ مم على سطح أحد الاستحكامات وانفجرت بداخله فأصابت الجنود العشرة الذين كانوا بالداخل، ودمرت كل المنشآت التى على سطح الارض ولكن بدون خسائر.

أما الاشتباكات بين دوريتنا والخمسة عشر فردا من الكوماندوز المصريين، فقد وقعت على مسافة ميل ونصف جنوب هذه الاستحكامات،

وقد دمرت سيارة نصف مجنزرة في هذا الاشتباك، ونزلت من سيارة القيادة وتتبعت على قدمى الممر الذى سلكته قوة الكوماندوز وشاهدت على الطريق جنديا مصريا مات من أثر جروحه، وأقتربت الى حافة القناة زحفا، ونظرت الى الجانب الآخر فوجدته هادئا ولم يحاول أحد أن يطلق علينا النار، وفى عودتنا شاهدنا دبابتين إسرائيليتين محروقتين بعد أن اصطدمتا ببعضهما وكنت قد شاهدت بالمنظار المكبر مدينة السويس وقد دمر الصف الامامى من المنازل.

وكانت مشكلتى العاجلة الآن هى تقوية مواقع خطوطنا الامامية واصلاح الطرق، وخاصة طريق متلا، وهذا يعنى أننى أحتاج وبسرعة الى خمسة ملايين دولار، ولم أكن قد علقت على خطة قدمت لى تقضى بتلغيم خط القناة كما حدث فى القطاع الاردنى لكننى كنت مقتنعا بأن سياستى لابد وأن تجعل العرب يشعرون بأن اتفاقية سلام معنا، أو على الأقل ترتيبات لوقف إطلاق النار، هى أجدى لهم من الاستمرار فى الحرب التى قد تكلفهم الكثير، وإزاء هذا الموقف قررنا أن نقوم بضربات مضادة، وقام طيراننا بنسف عدة جسور على النيل، كما قامت فرقة مظلات بتدمير محطة كهرباء نجع حمادى، وكانت خطتنا مفاجئة للمصريين والسوفييت الذين اكتشفوا ضعف حماية العمق المصرى، وبدأت مشاورات عاجلة فى القاهرة تقرر بعدها تنظيم حراسات مدنية وعسكرية على الاهداف المماثلة على النيل.

وخلال الاربعة شهور التالية، كانت الجبهة على القناة هادئة، وتم تنظيم الجيش وتقوية الجبهة الامامية، وكان رئيس الاركان هو حاييم بارليف الذى عين فى ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٧ خلفاً لاسحاق رابين الذى أصبح سفيرا لاسرائيل فى واشنطن، ودارت مشاورات ومناقشات فى رئاسة الاركان حول أمرين: هل نعيد خطنا الامامى الى الوراء ليكون بعيدا عن مرمى المدفعية، ونكتفى بدوريات مستمرة على قناة السويس للسيطرة عليها، أم نقيم خط

استحكامات قوياً من قلاع صغيرة تحكم الشاطئ، ويكون بين كل موقع والاخر وحدات متنقلة من الدبابات تليها فى العمق وحدات دبابات تتدخل بسرعة من الخلف لنجدة ومساعدة أى موقع يتعرض للهجوم، وكان الأمر الاخير هو اقتراح بارليف الذى تبنيناه وتمت الموافقة عليه.

وقد تم بناء خط قوى على طول القناة يضم قلاعا صغيرة مزودة بدبابات خلف السور الحجرى الممتد حول النقاط، وقام المهندسون بإنشاء طرق تربط هذه النقاط على طول الخط، وأقيم ساتر ترابى ضخم على الماء لتغطية هذه الاستحكامات حتى لا يستطيع المصريون رؤية أى شىء داخلها وخصص لكل نقطة ١٥ رجلا. عملهم الرئيسى المراقبة والعمل كعيون وآذان فى القطاع، ليستدعوا عند الحاجة المدفعية والدبابات والطيران.

وقبل أن ينتهى بناء هذا الخط بقليل استأنف المصريون «حرب الاستنزاف». وبينما كنا نحن نعمل تحت ستار الظلام. استمر القتال والقصف طوال الليل مرة بعد أخرى. وفى فترة أربعة أشهر تكبدنا ٢٩ قتيلا و١٢٠ جريحا. وحصلت على موافقة اللجنة الوزارية للدفاع على اصدار أوامرى للطيران بمهاجمة النقاط الامامية ومواقع المدفعية وبطاريات صواريخ سام ٢ فى القطاع الشمالى من القناة. وبعد أربعة أيام هاجم طيراننا على مدى خمس ساعات وقذف كل الاهداف العسكرية من القنطرة حتى بورسعيد. ودارت معركة جوية اسقطت فيها خمس طائرات للعدو وسقطت طائرتان من جانبنا. وفى نهاية يوليو (تموز) دارت معركة جوية أخرى أسقطت خلالها ١٢ طائرة مصرية، تم على أثرها فصل قائد الطيران المصرى.

وبعد ذلك بوقت قصير حدث نفس الشىء مع رئيس الاركان المصرى وقائد البحرية، بعد أن قامت قواتنا بعبور خليج السويس وتدمير منطقة مراقبة ومعسكر ومحطة رادار وبعض السيارات المدرعة على الطريق. ولم يعلم عبدالناصر بالعملية إلا بعد حدوثها، وبعد عودة قواتنا الى مواقعها.

فطلب رئيس الأركان تليفونيا، الذى لم يكن يعلم شيئا، والذى طمأنه بعد ذلك أنها محاولة اسرائيلية صغيرة وأن الاسرائيليين تكبدوا خسائر فادحة. ولم يكن عبد الناصر قد عرف شيئا عن زورقى الطوربيد اللذين تم إغراقهما فى الليلة السابقة وعن المائة جندى مصرى الذين قتلوا. وعندما عرف الحقيقة كاملة بعد ذلك صدم لنجاح عمليتنا من جهة، ولأن قادته كانوا لا يعلمون شيئا عنها، أو اذا كانوا يعلمون فقد أخفوا المعلومات الحقيقية عنه.

وحتى نضغط على المصريين لنجبرهم على تنفيذ وقف اطلاق النار، فقد اقترحت على اللجنة الوزارية للدفاع أن تشن هجوما جويا على القواعد العسكرية فى أعماق مصر. وقد تم قصف حوالى ٢٠ هدفا خلال الاشهر من يناير (كانون الثانى) حتى مارس (آذار) عام ١٩٧٠م.

وقد اكتشف عبدالناصر أن جيشه عاجز عن منع تلك العمليات الجوية، لكنه فى نفس الوقت لم يكن مستعدا لاعلان ايقاف اطلاق النار والدخول فى مباحثات سلام مع اسرائيل، وفى أول يناير (كانون الثانى) طار عبد الناصر الى موسكو وطلب من القادة السوفييت أن يرسلوا له بعض القوات السوفيتية، ووافق الاتحاد السوفيتى، ومع بداية عام ١٩٧٠ بدأت تصل وحدات الصواريخ الروسية مع رجالها.

وفى أول أبريل (نيسان) وصلت ثلاث فرق من الطائرات بأطقمها وكلف الطيارون السوفييت بحماية سماء الاسكندرية والقاهرة واسوان، وتولى السوفييت قيادة بطاريات صواريخ سام ٣ ونظام الدفاع الجوى كله فى مصر.

وفى يوليو حدث ما لابد منه إذ هاجمت ٨ طائرات ميج ٢١ سوفيتية دورية جوية لنا، وقد اسقطنا خمس طائرات سوفيتية وعادت كل طائراتنا سالمة الى قواعدها، وقد سقط الطيارون الخمسة فى الجانب المصرى واستغرق البحث عنهم يوما كاملا وأخيرا عثر عليهم: اثنان منهم قتلى، واثنان جرحى، وواحد فقط لم يصب بشىء، وقال طيارونا بعد عودتهم إن الطيارين

السوفييت يحاربون وفق ما تعلموه فقط وتنقصهم الخبرة والمرونة.

وقد هنأت طيارينا وشكرتهم، وقلت لهم ان هذا الاشتباك سيؤثر كثيرا على الصعيد السياسى، فقد كانت الولايات المتحدة تخشى نشوب حرب واشتراك السوفييت فيها، وكنا نحن أيضا نؤيد ذلك وأضفت قائلا إننا على اية حال لسنا تشيكوسلوفاكيا ولسنا جيل (الماسادا) الذين ظلوا يدافعون عن مواقعهم ضد الرومان ثم انتحروا، بل أن جيلنا سيقاتل ويحيا، ولكننا فى نفس الوقت، بعد تبادل التعليقات المرحة، كنا ندرك مدى خطورة الموقف: فلم يعد السؤال هو أى الطيارين أحسن، وإنما كيف نقوم بعملياتنا ونتجنب الاشتباك مع الروس وقررنا عدم إصدار بيان بما حدث، وفى نفس اليوم ـ ٣٠ يوليو (تموز) ـ وصل الى القاهرة قائد الطيران السوفييتى، وقائد الدفاع الجوى السوفييتى، فقد أصبحت سماء مصر ـ بالنسبة للروس ـ جزءا من سمائهم.

وتذكرت ما قاله تولستوى مرة، ان الكتاب الذى لا يستحق أن يقرأ مرتين لا يستحق أن يقرأ مرة واحدة، وكان خطاب تشرشل للرئيس الامريكى ايزنهاور بعد حملة سيناء يستحق ان يقرأ مرتين اذ كان يتصل مباشرة بما حدث الان فقد كان تشرشل يخشى ان يؤدى الضغط الامريكى على بريطانيا وفرنسا الى تسلل النفوذ السوفييتى الى المنطقة والسيطرة عليها، وجاء فى هذه الرسالة:

(لم يعد لى شىء افعله فى هذا العالم، ولم أكن أملك الرغبة ولا القوة لدفع نفسى فى الحقل السياسى الحالى، ولكننى فعلت ذلك لاننى أعتقد أن التحالف الانجليزى الامريكى أكثر أهمية اليوم من أى وقت مضى وقد اشتركنا سويا فى دفع هذا التحالف الى الموضع الذى ظل قائما فيه حتى الان ويبدو لى ان هناك سوء تفاهم على جانبى الاطلنطى، واذا سمحنا له بالتفاهم فإن السماء ستظلم وستركب الاتحاد السوفيتى العاصفة، ولنترك للتاريخ أن يحكم على الخطأ والصواب الذى حدث خلال السنوات الماضية،

وما يجب ان نواجهه الآن هو تلك الاحداث وما خلفته من أوضاع فى الشرق الاوسط، فالاتحاد السوفييتى يتحرك الان فى اتجاه خطير، ومما لا شك فيه أن أى نصر لعبد الناصر سيكون نصرا لهم.

فلنقرر سويا ما سيجب عمله لمنعهم من الوصول الى اهدافهم واذا لم نتخذ عملا منسقا سريعا فسترى كل منطقة الشرق الاوسط وشمال أفريقيا تحت النفوذ السوفييتى، وتصبح أوروبا الغربية تحت رحمة الروس، إننا إن فشلنا فى تحمل مسئوليتنا بإيجابية وبدون خوف، لكنا غير جديرين بالقيادة التى نتولاها الآن، وقد كتبت لك هذا الخطاب لاننى أعرف جيدا أين تتجه عواطفك الآن ولأنك الشخص الوحيد الذى يستطيع الآن أن يمارس نفوذا على الاحداث سواء فى الامم المتحدة أو فى العالم الحر، وهذه مسئولية ثقيلة وليس هناك من يؤمن بقدرتك على تحملها، ورغبتك فى العمل، أكثر من صديقك العجوز).

(ونستون تشرشل)

وعندما أعدت قراءة هذا الخطاب وجدت أن مخاوف تشرشل حينذاك أصبحت الآن أكثر خطورة عما كانت عليه فى الفترة التى كتبه فيها.

وأخيرا، وبعد ثلاث سنوات من القتال المستمر، وافقت مصر على وقف اطلاق النار ابتداء من ٨ أغسطس (آب) ١٩٧٠، وبناء على مبادرة من ويليام روجرز قبلها بشهر ونصف، وكان منطقيا أن نفترض أن مبادرة روجرز جاءت نتيجة طلب من عبد الناصر، الذى كان قد أكد لشعبه والعالم أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. وقد حاولت مصر من خلال معركة فاشلة أن تهزم اسرائيل وتجبرها على الانسحاب، وكان آخرها حرب الاستنزاف. ولكن الحرب لم توصل مصر إلا الى تحطيم مستودعات البترول، وأصبحت مدن القناة مدن أشباح، وتعرضت القواعد العسكرية فى عمق مصر للقصف الجوى وقد طرد عبدالناصر القادة العسكريين والمدنيين. بالاضافة الى أنه

خيب آمال حلفائه العرب، الاردن وسوريا، باعتماده الكلى على الاتحاد السوفييتى. وقد جعلته كل هذه الحقائق يتجه مره أخرى للولايات المتحدة.

وفى أوائل ديسمبر «كانون الثانى» سافرت الى الولايات المتحدة الامريكية لمقابلة الرئيس نيكسون، والدكتور كيسنجر مستشاره للأمن القومى، وروجرز وزير الخارجية، وملفين ليردد وزير الدفاع، وكانت أهم ثلاث مسائل ناقشناها هى التدخل الروسى فى الحرب، وتجديد شحنات السلاح لاسرائيل، وتجديد المباحثات مع مبعوث الامم المتحدة يارنج، وقد حثونى على العودة للمباحثات مع يارنج، وكانوا مهتمين بما أسموه (سفينة الحرب المصرية نسبة الى السوفييت)، ولاحظت ان الاتجاه الواضح لديهم هو أنه اذا زاد التدخل السوفييتى فإن الامريكيين لا يجب أن يظهروا أى ضعف، وكنا فى نفس الوضع، فقد كان لابد لنا أن نواجه الاعتداء السوفييتى بعنف، وعند هذه النقطة اتفقنا جميعا، ولم يوجه لنا أى نقد لإسقاط الطائرات السوفيتية.

وعندما ناقشنا المسائل الدولية، وخاصة نوايا السوفييت وسلوكهم فى الشرق الاوسط، ركز نيكسون على مسئولية بلاده، كقوة عظمى، تجاه اصدقائها، وانها لن تتخلى عنهم، واستطعت ان أحصل على موقف الولايات المتحدة بصراحة ويتلخص فى (لو انهم جاءوا، فلن نقف بعيدا) وقد تولى ترتيب مقابلتى مع نيكسون، روبرت اندرسون وزير الخزانة فى عهد ايزنهاور، وكنت أعرفه معرفة وثيقة منذ زياراته السرية لاسرائيل مبعوثا من ايزنهاور للوساطة بين بن جوريون وعبد الناصر، وكانت علاقته جيدة بمعظم القادة العرب، وكان صريحا الى درجة قد تضايقنى أحيانا، وحتى فى هذه المناسبة فإن ما قاله لى قد سبب لى بعض الضيق، اذ كان رأيه أن ننسحب الى حدود ما قبل حرب الايام الستة وإلا فإن موقفنا سيسوء.

وفى حديثى مع الرئيس نيكسون كان أهم موضوع بيننا هو احتياجات الامن، ولقد حدث موقف غريب عندما شكوت له من أن الولايات المتحدة قد

وعدت مصر بإيقاف مد اسرائيل بالاسلحة خلال فترة المباحثات مع روجرز حول السلام، وقال نيكسون انه لم يسمع عن ذلك الوعد، فأخبرته عن المؤتمر الصحفى الذى عقده فى واشنطن منذ عدة أيام وأعلن ذلك فيه محمود رياض وزير الخارجية المصرى، واتجه الرئيس الى ملفين وسأله عن حقيقة الامر فأكد له ذلك.

ولم تكن المحادثات حول امدادات الطائرات مدعاة للسرور، وانتهت بشعورى بأن الولايات المتحدة لن تجدد إمداداتنا بالطائرات، واننا لن نستأنف محادثاتنا مع يارنج، لكننى كنت مخطأ، فبعد أن غادرت واشنطن الى نيويورك تلقيت مكالمة تليفونية من جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية أخبرنى فيها أن الولايات المتحدة قررت الاستجابة الى طلبى ومدنا بالطائرات وعندما عدت الى اسرائيل وجدت أن السفير الامريكى فى اسرائيل قد قابل جولدا مائير وأخبرها بأن الولايات المتحدة ستجدد امدادها لاسرائيل بالاسلحة، وهكذا أصبح الطريق مفتوحا لاستئناف المباحثات مع يارنج.

وبعد مباحثات طويلة استطاع يارنج فى ٨ فبراير (شباط) أن يضع أمام مصر واسرائيل وثيقة، طلب منهما قبولها أولاً والتوقيع عليها، تتضمن أن تتعهد مصر بعقد اتفاقية سلام وان تتعهد اسرائيل بالانسحاب الى الحدود الدولية، ورفضت مصر واسرائيل توقيع الوثيقة التى قدمها يارنج، ولكن مصر أبدت استعدادها لاعلان انهاء الحرب تماما دون التوقيع على اتفاقية سلام، على أن تحل اسرائيل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، مع الانسحاب الكامل من كل الاقاليم المصرية وقطاع غزة وبقية الاراضى العربية المحتلة، الى حدود ما قبل الحرب، واجابت اسرائيل انها من ناحيتها مستعدة للدخول مع مصر فى مباحثات سلام بدون شروط مسبقة، مع تأكيد موقفها المعلن أنها تنسحب الى حدود ٤ يونيو (حزيران)، وكان موقف كل من البلدين يوحى بأنه ليست هناك نقاط التقاء، واستمر يارنج بعض الوقت، ثم انتهت مهمته، ولم

يعين السكرتير العام للامم المتحدة وسيطا آخر مكانه.

وكان أهم حدث فى حياتى الخاصة، هو زواجى من راحيل فى ٢٦ يونيو (حزيران) ١٩٧٣ بعد معرفة استمرت قرابة ١٨ عاما، وكان هذا هو الزواج الثانى لكل منا، وكنت قد طلقت روث بناء على طلبها عام ١٩٧١ بعد أن تصدعت حياتنا على أثر زواج دام ٣٥ عاما أنجبنا خلاله ثلاثة أولاد ولم يخلق ذلك أى تعقيدات أو صعوبات اذ كان اولادنا قد تزوجوا ولم تكن هناك اى مشاكل مادية، بل انها رفضت عرضى بأن تبقى فى منزلنا مؤكدة انها تريد بناء حياتها من جديد.

وتزوجت راحيل بعد عام ونصف، وكانت قد طلقت من زوجها عام ١٩٥٨ وكنت قد قابلت راحيل بالصدفة على الطائرة عندما كنت رئيسا للاركان، خلال عودتى من اوروبا بناء على استدعاء رئيس الوزراء، ولا ادرى اذا كان هذا ما يسمونه الحب من أول نظرة، ولكنى أعرف راحيل هى الانسانة التى أرغب فى أن أقضى معها بقية حياتى.

■ ■ ■

الباب السابع

حرب يوم الغفران
(يوم كيبور) ١٩٧٣

فى السادس من أكتوبر كانت المفاجأة التى أذهلت العدو واستعادت الأمة العربية شرفها السليب لقد تم تصحيح الأوضاع المقلوبة.

وباعتراف (ديان) بالهزيمة تحطمت الاسطورة «جيش اسرائيل الذى لا يقهر»، وبتفصيل أكثر يعترف (ديان) بأن هول المفاجأة افقدهم صوابهم وأوقعهم فى حرج لم يألفوه، ولأول مرة أحس (ديان) وأحست اسرائيل بحجمها الحقيقى الذى ضخمته دعايتهم الكاذبة، لقد صدقوا هذه الاكاذيب من كثرة ما رددوها.

لقد استطاعت الجيوش العربية أن توقظ اسرائيل من أحلامها الوردية، وأن تضع امامها الحقيقة المفزعة التى غابت عنها طويلا.

٢٨ ـ المفاجـأة

فى الساعة الرابعة من صباح السبت يوم ٦ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣، افقت من نومى على رنين التليفون الاحمر بجوار فراشى، ولم يكن هذا الامر غير عادى، اذ لا تمر ليلة بدون رنين هذا التليفون مرة أو مرات، ولكن المكالمة فى هذا اليوم كانت غير عادية، فقد وصلت معلومات حالا بأن مصر وسوريا تعدان لهجوم قبل غروب شمس نفس اليوم، وبعد أن تأكدت أن نفس المعلومات قد ابلغت لرئيسة الوزراء جولدا مائير، اتصلت برئيس الاركان ليقابلنى فى مكتبى فى الساعة السادسة صباحا.

وكان امامنا عمل كثير خلال هاتين الساعتين، قبل اللقاء، وطلبت من مساعدى أن يبلغ كل القادة للحضور الى مكتبى.

ثم ركبت سيارتى الى مكتبى، وسط جو هادئ للغاية، فالسماء من ناحية الشرق يختلط فيها اللونان الاحمر والذهبى، والنسمة الباردة تهب من الغرب، والشوارع خالية ليس فيها أحد، كان اليوم هو يوم الغفران (يوم كيبور) وهو أقدس أيام السنة اليهودية.

ولم تكن هذه المعلومات نتيجة تقرير عن نشاط القوات العربية فى الميدان، ولكنها كانت رسالة من المخابرات حول قرار العرب بالحرب، وكنا قد تلقينا مثل هذه التحليلات من قبل، ولكن الهجوم المتوقع لم يكن يقع، وكانت الدلائل تشير حينذاك الى ان الرئيس أنور السادات قد غير رأيه فى آخر لحظة عندما اكتشف اننا عرفنا بالامر، وفقد بذلك عنصر المفاجأة فيلغى الهجوم أو يؤجله على الأقل، ومن ناحية أخرى كانت هناك تقارير للمخابرات عن عملية إجلاء الاسر السوفيتية من كل من مصر وسوريا، ومن كل ذلك كان علينا أن

نتصرف على أساس افتراض أن مصر وسوريا ستشنان الحرب بالفعل.

وكان واجبنا ان يصدر القرار الرئيسى فى اجتماع مع رئيس الوزراء، وقد تقرر عقد هذا الاجتماع فى الثامنة صباحا، وبحثت مع ضباط الاركان فى الخطوات الواجب اتخاذها، وكان أمامنا أربعة موضوعات رئيسية: تعبئة الاحتياطى وتدعيم الجبهات، وإعداد ضربة جوية رادعة وقائية، واجلاء الأطفال والنساء من مستعمراتنا فى هضبة الجولان، واصدار تحذير الى كل من سوريا ومصر، وبحثنا أوجه الانذار، وان يكون دعوة للبلدين لصرف النظر عن المعركة، وان تعرف الولايات المتحدة من البادئ باشتعالها فنضمن مساعدتها لنا.

وخلال المشاورات الأولية أبلغت رئيس الأركان موافقتى على التعبئة الفورية للاحتياطى بأوسع قدر يراه، لكنى كنت مصمما على بحث موضوع الضربة الجوية الرادعة مع رئيسة الوزراء وكان من بين تقاليد الجيش الاسرائيلى أن يطلب رئيس الأركان اتخاذ الاجراءات العسكرية الواسعة، وذلك ما أثبتته لجنه (أجرانات) التى أجرت التحقيق حول الحرب، وكانت الضربة الجوية التى اقترحها رئيس الاركان عقب مداولاته مع قائد القوات الجوية، موجهة الى سوريا فقط، وفى القواعد الجوية فى عمق سوريا نفسها، ولم تكن هناك أى إمكانية أن تتم هذه الضربة قبل الثانية عشرة ظهرا، ولو أن هذه الضربة تمت لما استطاعت أن تغير مجرى الحرب، وقد عارضت فكرة الضربة الجوية وتعبئة المزيد من قوات الاحتياط، وكنت أخشى أن تفسد هذه الأمور ما كنا نأمل فيه من عون شامل من الولايات المتحدة.

وخلال المناقشة مع رئيسة الوزراء، تحددت كل الأمور، وتقرر فى ضوء قرارها تعبئة ما بين مائة الف ومائة وعشرين ألفاً، بالاضافة الى الجيش، واجلاء الأطفال والنساء من الجولان، وصرف النظر عن الضربة الجوية، وانذار سوريا ومصر عن طريق الولايات المتحدة، وقد نقلت رغبتنا هذه الى

الولايات المتحدة من خلال سفيرنا فى واشنطن ومن خلال مقابلة رئيسة الوزراء للسفير الامريكى فى تل ابيب، وكانت وجهة نظرنا أنه اذا اشتعلت الحرب واقتنعت الولايات المتحدة بأننا لسنا السبب فيها، فإنها ستمدنا بكل الدعم اللازم.

وتم اتخاذ القرارات، وكنت راضيا عنها، والمهم الآن ألا يضيع الوقت، فإذا كان العرب جادين فعلا، فيجب أن تكون قراراتنا صائبة وملائمة الآن فى الهجوم فقد كان علينا أولاً أن نتأكد من أننا وضعنا كل دبابة وكل جندى فى الجبهة فى الوضع المناسب، ولم نكن قد بدأنا من الصفر، فالقوات الجوية بأكملها معبئة، وكان لدينا على الجبهة السورية ١٨٠ دبابة، و١١ بطارية مدفعية، و٥ آلاف جندى، وعلى الجبهة المصرية ٢٧٥ دبابة و١٢ بطارية مدفعية صاروخية و٨٥٠٠ جندى، وتم وضع الجيش فى أقصى حالات التأهب، وأعلنت حالة الطوارئ فى الجيش، وأعدت خطتان للهجوم والدفاع سبق التدريب عليهما، صحيح أن الانذار جاء متأخرا، لكن الوقت لم يكن قد فات.

وفى الساعة الحادية عشرة، توجهت الى حجرة العمليات فى كرم، وأمام الخرائط كان كل شىء هادئا، لكننى لاحظت أن الضباط يدخنون أكثر من المعتاد، أو هكذا تخيلت، وقبل أن أصل، كان هناك اجتماع قد عقده القادة مع رئيس الاركان بحثت فيه كل التفاصيل التى ستناقش خلال هذا الاجتماع، وكانت الخطة التى نتوقعها من المصريين هى ان يحاولوا عبور القناة من مناطق معينة على طول المجرى المائى، فى زوارق مطاطية، وأن يلحقوا بها قوات الصاعقة المحمولة بالهليكوبتر لاقامة رؤوس جسور، وفى نفس الوقت تجرى محاولة احتلال حقول البترول فى ابو رديس والاستيلاء على شرم الشيخ التى تحكم مدخل خليج العقبة.

ولم أكن قلقا على أبو رديس وشرم الشيخ، فقد علمت أنه قبل غروب الشمس ستكون فى ابو رديس ١٣ دبابة وفى شرم الشيخ ٤٠ دبابة، وكان فى

تصورى ان المصريين يمكن أن يقوموا فى تلك المنطقتين بعمليات تخريب فقط، ولن يقوموا أو يفكروا فى احتلالهما، وكانت عملية عبور القناة تثير العديد من التعقيدات، فلن تستطيع طائراتنا العمل ضدها نظرا لحلول الظلام ولفاعلية قواعد الصواريخ سام ٦ المنتشرة بالقرب من القناة على الجانب المصرى، وهكذا كان يمكن للقوات البرية أن تقوم بعمل حاسم ليلا ضد عملية عبور القناة، فى حين أن قواتنا الجوية لن تستطيع العمل قبل الصباح.

وعلى الجبهة السورية كان الافتراض أن القوات السورية ستحاول دفع قوات من خلال قصف مركز بالمدفعية الثقيلة تقتحم بعده الدبابات العوائق لتمهيد الطرق امام المشاة وكل ذلك ايضا لن تتم مواجهته قبل الصباح، ولهذا وضعنا خطتنا بالنسبة لسوريا على اساس أن نظام صواريخ الدفاع السورى الكثيف، والظلام، وسوء الاحوال الجوية تحتم علينا أن نبدأ ضربتنا الجوية فى الصباح بهدف تحطيم القوات السورية وشل فعاليتها واخراجها من المعركة.

وكانت عمليات التعبئة تسير بسرعة، وخلال فترة المشاورات كان قد تم استدعاء عشرات الآلاف من الجنود وتمت تعبئتهم ولكن وصولهم الى الجبهة كان يحتاج الى ٢٤ ساعة أخرى، فعلى الجبهة الشمالية كان يمكن ارسال بضع مئات من الدبابات مساء يوم الاحد ٧ اكتوبر (تشرين الاول)، أما بالنسبة للجنوب فقد كان يمكن ارسال بضع مئات من الدبابات ايضا يوم الاحد وبضع مئات أخرى مساء الاثنين.

ولم يكن ذلك هو كل ما يحويه الجراب، لكن تلك كانت هى تقديراتنا العامة للموقف، أما الامر المؤكد فهو ان هذه الليلة سوف تكون أقسى الليالى، وكنت آمل أن يتأخر العدو أيضا فى حشد كافة قواته ليعطى لقواتنا فرصة الوصول الى المواقع وتدعيمها، كما كنت آمل أن تتسبب نشاطاتنا على الجبهة فى احداث فوضى وتأخير فى صفوف العدو.

ومضينا فى مناقشة الاستعدادات الخاصة بالدفاع المدنى واجلاء

الاطفال والنساء من الجولان، ثم ناقشنا خطة هجومنا وكانت الخطة تعتمد على تحطيم قوة الأعداء العسكرية وعدم احتلال أى جزء من الارض، وحتى لو اضطررنا لاحتلال بعض الاجزاء، فإننا لأسباب سياسية لن نبقى فيها طويلا، ورغم شعورنا بالثقة فقد كان القلق يملأ قلوبنا فنحن غير معتادين على ان نخوض حربا لا تكون المبادأة فيها لنا، كذلك فإن الوضع بأكمله مناقض لطبيعة الجيش الإسرائيلى الذى يعتمد على تعبئة الاحتياطى واحضار الجنود من وراء مكاتبهم ومن حقولهم ونقلهم الى الميدان.

وتوجهت عقب ذلك الاجتماع لاجتماع الوزراء فى تل أبيب الذى عقد على عجل، وقد وافقت الحكومة على ما اتخذ من قرارات فى اجتماعى الصباحى مع رئيسة الوزراء وأخطر المجلس ايضا بأن الولايات المتحدة قد اتصلت بكل من مصر مباشرة وسوريا عن طريق الروس وأبلغتهما بما نقلته إليها إسرائيل وطلبت منهما توضيحات، وقد طلبت الولايات المتحدة من اسرائيل عدم القيام بأى هجوم على مصر وسوريا لأنها علمت اننا سوف نهجم خلال ست ساعات، ولم تتلق أمريكا رداً، أما الروس فقد كان لديهم إبلاغ بنوايا مصر وسوريا، ومع ذلك قاموا بدور ملاك السلام دون أن يهتز لهم جفن.

وفى الساعة الثانية وخمس دقائق استدعيت على عجل الى غرفة العمليات، لقد بدأت مصر وسوريا التحرك وقد قامت الطائرات السورية بعبور مجالنا الجوى، وقامت القوات المصرية بعبور القناة، كما تعرضت بعض قواعدنا العسكرية فى غرب سيناء وشرم الشيخ للقصف، لقد بدأت الحرب.

■ ■ ■

٢٩ـ عشية الحرب

لقد جاء الهجوم المصرى السورى مفاجأة لنا، لكنه لم يكن أمرا غير متوقع، لقد جاء يوم كيبور (الغفران) وقوات اسرائيل غير معبأة ولا موزعة كما يجب، لكن ذلك لا يعنى انها لم تكن مستعدة لمواجهة الهجوم العربى، وانا شخصيا لم أكن أتوقع أن يقبل المصريون تخندقنا على طول قناة السويس، ولا أن يرضى السوريون باحتلالنا لمرتفعات الجولان، وكنت أشعر أن وجودنا هناك معناه تجدد الحرب إن آجلا أو عاجلاً، ولم يكن هذا هو نفس شعورى حيال غزة ويهوديا وسامرا.

وكنت أرى أن المفتاح لمنع قيام حرب هو عقد اتفاق ولو جزئياً مع مصر، اذ لم يكن ذلك كفيلا بتخفيف دوافع مصر للقتال فقط، بل ويجعل سوريا تتردد فى قرار الحرب لعلمها أنها ستحارب بمفردها، وقد اقترحت بمجرد ايقاف حرب الاستنزاف فى عام ١٩٧٠ أن ننسحب قليلا من قناة السويس حتى نعطى الفرصة لمصر لإعادة الحياة الطبيعية إلى مدن القنال واستئناف الملاحة، وكان اعتقادى أن ذلك سيضعف رغبتهم فى القتال مرة أخرى، ولكننا لم نصل إلى أى اتفاق جزئى، وبدا واضحا أن دوافع مصر وسوريا لاستئناف الاعمال الحربية قد بقيت كما هى وأصبح السؤال هو متى يحدث ذلك؟.

وتوقعت الإجابة على هذا السؤال على طبيعة وسياسة القيادة المصرية وعلى لياقة الجيش المصرى، بالإضافة إلى الاتحاد السوفييتى الذى استمر، برغم تذبذب العلاقات، يدرب قوات مصر وسوريا وتزويدها بالعتاد بشكل واسع وخاصة خلال عام ١٩٧٣، وتم تزويد البلدين ببطاريات الصواريخ سام ٦، وصواريخ فروج أرض ـ أرض والدبابات (ت ٦٢) وصواريخ ساجر المضادة للدبابات.

وكانت (سنة الحسم) ١٩٧١، التى أعلنها السادات قد مرت دون أية أحداث لكنه بدا منذ منتصف ١٩٧٢ ان مصر وسوريا عازمتان على الحرب، وقد وضعتا خططا تقضى بأن تحتل القوات السورية مرتفعات الجولان وان تعبر القوات المصرية القناة، ثم تتجه شرقا لتحتل ممرات متلا والجدى، ثم جنوبا للاستيلاء على ابو رديس وشرم الشيخ، وفى اجتماع فى رئاسة الاركان يوم ٢١ مايو (ايار) ١٩٧٣ طلبت من رئيس الاركان اعداد القوات المسلحة لمواجهة هجوم مصرى وسورى شامل.

وبالفعل تم اعداد الخطة وعرضت علىَّ وعلى رئيسة الوزراء، ودعت الخطة الى الاسراع فى الحصول على الاسلحة والدبابات والمدرعات بشكل خاص، وقد قدرت التكاليف بـ ١٧ مليون دولار، وتم كذلك ارسال تفاصيل الخطة الى قيادتى الجبهتين الشمالية والجنوبية متضمنة التعزيزات وتعبئة القوات وتوزيعها، وعند ظهر يوم كيبور كانت قواتنا فى الجبهة الجنوبية موزعة طبقا لهذه الخطة، اما بالنسبة للجبهة الشمالية فقد كان الموقف أقوى منها.

وكنا قد وضعنا ١٧٧ دبابة فى الجبهة الشمالية و٣٠٠ دبابة فى الجبهة الجنوبية مهمتها أن تحتوى الهجوم على الجبهتين فى حالة وقوعه بمساعدة السلاح الجوى، لحين وصول بقية الامدادات، وكانت الخطط قد وضعت على اساس أن الإنذار المبكر يجب ان يصلنا قبل ٢٤ ساعة حتى نتمكن من تعبئة قوات الاحتياط وارسالها الى الجبهات وقت اندلاع الحرب، ويجب علىَّ أن أضيف هنا أن قوات العدو شنت هجومها بكفاءة أكبر مما وضعناه لها فى حسابنا عند وضع هذه الخطط.

وكانت القوات التى تم ارسالها للجبهة بسرعة، هى ذلك الجزء من القوات الذى تم تعبئته خلال الخمسة عشر يوما السابقة، بعد ملاحظة النشاط العسكرى المتزايد، ومع ذلك فإن كلا من المخابرات الأمريكية ومخابراتنا توصلتا إلى أن مصر وسوريا لا تعدان للحرب، وفسرتا التحركات العسكرية

الواسعة على الجبهة المصرية على انها (مناورات للجيش) وليست استعداداً لغزو، ومع ذلك فلم نكن مرتاحين، وخاصة فيما يتعلق بالجبهة السورية.

وكانت قد وقعت معركة جوية ضخمة يوم ١٣ سبتمبر (أيلول) حينما كانت طائرتان فانتوم واربع طائرات ميراج فى مهمة تصوير استطلاعية فوق الاراضى السورية، فتعرضت لها ثمانى طائرات ميج وكانت النتيجة اننا دمرنا الطائرات الميج، وفقدنا طائرة ميراج هبط قائدها فى البحر على بعد ثلاثة اميال من الشاطئ وأرسلنا له طائرة هليكوبتر لانقاذه، تحت حماية بعض الطائرات لكن احد الزوارق السورية السريعة كان قد سارع لمحاولة التقاطه تحت حماية أربع طائرات ميج أخرى، ووقعت معركة جديدة سقطت فيها الطائرات الميج وهبط أحد قادتها فى البحر، وتمكنت الطائرة الهليكوبتر من انتشاله هو والطيار الاسرائيلى، وفى الماضى كان السوريون فى حالات أقل خطورة من هذه الحالة، يقومون برد فعل مضاد، ولكنهم لم يفعلوا شيئا هذه المرة، ومرت ايام بدون أى رد فعل مما دفع الشك الى نفسى بأن هناك تحركا كبيرا يتم تدبيره، وتأكدت شكوكى فى اجتماع عقد يوم ٢٤ سبتمبر (ايلول) فى رئاسة الاركان حيث أبلغنى قائد الجبهة الشمالية اعتقاده القوى بأننا قد نقع ضحية هجوم مفاجئ فى الجولان.

وبات واضحا لى ان هذا الامر يمثل بالفعل احتمالا خطيرا، ولم تكن الاحوال فى الجبهة المصرية مثالية، لكنها على الجبهة السورية كانت فى غير صالحنا، ففى الوقت الذى دعمت فيه القوات العربية نفسها على كل الجبهات، كنا نحن على الجانب الآخر نواجهها بقوات صغيرة، ولكن لم نكن نستطيع تعبئة قواتنا لفترة طويلة، والا أضر ذلك بالدولة، وذلك فى حد ذاته يمثل واحدا من أوجه مشكلتنا الرئيسية، فنحن دولة صغيرة يقل تعدادها عن الثلاثة ملايين من اليهود تحيط بهم عشرات الملايين من العرب.

ولو اننا أخذنا بهجوم على الجبهة المصرية بل واضطررنا للتراجع الى

الخط الثانى، فإن ذلك لم يكن ليشكل لنا كارثة، فالأمر لا يعدو كونه انسحابا الى خط آخر فى صحراء واسعة، أما بالنسبة للجبهة الشمالية، فالوضع مختلف فإن أى انسحاب هناك قد يؤدى الى إلحاق ضرر بليغ بمستعمراتنا فى الجولان، وقد ينقل الجبهة الى مناطقنا السكنية فى الجليل الاعلى والجولة ووادى الاردن، ولم يكن فيها - على العكس من قناة السويس فى الجبهة الجنوبية - اية عوائق طوبوغرافية أو موانع، وهذا بالإضافة الى شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التى بلغت حدا من الكثافة والتعقيد الى درجة انها كانت تغطى كل الجانب الاسرائيلى فى مرتفعات الجولان.

وقد أخبرت ضباط رئاسة الاركان بقلقى هذا فى اجتماع يوم ٢٤ سبتمبر (أيلول) وقلت لهم أذا كان السوريون يدبرون لهجوم شامل فإن الامر خطير، ولابد أن يحسبوا حسابه من الآن، وذلك أن السوريين لو استطاعوا تحطيم خطوطنا فى الجولان لأنزلوا بنا هزيمة منكرة، ولم يكن ممكنا أن نترك الامور على ما هى عليه ونذهب للاحتفال برأس السنة التى بقى على حلولها ثلاثة أيام (تحل قبل يوم كيبور بعشرة ايام).

وبعد ذلك بثلاثة ايام عقدت اجتماعا حضره رئيس الاركان (دايفيد اليعازر) وكبار ضباطه، وقائد الجبهة الشمالية، وأبلغنى رئيس الاركان انه قد تقرر زيادة عدد الدبابات على الجبهة الى مائة بدلا من سبعين دبابة، وكذلك المدفعية وبقية الوحدات، اما القوات الجوية فقد وضعت فى حالة الانذار القصوى ولم تكن مهمة القوات الجوية كما حدث فى حرب الايام الستة حين كانت سوريا لا تملك صاروخا واحدا، أما الان فلديها ١٥ بطارية صواريخ سام ٦ و١٠ بطاريات سام ٢ و٣ على خط الجبهة فقط، وقررت القيام برحلة للجبهة الشمالية لتفقد الاحوال والتحدث الى سكان المستعمرات هناك، ولو أن رئيس الاركان أعرب عن رأيه فى أن مثل هذه الزيارة قد تسبب القلق لسكان المستعمرات، وقد تمت الزيارة ليلا والتقيت بممثلى المستعمرات ولأننا

كنا فى ليلة رأس السنة فقد أبلغتهم اننى جئت حاملا إليهم التهانى بهذه المناسبة، ولكن ذلك لم ينطل على أحد، وقررنا عقب هذه الزيارة تدعيم هذه الجبهة أكثر مما هو قائم، وبالفعل صدرت الاوامر برفع درجة الاستعداد فيها وتعزيزها بحيث تصبح ١١١ دبابة و٣٠ بطارية مدفعية وانسحبت نفس الاوامر على الجبهة الجنوبية فأصبح عدد دباباتها ٣٠٠ دبابة.

وفى اليوم التالى ٢ أكتوبر (تشرين الاول) ناقشت الموقف مع رئيس الاركان، فأبلغنى انه راجع مرة اخرى مع المخابرات دلائل النشاط العسكرى المتزايد على الجبهة الجنوبية، وتأكد له بشكل قاطع انها مجرد تدريبات، اما بالنسبة لسوريا فقد كانت المظاهر لا تدل على شىء لكن تقارير المخابرات كانت تشير إلى أن هناك إعداداً لشىء ما، ولذلك طلبت من رئيس الاركان إعداد تقرير مفصل عن تطوير توزيع القوات السورية، وما يرد حوله من معلومات، وكذلك قررت أن الأمر عاجل جدا، وينبغى ان يناقش على مستوى الحكومة.

وكانت رئيسة الوزراء فى زيارة رسمية للنمسا، ولكنها كانت على وشك العودة، واتصلت باسرائيل جاليلى وزير الدولة، وطلبت منه تحديد موعد عاجل مع جولدا مائير بمجرد عودتها، واخبرته بأننى غير راض عن الموقف فى مرتفعات الجولان ويهمنى ان اشترك معها فى المسئولية، وأننى سأصطحب معى فى الاجتماع رئيس المخابرات ورئيس الاركان وقائد القوات الجوية، وان التقارير التى تلقيناها تفيد بأن السوريين لديهم ٦٥٠ دبابة فى الخط الاول، وخط صواريخ يغطى مواقعنا، ويمكنها ضرب طائراتنا وهى مازالت فى سمائنا، ولديها أيضا ٥٠٠ وحدة مدرعات.

وفى اليوم التالى ٣ أكتوبر (تشرين الاول) عقد الاجتماع مع رئيسة الوزراء، وشرحت الوضع على الجبهتين السورية والمصرية، وبينت ان هناك تعزيزات وإمدادات جديدة فيهما، وشرح رئيس الاركان وقائد السلاح الجوى

ونائب مدير المخابرات الوضع على كل من الجبهتين، وقال رجل المخابرات انه يعتقد ان ما يجرى على الجبهة المصرية هو مجرد مناورات سنوية، وأوضح رئيس الاركان كميات التعزيزات التى زودت بها الجبهة الشمالية، وكان كل ما توصل اليه الاجتماع فى مكتب رئيسة الوزراء ان كواهلنا المثقلة بالمسئولية ازدادت اعباؤها دون ان يؤدى ذلك الى تحسين الموقف.

وفى اليوم التالى ٤ أكتوبر (تشرين الاول) اجتمعت مرة اخرى مع رئيس الاركان وقائد الجبهة الشمالية ونائبه ومدير المخابرات وانتهينا إلى أننا إذا تلقينا الإنذار قبل ٢٤ ساعة من الحرب فسوف يكون الموقف مختلفا، والتقيت بعد الظهر مع مدير مصلحة المياه وسألته عن إمكانيات حفر قنوات رى لإغراق الجبهة السورية لإعاقة أى هجوم، فأجابنى بأن ذلك ممكن، وفى المساء تلقينا تقارير تؤكد احتمال قيام سوريا ومصر بالهجوم، وكانت أهم هذه المعلومات أن الروس أصدروا تعليماتهم لعائلات المستشارين الروس بمغادرة سوريا.

وفى الاجتماع الاسبوعى لرئاسة الاركان يوم الجمعة ٥ أكتوبر (تشرين الاول) أصدرنا قرارا برفع حالة الطوارئ القصوى، فى الجيش والطيران، وأصدرت تعليماتى للقادة بأن يقضوا يوم كيبور فى منازلهم، وفى الساعة العاشرة إلا ربعا اجتمعت برئيسة الوزراء، وعرضنا عليها تطورات الامور، وعقد اجتماع عاجل لمجلس الوزراء ضم الوزراء الموجودين فى تل ابيب، إذ كان بقية الوزراء قد سافروا الى بيوتهم فى كل انحاء البلاد وشرحنا تطورات الامور للمجلس، وأكد رئيس المخابرات إيلى زاعيرا أن الهجوم ليس واردا، وذلك ما وافق عليه رئيس الاركان دافيد اليعازر، وكان تقييم الولايات المتحدة للموقف انه لا مصر ولا سوريا تفكران فى هجوم قريب، ولكننى قلت من وجهة نظرى إن كلاً من مصر وسوريا فى وضع يمكنهما من القيام بهجوم خلال ساعات، ولذا طلبنا من المجلس أن يخول رئيسة الوزراء سلطة

استدعاء الاحتياطى اذا طلبنا منها ذلك خلال اليوم التالى (يوم كيبور) ووافقت وأخبرتنا مائير أنها ستقضى يوم كيبور فى تل أبيب حتى يمكنها دعوة مجلس الوزراء الى اجتماع كامل لا الى اجتماع مصغر كالذى كان منعقدا بوجود خمسة وزراء فقط.

ومع أننا لم نكن غافلين عن احتمال نشوب الحرب، فإن حرب يوم كيبور اشتعلت فى اليوم الوحيد الذى لم نكن نتوقعها فيه، وجاءت فى يوم الغفران، وهو اليوم الوحيد الذى يقضيه كل اليهود فى كل انحاء العالم فى الصوم والعبادة، وفى اسرائيل كان العمل متوقفا والشوارع خالية، لا سيارة فيها ولا مشاة، ان هذا اليوم هو يوم جاد لدى الشعب اليهودى وازدادت جديته بنشوب الحرب فيه.

■ ■ ■

٣٠ـ الغـــزو

كان اليوم الاول للقتال، يوم كيبور نفسه يوما شاقا علينا، فقد خسرنا كثيرا من الرجال، وفقدنا اراضى ومواقع غالية القيمة، وبالرغم من ذلك فإن تقرير رئيس الاركان الذى قدمه فى العاشرة مساء الى الحكومة كان يتسم بالتفاؤل، وكان واضحا أن كلا من مصر وسوريا حققتا فى الهجوم ميزتين على أقصى جانب من الاهمية: الاولى هى المبادرة فى بدء القتال، والثانية هى التفوق الهائل فى القوى، وكان السبب وراء تفاؤل رئيس الاركان راجعا الى ادراك أن هاتين الميزتين لن تبقيا فى يد العدو طويلا، وذلك بمجرد أن تصل قوات الاحتياط الاسرائيلى الى الجبهات فيما بين ٢٤ الى ٤٨، لتستعيد ميزان القوى وتمكننا من استرداد عنصر المبادرة.

وقد بدأت المعركة فى نفس الوقت، على كلا الجبهتين فى الساعة الثانية ظهرا، فبدأ كلا الجيشين بقصف أرضى وجوى لمعسكرات ومنشآت الجيش الاسرائيلى، وفى الجنوب تابع المصريون القصف مباشرة بعبور القناة على طولها، فأقاموا الجسور واستخدموا الزوارق المطاطية، بل أن بعضهم عبر القناة سباحة، وفى الشمال وتحت ستار قصف مدفعى ثقيل بدأت القوات المدرعة السورية هجومها.

وحتى منتصف الليل كان المصريون قد نقلوا الى الضفة الشرقية للقناة ٣٠٠ دبابة من مجموع ٢٢٠٠ دبابة نقلوها الى هناك، وكان لديهم ١٨٤٨ مدفع ميدان تغطى المنطقة كلها، وخصصوا لكل ميل من الارض ٥٠ مدفعا مضادا للدروع، وكان مجموع ما لدينا على هذه الجبهة ٢٧٦ دبابة و٤٨ مدفع ميدان، وفى الجولان كان لدينا ١٧٧ دبابة و٤٤ مدفع ميدان تواجهها ٥٠٠

دبابة سورية فى أول موجة هجوم، ووصل مجموع دباباتهم فى هذه الجبهة ١٧٠٠ دبابة و١٣٠٠ بطارية مدافع.

وقد بدأ العدو هجومه بقوة من المشاة تصل نسبتها ١٠ الى ١ مقارنة مع رجالنا، وبلغ عدد قوات المصريين مائة الف رجل ضد ٨٥٠٠ من رجالنا، فى حين كان لنا على الجبهة الشمالية خمسة الاف رجل يواجهون ٤٥ الف سورى.. المهم فى الموضوع، ان مشاة العدو على عكس ما كانوا عليه سابقا كانوا مزودين بأعداد هائلة من الاسلحة المضادة للدروع، ويحملون الصاروخ السوفيتى استريلا الذى يستخدمه الفرد ضد الطائرات، وقد عانينا أيضا من نقص عددى فى الطيران اذ كان لدى مصر ٦٠٠ طائرة ولدى سوريا ٣٥٠ طائرة.

وبرغم هذا التفاوت الرهيب فى المدرعات والمدفعية والمشاة والطائرات فإن تقديرات القيادتين الشمالية والجنوبية فى الليل انهما قد استطاعتا احتواء الهجوم وتقدم العدو، وقال رئيس الاركان اليعازر فى تقديره إن هجمات السوريين فى الشمال قد تم ايقافها ولم تحقق أى نجاح، وأكد أن الاتصال ما زال مستمرا مع مواقعنا الحصينة فى جبل الشيخ رغم أن تقارير سابقة كانت قد أشارت الى انقطاع هذه الاتصالات واستيلاء السوريين عليها، واما فى الجبهة الجنوبية وفقا لرأى رئيس الاركان فقد عبر المصريون القناة من عدة نقاط واستولوا على أحد مواقعنا الحصينة وأسروا ثمانية من رجالنا، لكنه يرى أن الموقف قابل للاحتواء هناك.

وبات واضحا أن الموقف على الجبهة الجنوبية ليس مرضيا كما هو الحال بالنسبة للجولان، فقد نجح المصريون فى عبور عائق القناة، لكن السوريين لم يخترقوا خطوطنا بعد، علاوة على ذلك فإن التعزيزات سوف تصل الى الجولان فى أثناء الليل، الامر الذى يجعل فيها المئات من الدبابات عند ظهر اليوم التالى ٧ أكتوبر (ت ١) أما الجبهة الجنوبية فقد يستطيع الجنرال ابراهام دان الوصول اليها ظهر اليوم التالى بعدة عشرات فقط من

الدبابات، اما التعزيزات القوية فلن تصل هذه الجبهة الا بعد يومين أى فى صباح يوم ٨ أكتوبر (ت ١)، ومعنى ذلك أن أمامنا ٣٠ ساعة صعبة.

وطبقا لهذه الظروف قمنا بتغيير الخطة التى كانت تقضى بقيام طائراتنا بضرب الصواريخ السورية، لنقوم فى صباح اليوم التالى بضرب الجبهة المصرية لمساعدة القيادة الجنوبية، وأحسست بالقلق يملأ قلبى، اذ لم أكن أشارك رئيس الاركان وقائد القيادة الجنوبية تفاؤلهما، لقد حقق المصريون مكاسب هائلة وتعرضنا لضربة موجعة، فقد عبر المصريون القناة وأقاموا جسوراً نقلوا عليها المدرعات والمشاة، ولم نكن قد فشلنا فقط فى منعهم بل اننا لم نسبب لهم إلا خسائر طفيفة فى الافراد والمعدات.

وبالاضافة الى القلق الذى كان يساورنى حول الموقف العسكرى فقد كان هناك سؤال يسيطر على كل تفكيرى، ماالذى حدث ؟ وهل أخطأنا فى تخطيطنا أم التنفيذ؟ ماالذى حدث لثلاثة من العناصر الاساسية فى عملنا وهى: المدرعات، والقوات الجوية، والموانع الحصينة على القناة، والتى كانت كفيلة بإعاقة العدو من العبور واصابته بخسائر بالغة؟!.

وأصبح العبور الآن حقيقة واقعة، ولم تعد مواقعنا الحصينة سوى فخاخا للموجودين فيها ان لم نستطع رد المصريين الى الضفة الغربية، وذلك ما لم أكن أشترك مع رئيس الاركان وقائد الجبهة الجنوبية فى افتراض امكانية حدوثه، وعقد اجتماع للوزارة فى العاشرة من مساء أول يوم للاطلاع على مجريات الحوادث، وكان على رئيس الاركان ان يقدم هذا التقرير دون حاجة منى الى ان أتحدث، لكنى طلبت الحديث لكى أطلع الوزراء على الموقف بكل قسوته وتقييمى لما قدمه رئيس الاركان.

وقلت إننا نواجه ثلاثة عوامل بالغة الصعوبة، أولها حجم قوات العدو المجهزة بأسلحة تراكمت عبر السنوات الست الماضية، فالجيشان المصرى والسورى ليسا هما الجيشان اللذان عرفناهما عام ١٩٦٧، بل هى قوات جيدة

تم تجيزها ويملؤها التصميم والاصرار، وثانيها هو سلاح الصواريخ، بعد تدعيمه بالصواريخ سام ٦ وإن لم تستطع قواتنا الجوية قهر هذا السلاح فلن يمكنها تقديم يد العون لدباباتنا وتدمير مدرعات العدو.

أما العامل الثالث فهو حاجتنا الى المحافظة على الجبهات مع وجود قوات قليلة فيها الى أن يتم استدعاء قوات الاحتياطى ووصولها الى الجبهات.

وقلت إن المعركة الحرجة هى فى منطقة القناة، فسوف يواجه طيراننا فى صباح اليوم التالى تحديات خطيرة تتمثل فى سلاح الطيران المصرى وسلاح الصواريخ، وسوف نحتاج الى قدر كبير من الحظ فى هذا اليوم، أما فى اليومين الثالث والرابع (٨ و٩ أكتوبر تشرين ١) فستكون مدرعاتنا قد وصلت بالكامل الى هذه الجبهة وسوف تكون احتمالات تحقيق النجاح جيدة.

ولذا بدا لى أنه يجب علينا أن ننسحب الى الخط الثانى، لنحارب المصريين فى مسافة ١٢ ميلا من القناة، أما فى الجبهة الشمالية فقد كانت توقعاتى اننا سنوقف الهجوم السورى، وقلت لهم ان العزاء الوحيد هو ان المعركة فى الجبهة الجنوبية مثلا تجرى فى صحراء سيناء بعيدا عن أرض اسرائيل التاريخية ومدنها المأهولة بالسكان.

وقد أبديت ملاحظاتى وبينت رأيى، لكننى لم أكن أشعر بالراحة ولا الوزراء الحاضرون ايضا، كنت قلقا ومرهقا، وشعرت بفجوة بينى وبين زملائى فى الوزارة، فلم يعجبهم ما ذكرته عن نجاح المصريين ولا عن انسحابنا الى الخط الثانى، وكانوا يريدون من الجيش أن يرد المصريين عبر القناة فورا، وهكذا لم نكن نستخدم فى حديثنا موجة واحدة، كانت تسيطر عليهم روح التفاؤل التى أبداها رئيس الاركان، والتى التقيت مع الامنيات الطيبة التى كانت تسود أفكارهم، وعند منتصف الليل تم إبلاغ ممثلنا فى الولايات المتحدة لاخطارها بأننا فى غضون أيام سوف نطرد المصريين من الضفة الشرقية، وان الموقف برغم النجاح المرحلى للأعداء يدعو للرضا.

وأذاعت الاذاعة المصرية، ووكالة تاس السوفيتية، الاحداث التى وقعت فى اليوم الاول على اعتبار اننا نحن الذين بدأنا الحرب، فأذاع راديو القاهرة أن السلاح الجوى الاسرائيلى هاجم فى الساعة الواحدة والنصف ميناء الزعفرانة المصرى فى خليج السويس وأن (القوات المصرية ترد العدو)، وأذاعت تاس وراديو دمشق نقلا عن المتحدث العسكرى السورى ان أسرائيل هاجمت مواقع سورية متقدمة وأن القتال مستمر.

وكان بيان الولايات المتحدة مدعاة لقلق أكثر، اذ علق متحدث باسم البيت الابيض على اندلاع المعارك بقوله: «إن الرئيس نيكسون يتابع الموقف عن كثب منذ الساعات الاولى من الصباح» وكان الصباح فى الولايات المتحدة يوافق بعد الظهيرة فى الشرق الأوسط، وقد صدر البيان بعد ثلاث ساعات من الهجوم المصرى السورى دون أدنى اشارة الى ان العرب هم الذين بدأوا الحرب، وعندما أبلغ ممثلنا الولايات المتحدة أن العرب هم الذين بدأوا الحرب، قيل له إن العرب يدعون اننا نحن الذين بدأناها.

■ ■ ■

٣١ـ جبهات القتال

بدأ السوريون هجومهم فى مرتفعات الجولان الساعة الثانية بعد الظهر يوم ٦ أكتوبر فى نفس الوقت الذى بدأ فيه المصريون فى سيناء وهاجموا بقوات ضخمة على طول الجبهة بأكملها، مركزين على نقطتين شمال وجنوب القنيطرة، وصدهم صمودنا وقتالنا الدموى الذى قاده اللواء السابع المدرع بقيادة الكولونيل افيجدور فى شمال القنيطرة ولواء باراك المدرع بقيادة الكولونيل بن شوهام فى جنوب القنيطرة، وقبل أن تصلهم الامدادات المقرر وصولها، فى صباح اليوم التالى تحتم على اللواءين أن يصدا قوات الغزو، ونجحا بالفعل فى ايقاف الغزو فى هذا اليوم المرير، ولكن السوريين استطاعوا اختراق القطاع الجنوبى خلال الليل، وأصبح الموقف خطيرا للغاية، ولقد كنا نتوقع دائما أن أى هجوم سورى يحدث سيأتى من الشمال، ولذا زودت لواء أفيجدور فى الشمال بدبابات كافية، أما الآن فقد تحتم على القطاع الجنوبى بدباباته القليلة أن يصد الغزو السورى.

وبخلاف ما حدث على قناة السويس، فإن المهاجمين واجهتهم نيران شديدة وقد تم مد كل المواقع، فيما عدا جبل الشيخ، بإمدادات جديدة وتم ترتيب مدفعيتنا بحيث نغطى المواقع الامامية، وقد تقدم السوريون بـ ٥٠٠ دبابة وأضافوا لها فى الليل ٣٠٠ دبابة أخرى، فى مواجهة ١٧٧ دبابة فى قيادتنا الشمالية وكان كل ما وصل الى القيادة الشمالية من الاحتياطى هو ١٢ دبابة.

وفى الليلة الاولى، وقبل اختراق السوريين للقطاع الجنوبى تركت اجتماع مجلس الوزراء وذهبت الى القيادة العامة الخاصة بالطوارئ فوجدتها كخلية

النحل، ولكن بدون عمل، كان العمل من الناحية الفنية، يسير سيرا حسنا ومنظما، فهم يتلقون التقارير من جبهات القتال ويضعون العلامات على الخرائط، اما من ناحية السيطرة والقيادة والتفكير الهادئ المتوازن، فإن الموقف لم يكن مرضيا بالمرة داخل حجرة العمليات، فإن الوقت لم يكن مرضياً.

كانت تطورات الحرب فى ايدى قادة الجبهات، وكان همهم أن يدافعوا عن خطوطهم ويمنعوا أى اختراق للعدو إلى أن تصلهم الإمدادات وفى مثل هذه الأحوال، فإن القيادة العامة لا يكون فى وسعها أن تفعل الكثير، وكانوا بين الحينة والأخرى يتصلون بالمواقع ويتخذون القرارات اللازمة بعد التشاور مع قادة هذه المواقع.

وذهبت الى غرفة عمليات الطيران، حيث أبلغنى القائد عن خطته لليوم التالى، وهى ان يهاجم اهدافا فى الجبهة الجنوبية فى صباح اليوم التالى وخاصة قواعد الصواريخ والمطارات حتى تتاح له الحرية فى القيام بعمليات بعد ذلك على ضفتى القناة ضد القوات المصرية، وكان رئيس الأركان يرى أنه لا مانع ايضا من ضرب المعابر قبل اسكات بطاريات الصواريخ، وقلت لهم إن لدى وجهة نظر أخرى، فقد كان امام المصريين ليلتان ويوم لإدخال قوات مدرعة هائلة الى سيناء، ولذا فقد كنت ارى ان نبدأ بمنع هذه القوات من التقدم حتى لو خسرنا طائرات، إذ أن الطائرات لو فشلت فى تدمير قواعد الصواريخ، فسيعنى ذلك اننا فقدنا كل شىء فستصبح حركة طيراننا محدودة ونكون قد سمحنا لقوات ضخمة من الدبابات بالعبور ودخول سيناء.

وكانت لوزير الدفاع سلطات سياسية، ومن هنا فإن القرار العسكرى يكون فى يد رئيس الاركان وقائد الطيران، وهكذا بقى قرار ضرب الطيران لقواعد الصواريخ ساريا، وكان الوقت حينذاك الثانية صباحا، أى بعد ١٢ ساعة من بدء الحرب، فعدت الى مكتبى للراحة وأيقظونى بعد ساعتين لأن الموقف فى الشمال أصبح خطيرا فقد اخترقت القوات السورية خطوطنا فى

الحسنية جنوبى القنيطرة بثمانية اميال، وبدأت تتقدم نحو الطرق التى تربط مرتفعات الجولان ببحر الجليل، وكانت الدبابات الاحتياطية التى أرسلت على عجل قد وصلت الى سفوح المرتفعات لاغلاق الطريق، وأصدر الجنرال اسحاق يوفى أوامره بإجلاء كل السكان والمدنيين فى المستعمرات، وتم اجلاء النساء والاطفال فى يوم الغفران.

وغادرت مكتبى على الفور متجها بالطائرة الى الجبهة الشمالية، وكنت أسمع صوت الانفجارات، ونحن نطير فوق تل ابيب، فلم يكن عمق مرتفعات الجولان يبعد أكثر من ١٥ ميلا، واذا ما وصل السوريون الى نهر الاردن، فيصبح من الصعب ردهم، خاصة وهم يستخدمون مثل هذه الكميات من الاسلحة والقوة البشرية واننا نقاتل المصريين على الجبهة الاخرى، ولذا كان لابد من ايقاف اختراق السوريين ولو اضطررنا لاستغلال كل القوات المتاحة لدينا، ووصلت الى مقر قيادة المنطقة الشمالية قبل السادسة صباحا بقليل، وأبلغنى القائد أن كل دفاعاتنا فى القطاع الجنوبى قد انهارت، وان السوريين قد تغلبوا على لواء باراك وتحركوا الى القطاع الجنوبى، وهم الآن فى منتصف الطريق الى نهر الاردن، اما قواتنا المدرعة التى تمت تعبئتها فلن تستطيع مواجهة العدو قبل منتصف النهار.

واكتشفت أن الطيران هو القوة التى تستطيع الآن ايقاف تقدم العدو، وانه لا يجب اضاعة دقيقة واحدة، وأخبرنى قائد القطاع أن دباباتنا مشتبكة مع العدو فى معركة، وان الطائرات قد تقصف بعض دباباتنا، وقلت له ان يصدر أوامر لأطقم الدبابات اما أن يتركوا دباباتهم أو يغلقوا الابراج، وكان على طائراتنا ان تهاجم قوات العدو المدرعة دون أن تحاول - حسب المعتاد - اسكات قواعد الصواريخ أولا، وطلبت الجنرال بنى بيليد قائد الطيران على التليفون وطلبت اليه ان يرسل طائراته فورا فى عملية مستمرة ضد الدبابات السورية التى اخترقت الخطوط، فذلك هو التصرف الوحيد الذى يمكننا من

ايقافهم الى ان تصل امدادات أخرى من المدرعات بعد الظهر، وكان موردخاى هور قائد الطيران السابق، والذى يعمل الآن كضابط اتصال فى القيادة الشمالية يقف بجانبى، وقال لى: قل له أن يرسل التشكيلات واحدا بعد الآخر من أربع طائرات فى حركة مستمرة حتى تشل فاعلية المدرعات السورية، وتصبح أطقم الدبابات غير قادرة على رفع رؤوسها، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أتحدث فيها مع قائد الطيران فى مثل هذه الأمور وبهذا الأسلوب لأنه يتلقى أوامره عادة من رئيس الاركان، كان الطلب أكثر من أمر ولذا كان الرد ايجابيا، وبالرغم من كثافة نظام الدفاع الصاروخى الجوى السورى، فإن الطائرات ظلت تهاجم المدرعات السورية بدون توقف، الامر الذى أحدث تأثيرا ضخما على الموقف.

وخلال صباح يوم ٧ أكتوبر (تشرين الاول) بدأت القيادة الشمالية تدعم لواءاتها التى بعثت خلال القتال، وتكلف بعض الضباط الكبار بالاشراف على قطاعاتها، فوضعت مسئولية القطاع الجنوبى على عاتق الجنرال دان لانر، والقطاع الشمالى على الجنرال رافويل ايتان، وكان هناك تشكيل ثالث سيصل الجولان فى المساء وعند الساعة الواحدة ظهرا، ظهرت فجأة الدبابات السورية حول معسكر نافح على مسافة ٦ أميال فقط من جسر يصل الى الاردن ويوصلهم ايضا الى كل مستعمراتنا فى الجليل الشمالى، وخاض الكولونيل بن سوهام معركة عنيفة لايقاف تقدمهم الى أن تصله امدادات قوية، ثم قتل خلال هذه المعركة هو ونائبه، وما أن حل المساء حتى كان السوريون يتقهقرون وابتعد حظر الازمة التى واجهتنا خلال الاربع والعشرين ساعة، وكانت عمليات الطيران سببا فى القضاء على خطورة التقدم السورى، اما فى المعركة الثانية فقد كانت هناك مجموعة من الدبابات متجهة من قواعدها فى الجليل فى مجموعة صغيرة الى الجبهة، وعندما شاهدت التقدم السورى نحو نهر الأردن قفلت الطريق وحولته الى عنق زجاجة، ثم

نجحوا فى دفعهم الى الوراء.

وفى اليوم الثالث للقتال حدثت الازمة الثالثة مع اللواء السابع فى القطاع الشمالى والذى ظل يقاتل ثلاثة ايام وليال بلا توقف وضعفت مقاومته بعد عدة هجمات قوية طوال تلك الايام وها هو الان يواجه أقوى هجوم عليه بعد أن أصيبت معظم دباباته ونفدت تقريبا ذخيرة بقية الدبابات، واتصل الكولونيل أفيجدور بقائد اللواء الجنرال رافويل ايتان، وابلغه أنه لم يعد بمقدوره إيقاف تقدم العدو أكثر من ذلك ولكن فى نفس اللحظة أفاد الكولونيل يوسى بأن وحدته استطاعت احتلال مفترق الطرق عند نقطة تدعى بوستر شمال غرب القنيطرة، وان الدبابات السورية بدأت فى الانسحاب، وعلى الفور اتصل ايتان بأفيجدور وأبلغه بهذه الاشارة وطلب اليه الصمود لعدة دقائق فقط، وبالفعل صمد اللواء السابع وبدأت دبابات المقدمة السورية فى الانسحاب.

وعندما توجهت الى القيادة الشمالية مساء يوم ٩ أكتوبر(تشرين الاول) وجدت أن الحالة قد تغيرت رغم القتال العنيف والخسائر الفادحة، وخاصة بين الضباط، وكان الجميع يشعرون بأن الهجوم السورى قد انكسر، وكانت قوات العدو قد خسرت حوالى ٩٠٠ دبابة، وقد دهشت عندما علمت أن يوسى قد اشترك فى المعركة، لأننى كنت قد سألت عنه منذ يومين وعلمت انه خارج اسرائيل يقضى شهر العسل فى الهيملايا، وعملت أنه عرف بنشوب الحرب وهو فى نيبال فبادر بالعودة الى اسرائيل عن طريق أثينا، حيث التحق بالقيادة الشمالية وقاد ١١ دبابة الى تل بوستر، استطاع ان يحتله رغم أنه واجه ٦٠ دبابة سورية، وحرصت على رؤيته لكنه كان قد أصيب إصابة بالغة فى معركة أخرى فى تل شمس، ولم أره إلا فى مستشفى حيفا بعد ذلك بثلاثة ايام.

وقامت قواتنا بعد ذلك بسد الاختراق السورى ودفعوا العدو خلف

خطوطنا الى داخل سوريا، ووصلوا الى تل شمس على طريق دمشق وهناك واجه يوسى خطوطا دفاعية قوية وهجمات مكثفة من الطيران السورى ورغم أن ثمانى دبابات فقط هى التى بقيت لدى يوسى، فقد حاول بها احتلال تل شمس فى اختراق سريع، لكنه وجد المشاة السوريين فى مواجمته، وأسفرت المعركة عن فقد الدبابات وعن فقده لساقة اليسرى ولم ينقذه إلا زفيكا قائد دبابته الذى نجا بأعجوبة.

وفى نهايه الاسبوع الاول من الحرب على الجبهة الشمالية، كان السوريون فى موقف الدفاع، وارتدت الحملة الى أراضيهم شرقى الخطوط التى اخترقوها منذ ستة ايام.

* * *

كانت قواتنا ـ كما رأينا ـ على الجبهة السورية متمركزة ومستعدة لمقابلة السوريين عندما نشبت حرب يوم كيبور، أما على قناة السويس، فقد كان الوضع مختلفا تماما، وكان أول من قاسى من عنف المعركة على هذه الجبهة، هو خط استحكاماتنا الاول الذى كان على قناة السويس مباشرة، ويضم ١٦ من الاستحكامات القوية، والذى عرف باسم خط بارليف، وكانت المعارك قوية وعنيفة، عندما هاجم المصريون هذه الاهداف، وقد حاربت كل نقطة من نقاطنا معركتها مستقلة وكأنها جزيرة منعزلة، ولكنها قاتلت بعنف وبسالة لأنها كانت معركة حياة أو موت، معركة استسلام أو حرية.

وكانت هذه الاستحكامات عبارة عن نقاط أمامية صغيرة، تصل كل نقطة بين ٢٠ و٣٠ جنديا، تمتد على حافة مياه القناة، وتبعد كل منها عن الآخرى خمسة أميال، وقد تعرضت كلها الى قصف شديد ومركز عندما بدأ المصريون هجومهم، وقد تبع هذا القصف هجوم شامل بالدبابات والمشاة، وفيما عدا الموقع الذى كان يدعى بودابست ويتميز بوضع طوبوغرافى خاص، فقد سقطت كل النقاط، بعضها تم اخلاؤه، والبعض الآخر اقتحمه المصريون.

ولم يحدث هذا فى الحال، فعلى الرغم من أن المصريين عبروا القناة مع أول دانة تم اطلاقها فلم تسقط أى نقطة خلال الاربع والعشرين ساعة الاولى، ولا حتى تلك التى نجح المصريون فى التسلل اليها عند بدء المعركة، ومن ناحية اخرى لم تنجح أى نقطة فى ايقاف تقدم المصريين فى قطاعها، ونجحت بعض النقاط فى اغراق زوارق المصريين أثناء العبور، قام بعضها بتوجيه المدفعية والطيران الى الضرب الفعال للجسور وتجمعات القوات وتسببت فى إحداث خسائر فادحة لها لكن ذلك كله لم يؤثر فى حركة نقل مدرعات المصريين ومشاتهم الى الضفة الشرقية، وعندما كان يخفق المصريون فى احتلال اى نقطة فإنهم كانوا يمرون عليها ويواصلون تقدمهم فيما عدا نقطة بودابست التى رغم انها تعرضت لهجوم عنيف فقد ردت المصريين وأجبرتهم على العودة الى بورسعيد.

وانعزلت بقية النقاط عن قواتنا، وقاتلت قواتها بشجاعة وتصميم، وفى معظم هذه النقاط قتل كثير من الضباط وتلقيت بعض النقاط الاوامر بالجلاء أو الاستسلام، ولكنها رفضت ذلك ولكنهم فى النهاية حوصروا بواسطة الاعداء وانقطعت اتصالاتهم بكل القوات، ولم يعد لهم القدرة على التمسك بنقاطهم، وكانت آخر نقطة تسقط ويؤخذ رجالها أسرى، هى ماسريك التى تحكم المدخل الجنوبى لقناة السويس، وكان بعض تلك النقاط قد تلقى الانذار بالهجوم المصرى قبل حدوثه بوقت قصير، وتلقاه بعضها ساعة وقوع الهجوم، ولكن ذلك على اية حال لا يعنى انه لو كانت هذه النقاط قد تلقت الانذار قبل بدء القتال بوقت كاف فلم يكن بإمكانها أن تغير فى الامر شيئا، لانها لم تكن مستعدة لمواجهة مثل هذا الهجوم الضخم المكثف، وكان أقوى ما فى هذه الاستحكامات هو الجزء الذى يقع تحت الارض ويضم حجرة العمليات ومضاجع الجنود، أما مراكز اطلاق النار وخنادق المواصلات فكان من الضرورى أن تكون على سطح الارض، وسقطت هذه المواقع

المكشوفة عندما تعرضت لقصف المدفعية المصرية ثم لنيران الدبابات التى حاصرتها، وقتل رجالها أو أجبروا على مغادرتها.

وعلاوة على ذلك فلم يكن الإعداد الفنى والتنظيمى لهذه الجبهة منفذا، ففصائل الدبابات التى كانت يجب ان تتمركز بين النقاط الحصينة لربطها ببعضها وتقديم العون لها، كانت على بعد ٦ أميال للخلف، وعندما حاولت هذه الدبابات التقدم للأمام وجدت المصريين قد سبقوها الى هناك، وتعرضت لنيران عنيفة من ضفتى القناة، وتم تدمير معظم هذه الدبابات وشل فاعليتها، وفى داخل الاستحامات، كانت حالة السلم قد أدت الى ان أصبحت معظم المعدات غير معدة للعمل.مثل أجهزة الاشارة والاسلحة، فقد كانت جميعها فى مستوى أقل من المستوى المقبول، كما أن حالة الرجال أنفسهم لم تكن مهيأة للحرب، وفوق كل هذا فإن هذه الاستحكامات لم يختر لها الرجال جيدا ولم تلق امدادات وتعزيزات تمكنها من الحفاظ على أصعب خطوط الجيش وأكثره تقدما وهو خط القناة، وكانت معظم قواتها من جنود الاحتياطى القدامى الذين مر عليهم عامان دون أن يتلقوا أى تدريب.

ولا يمكننى الحكم بأى مقياس على مدى مساهمة هذه الاستحكامات فى اعاقة التقدم المصرى الى الامام، وعلى أية حال فإن المصريين لم يتقدموا خلال اليومين الاولين أكثر من بضعة أميال وكان هذا الوقت كافياً لكى نعبئ كل الاحتياطى، وتصل الإمدادات إلى ميدان القتال، وكما يجب دائما فى كل معاركنا فقد كانت خسائرنا الفادحة فى الضباط وقادة المواقع ونوابهم.

وبالرغم من أن الهجوم بدأ بصدمة القصف المدفعى العنيف، وفى الوقت الذى كانت القوارب فيه تعبر القناة، فقد أصبح مفهوما أن الحرب الجادة قد بدأت، غير أن الضغط الرئيسى عسكريا ونفسيا جاء عندما تدفق آلاف الجنود ومعهم الدبابات، واقتحموا الاستحكامات واخترقوا حقول الألغام والبوابات، وتصدى المدافعون للمهاجمين، وعندما كانت مواقع اطلاق النار

تسقط أو تخلى كان رجالنا ينتقلون الى مواقع أخرى، وهم مستمرون فى قتال الاعداء، وبمرور الساعات أصبح واضحاً للجنود أن موقفهم يزداد صعوبة، وأن احتمال وصول امدادات لهم أصبح سرابا، فقد سدت الطرق أمام وصول الدبابات إليهم واحترقت الدبابات التى حاولت ذلك، وبدأ الرجال يطالبون بإخراجهم مما هم فيه.

كانت هناك تقديرات خاطئة على كل المستويات بدءا من قادة الاستحكامات الى قادة الالوية الى رئيس الاركان، بل وحتى على مستوى الحكومة، فقد كان الجميع يعلقون الآمال على أن نستطيع اعادة المصريين الى الضفة الغربية أو على الاقل أن نخترق صفوفهم ونتصل بالاستحكامات، ولقد كانت هناك فى الليلة الاولى للحرب، احتمالات بأن ننقذ كل الرجال على خط الاستحكامات، لكن قيادة الجبهة الجنوبية فضلت ألا تفعل ذلك لأنها تصورت أن الايام القادمة فى الحرب لن تكون أصعب من اليوم الاول، وقد حاولت بعض وحدات الدبابات انقاذ نقاط الاستحكامات ولكننا فقدنا الكثير من أطقم الدبابات فى هذه المحاولات، وفى حالات أخرى حاول رجالنا اختراق صفوف الاعداء وهم يخلون مواقعهم، ونجح بعضهم ولكن معظهم فشل فى ذلك، وقد صمد موقع واحد حتى النهاية، بينما استسلمت المواقع الأخرى بعد أن يئست من وصول التعزيزات ونفدت ذخيرتها وقتل رجالها.

كان خط بارليف قد اكتسب شهرة ملحوظة، ولذا فإن اقتحامه اعتبر بمثابة نصر كبير للمصريين رد لهم كبرياءهم، لكن النقاط القوية التى يتكون منها هذا الخط لم يكن متوقعا منها أن تؤدى وظائف لم تنشأ من أجلها أصلا، فلم يكن مطلوبا منها ولا مخططا لها أن تمنع - بمفردها مستقلة ومعتمدة على عدد أفرادها وقوة نيرانها - قوات كبيرة العدد من عبور القناة، وكانت نسبة المصريين الذين عبروا الى المدافعين ٢٠٠ الى واحد، ولم يكن متوقعا لها أن تصمد ساعات طويلة فيما لو حوصرت وقطعت بينها الخطوط، لأنها لم تكن

تشكل نظاما عسكريا مستقلا، لقد كان خط بارليف والنقاط الحصينة جزءا لا يتجزأ من التنظيم العسكرى الشامل فى سيناء، وكان مخططا لها أن تنفذ واجباتها فيما لو كانت القوات الاخرى كالمدرعات والمشاة موجودة معها أو بالقرب منها، وهكذا فإن نجاح خط بارليف لم يكن يعتمد على النقاط الحصينة وقدرتها على الصمود، بل على حسن توزيع الوحدات المدرعة حسب الخطة وضمان الطرق المؤدية الى هذه النقاط من الخلف، وطالما لم يتم تأمين هذه الشروط فقد كان واجبا إخلاء هذه النقاط وسحب رجالها للخلف والقيام بهجوم مضاد من الخلف بواسطة المدرعات والمشاة.

وفى الساعات الاربع والعشرين الاولى من نشوب الحرب، أصبحنا لا نملك سوى قوة ضئيلة من المدرعات على الجبهة المصرية، وما أن انهار خط الدفاع الاول حتى تدفق المصريون على سيناء بقوات ضخمة وبقوة هائلة من الاسلحة، وقاتل لواء دبابات الجنرال البرت ماندلر ببسالة لإيقاف تقدم المصريين، ولم يكن هذا اللواء منتشرا وفق خطة الطوارئ فى موقعه عندما بدأت الحرب، ولذا فانه، ما ان تقدم نحو القتال حتى تعرض لنيران عنيفة من الدبابات المصرية بالضفة الشرقية، ودارت معركة عنيفة ووحشية طوال بعد ظهر هذا اليوم، وازداد الموقف سوءا أثناء الليل، وعند الفجر، وصلت موجات جديدة من المدرعات والمشاة المصريين وكانت قواتنا قد تكبدت خسائر فادحة فى الرجال والمدرعات خلال هذه المعركة المستمرة ولم يبق سوى عدد قليل من دباباتنا قادر على الاستمرار فى القتال وقد نجحوا فى وقف قوة اندفاع تقدم المصريين، ولكنهم فشلوا فى اعادتهم مرة أخرى عبر القناة.

وفى اليوم التالى بدأت امدادات الاحتياطى فى تشكيلات الجنرالين ابراهام آدان وأريك شارون فى الوصول، وفى الصباح وقبل وصول هذه الامدادات طرت الى القيادة المتقدمة فى الجبهة الجنوبية، حيث شربت كمية كبيرة من القهوة مع قائد الجبهة الجنرال شمويل جونين وضباطه، ولكنها لم

تفلح فى تنشيط حواسى أثناء مراجعة الموقف فى الجبهة وعندما طرت من الجبهة عائدا الى تل ابيب تذكرت اننى لم أمر بلحظة قلق تشابه هذه اللحظات فى حياتى من قبل، وقد كان الامر أسهل لو أننى كنت أتعرض للخطر شخصيا، أما هذه المرة فالشعور مختلف، إن اسرائيل هى التى تتعرض للخطر، وستكون النتائج خطيرة اذا لم نقدر الموقف ونفهمه فى هذا الوقت، واذا لم نستحب لاحتياجات الحرب الجديدة.

وبعد أن أخبرت دافيد اليعازر رئيس الاركان بما انتويت أن أقوله لجولدا مائير، طلبت حضوره لعرض وجهات نظره على رئيسة الوزراء، وحضر الاجتماع أيضا اثنان من الوزراء وكانت النقاط الرئيسية التى اقترحتها هى ان نخلى خط القناة وأن ننسحب الى خط جديد، نتمسك به مهما كان الثمن، وكانت مشكلتنا الرئيسية هى التفوق العربى فى الأفراد والسلاح، وكان العرب يحاربون بتصميم وبأسلحة روسية ممتازة من بينها الأربى جيه المضادة للدبابات وصواريخ ساجر.. وبمساعدة الروس وبعض الدول العربية الاخرى مثل ليبيا فإن العرب قادرون على الاستمرار فى الحرب مهما كانت خسائرهم، أما نحن فقد كنا نخشى أن نفقد قوتنا قبل أن تصل الينا الامدادات السريعة، واقترحت أن نطلب دبابات و طائرات من الولايات المتحدة ومن بعض الدول الاوروبية وقد صدمت رئيسة الوزراء والوزراء الآخرون، خاصة عندما قلت إننى لا أظن أن فى مقدورنا فى الوقت الحاضر أن نلقى بالمصريين مرة أخرى الى الضفة الغربية، والسبب فى ذلك أن رئيس الاركان قد أبلغ مجلس الوزراء فى اجتماع صباح نفس اليوم، ولم أحضره، ان ذلك فى مقدورنا، وبدا واضحا من أسئلتهم واستجواباتهم بعد هذه الملاحظات القاسية، ان الضعف ليس ناتجا عن الموقف العسكرى الحالى، وانما من شخصيتى أنا، واننى قد فقدت الثقة وان تقديرى للموقف ليس صحيحا واننى متشائم للغاية.

ووافق رئيس الأركان على وجهة نظرى بالنسبة للموقف، وأبدى استعداده

لاقامة خط دفاع ثان، ولكنه كان يرغب فى القيام بهجوم مضاد فى هذا المساء يستخدم فيه تشكيلات شارون وبرن وسألنى على مسمع من الجميع عما اذا كانت لديه سلطة اتخاذ القرار، فأجبته بالايجاب ولكننى تشككت فى أن التشكيلين فى وضع الاستعداد لمثل هذا الهجوم وأبلغته أنه يمكنه أيضا أن يعد العدة للهجوم على المصريين فى الضفة الشرقية، وعندئذ فقط تنفس الوزراء الصعداء، فما كان يدور بخلدهم أبدا اننا لا نستطيع القاء المصريين حيث كانوا منذ ٣٩ ساعة.

وخيل لى أن جذور الاختلاف بينى وبين بقية الوزراء تكمن فى انهم لم يكونوا مستعدين مثلى لمواجهة الحقائق واقعيا وعلى سبيل المثال فإنهم أعتقدوا عندما علموا أن طيراننا قد قذف الجسور، ان القوات المصرية قد انعزلت، وحاولت إفهامهم أن هذه الجسور هى عوامات وليست جسورا دائمة ويمكن اصلاحها أثناء الليل، وبالنسبة لطيراننا فقد كنا متفوقين فى الاشتباكات الجوية، ولهذا فإن المصريين تحاشوا ارسال طائراتهم فى الجو فوق ميدان القتال، وكانوا يستخدمون بطاريات صواريخهم المضادة للطائرات، وقد أسقطنا فى اليوم الاول ٤٠ طائرة عربية وفقدنا نحن ٣٥ طائرة بسبب الصواريخ، وكانت هذه هى الحقيقة المؤلمة.

وكانت مؤشرات الحقيقة تقول إنه اذا استمرت خسائرنا فى القتال على هذا المعدل، فإننا سنجد أنفسنا فى منتصف الحملة بدون قوات فعالة، بينما العرب بأسلحتهم الضخمة وترساناتهم يستطيعون الاستمرار، وكانت مصر وسوريا تعدان ٨٠ مليون نسمة، بينما نحن مجرد ثلاثة ملايين، وكان تعداد قواتهم المسلحة مليون فرد، تمدهم روسيا بالسلاح كلما احتاجوا، ويستطيعون ايضا أن يحصلوا على مساعدات مالية من مصادر مختلفة، وكان العرب يشاركون فى المعركة بارسال تشكيلاتهم العسكرية، أما نحن فقد طالبنا الولايات المتحدة بصفة عاجلة بإمدادنا بالطائرات والدبابات، ولكن من يعرف

ما اذا كنا سنحصل عليها ومتى ؟ ونحن فى النهاية اذا لم نحارب معركتنا، فلن يحارب لنا أحد، كان هذا هو تقديرى للموقف الذى دفعنى للمطالبة بإخلاء خط القناة والانتقال الى خط الدفاع الثانى وسافر رئيس الاركان الى سيناء وطلبنى تليفونيا من هناك ليخبرنى أنهم قرروا القيام بهجوم مضاد صباح الاثنين ٨ أكتوبر، وعاد فى منتصف الليل حيث توجهنا الى حجرة العمليات لنسمع التفاصيل فى اجتماع مجموعة العمليات، ومع أننا كنا بعيدين عن أرض المعركة الا ان غرفة العمليات كانت تسيطر عليها روح المعركة المقبلة.

وكانت الروح المعنوية لرئيس الاركان عالية، وكان يقول للضباط انه اذا نفذ الهجوم المضاد جيدا فى اليوم التالى فإنه سيكون نقطة تحول فى الحرب، وكان المصريون قد نقلوا الجيش الثانى الى القطاع الشمالى والجيش الثالث الى القطاع الجنوبى، وكنا قد أرسلنا بضع مئات من الدبابات لتدعيم القطاع الجنوبى حيث ستأخذ دورها فى المعركة، وسيكون اليوم التالى يوم صدام المدرعات، وفعلا حدث الصدام فى اليوم التالى بين المدرعات، وكانت المعركة عنيفة للغاية، وحارب رجالنا ببسالة، ولكن اليوم فى مجموعه كان فاشلا، وكان السر فى فشل الهجوم المضاد ان ما دار لم يكن فى حقيقته هجوما مضادا اذ كان هناك عدم وضوح رؤية على أعلى مستوى فيما يتعلق بخطة القتال، وكان قائد الجبهة الجنوبية يجهل ما يدور فى ميدان القتال طوال اليوم، ولم تكن هناك ورقة مكتوبة عن المشاورات التى أجراها رئيس الاركان مع قائد الجبهة الجنوبية ومع شارون وبرن قائدى التشكيلين الفرعيين، وكانت الخطة تقضى بأن يقوم تشكيل برن بالهجوم على الجيش الثانى المصرى فى القطاع الشمالى شمال القنطرة بعدها يتجه جنوبا فى اتجاه البحيرات المرة، بينما يقف تشكيلا اريك والبرت فى الخلف مستعدين لتقديم الدعم لتشكيل برن، وبعد نجاح هجوم برن يقوم تشكيل اريك بالهجوم

على الجيش الثالث فى القطاع الجنوبى ويقوم برن والبرت باحتواء الاعداء، ولم تتضمن الخطة عبور القناة كهدف لهذا اليوم، ولكن رئيس الاركان قال انه قد تكون هناك امكانية بعد تحطيم رؤوس الجسور ان تعبر قواتنا مستخدمة الجسور المصرية، وتقرر أن تجرى المعركة على بعد ميل ونصف ميل من خط المياه لتجنب الصواريخ المضادة للدبابات المنتشرة على شاطئ القناة.

واتضح ان اريك شارون عندما التقى مع رئيس الاركان قبل عودته لتل ابيب، كان قد اقترح عليه ان تقوم القوات مباشرة باختراق خط الاستحكامات وانقاذ الرجال، وان خطتنا العاجلة يجب أن تستهدف ايجاد موطئ قدم لنا على القناة، وعبورها وبذلك نربك الاعداء، وشرح اريك اقتراحه لجونين والبرت وبرن بعد ان سافر رئيس الاركان، ونتيجة لذلك فهم برن أن هناك فرصة اضافية بأن يهجم اريك على الاستحكامات عند الفجر، بينما يقف برن مستعدا لدعمه وفهم اريك نفس الشىء، وفى الساعة ٦,١٥ صباح يوم الاثنين ٨ أكتوبر (تشرين الاول) أخطر قائد الجبهة الجنوبية أريك أن عليه ألا يهاجم فى اتجاه الاستحكامات بل يهاجم فى القطاع الجنوبى وفى مكان ليس بعيدا عن خليج السويس واذا كان ذلك ممكنا فليحتل جسرا مصريا ويعبر عليه، وكان عليه ان يهاجم عند الظهر معتمدا على تقدم برن، وقبل ذلك بقليل كان جونين قد أخذ موافقة رئيس الاركان على ان يقوم برن بالهجوم فى الساعة الثامنة صباحا لفتح طريق لعبور لواء على أحد الجسور المصرية فى منتصف القناة.

وقد بدأت قوات برن تحركها وفق الخطة من الشمال للجنوب بمحاذاة القناة، ولكن بعيدا عن مرمى صواريخ المشاة، وفى التاسعة صباحا شعر قائد الجبهة الجنوبية ان كل شىء يسير على مايرام حسب الخطة المرسومة ووافق جونين على اقتراح برن بأن يتوجه غربا لانقاذ أحد استحكاماتنا التى كانت تتعرض لضغط شديد، وكانت هذه النقطة قريبة جدا من أحد الجسور

المصرية، وما أن تحولت هذه الوحدات غربا حتى تعرضت لنيران صواريخ المشاة المتخندقين وصواريخ الاربى جيه المضادة للدبابات، وسار كل شىء على طريق خاطئ ولكن قائد الجبهة الجنوبية كان بعيدا عن كل ذلك، واعتقادا منه بأن تشكيل برن فى وضع جيد حصل على موافقة رئيس الاركان على ان يبدأ أريك هجومه ليصل الى اهدافه قبل حلول الظلام، وبدأ تشكيل اريك يتحرك، واتضح أخيرا أن تحريك قوات اريك قبل أن يتقرر مصير هجوم برن، كان هو العامل الفيصل فى فشل الهجوم المضاد فى هذا اليوم، وعلم قائد الجبهة الجنوبية بعد الظهر أن المصريين يعدون هجوما مضادا على طول الجبهة، وفى الساعة ٢,١٥ بعد الظهر طلب قائد الجبهة من أريك أن يعود الى الشمال مرة أخرى وبالفعل استدار عائدا إلا أنه تحتم عليه الآن أن يقاتل خلال الطريق فى المنطقة التى كانت خالية أثناء توجهه الى الجنوب، وانتهى اليوم بتقهقر خطوطنا الى الوراء لمسافات أكثر مما كانت عليه فى الصباح.

وفى هذه الليلة، وبعد اجتماع طارئ لمجلس الوزراء، طرت الى الجبهة الجنوبية لحضور اجتماع طلبت عقده، ضم رئيس الاركان وقائد الجبهة الجنوبية والضباط الكبار وقادة التشكيلات اريك وبرن والبرت وبدأ الاجتماع وأنا أشعر فعلا بما تقوله التوراة عن (الغضب حتى على الموت) فبعد كل ما حدث خلال هذه الايام الثلاثة، وبعد فشلنا فى اخلاء المواقع وانقاذ الرجال، وبعد أن دفعنا بالامدادات الى الجبهة الجنوبية.. بعد كل هذا الذى فعلناه ضاع كل شىء هباء ولم نحقق شيئا ووجدت اريك وبرن وقد استبد بهما الارهاق الشديد بعد أن انتهت الايام الماضية - والتى كان مفروضا أن ننتقل فيها من الدفاع الى الهجوم - الى مجرد اليأس والخسائر والتراجع.

وكان اريك يدرك جيدا ما يدور الآن فى جبهة القتال، ولذا فقد جاء بالحل الصحيح وهو عبور القناة وتحطيم قواعد الصواريخ المصرية والوصول الى مؤخرة الجيشين الثانى والثالث، ولكنه حذر من الاعتماد على المعجزات،

فإننا لن نستطيع احتلال أى جسر مصرى سليم، ولذا فنحن فى حاجة الى جسور وقوارب خاصة بنا، ولم تكن تلك قد وصلت بعد حافة القناة، وعرض رئيس الاركان خطة اليوم التالى وهى أن يعد اريك الترتيبات لعبور القناة، بينما تأخذ التشكيلات الاخرى وضع الدفاع، وأن يمنح المقاتلون الفرصة للراحة والنوم واعادة تنظيم أنفسهم.

وعقدت اجتماعا مع رئيس الاركان بعد عودتنا من الجبهة الجنوبية وكانت المشكلة الاولى التى أثرتها هى قيادة الجبهة الجنوبية، وكان تقديرى أن المعركة المصرية على سيناء أكبر من طاقة جونين، لذا لابد من تعيين قائد جديد للجبهة المصرية، ورشحت اثنين هما اريك شارون وحاييم بارليف أحد رؤساء الاركان السابقين ووزير التجارة والصناعة حاليا، ثم دخلت الى الموضوع الرئيسى وهو الصورة العامة للحرب فنحن فى موقف نواجه فيه صعوبات كبيرة، ولكن دولا قوية كثيرة مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا وجدت نفسها فى نفس الموقف خلال الحرب.

وفى هذه اللحظة يجب علينا أن نقرر كل شىء وأن نقرر الخطوات السليمة التى يجب على الامة والجيش أن يتخذاها، وستكون صدمة قوية لشعبنا إذا قلنا لهم إننا حتى الآن لم نستطع أن نلقى بالمصريين مرة أخرى عبر القناة وإن خطوط استحكامنا على طول خط بارليف قد سقطت.

ولكن لا مفر من الحقيقة، ويجب أن نقول الصدق لشعبنا حتى يعرف الموقف على حقيقته، ونحن بحاجة الى الرجال ولا بد أن نعبئ بعض الكبار الذين لم نكن نستدعيهم فيما قبل، وندرس امكانية استدعاء من هم فى سن السابعة عشرة للتدريب، وايضا نحن فى حاجة عاجلة الى السلاح ويجب أن نحاول ذلك مع الولايات المتحدة.

وبالنسبة للجبهة الجنوبية، فإنه يجب علينا أن نوجه أعدادا أكبر من الرجال للحرب وأن نعيد تنظيم أنفسنا قبل أى محاولة لدفع المصريين

للانسحاب، أما فى الجولان، فيجب أن نصدر أمرا للقيادة الشمالية يقول (لا انسحاب)، ويجب أن نحارب الى آخر رجل وألا نتراجع بوصة واحدة ولنفقد كل دباباتنا فى الشمال، ولكن يجب أيضا فى المقابل أن تمحو القوات السورية ويجب أن نعطى للجبهة الشمالية كل الدعم الجوى اللازم، واذا انهينا القتال على هذه الجبهة فيمكننا أن نحول كل قواتنا هناك للجبهة المصرية، وقلت لرئيس الاركان انه بالنسبة لكل هذه المسائل، فلابد من موافقة رئيسة الوزراء.

وبعد ثلاث ساعات فى الساعة ٧,٢٠ صباحا قابلتها، وكانت جولدا كما هى دائما - برغم الارهاق الواضح - نشطة، متيقظة، تواجه كل الامور بشجاعة وأخبرتها بأوامرى للجبهة الشمالية واننا لن ننسحب مهما كان الثمن وأن ذلك يعنى أننا سنتكبد خسائر فادحة، ووافقت جولدا على أوامرى وقلت لها إنه لا يمكن السكوت على إطلاق سوريا لصواريخ فروج أرض / أرض على مستعمراتنا المدنية لمدة ثلاثة أيام وطلبت الموافقة على قصف مواقع عسكرية فى دمشق من الجو، ووافقت كما وافقت ايضا على تعيين بارليف قائدا للجبهة الجنوبية، وأثرت موضوع طلب السلاح من أمريكا وطرحت جولدا عدة اقتراحات منها أن تسافر لمباحثات سرية فى واشنطن مع الرئيس الامريكى، وكانت تثق فى اهمية المباحثات المباشرة مع الرئيس لشرح موقفنا وابلاغه عن الاسلحة السوفيتية المتطورة الموجودة فى ايدى العرب وتفوقهم العددى الرهيب، وماذا يحدث فى الجبهات ولم يكن السلاح فقط هو ما نريده بل يجب أن يعرف الرئيس نيكسون ما الذى حدث فى هذه الحرب.. ولماذا؟ وقد أيدت رحلتها الى واشنطن، وفعلا لم نكن نحتاج للسلاح فقط من الولايات المتحدة بل أن تتفهم الوضع وأن نحصل على تأييدها ودعمها لنا، ولم يكن هناك شخص غير جولدا يستطيع أن يفعل ذلك.

■ ■ ■

٣٢ ـ جرد المخازن

وفى يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الاول)، اليوم الخامس للقتال، ساورنى القلق لأول مرة حول قدرة قواتنا الآن على ايقاف الاختراق العربى لأراضينا، وفى سيناء والجولان تكبد العدو خسائر فادحة فى المعدات والرجال، وتراجع الى الخلف، وقد تمركزت قواتنا فى مواقع قوية، وتعلموا كيف يتجنبون الصواريخ المضادة للدبابات، أما الجيوش العربية فإنها بعد أن نفذت خطط عبور القناة واقتحام الجولان، لم تعد قادرة على القيام بالخطوة التالية، التى كانت تتطلب تخطيطا تحت ظروف غير متوقعة، وكنا قد وصلنا الى المرحلة التى تمكننا من الاقتحام والسيطرة، ولم تصبح مشكلتنا ماذا نفعل، وانما أصبحت بأى القوات نفعل ذلك.

أصبح القرار النهائى الآن فى يد رئيس الاركان وقادة الجبهات، فإذا قالوا انه لا توجد قوات كافية لهذه العملية، أو انها ستفشل، فإنه يؤخذ برأيهم، وفى دولة ديمقراطية مثل دولتنا فإن القوات المسلحة تكون تحت السلطة الكاملة للحكومة المدنية من خلال وزير الدفاع، لكن هذه السلطة محددة فى اطار اتخاذ القرارات السياسية ولا تمتد الى القرارات الخاصة بالعمليات، فللحكومة مثلا ـ من خلال وزير الدفاع ـ ان تأمر الجيش بعبور أو عدم عبور الحدود اللبنانية على سبيل المثال وهنا اصدر الاوامر للجيش بأن يضرب قواعد العدو فى قواعده القريبة من دمشق وان يبتعد عن الاهداف المدنية، لكننى لا ابلغ الجيش كيف ينفذ ذلك، وان لم يكن هناك ما يمنع من أن ابدى آرائى.

وهكذا نجد أن الوزير قد يكون لديه بعض الموظفين لكنه لا يملك آركان

حرب، أما المسئولية الحقيقية فى الجيش فتقع على عاتق رئيس الاركان الذى يخطط ويزيد ويرفض ويعارض أية آراء تتعلق بالعمليات أو يضعها موضع التنفيذ.

وليس معنى ذلك اننى قبعت وراء مكتبى مكتفيا باتخاذ القرارات السياسية أثناء القتال، وانما كنت ازور على الاقل إحدى الجبهتين يوميا، وكان الانتقال من جبهة لاخرى لا يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين ولم يكن ممكنا ان احكم على ما يدور فى ميادين القتال من خلال تقارير رئيس الاركان، ولا حتى من تقارير قادة الجبهة، وكان الاسلوب الافضل فى نظرى هو الوصول الى الجبهات نفسها والاجتماع مع قادة التشكيلات الفرعية وسماع الحقيقة منهم ورؤية الواقع مباشرة فى ميدان القتال وبقيت أتبع هذا الاسلوب حتى آخر أيام الحرب.

لم أكن أذهب الى منزلى رغم قربه من القيادة والوزارة، وكان أولادى الثلاثة قد عبئوا: فيائيل تعمل فى مستشفى تل هاشومير وابنى أودى يخدم فى وحدة كوماندوز بحرية، وابنى الصغير عساف يخدم كقاذف مورتار مع وحدة مظلات، أما زوجتى راحيل فهى فى عملها نهارا، وفى المساء تنتظر فى المنزل مكالمتى التليفونية وكنت خلال زياراتى للجبهة ارتدى زيا عسكريا بدون رتب عسكرية.

هذا عن الامور الخارجية، اما حياتى من الداخل فقد سيطرت عليها بشكل كامل حرب يوم الغفران، وكانت حياتى مزيجا من القلق الشديد والحزن، والمجهود الضخم الذى كنت أبذله لتركيز أفكارى، وكانت هى الحرب الرابعة التى أخوضها، الاولى، حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ كان عمرى خمسة وعشرين عاما، وكان العمل سهلا وناجحا، وضحكت كثيرا، كذلك فإن معركة سيناء عام ١٩٥٦ وحرب الايام الستة ١٩٦٧، لم تكونا بالحرب الصعبة، اما حرب يوم كيبور فقد اختلفت تماما، فلم تكن حربا صعبة فحسب، بل كان جو

الحرب نفسه صعبا.

فقد كان علينا أن نواجه حشودا كبيرة من القوات مسلحة بكميات ضخمة من الاسلحة المختلفة والقوية وعندما كنا ننجح فى تحطيم مئات الدبابات، لم نكن نفرح أما عندما كان خط استحكاماتنا يسقط، او عندما نفقد ٣٠ دبابة فى عملية واحدة، فإن الامة كلها كانت تصاب بالذهول والحزن وقتل الكثير من خيرة ضباط الطيارين وقادة المدرعات وضباط المظلات وكان كل يوم يمر يحمل انباء سيئة عن أزواج أو أبناء أو أقارب أو جيران قتلوا فى المعركة وكان شعبنا حتى بعد أن هزمنا المصريين والسوريين يمر بحالة قلق حول الرجال الاسرى والجرحى.

وقد عشت أنا فى هذا الجو ايضا، ولم أكن أقلع ولو للحظة واحدة عن التفكير فى مستقبل الحرب، اسئلة كثيرة كانت تتسابق الى ذهنى ماذا أفعل الآن؟ كيف ستتطور الامور؟ ماذا يحتمل ان يفعل الاتحاد السوفييتى؟ كيف ستتصرف الولايات المتحدة؟ هل ستفتح الاردن جبهة ثالثة؟ هل ستصل الى العرب امدادات جديدة، ماذا نقدر ان نفعل فى الجبهتين الشمالية والجنوبية؟ وكان ذلك هو مجال تفكيرى خلال الليل والنهار.

وكانت تواجهننا ثلاث مشاكل، أولاها: فنية تتعلق بمواجهة الصواريخ السوفيتية المضادة للطائرات والدبابات، والثانية تتعلق بمستقبل علاقاتنا مع الدول العربية المجاورة، وهل نصمم على أن نحتل أجزاء أخرى من مصر وسوريا، والثالثة هى موقف القوى الكبرى مما حدث وخاصة احتمال تدخل السوفييت ازاء تهديد قواتنا باحتلال دمشق، وكان الاختلاف بين هذه الحرب والحروب السابقة لها، ان العرب أصبحوا أكبر وأقوى مما كانوا عليه، ورفع هذا من خسائرنا، واحتاج الامر الى تصميم من رجالنا، كانت قوة العرب فى الرجال والعتاد أكثر ثلاث مرات مما كانت عليه فى حرب الايام الستة، وكانت المقارنة بالنسبة لعام ١٩٦٧ مليون رجل مقابل ٣٠٠الف، ٥٠٠٠ دبابة

مقابل ۱۷۰۰، الف طائرة مقابل ۳٥۰، ٤۸۰۰ مدفع ميدان مقابل ۱۳٥۰، وصاحب الارتفاع فى العدد ايضا ارتفاع فى النوعية والمستوى التكنولوجى للاسلحة، هذا بالاضافة الى الصواريخ المضادة للطائرات والدبابات، وخاصة الدبابة السوفيتية الحديثة ت ٦٢.

ومما لا شك فيه أن نوعية المقاتل أيضا قد تطورت، فهو فى هذه الحرب يعرف كيفية استخدام سلاحه، ولعل ذلك بسبب الجهد الذى بذله الخبراء السوفييت فى تعليم المصريين القتال الحديث، وقد زود السوفييت مصر وسوريا بصواريخ أرض/ أرض من طرازين الاول فروج مداه ٥٠ ميلا وقوته التفجيرية ۱۱۰۰ رطل، والثانى سكاد ومداه يتراوح بين ۲۰۰ و ۲٥۰ ميلا وقوته التفجيرية ۲۰۰۰ رطل، وكذلك الصاروخ كيلت جو/ أرض ومداه ۱۲٥ ميلا ويحمل ۱۱۰۰ رطل من المتفجرات وبهذه الصواريخ أصبح فى مقدور العرب ضرب مدننا ومراكزنا الصناعية من الجبهتين الشمالية والجنوبية.

ومع عدم وجود حل لهذه المشكلة التكنولوجية كانت الاجابة من خلال محور التكتيك، وأصبح المفتاح فى يد المقاتل لا السلاح، وفى ميزان الاسبوع الاول من الحرب، فقد أطلقت عدة صواريخ أرض/ أرض، ولكنها لم تحدث أى أثر على تقدم الحرب، فقد أطلق السوريون عدة صواريخ فروج على القاعدة الجوية فى رامات دافيد وعلى مدينة كريات شمونا فى الشمال، ولكن تأثيرها كان محدودا للغاية، وأطلق المصريون عدة صواريخ كيلت من الطائرات توبوليف ١٦ على تل ابيب وعلى عدة أهداف عسكرية فى سيناء من بينها شرم الشيخ، ولم يطلق المصريون صواريخ أرض/ أرض سكاد إلا يوم ۲۲ أكتوبر (تشرين اول) على مناطق الجسور فى قناة السويس وكان ذلك قبل وقف اطلاق النار الاول..

وكانت الاسلحة المضادة للدبابات (الآر بى جيه) وصواريخ ساجر، مؤثرة جدا، وفى نهاية المعركة كبدتنا هذه الاسلحة خسائر فادحة، وخاصة فى

الجبهة الجنوبية، ولكن بعد فترة تعلم رجالنا كيف يتعاملون معها، فمدى الاربى جيه ٣٢٥ ياردة والساجر ميلان وكانت أخطر الاسلحة التى نواجهها هى بطاريات صواريخ سام المضادة للطائرات ولا أعتقد أن الطائرات تستطيع التغلب بصفة كاملة على بطاريات هذه الصواريخ، ولهذا فإن دعم القوات البرية فى منطقة قريبة من هذه البطاريات، لايمكن أن يكون مؤثرا وتلك هى الحقيقة التى يجب أن نؤمن بها، والحقيقة أننى بدأت أشك فى قدرة الطيران على التغلب على هذه الصواريخ فى أغسطس (آب) ١٩٧٠ قبل انتهاء حرب الاستنزاف، عندما أصيبت لنا طائرتا فانتوم بالقرب من البحيرات المرة، ومرت ثلاث سنوات على هذا الحادث، ولكن فى المواجهة بين الطائرات والصواريخ لم تكن الطائرات هى الاحسن وهذا لايعنى أن قيمة الطيران انتهت ولكن تتطلب تغييرا فى نظريات العمليات.

ومنذ ستة أعوام، فى حرب الايام الستة، دمرت اسرئيل الطيران المصرى فى بداية الحرب، وكذلك كل البطاريات المضادة للطائرات فى سيناء، اما فى هذه الحرب فقد أصبحت حركة الطيران الاسرائيلى مقيدة ومحدودة، وقد أبرزت هذه الفترة ثلاث مؤشرات رئيسية:

■ حققت القوات الجوية سيطرة كاملة، وبهذا لم تمنع العدو من قذف الاهداف المدنية، بل استطاعت ايضا ان تحقق لقوافل الامدادات والتمويل للجبهة السلامة الكاملة.

■ بخلاف بورسعيد، لم تستطع قواتنا الجوية تطهير جبهات القتال من بطاريات الصواريخ، حتى فى يوم ٧ أكتوبر (تشرين الاول) عندما عطلت معظم بطاريات الصواريخ فى الجولان، فإنها عادت للعمل فى اليوم التالى.

■ إما أن تتقدم القوات بدون غطاء جوى قريب، أو ان تصاحبها الطائرات فتتعرض للاصابة بالصواريخ، وذلك هو ما حدث خلال الاسبوع الاول.

أما معارك الدبابات فى الاسبوع الاول، فقد خضعت للاختلاف بين

الجبهتين الشمالية والجنوبية، ففى الجبهة الجنوبية صحراء وقناة السويس وجبهة طولها ٩٥ ميلا، اما الجبهة الشمالية فقد كانت ضيقة وصخرية وجبلية مما يجعل مراقبتها والسيطرة عليها سهلة وهكذا اختلفت نتائج المعارك فى الجبهتين فى ثلاثة أمور:

■ فى الشمال، وباستثناء جبل الشيخ، دفعنا السوريين الى الوراء من كل أقاليمنا بينما احتل المصريون الشاطئ الشرقى للقناة.

■ فقد السوريون ٩٠٠ دبابة، بينما فقد المصريون حتى الاسبوع الاول ٣٠٠ دبابة.

■ وفى الجبهة الجنوبية سقطت كل استحكاماتنا عدا واحد، وفى الشمال لم يسقط سوى جبل الشيخ.

نستخلص من ذلك أن كل العمليات حدثت مع سوريا من خلال الهجوم والحركة، وبينما كانت الدبابات السورية تهاجم وتتحرك كانت دباباتنا متمركزة فى مواقع دفاعية وكان هذا الوضع ملائما لدباباتنا ومدرعاتنا لضرب الدبابات السورية، ولم تكن الصواريخ السورية ساجر ذات تأثير فعال فى سير المعركة، ولم تكن تلك هى الحالة فى الجبهة الجنوبية، ففى اليومين كانت دباباتنا فى حالة هجومية وهى تسرع ناحية القناة، بينما كان المشاة المصريون المزودون بصواريخ مضادة للدبابات متمركزين فى مواقع دفاعية، ولهذا فإن كل خسائرنا من الدبابات فى الجنوب كانت بسبب حسن انتشار المواقع الدفاعية المصرية، وعندما عبر المصريون القناة عملوا على نقل دفاعاتهم المضادة للدبابات وقواتهم المدرعة تحت مظلة الحماية المضادة للطائرات فى حين كان هدف الهجوم السورى المباشر احتلال الجولان كلها.

ويؤسفنى، ألا أعزو تقدم المصريين وفشل السوريين الى اختلاف فى طبيعة الجبهتين فقط، ولا الى طريقة حرب الجيشين، فالحقيقة أن قواتنا

فى الجبهة الشمالية خاضت الحرب جيداً ولم تفعل ذلك فى الجنوب، وفى الساعات القليلة بين الانذار ونشوب الحرب، لم يتم فى الجنوب عمل ما كان يجب عمله فلم تتمركز الدبابات فى مواقعها القتالية، ولم يكن هجومها على القوات المصرية التى عبرت القناة منظما أو محققا للهدف، وكانت تلك هى الحالة قبل وصل الاحتياطى بتشكيلاته الثلاثة بقيادة البرت وبرن واريك ليقودوا الهجوم المضاد، فإن ذلك ايضا لم يتحقق.

اما بالنسبة لمستوى قتال الجنود العرب فإننى استطيع أن أقرر ذلك فى جملة واحدة أنهم لم يهربوا كما كانوا يفعلون فى الماضى، وفى الماضى كان الهروب هو أحد الملامح الهامة فى شخصية الجيوش العربية، ليس فى كل الجيوش، وليس الهرب فى الحال، وانما ذلك بصفة عامة، كانوا عندما يشعرون بأنهم قد ضربوا، أو أن جبهتهم انهارت، فانهم كانوا يجرون، اما فى هذه المرة فى حرب يوم كيبور فإنهم حتى عندما تكبدوا خسائر فادحة واكتشفوا انهم خسروا الحرب، لم يجروا وانما انسحبوا، وعلاوة على ذلك فإن المستوى القتالى للجندى العربى أحرز تقدما كبيرا، وقد حاربت بعض الوحدات بمرارة حتى النهاية، وأظهرت بعض الوحدات أعلى درجات السيطرة والقيادة فى العمليات مستخدمة أحدث الاجهزة التكنولوجية المتطورة، وتأكدت أننا لن نستطيع أن نحيق بالعرب الانهيار الكامل.

وكان على المرء أن يضع فى حسابه العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة، وكانت الولايات المتحدة متعاطفة معنا الى اخر مدى، وقد ساعدتنا الحكومة الامريكية بامدادات السلاح والمساعدات الاقتصادية والدعم السياسى، وكنت أكره مجرد التفكير فيما كان يمكن أن يحدث لو ان الولايات المتحدة أوقفت مساعداتها لنا، أو ماذا كنا نفعل لو انها ادارت لنا ظهرها فى هذه الايام، وكانت منطقة تعاملنا مع الولايات المتحدة تشمل الرئاسة ووزارة الخارجية والبنتاجون وعندما نشبت حرب يوم كيبور بدأت واشنطن تسأل عمن

بدأ الحرب؟ هل هى خطيرة؟ ربما تبالغ إسرائيل فى الامر؟ وكانت فى نفس الوقت تفترض - بناء على معلومات امرنا ممثلنا فى واشنطن بنقلها أننا سوف نهزم العرب خلال عدة أيام، وفى ضوء هذا الموقف تصرف الأمريكيون ببرود بالنسبة لطلباتنا العاجلة للحصول بسرعة على كمية كبيرة من امدادات السلاح، حتى وزارة الخارجية التى كانت تدرك مدى احتياجاتنا قالت إننا نستطيع الآن الحصول على كمية محدودة من المعدات، ورفضت إعطاءنا طائرات إضافية أثناء استمرار المعارك، ولم نكن نحن من ناحية أخرى نستطيع التراخى فى طلباتنا.. كنا نحتاج الى طائرات ودبابات وأسلحة مضادة للدبابات وصواريخ هوك المضادة للطائرات وهليكوبتر ومدافع ذاتية الحركة.

وظللنا نرسل البرقيات حول احتياجاتنا السريعة للفانتوم، واخيرا تلقينا ردا ايجابيا يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر (تشرين الاول) بعد ثلاثة ايام من القتال، يفيد أننا سنتلقى طائرتى فانتوم من الحصة المخصصة لنا، وكان هذا الموقف الامريكى نتيجة للمعلومات التى وصلت اليهم من اننا بدأنا الحرب ولضغط الدول العربية المصدرة للبترول لعدم تزويد اسرائيل بالاسلحة وعلمنا أننا سنحصل على السلاح فى حالة واحدة، اذا ما ساء موقفنا للغاية، اما الدبابات فمن غير المستطاع أن تصل قبل عدة اسابيع.

وفى يوم الاربعاء علمنا ان الرئيس الامريكى قد وافق على ان يمدنا بأحدث المعدات الالكترونية وبطائرات اضافية، وانه سيتم تعويض كل خسائرنا فى الحرب وقيل لنا بصفة خاصة انه كان لابد من ازالة عدة عوائق قبل ان يتم التوصل الى هذا القرار، وكانت المشكلة الان هى كيف ستصل الينا هذه الاسلحة، ولم يكن للعرب هذه المشكلة، ففى خلال يومى ٩، ١٠ أكتوبر وصلت الى المطارات السورية عشرون طائرة نقل أنتينوف سوفييتية ضخمة، ولم تكن حكومة الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الامر، وكنت أظن انها ستراقب هذا الامر باهتمام وانها ستقوم بالاسراع فى ارسال امداداتها،

وفعلاً بدأت الولايات المتحدة فى النقل بجسر جوى استمر بين ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) و١٤ نوفمبر (تشرين الثانى) لمدة شهر، لكننا فى النهاية لم نتلق التعويضات الكاملة عن خسائرنا، وتلقينا أقل من نصف الفانتوم التى طلبناها وخُمس الدبابات ولم نتلق سيارة واحدة نصف مجنزرة، وبضع طائرات هليكوبتر، وكنا قد طلبنا كمية صغيرة من مدافع الميدان فتلقينا ثلث ما طلبناه، اما الصواريخ المضادة للطائرات فقد تلقينا ربعها.

كان هذا النقص فى امدادات السلاح مثار انزعاج لنا، لكن حكومة نيكسون على أى حال، كانت أفضل من حكومة ايزنهاور التى رفضت ان تمدنا بالسلاح خلال معركة سيناء، بل وافضل من حكومتى كيندى وترومان وبالرغم من أن ترومان كان صديقا مخلصا لإسرائيل، إلا أنه فى عام ١٩٤٨ وأثناء لحظاتنا الحرجة خلال حرب الاستقلال، لم يرحب بمساعدتنا بالأسلحة، والان فى عام ١٩٧٣ لا نجد دولة واحدة تحاول مساعدتنا بالاسلحة غير الولايات المتحدة، حتى ألمانيا الغربية - التى يرأسها المستشار فيلى برانت، وهو صديق مخلص لرئيسة الوزراء - رفضت ان تقوم الولايات المتحدة بنقل أسلحة الينا من القاعدة الامريكية هناك، ورفضت كثير من الدول الاوروبية حتى مجرد السماح للطائرات التى تحمل لنا السلاح بالهبوط فى مطاراتها للتزويد بالوقود، وأوقفت بريطانيا صفقة الدبابات التى كانت متعاقدة عليها معنا.

وفى يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الاول) زرت الجنرال يشاباهو جافيتش الذى كان يتولى قيادة الجزء الجنوبى من سيناء وبصحبتى قائد الطيران، وفى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر زرت قيادة الجبهة الجنوبية لأستمع الى تقارير الموقف وتحدثت حول نقطتين هما: احتمال تقدم المصريين ناحية الجنوب على الساحل الشرقى لخليج السويس، والاخرى هى امكانية عبورنا القناة للضفة الغربية.

وكان أول موقع طبوغرافى بعد رأس سدر يصلح للاغلاق بحيث يجبر

القوات المتقدمة على التوقف يقع شمال أبو رديس، حيث تلامس سلسلة جبال وسط سيناء الشاطئ، فهناك احسن مكان لاقامة خط دفاعى ولزرع الالغام وحفر الخنادق للاسلحة المضادة للدبابات وانشاء تحصينات قوية للمشاة ولكن مع ضرورة عدم حدوث اى انسحاب لقواتنا من مواقعها الحالية، وكان أحد الألوية الميكانيكية من الفرقة السادسة قد حاول خلال الليلة السابقة ان يخترق ناحية الجنوب، وعندما وصل الى عيون موسى التى تقع على مسافة عشرة أميال جنوب السويس، اشتبك مع احدى وحدات المظلات المدعمة بعشرين دبابة وبالطيران، وقد تكبد العدو خسائر فادحة واضطر الى الانسحاب، كان فى وسع طائراتنا أن تقوم بعملياتها بحرية فى هذه المنطقة لبعدها عن مدى الصواريخ المصرية المضادة للطائرات، وكانت معظم الخسائر التى حدثت للواء المصرى نتيجة القصف الجوى، وبعد هذا الفشل من المصريين أصبحت أعتقد أنهم لن يحاولوا التقدم جنوبا، وأن المظليين والمدرعات والطيران يستطيعون أن يمنعوا أى تقدم مصرى فى الجنوب، وطالما فشل المصريون فى تحريك بطاريات صواريخ سام الى الضفة الشرقية، فإن هذه المنطقة ستكون تحت سيطرة طيراننا وكانت المنطقة ما بين خليج السويس وشرم الشيخ هدفا للقصف المصرى، وبعد خمس دقائق من بدء الحرب قصف المصريون المواقع العسكرية فى الجنوب واشعلوا النيران فى خزانات البترول فى أبو رديس، حيث اشتعلت النيران فى ثلاثة خزانات، وقتل سبعة من جنودنا وجرح عدد آخر، وكان اكبر نشاط قام به المصريون فى هذه المنطقة هو ارسال ثلاث كتائب كوماندوز بالقوارب والهليكوبتر يتراوح عددهم بين ٧٠٠ و٨٠٠ رجل فى المنطقة بين رأس سدر وأبو زنيمة، وقد فشلت هذه العملية تماماً.

وكانت تحصيناتنا العسكرية فى هذا المثلث الجنوبى قوية ومحصنة وأى محاولة لاقتحامها ستكون صعبة، أما شرم الشيخ فقد قمنا بتحصينها تماماً

بعد الاستيلاء عليها فى ١٩٦٧ وكنت مؤمنا ان المصريين لن يستطيعوا الاستيلاء عليها وآمل ألا تتخلى حكومة اسرئيل عنها مطلقا.

وكانت هناك اهداف أخرى على خليج السويس قد تجذب العدو لتخريبها أو احتلالها، مثل ابو رديس التى قام المصريون بإشعال الحرائق فى خزانات البترول فيها، والان وبعد اسبوع من الحرب فإن تواجد لواء المظلات الاسرائيلى مدعما بالمدرعات قد غير الموقف تماما فى هذا القطاع، وكان ولدى الاصغر عساف يخدم على مدفع مورتار ثقيل مع قوات المظلات فى هذه المنطقة وحكى لى عن الاشتباكات مع قوات العدو ومطاردة الكوماندوز المصريين، وأخبرنى ايضا عن ضباطه فقد كان قائده الذى استدعى من الاحتياط من أنشط أعضاء أحد الاحزاب اليمنية المعروف عنها عداؤها الشديد للدول العربية، اما نائبه فقد كان يساريا متطرفا يحبذ التنازل عن الاراضى للعرب ورغم اختلافهما السياسى فقد كانا متفاهمين فى الامور العسكرية وخاصة فيما يتعلق بمطاردة الكوماندوز المصريين وضرورة القضاء عليهم تماما.

ولم يعد السؤال الان فى الجبهة الجنوبية دفع المصريين الى الوراء، وانما: وماذا بعد؟.

وكنت أحاول البحث عن امكانية احتلال جزء فى الضفة الغربية أو غرب خليج السويس، اذ كان ايقاف اطلاق النار محتملا فى أى لحظة، وبالنسبة للجبهة الشمالية فقد دفعنا السوريين الى ما خلف خطوط ١٩٦٧، وكبدناهم خسائر فادحة، اما فى الجبهة الجنوبية فقد احتل المصريون شريطا بطول الضفة الشرقية لقناة السويس، واذا لم يكن بمقدورنا دفعهم مرة ثانية الى الضفة الغربية فى الحال، فلا بأس من محاولة احتلال جزء من ارضهم فى غرب القناة وعندئذ يمكن ان يكون لدينا شىء نساوم به.

ورفض بارليف ان يوافق على هذا التقدير للموقف فأكدت له أنه يمكن

نقل قوات من الجبهة الشمالية الى الجنوبية، عندها وافق بارليف.

وبدأنا نستعرض الاماكن الصالحة، واقترحت الحافة الجنوبية لخليج السويس، لكن العقبة كانت فى حتمية اعتمادنا على الامداد البحرى، وطلبت التفكير فى موقع يمكن احتلاله مع اقامة جسر برى يصلنا بقواتنا فى المؤخرة، وعلى أية حال فإن الخط الرئيسى لحركتنا القادمة أصبح واضحا الان فسواء فى الجولان او سيناء، كان لابد وان نبدأ الهجوم، وفى اجتماعى مع رئيسة الوزراء فى نفس الليلة اقترحت ان تقوم قواتنا بهجوم على الجبهة السورية وتتقدم نحو دمشق، ولم يكن لدينا الرغبة فى احتلال دمشق أو قصفها، وانما مجرد الحصول على ارض أخرى خلف خطوط ١٩٦٧ وان نجعلهم يشعرون ان دمشق فى خطر، وكانت الخطة تقضى بأن نبدأ هجومنا يوم ١١ أكتوبر (تشرين الاول) صباحا، وان نقوم بضربة جوية نحطم خلالها المطارات وبطاريات الصواريخ حتى تصبح السماء خالية أمامنا.

وكنت قبل اجتماع الليلة مع رئيسة الوزراء قد عقدت اجتماعا مع رئيس الاركان لفحص مشاوراته مع ضباطه، قبل ذلك بدون حضورى، وحضر هذا الاجتماع مع رئيسة الوزراء وزيران دعتهما ورئيس الاركان ونائبه الجنرال طال ورئيس المخابرات وقائد الطيران، ولم تكن هذه الاجتماعات طويلة فقط ولكنها كانت شاقة، فقد وصلنا الى مرحلة نعلم فيها ما الذى نريده فى الخطوة القادمة، وماذا يجب أن نفعل وكيف فى كلا الجبهتين، وما الحل، اذا قرر مجلس الامن ايقاف اطلاق النار؟ وماذا نفعل لمنع تدخل الاردن والعراق اذا حدث؟ وهل نستطيع الاستمرار فى القتال اذا طال؟ وكان السؤال الرئيسى كيف نستغل جهودنا المتفوقة؟ وهل هناك امكانية توجيه ضربة قوية لأى الجبهتين؟.

كان الجيش السورى الآن فى وضع سيئ فقد دمرنا ثلث قوته الهجومية وتشكيلاته الاقتحامية، وكان التوتر على المسرح الدولى قد بلغ مداه، وخاصة

بين روسيا والولايات المتحدة اللتين كانتا تزودان المتحاربين بالاسلحة، وابلغنا ممثلنا فى واشنطن ان الامور تسير نحو صدور قرار من مجلس الامن - بعد تصاعد الضغط الدولى - بوقف اطلاق النار بدون شروط، وكان ذلك نصرا للعرب إذ يتم تجميد المكاسب التى حققوها.

وكنا نحتاج لعدة أيام أخرى لتغيير الموقف على الجبهات لصالحنا وكان علينا ان نحقق نتائج سريعة قبل ايقاف اطلاق النار الذى نتوقع ان يتم فورا، اما الاردن فقد انتهت الاراء الى انها بعد ان رأت ما حدث لسوريا فلن تدخل الحرب ولن تفتح جبهة جديدة، الا ان قواتها الموجودة على الجبهة السورية سوف تحارب فى صف القوات السورية.

وعندما عدت من الجبهة الجنوبية فى يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الاول) وجدت رئيس الاركان عائدا من الشمال فى حالة سيئة فقد فشلت تشكيلات دان ورافويل فى التقدم، اذ كان خط الدفاع السورى أقوى مما كان قبل الحرب، صحيح ان لدينا تشكيلات مدرعة فى الشمال لكنها كانت أقل من المستوى الجيد، وكان من المحتمل ان يتم اصلاح أكثر مدرعاتنا خلال الليل، الا ان قواتنا كانت متعبة وكان رجالنا يسقطون نائمين كلما توقفوا فى أى مكان الى ان يتم ايقاظهم لتلقى الاوامر الجديدة، وكان يجب ان ندخل فى حساباتنا خط الدفاع الخاص بنا فى الشمال، فلو اننا تقدمنا لخمسة او عشرة اميال لتعرضنا للخطر وبرغم كل هذه العوامل، فقد استقر الرأى فى هذا الاجتماع مع رئيسة الوزراء على توجيه ضربة موجعة للسوريين قبل وقف اطلاق النار.

ووصف نائب رئيس الاركان الجنرال طال، الموقف على الجبهة المصرية، واقترح ان نركز نشاطنا على الجبهة المصرية التى ما زالت قادرة على العمل مع تجميد الجبهة السورية التى لم تعد فى استطاعتها التحرك.. صحيح اننا لم نكن سنتمكن من نقل قوات من جهة لأخرى، غير اننا بتحركات تكتيكية

كنا نستطيع شن هجوم ساحق على المصريين وتحقيق تغيير جذرى فى مسار الحرب، وكنت أكثر الموجودين تفاؤلا بالنسبة للجبهة الجنوبية وان المصريين لن يستطيعوا التقدم نحو الجنوب، ويجب علينا اعداد قواتنا لهجوم، الهدف منه احتلال منطقة غرب القناة، وكان تقديرى اننا سوف نفعل ذلك وفى كل الاحوال فإن المرحلة الحالية تتطلب الهجوم الفورى على الجبهة الشمالية، وكنت أشعر بأنه لا يجب صدور قرار بوقف اطلاق النار الآن، فالحرب لا يمكن ان تقف عند هذه الخطوط العسكرية.

■ ■ ■

٣٣ ـ التقدم فى الجولان

وفى الساعة الحادية عشرة صباح ١١ أكتوبر (تشرين الاول) ووفقا للخطة، بدأت قواتنا هجوما فى الجولان، مدعمة بالطيران، على القوات السورية المدعمة بالقوات المدرعة العراقية والاردنية والمغربية، وبدأت قواتنا فى التقدم طوال اليوم التالى وجزءا من اليوم الذى يليه وقضت يوم ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) فى تحسين مواقعنا فى المنطقة التى احتلتها أخيرا وأقمنا خط دفاعنا على مسافة عشرة اميال بعد خطوط ١٩٦٧، وخلال سير الهجوم كنت دائم الزيارة للمواقع الامامية فى تشكيل رافويل عيثان ودان لاندر، وكنت أشجعهم على الاقتراب بقدر الامكان من دمشق لتصبح فى مدى مدفعيتنا، وحتى تكون أوضاعنا جيدة عند صدور قرار ايقاف اطلاق النار ولأننا لم نكن نهدف الى احتلال دمشق، فقد كنا راضين عما حققنا الآن، لأنه كان ملائما للدفاع ضد أى هجوم مضاد، وكانت لهجة الروس قد بدأت تشتد مع استمرار السوريين فى الانسحاب، وكان واجبا علينا الحرص حتى لا ينطلق الدب من الغابة، فقد وصلتنا معلومات أكيدة ان الروس يعبئون ثلاثة تشكيلات لمساعدة العرب، وعلى أية حال فإنه يجب علينا الآن أن نركز على الجبهة المصرية، وان ننقل قوات من الشمال الى الجنوب، بالرغم من أن تقارير المخابرات تقول ان هناك ٩٠٠ دبابة مازالت بين خط دفاعنا وبين دمشق من بينها دبابات عراقية وأردنية ومغربية.

وبعد نجاح هجومنا المضاد على الجبهة السورية فى ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) انتقل التركيز العسكرى الى الجبهة الجنوبية، ومع وجود القوات المصرية على الضفة الشرقية، كان لابد من تغيير الموقف حتى نؤكد

للمصريين انهم لم يحققوا اهدافهم من شن الحرب علينا.

وبعد مناقشات طويلة قررنا عبور القناة والتمركز على الضفة الغربية منها، والوقوف على الطريق الى القاهرة وكنا نتوقع ان يشن المصريون علينا هجوما مكثفا فى الضفة الشرقية، ولذا قررنا انه من الحكمة ان ننتظر عدة ايام للاشتباك معهم هنا أولاً ثم عبور القناة، وهجم المصريون بالفعل يومى ١٣، ١٤ وفقدوا مائتى دبابة.

وفى يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) أصدرت قيادة الجبهة الجنوبية امرا بالاستعداد للعبور، وحددت الساعة السابعة مساء اليوم التالى لتنفيذه، وحددت نقطة العبور بمنطقة الدفرسوار شمال البحيرات المرة الكبرى، بحيث تعبر تشكيلات اريك شارون، ويقوم تشكيلان آخران باحتواء قوات الاعداء على الضفة الشرقية، وكان على تشكيل اريك ان يفتح ممرا عرضه ميلان ونصف الميل باحتلال طريق رئيسى هناك يدعى المزرعة الصينية، ويقوم لواء مظلات مدعم بالدبابات بقيادة الجنرال دانى مات باحتلال رأس جسر فى الضفة الغربية قبل الصباح ويتم إقامة جسرين: ويعبر أولاً تشكيل اريك ويطهر المنطقة ويحمى رؤوس الجسور على الجانبين، ثم يعبر تشكيل برن ويتقدم جنوبا فى اتجاه خليج السويس.

وبإقرار الخطة شعرت ان هذا التحرك العسكرى صحيح، وبرغم إدراكى للصعوبات فإننى كنت اثق تماماً فى أن أريك سينجح، وكنت أعرف أريك شارون منذ خمسة وعشرين عاماً عندما كنت قائدا للجبهة الشمالية عام ١٩٥٢، كان يعمل معى رئيساً لمخابراتى وكان بن جوريون يكن اعجابا يصل الى حد العبادة لثلاثة من الجنرالات هم حاييم لاسكوف وعساف سمحونى واريك، وكان يرى فيهم تجسيدا لحلم اسرائيل اليهودى، فهم يمثلون اليهودى الذى يحارب من أجل ارضه بشجاعة وثقة ولم يكن بن جوريون يعجب إلا بفترة المعبد الأول (من القرن العاشر حتى السادس قبل الميلاد) فأيامها كان

هناك اليهود الذين عاشوا فى الارض وزرعوها وحاربوا من أجلها.

ولم أكن أعرف قائدا ميدانيا قديرا مثل اريك، وان لم يكن ذلك يعنى اننى لم أكن انتقده، وعندما عينته قائدا لوحدة المظلات ١٠١ أخبرته أنه ليس عليه فقط ان يعرف كيف يهزم العرب، بل عليه أيضا أن يعرف كيف يتعايش مع اليهود، فلطالما تشاجرنا سويا، وعندما كنت أشعر بأننى سوف اقتله، فقد كنت على الأقل أشعر بأنه يستحق القتل.

وكان عبور القناة هو ثالث صدام خطر مع المصريين، الاول عندما عبر المصريون القناة وبدأوا هجومهم فى وقت لم تكن فيه قواتنا متمركزة فى مراكز قتالية جيدة، والثانى خلال الهجوم المضاد يوم ٨ اكتوبر حيث لم تكن خطتنا جيدة ولم يدر القتال كما كان يجب ان يدور، وفى هذه المرة كان بارليف واريك وبرن على اهبة الاستعداد للقيام بالعملية بأسلوب مثالى، ولم يكن ميزان القوى فى صالحنا، فالمصريون لديهم ٧٥٠ دبابة فى الضفة الغربية و٦٥٠ دبابة فى الضفة الشرقية و٥٠٠ طائرة حربية، وفى يوم ١٥ أكتوبر طرت الى الجنوب لأكون مع الوحدات ساعة بدء العملية فى السابعة مساء، وبدأ أريك هجومه بهدف اختراق الخطوط المصرية والاستيلاء على الدفرسوار وسبق العملية قصف جوى وبرى ووصلت المظلات بقيادة دان، الى القناة وعبرتها فى زوارق مطاطية على ان تتبعها الدبابات.

وبعد ساعة ونصف من بداية الهجوم، طلبت اريك تليفونيا وطلبت منه ان يرسل لى سيارة جيب للحضور اليه، فأخبرنى ان الطريق مغلق واتفقنا على انه سيرسل لى السيارة بمجرد ان تكون هناك امكانية لذلك وأخذ يصف لى الموقع الذى يمر به الآن فى محاولة لإخفاء توتره، وعند منتصف الليل وصلت انباء جيدة وأنباء سيئة.. كانت الأنباء الجيدة هى التى ارسلها اريك من انه قد احتل الجزء المتاخم للقناة والمعد للعبور.. أما الانباء السيئة فهى ان الطريق اليه قد أغلق، وان معدات الجسور لا تستطيع الوصول الى حافة القناة، وبالاضافة الى

اعطال فنية فى المعدات تحتاج على الاقل لساعة لإصلاحها، وكانت وجهة نظرى انا وبارليف ان نستمر فى العبور حتى ولو لم تصل الجسور.

وفى الساعة ١,٢٠ صباح يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) جاءت الاشارة (قوات دان على حافة المياه) وبعد دقائق جاءت الاشارة الثانية (قوات المظليين فى الضفة الغربية) ولم استطيع أن أمنع قلبى من الاسراع فى دقاته.

وفى الساعة ٦,١٥ صباحا اتصلت بنا رئيسة الوزراء وبدأت ابلاغها بالأخبار السيئة: فالجسور لم تركب والطريق مغلق بالوحدات المصرية، لعزل رأس الجسر الذى أقمناه ونحن نأمل فى دفعهم الى الوراء وإحضار الكبارى ناحية مياه القناة واقامتها خلال هذا اليوم، ولكن قوات المظلات الان على الضفة الغربية على القناة ونحن لن نستعيدها الى الوراء مرة اخرى، حتى لو تأخرت الجسور، وكانت رئيسة الوزراء تخشى عزل هذه القوات، وتلك نقطة دارت حولها مناقشات كثيرة فى اجتماع مجلس الوزراء.

وعند الفجر كانت هناك عدة قوارب فى الماء تحمل بعض الدبابات للضفة الغربية، وعلى الناحية المضادة أصبح واضحا ان اغلاق المصريين للطريق أصبح يشكل خطورة فى الموقف، وفى الساعة الثامنة صباحا عاد رئيس الاركان الى تل ابيب، بينما قررت انا البقاء فى الجنوب.

وزرت برن وكانت تحت قيادته ثلاثة ألوية، ولو ان تشكيلاته دخلت فى العملية من الليلة الماضية كما كان مخططا لكانت الآن فى غرب القناة، ومنذ اغلاق الطريق تم تكليفهم بمهمة أخرى، وهى فتح طريق آخر لاحضار معدات الكبارى وجعلها تتقدم الى حافة القناة، وفى هذه الاثناء كانت تدور ثلاث معارك.. كتيبة دانى ومعها ٢٨ دبابة من تشكيل اريك تخوض معركة غرب القناة تحتل وتفتح الطرق وتؤمن رأس الجسر هناك، وبقية تشكيل اريك كان يخوض معركة عند خط المياه على الضفة الشرقية، وكانت تلك هى اكثر المعارك عنفا، لانها كانت عند نقطة العبور، ولم يكن المصريون قد فهموا ما

الذى تفعله قواتنا على الضفة الغربية فقد كانوا يظنونها مجرد غارة.

أما المعركة الثالثة فكان يشنها (برن) بالضغط من ثلاثة اتجاهات أولها على الجيش الثانى فى الشمال محاولا الالتفاف حوله، وفى اتجاه الجنوب للضغط على الجيش الثالث ومنع اى امدادات ناحية منطقة الجسور، وفى الغرب فى اتجاه المزرعة الصينية لتوسيع الممر الى رأس الجسر والاتصال بقوات اريك، وكانت المعركة فى جبهة القناة تتميز بكثافة النيران وانها معركة محترفين، ولم يكن المصريون فيها هم القوات الخائفة كما كانت منذ سبع سنوات، وكانت قيادة (برن) المتقدمة عبارة عن سيارتى نصف جنزير وعدة سيارات جيب متجمعة على تل رملى يشرف على منطقة القناة على مسافة سبعة أميال، وكانت الدبابات التى تحاول ان تتقدم ناحية القناة تشتعل أو تضرب أو يهجرها أطقمها متجهين نحونا على اقدامهم بحثا عن مخرج تحت قصف مركز من مدفعية الاعداء.

وحاول برن أن يتقدم بلواءاته من ناحية الاجنحة، ولكنه فشل، فقد تمركز المصريون فى مواقع دفاعية ممتازة وخاصة فى المزرعة الصينية وكانوا يطلقون موجات قوية من القذائف المضادة للدروع كلما حاولت أى قوات مدرعة الاقتراب منهم، وبدأت أعداد الدبابات المصابة تتزايد، وقرب المساء عرف برن أن القوات أصبحت عاجزة عن طرد المصريين وبالتالى عن فتح الطريق، وبعد مشاورات مع القيادة الامامية قررنا ان نهاجم المزرعة الصينية أثناء الليل بقوات المشاة بواسطة لواء المظلات بقيادة (عوزى من القطاع الجنوبى)، وتركت برن فى قيادته المتقدمة لأعود الى تل أبيب.

وعندما اتصلت تليفونيا بياريف صباح اليوم التالى سمعت نغمة منتشية فى صوته وقال لى (لقد فتحنا الطريق.. عوزى وبرن قاما بعمل جيد هذه الليلة، وقد دفع برن بقواربه الى الامام، والمقدمة فى الماء الان).

وقد سمعت بعد ذلك فى القيادة الجنوبية ان معركة الليلة كانت من

اصعب المعارك الوحشية وان لواء المظلات بقيادة عوزى قد تكبد خسائر فادحة وقد تم سحبه من المزرعة الصينية فى الصباح بواسطة المدرعات وعندما خططنا للعملية، كان هناك اعتقاد بأن هناك عدة فصائل من صائدى الدبابات فى منطقة المزرعة الصينية وانهم قد يجدون مخابئ فى الدشم الكثيرة الموجودة بهذه المنطقة، وفى الحقيقة فإن النظام الدفاعى الممتاز، المزود بالاسلحة المضادة للدبابات والمورتار، كان من اكثر العوامل فاعلية فى قتال المصريين فى هذه المعركة، فعندما وصلت كتيبة المظلات الى منطقة المعركة فى العاشرة مساء، بعد رحلة من جنوب سيناء دخلت الى العمل مباشرة بعد منتصف الليل.

وفى الساعة الثانية والنصف صباحا، التقوا مع المراكز الدفاعية المصرية وفى خلال لحظات كانت المنطقة مغطاة بنيران مكثفة من خلال قصف مدفعى مركز وبسرعة تبين ان هذه النيران المركزة تأتى من عدة فصائل من صائدى الدبابات، ولكنها كانت منتشرة ومتماسكة وغير قابلة للاختراق، وقد قتل على الفور قائدان من قادة المجموعات وجرح الثالث واصبحت نيران العدو اكثر قوة وارتفعت خسائرنا، ورغم هذا اندفع رجالنا فى اقتحام المواقع، ولكن نظام دفاع العدو كان ممتازا فاذا سقط الخط الاول يستمر الثانى فى العمل، وفى تشديد القصف على قوات المظلات، واضطرت الكتيبة الاسرائيلية ازاء هذا الموقف الصعب الى ان تطلب مساعدة المدفعية والمزيد من الدبابات.

قبل الفجر بقليل، فى الساعة الرابعة والنصف صباحا، تلقت احدى كتائب المدرعات الاوامر للتوجه فورا لقوات المظلات واخلائها، لم يكن هناك وقت لتضييعه، فتقدمت الكتيبة فوا من أقصر طريق بعد ان طلبت من المظليين اظهار اماكنهم بقنابل الدخان، وقام المظليون بتقسيم انفسهم الى مجموعات صغيرة بين ١٥ ـ ٢٠ رجلا للاختباء فى منطقة تبعد ٥٠ ياردة عن

مئات الجنود المصريين المزودين ب (ر. ب. ج) (الكلاشنكوف) وعندما اقتربت المدرعات خرجت المدرعات المصرية لمقابلتها وجرى تبادل عنيف فى اطلاق النيران وانسحبت دبابات العدو، بينما ظلت نيران المشاة المصريين فى تزايد.

وقتل الطبيب ومساعداه الذين حضروا مع الكتيبة المدرعة وتقدمت الدبابات واقتحمت مواقع مشاة العدو، وأخذت حاملات الجنود المدرعة فى سحب الجرحى الى الوراء تحت غطاء نيران مدفعية الدبابات وأصيب خمس دبابات وحاملتان للجنود، وقرر قائد كتيبة المدرعات الانسحاب قبل ان يخسر بقية القوة، وفى حوالى الساعة الخامسة والنصف صباحا انسحبت المدرعات، ولكن اتضح ان هناك دبابات لم تهرب فنائب القائد الذى اصيبت مجموعة دباباته، ظل فى الميدان ومعه سبعة جنود اختبؤوا بين دباباتين مضروبتين ثم جرت بعد ذلك معركة انقاذ آخر الجرحى وقادتها مجموعة من لواء (ناتكى) ومجموعة من لواء (امير)، واستمرت عدة ساعات، ومع ان (عوزى) قد أبلغ انه لم ينجح فى دفع المصريين الى الوراء، وانه اضطر الى سحب قواته من ميدان القتال، الا انه نجح فى الحقيقة فى مهمته، بينما كان المصريون مشتبكين فى هذه المعركة، فإنهم توقفوا عن التدخل فى الحركة على الطريق الاحتياطى، وهذا ما ساعد برن على تحريك قواربه الى الامام وفى الساعة السادسة صباحا وصل الى خط المياه عند رأس الجسر، واتصل بقوات ايريك.

طلبت من اريك ان يلحق بى فى قيادة برن، فى الساعة الثانية عشرة والنصف، وبعد نصف ساعة وصل رئيس الاركان وتوجهنا الى حفرة مجاورة، هناك بين الرمال الساخنة نصف جالسين ونصف مستلقين، عقدنا مجلس حرب يضمنى واليعازر رئيس الاركان وبارليف واريك وبرن وناقشنا الخسائر الفادحة والضغوط المستمرة علينا من القذف الذى كان يجعلنا حتى فى هذه اللحظات نرفع أصواتنا بالاضافة الى ان العلاقات بين بارليف واليعازر من

جانب آخر لم تكن جيدة، كان تقدير اريك للموقف يختلف تماما عن تقدير تلك الرتب الكبيرة وأسوأ ما فى الامر هو انعدام الثقة المتبادل فيما بينهم فقد كان ايريك يؤمن بأنهم يتآمرون ضده وانهم كانوا لا يثقون فى تقايره عن المعركة وفى تفوق ضباطه وكانوا يتهمونه بعدم تنفيذه لاوامرهم، وان دوافعه الشخصية هى التى تسيطر على كل نشاطه، وانه يكسر حدود النظام، من افريقيا، كما كان يسميها بعد العبور مباشرة وكان يتكلم تليفونيا مع اصدقائه.

وعندما وصل اريك الى اجتماعنا كان رأسه مربوطاً فقد اصيبت جبهته بشظية دانة، وكان وجهه يحمل علامات المعركة والواقع انه هو وتشكيله قد قاتلا بشجاعة نادرة متكبدا خسائر رهيبة ولكنهم لم يتراجعوا اطلاقا عن تحقيق هدفهم، وقد احتل رجاله رأس الجسر المصرى فى الضفة الشرقية خلال معركة مدرعة وحشية، وفى هذه المعركة قتل أكثر من مائتي رجل فى لواء امنون، كما قتل جميع قادة المجموعات مرتين، فبعد ان قتل القادة الاصليون، قتل ايضا بعد ذلك القادة الذين حلوا محلهم، فأصبح القادة الحاليون هم الصف الثالث، وقد ضربت معظم الدبابات واحترقت أو دمرت، وتركت محترقة عند الاستحكامات القوية والمزرعة الصينية.

وكان السؤال الأول فى هذا الاجتماع هو: هل يتقدم برن بتشكيله لعبور القناة بمجرد اقامة الجسر؟ وكنت انا شخصيا فى صف ذلك لأنى كنت أتصور أن الجسر فور اقامته سيتعرض للضرب باستمرار والسقوط، وكان رأى بارليف أن هناك جزءا من قوات برن يخوض الآن معركة، ولا بد ان يأخذ قسطا من الراحة قبل أى عملية جديدة وفى نفس الوقت بدأ العدو بقصف مكثف على رأس الجسر، وأبلغنا مهندسونا ان الجسر سيصبح معدا للاستخدام بعد الظهر بدلا من الساعة الحادية عشرة صباحا، وسيسمح ذلك بأن ينهى برن معركته قبل هذا الوقت ويستعد للعبور.

ولم يوافق اريك على هذا، وطبقا لما قاله فإن هناك قوة مصرية يتم

تنظيمها على مسافة ستة أميال من المعبر، ولهذا فلابد من العبور بأسرع ما يمكن قبل ان يحكم المصريون الحلقة حول رأس الجسر الغربى، وبالنسبة للثلاثين دبابة التابعة لاريك التى عبرت فقد أصيب ثلاث منها، ولكنه ظل يحتفظ بدبابات اضافية على الضفة الشرقية، واراد ان ينقلها الى الضفة الغربية على القوارب، ولكن قيادة الجبهة الجنوبية اعترضت على هذه الفكرة ووافق بارليف على نقل دبابات اضافية قبل اقامة الجسر، على ان تكمل القوة فى الضفة الغربية الى مستوى اللواء.. أما بقية الدبابات فتتحرك بعد اقامة الجسر مباشرة، وظل اريك يطالب بتحريك فورى للدبابات على القوارب حتى يمكن ان يكون لنا اربعة لواءات قبل منتصف الليل على الضفة الغربية وأيد رئيس الاركان بارليف فى وجهة نظره الخاصة بنقل دبابات بالقوارب لزيادة القوة على الضفة الغربية الى مستوى اللواء فقط ونقل الباقى عندما يقام الجسر، وكان برن متشوقا لعبور القناة بسرعة ووعد بإنهاء المعركة فى أسرع وقت، وان يكون على الجانب المصرى فى المساء فانتهى الاجتماع فى الثانية بعد الظهر، وتوجهت مع اريك الى نقطة العبور.

وكان الموقع تحت أنظار المصريين الذين بدؤوا فى القصف المركز، وبالرغم من ذلك فقد استمرت قواتنا فى العمل، فالرجال الذين أصيبوا تم إخلاؤهم، والقوات التى أصيبت استبدلت بغيرها، وبنات البلدوزرات تعمل لإقامة الجسر، وعبرت مع ايريك للضفة الغربية الى تختلف تماما عن الضفة الشرقية بكثرة المزارع فيها، وهنا (فى أفريقيا) أراد اريك ان نتسلق سطح احدى المدرعات، ولكننى فضلت السير على الاقدام غربا فى عمق اراضى العدو وأخبرنى اريك انه ترك مع (دانى مات) سبع دبابات للدفاع عن رأس الجسر، بينما الباقية وهى تزيد على عشرين موجودة فى النقطة الامامية، وأخبرنى انه فى اليوم السابق تم تدمير أكثر من عشرين دبابة وبطاريتى صواريخ على الضفة الغربية.

وعندما عدت للضفة الشرقية، كان الجسر معدا، والعوامات متصلة ببعضها بين الضفتين وكانت الساعة الرابعة عندما عدت من الجبهة الجنوبية الى تل أبيب، وأوفى برن بوعده، حيث أنهى معركته بسرعة وقد اصابت قواته خمسين دبابة من قوات العدو ولم تفقد ولا دبابة، وفى الساعة العاشرة مساء بدأ تشكيله فى عبور القناة، وفى السادسة صباحا كان قد تقدم لمسافة ستة اميال، وتقدمت القوات على طريقين أحدها غربى فى اعماق مصر والثانى بمحازاة القناة جنويا فى اتجاه قاعدة فايد الجوية، وسألت بارليف هل كل شىء يسير على ما يرام؟ وأجاب بنعم، ولكنه أضاف بحرص بارليف المعروف كل شىء سيتضح خلال ٤٨ ساعة.

وحرصت على زيارة المزرعة الصينية، فوجدت فيها مشهدا لا يمكن ان انساه، بل لم اره فى حياتى من قبل ولا حتى فى افلام السينما فها هى آثار المذبحة التى حدثت ومازال الدخان يتصاعد من بقاياها كدليل حى على المعركة الرهيبة التى دارت رحاها فى هذا المكان.

وفى الايام التالية للعبور جرت معارك قاسية على كلتا الضفتين ولكن فى كل ساعة تمر كنا نزيد من قواتنا فى الضفة الغربية، لان المصريين مازال لديهم الف دبابة منها خمسمائة على كل جانب، ولكنها تمركزت للدفاع واستطاع رأس جسرنا على الضفة الشرقية ان يقطع الاتصال بين قوات الجيشين الثانى والثالث، وفيما يشبه الدائرة على الضفة الغربية، انتشرت القوات المصرية من القنطرة الغربية شمالا حتى خليج السويس جنوبا، ولكن الاهم من ذلك كله ان مفتاح التغيير فى مجريات الحرب أصبح الان بيدنا نحن.

وقد أثر هذا التغيير العسكرى على المسرح الدولى، ففى ١٩ أكتوبر (تشرين الاول) أخبرنا سفيرنا فى واشنطن ان هناك مباحثات مجموعة بين الامريكيين والروس للاشتراك فى العمل على ايقاف اطلاق النار عن طريق مجلس الامن واصبح واضحا انه لم يبق سوى عدة ايام على نهاية الحرب،

وطلبت رئيس الاركان والضباط الكبار لاجتماع فى هذا الصباح، وقررنا فى هذا الاجتماع ضرورة احتلال موقع جبل (الشيخ) فى الجولان، وتحسين خطوطنا فى الجبهة المصرية، قبل الموافقة على ايقاف اطلاق النار، واجتمعت مع رئيسة الوزراء وعرضت عليها الخطوط النهائية التى يجب ان نصلها قبل ايقاف اطلاق النار.

وعندما توجهت الى الجنوب لمقابلة اريك كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباح ١٩ اكتوبر (تشرين الاول)، وحاولت الوصول الى مقر قيادة اريك بالضفة الغربية بالهليكوبتر التى فشلت فى العثور لها على مكان صالح للهبوط، فعدت مرة أخرى الى الضفة الشرقية وطلبت من قائد الطائرة الهبوط شمال البحيرات المرة شرق القناة وأخذت سيارة لأعبر بها الجسر وقبل أن أصل الى رأس الجسر وقعنا تحت نيران المدفعية الثقيلة، وكان من المستحيل الاستمرار لان الطريق مغلق بالسيارات المحترقة وانتظرنا بعض الوقت لنتحين فرصة ولكن الطائرات المصرية بدأت تقصف القافلة التى تمر على الجسر وأشتد القصف عنفا واقترح علىَّ مساعدى العودة الى تل ابيب، ونجح فى اصطياد عربة قيادة مرت بأعجوبة من خلال القذائف والعربات والمدرعات المحترقة.

كنت أكثر حظاً فى اليوم التالى السبت ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول) فى زيارة الضفة الغربية، وفى احدى القيادات المتقدمة التقيت ببرن واريك والجنرال كالمان ماجن الذى حل محل الجنرال البرت ماندلر الذى قتل فى اليوم الثامن من الحرب، وكان واحدا من أفضل جنود اسرائيل وخلال الزيارة حرصت على حث اريك وبرن وماجن على تحقيق الاهداف المطلوبة بأسرع ما يمكن لأن ايقاف اطلاق النار سيحدث خلال يوم أو يومين وأخبرتهم عن رحلة كيسنجر لموسكو وان الروس يحاولون دفع الامريكيين الى الموافقة على ايقاف اطلاق النار مع عودتنا الى حدود ما قبل الحرب، وفى نفس الوقت

فإن عدة دول بدأت ترسل الى مصر كميات هائلة من الدبابات والصواريخ لتعزيز قواتها فى الحرب، وفى زيارة أخرى للضفة الغربية يوم ٢١ اكتوبر (تشرين الاول)، طلبت مقابلة الكولونيل عوزى يائيرى الذى خاض معركة المزرعة الصينية بلواء المظلات وتكلمنا عن معركته.. قال له بارليف انه تكبد خسائر فادحة ولكنه فى النهاية فتح الطريق ولكن عوزى قال ان الطريق فتحته المدرعات، وكنت أود أن أقول ان وحدتى فعلت ذلك لكننا خسرنا سبعين رجلا لأننا دخلنا المعركة بسرعة بدون معلومات عن العدو.

وفى الساعة السابعة من مساء نفس اليوم تقابلت مع رئيسة الوزراء لأقدم لها تقريرا عن التطورات ثم توجهت الى مكتبى، وبعد ساعتين طلبتنى بسرعة، وعندما وصلت مكتبها قالت (هذا هو ايقاف اطلاق النار) ففى الساعة الثالثة صباح اليوم سيجتمع مجلس الامن لمناقشة مشروع القرار المقدم من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى بإيقاف إطلاق النار بعد اثنتى عشرة ساعة من صدور القرار، وقد أوصانا الرئيس نيكسون بقبوله واجتمع مجلس الوزراء فى منتصف الليل وقرر الاستجابة لطلب الرئيس نيكسون.

وكانت عملية احتلال جبل هرمون قد بدأت مع غروب نفس اليوم واستمرت خلال الليل وانتهت قبل ظهر ٢٢ أكتوبر (تشرين الاول)، وطلبت من بارليف الاسراع فى احتلال جبل عتاقة غرب خليج السويس فذلك سيجعل موقفنا قويا فى المنطقة الواقعة من الاسماعيلية حتى خليج السويس، بحيث نعزل الجيش الثالث ومدينة السويس، وفى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر نفس اليوم أعلن راديو القاهرة أن الرئيس أنور السادات قبل وقف اطلاق النار الذى يبدأ تنفيذه فى الساعة ٦,٥٨ بعد ظهر نفس اليوم وقد ركز الطيران المصرى هجماته خلال هذا اليوم واليوم التالى على قواتنا شرق القناة واستمرت الوحدات المصرية فى القتال العنيف، ويبدو أن السبب فى ذلك ان سوريا رفضت ايقاف اطلاق النار، وقد أصدر القادة المصريون

الاوامر لوحداتهم باحتلال المراكز الاسرائيلية وحاولوا ذلك فعلا.

وفى الساعة ٦,١٥ صباح اليوم التالى ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) أعلنت سوريا قبولها لقرار مجلس الامن بايقاف اطلاق النار بشرط ان تنسحب القوات الاسرائيلية الى مواقعها قبل حرب ١٩٦٧م.

واستمر المصريون يحاربون فى الارض والجو، وحاولت قواتهم التقدم فى مختلف القطاعات، وفى هذه الحالة اسرائيل أصبحت غير ملتزمة بقرار إيقاف اطلاق النار، واستمرت وحداتنا ايضا فى القتال واشتبكت طائراتنا مع طائرات الاعداء، واحتلت احدى الوحدات جبل عتاقة.

وباحتلالنا الادبية انضمت قوات البحرية لقواتنا البرية وحاصرت القوات البحرية مدينة السويس ومنعت الامدادات عن الجيش الثالث.

وقد قامت بحريتنا بعمل عظيم فى هذه الحرب، ولم تكن اسرائيل فى معاركها السابقة فى حاجة الى الهجوم على سوريا ومصر من البحر المتوسط أو خليج السويس، ولكن قوارب الصواريخ البحرية السريعة هاجمت قوات العدو البحرية واقتحمتها فى براعة واشتبكت مع السفن الحربية المزودة بالصواريخ السوفيتية، وكانت هذه القوارب تقترب بسرعة من السفن وتضربها قبل ان تعد هى صواريخها للاطلاق.

وفى مساء يوم ٢٣ أكتوبر حاصرت قوات برن مدينة السويس والجيش الثالث، وبعد منتصف الليل يوم ٢٣ اكتوبر (تشرين الاول) جاءنى قائد المراقبين فى قوات الامم المتحدة الجنرال سيلاسفو، الذى كان فى القاهرة، وأبلغنى أنه يريد، بناء على تعليمات نيويورك فى ارسال مراقبين للجبهة المصرية لمراقبة وقف اطلاق النار، وقلت له انه يجب أولاً ان يكون هناك وقف اطلاق نار حقيقى، ومن جانبنا فنحن نقبل ذلك، واقترحت ان يتم ذلك فى السابعة من صباح اليوم التالى ٢٤ أكتوبر (تشرين الاول) على ان نتلقى

كلمة من المصريين أنهم يقبلون ذلك ايضا، وبعد أن قمنا بكل استعداداتنا لوقف اطلاق النار فى السابعة صباحا، لم نتلق كلمة من المصريين ولكن جنرال سيلاسفو عاد مرة أخرى الى مكتبى فأعطيته خرائط بمواقعنا بما فيها جبل عتاقة وميناء الادبية وطلبت منه رد المصريين، وعاد سيلاسفو الى القاهرة وفى الساعة ٨,٤٥ صباحا طلبنى نائبه المقيم فى القدس تليفونيا وأخبرنى أنه تلقى إشارة بالراديو الآن من القاهرة تقول (موافقون. موافقون. موافقون) وسألته اذا كان المصريون قد رددوا كلمة الموافقة ثلاث مرات، أجاب بل أربعاً.

وكنت فى يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) عندما طرت لزيارة برن، قد تلقيت من رئيسه الوزراء طلبا بأن أعود الساعة ١,٤٥ اللغداء مع كيسنجر، وبعد هذه الزيارة التى تعرضنا فيها لقصف مركز عدت الى تل ابيب فى وقت مناسب للغداء مع كيسنجر، وكنا نعرف بعضنا من وقت طويل، ومنذ عشرين عاما، وقبل وبعد تعيينى وزيرا للدفاع كنت أراه خلال زياراتى للولايات المتحدة، وكنت متأثرا جدا بحكمته وسعة اطلاعه وذكائه وطاقته الهائلة فى العمل.

لقد حقق الكثير عندما فتح فصلا جديدا فى العلاقات الامريكية الصينية، لكن تفرده بين سابقيه من وزراء الخارجية الامريكية يكمن فى مقدرته على المواءمة بين ذكائه الشخصى وبين القوة العظمى التى تملكها امريكا بكل قوتها.

وخلال الغداء دار الحديث حول ايقاف اطلاق النار والعلاقات الامريكية الاسرائيلية وفوق ذلك امدادات السلاح، وبالنسبة لايقاف اطلاق النار كان شرطنا الرئيسى تبادل الاسرى، ولم يرحب كيسنجر بعنف الصيغة التى طرحناها (اذا لم يكن هناك تبادل أسرى فليس هناك وقف اطلاق النار)، ولكنه وعد بطلب مساعدة الروس فى هذا الامر، وكان الانطباع الذى تكون لدينا ان امريكا تحاول التصرف بحكمة، فلو كنا نحن قد بدأنا القتال مثلا لما

حصلنا على مسمار واحد من الولايات المتحدة، وان القادة الامريكيين لو خيروا بين مساعدتنا والمقاطعة البترولية فى ذلك الوقت لعقدوا اتفاقا مع العرب، ولو على حسابنا، وعلاوة على ذلك فقد وافقت الولايات المتحدة على وقف اطلاق النار حتى لا تستمر الحرب وتسقط النظم العربية المعتدلة لتحل محلها نظم متطرفة، وحتى لا تتدخل روسيا لمنع انهيار حلفائها، وكان رأينا ان العرب قد أدركوا ان الولايات المتحدة هى الوحيدة القادرة على تحقيق حل سياسى للازمة أما من حيث موضوع الاسلحة لاسرائيل فإنه لابد للقادة اليهود فى امريكا ان يعبروا عن التقدير لا أن ينتقدوا الموقف الامريكى كما يفعلون الآن.

وغادرت الغداء بأحاسيس مختلفة لكننى كنت واثقا من ان كيسنجر سوف يبذل جهدا نشطا فى المحادثات مع العرب، وان كنت اعتقد ان محاولة امريكا للاحتفاظ بالعلاقات العربية سوف تتم على حساب اسرائيل عن طريق مزاولة الضغط عليها.

وفى المساء انعقد مجلس الوزراء لمناقشة الموقف بعد وقف اطلاق النار، وتقرر انه ما لم يمتثل المصريون لوقف اطلاق النار فإن الجيش الاسرائيلى (سيطرد العدو من البوابة)، وهو تعبير مأخوذ من التوراة ولكن البوابة هنا تعنى جبل عتاقة.

■ ■ ■

الباب الثامن

مابعد الحرب
(١٩٧٣ـ ١٩٧٥)

عجيب أمر هذا الرجل فهو يكذب وبإصرار، ولكنه نسى أن يطبق المثل القائل (إذا كنت كذوباً، فكن ذكوراً) فبالرغم من اعترافه صراحة بالهزيمة التى مُنى بها جيش إسرائيل والتى زلزلت كيانهم فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ نراه هنا يتصور خيالات وأوهاماً لم يكن لها وجود سوى فى خياله المريض، فلم يكن فى استطاعته كما يدعى أن ينال من الجيش الثالث مهما لفّق من حكايات وأكاذيب وهو يعلم ان جميع المعلقين العسكريين كان لهم رأى آخر وهو ان وضع الجيش الثالث لم يكن سيئا بالصورة التى صورها كذبا (موشى ديان) فى مذكراته بل العكس هو الصحيح، فقد كانت القوات الإسرائيلية فى غرب القناة تحت رحمة الجيش المصرى وكان يمكنه القضاء عليها تماما فى أى لحظة وكلها أمور يعلمها (ديان) جيداً.

٣٤ ـ ضغوط دبلوماسية

بعد موقفنا الاخير جاءت الازمة.

واتضح ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد نسقتا كل الامور بينهما، وتحولت الازمة لتصبح بين اسرائيل والولايات المتحدة، وقد بدأت حينما اتضح للولايات المتحدة ان الاتحاد السوفييتى يفكر جديا فى ارسال بعض قواته النظامية لتحرير الجيش الثالث. وفهمت ان الخطة قد وضعت بحيث تصل هذه القوات الى القاهرة، ثم تتحرك لمهاجمة قواتنا. وفسرت الولايات المتحدة احتمال التدخل السوفييتى على انه تحول خطير، ووضعت الولايات المتحدة يوم ٢٥ اكتوبر (تشرين الأول) قواتها على اهبة الاستعداد. ولم أكن أعلم على وجه التأكيد هل ألغى الاتحاد السوفييتى هذه العملية بعد رد الفعل الامريكى، ام ان الانذار السوفيتى كان من البداية انذارا زائفا. وعلى العموم، فإن الخط الساخن بين موسكو وواشنطن اثبت فاعليته، وانتهت الازمة بين القوتين الكبيرتين.

وفى اليوم التالى، ٢٦ اكتربر (تشرين الأول)، ردت الكرة الينا، فقد ابلغنا الامريكيون ان لديهم معلومات بأننا سنهاجم الجيش الثالث وقالوا ان ذلك يعد خرقا لاتفاقية وقف إطلاق النار. ولم نفهم مدى الخطوات الخطيرة المحتمل ان تتخذها الولايات المتحدة ضدنا. وبعد نصف ساعة من قيامنا بارسال إنكار شديد حول هذا الهجوم، زاعت سفارتنا فى واشنطن تصحيحا يقول ان الامريكيين قد أكتشفوا أن المصريين ـ لا نحن ـ هم الذين يواصلون العمليات العسكرية، ولكنهم اضافوا أن المشكلة الرئيسية فى الوقت نفسه هى وضع الجيش الثالث وأن الأمريكيين لا يسمحون بتدمير هذا الجيش أو بتركهم يموتون جوعاً أو عطشاً، أو بأسر افراده. واذا لم يتلق الجيش الثالث امدادات بأى طريق فإن السوفييت سيتولون إرسال هذه الامدادات. وقالوا إن هذا التحرك لو حدث يعد تدخلا

عسكريا، ويدفع الامريكيين الى مواجهة جديدة مع الاتحاد السوفييتى.

وبدأت اتصالات تليفونية لا نهاية لها بين واشنطن والقدس وبينما كان مجلس الوزراء الاسرائيلى منعقدا، قدم الامريكيون طلباتهم فى شكل انذار، مما دفعنا الى السماح لقافلة تتضمن مائة سيارة نقل مصرية بالعبور خلال خطوطنا تحمل الامدادات غير العسكرية الى الجيش الثالث، تجنبا لحدوث ازمة بيننا و بين الولايات المتحدة. وكانت تلك نهاية حصار الجيش الثالث الذى استمر من ٢٣ حتى ٢٦ اكتوبر (تشرين اول). وبعد ذلك بعدة ايام طلب الرئيس نيكسون شخصيا السماح بمرور خمسين سيارة اخرى من الامدادت، ثم جاء طلبه الثالث أن من الأفضل خلال الوقت الذى يجرى فيه كيسنجر محادثاته فى القاهرة، ان تصل امدادات بانتظام للجيش الثالث وقال الرئيس إنه إذا لم يحدث ذلك فإنه يشعر أنه لن يكون هناك أى تأثير على القاهرة لإجراء محادثات حول مسائل أهم بكثير من الجيش الثالث، وقد صاغ الرئيس الامريكى طلباته وفق العلاقات (الخاصة جدا) بين اسرائيل وامريكا، وهو الوصف الذى كان ابا أيبان يطلقه على هذه العلاقات عندما كان سفيرا فى واشنطن.

وكان موقف الجيش الثالث السيئ يوم ٢٦ اكتوبر هو الذى أوصل الحرب الى نهايتها. وكانت أول خطوة هى قرار مجلس الأمن بإنشاء قوات دولية للطوارئ، على ان يقدم السكرتير العام للأمم المتحدة تقريرا عن التطورات خلال ٢٤ ساعة. ووافقت مصر واسرائيل. وابلغنا الامريكيون انهم قد اتفقوا مع الروس على عدم اشتراكهم هم والروس فى قوات الطوارئ. وكانت الخطوة الثانية هى اتفاق مصر واسرائيل على اجتماع ضباطهما الكبار. وكان الغرض كما ذكره المصريون هو أولاً مناقشة الجوانب العسكرية لتنفيذ قرارى مجلس الامن ٣٣٨ و٣٣٩ بإيقاف اطلاق النار، بينما كانت اسرائيل تعتبر هذه الاجتماعات من اجل اهداف اوسع واكثر. وعلى اية حال فإن المواضيع التى ستناقش هى امدادات الجيش الثالث ومدينة السويس وتبادل الاسرى

وموضوع اغلاق باب المندب امام ناقلات البترول.. اما الخطوة الثالثة فكانت تتعلق بامدادات الجيش الاسرائيلى من الاسلحة. ورأت جولدا مائير انها مسألة يجب ان تناقشها شخصيا مع الرئيس الامريكى.

وكانت قوات الامم المتحدة تحت قيادة جنرال سيلاسفو الذى حضر لرؤيتى فى ٣٠ اكتوبر (تشرين اول) وسلمنى الرسالة التالية (الجنرال ديان. لقد أصدر السكرتير العام للأمم المتحدة تعليماته لى فى ضوء طلب مجلس الأمن وفقاً لقراراته ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠ بأن أطلب من إسرائيل أن تعيد قواتها إلى المواقع التى كانت تحتلها الساعة ١٦,٥٠ فى ٢٢ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٣م. وتنفيذا لتعليمات السكرتير العام للامم المتحدة فإننى بوصفى قائداً مؤقتاً لقوات الطوارئ أتقدم إليكم بطلب تنفيذ ذلك) ولم أكن أعتقد بعد أن فشلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى ان يجعلانا ننسحب الى خطوط ٢٢ اكتوبر (تشرين اول) ان هناك اية قوة يمكن ان تجعلنا نستجيب لطلب الامم المتحدة. لكننى على اية حال لم اكن أرى أى ضرر من وجود قوات الطوارئ.

وتقرر ان تبدأ المباحثات العسكرية عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة ـ السويس. ورأس الجانب الاسرائيلى الجنرال أهارون ياريف، والجانب المصرى الجنيرال عبد الغنى الجمسى. وفى الايام الاولى انتهينا من موضوعات الامدادات غير العسكرية للجيش الثالث وموضوع تبادل الاسرى. أما المسائل الاخرى مثل تحديد خطوط وقف إطلاق النار وفتح باب المندب، فلم يكن المفاوضون العسكريون مخولين ببحثها.

وفى نفس الوقت التقت جولدا مائير فى اول نوفمبر (تشرين الثانى) مع الرئيس نيسكون ومع كيسنجر خلال رحلتها الى واشنطن.

ولا يمكن الادعاء بأن الولايات المتحدة كانت متحسمة لزيارة مائير. وهكذا سافرت مائير التى نعرفها والتى تصمم على الحصول على رد ـ نعم أو لا ـ حتى من الرئيس الامريكى.

وكانت الولايات المتحدة مشغولة فى تحركات سياسية ثلاثة فى منطقة الشرق الاوسط كلها فى النهاية لا تخدم اسرائيل. الاول هو محاولة رفع حظر تصدير البترول الى الولايات المتحدة، والثانى تقوية موقف ونفوذ الولايات المتحدة فى الدول العربية وفى مقدمتها مصر والسعودية، والثالث هو ان تبحث بأسلوب هادئ مع الاتحاد السوفيتى حل الصراع بين العرب واسرائيل. وكانت المحادثات فى امريكا ـ فى تصورى ـ صعبة هذه المرة مع نيكسون وكيسنجر.

وعادت جولدا مائير من امريكا، وطار كيسنجر الى مصر ليعرض اقتراح اتفاقية فصل القوات بين مصر واسرائيل.

وفى مصر احرزت الامور تقدما، اذ كان الرئيس السادات فى الحقيقة يريد الوصول الى اتفاق للسلام فى الوقت الذى لم يكن يرحب فيه بتدخل اى من روسيا او امريكا فى بلاده. هذا فى الوقت الذى ظل فيه المتحدث الرسمى المصرى والصحافة المصرية، يرددون ان قواتنا نحن فى الضفة الغربية فى المصيدة.

وكانت الاتفاقية الاولى التى توصلت اليها وساطة كيسنجر بين مصر واسرائيل، لاحقة للمباحثات العسكرية عند الكيلو ١٠١ وتم توقيعها يوم ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) وكانت تتضمن ٦ مواد تتعلق فقط بامدادات الجيش الثالث وتبادل الاسرى. وقبل ذلك بأربعة أيام كان جوزيف سيسكو أحد مساعدى كيسنجر، قد حضر الى القدس ومعه مسودة الاتفاقية التى تقترحها مصر، والتقى مع ممثلين لحكومتنا. وبعد مناقشة لعدة ساعات وادخال بعض التغييرات اتفقنا على قبولها. وفى اليوم التالى نوقشت هذه المسودة فى مجلس الوزراء وتمت الموافقة عليها.

وكانت الاتفاقية تغطى فقط المواضيع العاجلة، اما المسائل الرئيسية التى لم تثر فى الاجتماعات العسكرية فقد عهد بها الى مؤتمر السلام المقترح عقده فى جنيف. وعندئذ فقط احسست بالراحة.

ولم يكن تقدم مباحثات الجمسى وياريف عند الكيلو ١٠١ مبعث سرور بالنسبة لى، فقد كان يبدو لى اننا سنتقدم ببعض التنازلات مقابل لا شىء، ولكن لم يكن فى مقدورى منعها. وكانت النقاط الدقيقة تعرض على مجلس الوزراء لتقديرها واصدار القرارات بشأنها. ولكنى لم اجد دعما وتأييدا لمقترحاتى التى تتضمن ان ننسحب من الضفة الغربية الا اذا عقدنا اتفاقا سياسيا يؤكد تغييرات اساسية فى الوضع، منها حرية الملاحة فى قناة السويس وإعادة فتحها وتحديد القوات على القناة، وإعادة بناء مدن القناة ولم يكن ممكنا تحقيق ذلك خلال مباحثات الجمسى ـ ياريف وبدون وساطة الولايات المتحدة وقبولها المسئولية. ومع كل تحفظاتى على تحرك كيسنجر: فقد كانت مصر متلهفة على خروجنا من اراضيها وهذا هو الوقت المناسب للوصول الى اتفاق عسكرى سياسى معها. وقد يكون هذا ممكنا فى جنيف ولكن بالتأكيد ليس فى الكيلو ١٠١.

وفى منتصف محادثاتنا حول فصل القوات، وفى يوم السبت اول ديسمبر (كانون الاول) فى الساعة العاشرة والنصف صباحا، توفى دافيد بن جوريون. وكنت قد زرته قبل يومين من وفاته بعد ان ابلغنى طبيبه عن حالته. وجلست بجوار سريره وكان يبدو هادئا فقد عاش حياة طويلة عاصفة وها هو يغادرها هادئا. وعندما نظرت اليه فكرت فى انه سينعى ويبكى عليه الجميع حتى الذين هاجموه فى أيامه الأخيرة، سينعيه قادة حزب العمل الذى قاده طويلا وسينعيه محررو جريدة دافار التى انشأها وسيفرقون بين الرجل والقيادة اى بين جوريون والبنجور يونيه.

راودتنى الافكار حول حتمية ان يبكى عليه الجميع بمن فيهم من هاجموه.. بمن فيهم قادة حزب العمل الذى قاده. وسوف يطلقون عليه (اعظم اليهود ـ ومهندس الدولة ـ وزعيم الامة)، وانهم سيفرقون بين الزعيم وبين الانسان الذى قد يخطئ. ولكن هذه التفرقة كانت خاطئة فالزعيم والانسان واحد.

٣٥ ـ محادثات فى واشنطن

فى ديسمبر (كانون الثانى) عام ١٩٧٣ سافرت الى الولايات المتحدة لإلقاء خطب فى عدة اجتماعات تحت رعاية منظمة النداء اليهودى الموحد. ولما علم كيسنجر بهذه الرحلة اقترح علىَّ أن أبدأها قبل موعدها بعدة أيام لمقابلة وزير الدفاع. وقد أجريت أيضا محادثات مع جيرالد فورد نائب الرئيس آنئذ بناء على دعوته.. والتقيت مع كيسنجر مرتين بدلا من مرة كما كان مقررا، اذ بدأت محادثاتنا صباح ٧ ديسمبر (كانون أول) واستؤنفت بعد ظهر نفس اليوم. وكان معى مساعدى زفى تسور وموتاجور الملحق العسكرى فى سفارتنا فى واشنطن، وسيمحا ديننز سفيرنا، وكان مع كيسنجر جوزيف سيسكو واثنان من المساعدين الآخرين.

وكانت بداية المحادثات فى الصباح تتعلق بامدادات السلاح. وبمجرد أن بدأنا الحديث فى هذا الموضوع، حتى انفجر كيسنجر متسائلاً: هل ستوقف اسرائيل دفع مرتب سفيرها اذا لم يقم باثارة موضوع السلاح أكثر من عشر مرات يوميا. وشرح تسور أهمية كميات الاسلحة التى وصلت للعرب لا بالجسر الجوى فقط بل بالجسر البحرى، والتى وصلت الى ٣٠٠ الف طن، بينما تلقينا نحن أقل من ثلث هذه الكمية من الولايات المتحدة.. وبعد ذلك عرضت أنا الارقام مقارنا بما حصلنا عليه من الولايات المتحدة فقد استلم العرب ٣٥٠طائرة منها ٢٠٠ من الدول الاشتراكية و١٥٠ من الدول العربية، و١٥٥٠ دبابة من الدول الاشتراكية. فاذا أضفنا اليهم ما وصل من الدول العربية فان العدد يصل الى ٢٥٠٠ أى أكثر مما فقدوه فى الحرب.

وقلت لكيسنجر إن هناك أيضا مساعدات من نوع آخر، فقد حاربنا فى سوريا دبابات تقودها أطقم كوبية، وكذلك أسقطنا قبل يوم واحد طائرة على الجبهة المصرية يقودها طيار من كوريا الشمالية. ومن ناحيتنا فإن قوتنا

البشرية محدودة، ولذا فإن كميات السلاح التى يمكن أن نطلبها من الولايات المتحدة يجب أن تعوضنا هذا النقص، وقد طلبنا حاملات جنود وتلقينا ثمن ما طلبناه.. وهذه الحقيقة أيضا تنسحب على بقية أنواع الاسلحة التى طلبناها مثل صواريخ هوك أرض ـ جو وطلبت السماح لنا بأن نطلب عددا أكبر من الطائرات من المصانع مباشرة. وقبل الحرب كنا قد طلبنا عددا قليلا من طائرات الفانتوم، وقيل لنا اثناء الحرب أنه لا يوجد فائض فى الفانتوم للاستغناء عنه، ثم شرح كيسنجر موقف الولايات المتحدة، وأسبابه. وفى النهاية أبلغنا أن بعض طلباتنا ستتحقق، والباقى ستتم دراستها.

وانتقلنا الى الموضوع الثانى، فناقشنا الاتفاقات مع مصر فيما يتعلق بقناة السويس. وكان موقف الولايات المتحدة النهائى أنها تفضل فتح قناة السويس.. وقلت لكيسنجر إن سيطرتنا على القناة الآن أكثر من ذى قبل. وشرحت له وجهة نظرى الشخصية (التى وافقت عليها رئيسة الوزراء). وقلت ان انسحابنا من قناة السويس ـ وهو اكبر تنازل ـ لا يمكن أن يكون بلا ثمن. وأن الثمن الذى نتصوره هو اتفاقية سلام مع مصر. وقد اتضح من اقتراحات مصر عند الكيلو ١٠١ أن علينا أن نقدم الحد الاقصى ونأخذ الحد الادنى. فاذا كان علينا الانسحاب ستة أو عشرة كيلو مترات شرقى القناة. فانه يجب أن نضمن توقف الاعمال العسكرية ضدنا. هذا مع اعادة فتح قناة السويس وعودة المواطنين الى مدن القناة. ويمكن إنشاء منطقة عازلة توضع تحت سيطرة الامم المتحدة. كما يجب ايضا ان نمارس عملا جديا مع الولايات المتحدة من أجل فتح مضايق باب المندب، لتأمين حرية الملاحة فيها.

ولم يوافق كيسنجر على كل هذه الأفكار، وكانت له تحفظات على بعضها، وقد أثار دهشتى أنه كان يجهل بعض الامور حول هذه المنطقة. وفيما يتعلق بباب المندب، فعلى الرغم من أن حاملات الطائرات الأمريكية مؤثرة فى هذه المنطقة فإنها لا تريد أن نعمل كرجل البوليس فى هذا العالم وخلصت الى أن الولايات

المتحدة قد تدخل الحرب من أجل مصالحها، ولكن ليس من أجل مبادئ دولية مثل حرية الملاحة. وكان الدليل الواضح على ذلك يتمثل فى التفسيرات التى طلبها الكونجرس من الرئيس عقب اعلنه وضع الاستعداد فى القوات الامريكية فى أكتوبر (تشرين أول). عندما هدد الروس بإرسال قوات الى القاهرة.

وعلى أية حال فإن مصر تُصر على انسحابنا من معظم سيناء قبل أى حديث عن انهاء الحرب. وبالاضافة الى ذلك فإن ياريف أخبر الجمسى أن هناك احتمالا بانسحابنا من قناة السويس فى اطار اتفاقية تخفيض القوات، دون أن يضع أى شروط سياسية بالنسبة لمصر. وقلت لكيسنجر إنه اذا أصرت مصر على رفض الشروط السياسية فى الاتفاق، فإننا سنبقى فى مواقعنا العسكرية، وعندئذ ستقبل مصر الاتفاقات التى رفضتها الان وقلت هذا رغم أننى أعلم أنه ليست مصر وحدها هى التى تهتم باتفاق فورى، بل ان الولايات المتحدة أيضا لديها هذا الاهتمام لكى تتنبه لهستيريا البترول التى تسود أوروبا. ولكننى كنت أعرف ايضا اننا لو ظللنا فى مواقعنا لمدة عام آخر، فإن الولايات المتحدة سيكون لها موقف آخر.

وناولت كيسنجر الخريطة التى أحضرتها معى، وعليها العلامات التى وضعتها فى ضوء اقتراحى بانسحاب القوات المصرية والاسرائيلية لمسافة ميل ونصف الميل من خطوط وقف اطلاق النار. وكان هذا الاقتراح بناء على مشورة الجنرال سيلاسفو الذى كان يعتبر ذلك خطوة أولى نحو فصل القوات. ولم يكن لدى أى شك فى أن المصريين سيرفضون ذلك. وبالرغم من تحفظات كيسنجر الجدية حول هذه الاقتراحات فقد اتفقنا على اجراء مناقشات أخرى بعد انتهاء رحلته للقاهرة المحد لها ١٢ ديسمبر (كانون أول) وحضوره للقدس يوم ١٦.

وبعد يومين فى ٩ ديسمبر (كانون أول)، التقيت بوزير الدفاع جيمس شليزنجر. وكان الاجتماع غير متوقع، اضطرت ازاءه للعودة الى واشنطن من

نيويورك. وكنت قد تناولت الغداء يوم ٧ ديسمبر (كانون أول)، مع وليات كليمنتس، نائب وزير الدفاع، وتشاورت معه حول امدادات السلاح. وتبينت لحسن الحظ، أن الولايات المتحدة لديها أسلحة كافية.

وبعد الغداء ذهبت الى الاجتماع الثانى مع كيسنجر وأخبرته عن محادثاتى فى البنتاجون. وفى المساء علمت فى فندقى أن شيلزنجر سيعود من أوربا فى اليوم التالى. وبالرغم من أنه لم يتعود الذهاب الى البنتاجون يوم الاحد، فإنه سيقابلنى هناك فى صباح الاحد.

وكانت محادثاتى مع شليزنجر سارة، ودار الحديث حوال طلباتنا من الاسلحة، ووعود التعويض التى لم تنفيذ، والهوة الضخمة بين ترسانتنا وترسانة العرب من الاسلحة. وآثرت مسألة شراء الطائرات من المصانع رأسا، وقلت له إن اسرائيل هى الدولة الوحيدة التى لايسمح لها أن تشترى احتياجاتها من الاسلحة من المصانع. فليبيا مثلا تستطيع شراء كل ما تطلبه من فرنسا، والدول العربية الاخرى تستطع الشراء من الغرب والشرق برصيدها الضخم من الدولارات، أما نحن فحتى عندما تكون لدينا الاموال لا نستطيع الشراء. والدولة الوحيدة المستعدة للبيع لنا هى الولايات المتحدة. وبعد ذلك انتقلنا الى قائمة الاسلحة. واستمع ولكنه لم يعد بشىء.

وقرب نهاية المحادثات، سألنى عن وضع اسرائيل فى الجبهتين الشمالية والجنوبية عسكريا، وعن احتمالات السلام، وابلغته ان عمق رأس الجسر فى الجبهة المصرية يزيد على الستة أميال، ولكن لا خوف من عزلها لان المصريين لا يملكون الفرصة لعمل ذلك، ونستطيع أن نبقى فى الضفة الغربية شهورا وشهوراً. ولا يوجد مكان مثل هذا نستطيع فيه سياسيا ان نتقاضى ثمنا غاليا. وبالنسبة لاتفاقية السلام مع مصر فإننى أخشى أن مصر قد لا تقوم بتقرير مثل هذه الاتفاقية الا اذا توصلنا لترتيبات مع سوريا والاردن. وصحيح ان مصر تريد انهاء الحرب وانها تريد انسحابنا لمدة ستين ميلا فى

سيناء ولكنه عندما نصل الى المحادثات حول التسوية النهائية، فإن السادات يصر على ضرورة حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين والقدس.

وكان اجتماعى بجيرالد فور، فى أول يوم عمل له كنائب للرئيس وكان حديثا صريحا ومفتوحا. واخبرته عن الاسلحة السوفيتية التى واجهناها وعن المساعدات العسكرية التى وصلتنا من الولايات المتحدة، وما الذى كان يمكن ان يحدث لو ان هذه الاسلحة لم ترسل الينا، فقلت له اننا كنا حقيقة سنصمد، ولكن الحرب كانت ستكون أقصى والخسائر أفدح. وكذلك ذكرت له مقابلتى مع كلمنت.. وقال لى فورد عن كيسنجر ان الامريكيين يؤمنون به. وعندما تحدث عن السلام قال فورد ان الولايات المتحدة تساعد اسرائيل وستستمر فى ذلك، ولكننا نرى فى أن نساعدكم للوصول الى السلام الدائم. وعندما ناقشنا القرض الذى طلبته اسرائيل بمبلغ ٢,٢ بليون دولار، قال إن الكونجرس سوف يوافق عليه بأغلبية، ولكنه قرر أن هذا القرض يعتبر استثمارا من اجل السلام وليس لتجديد الحرب. وكان واضحا أن الامريكيين سيعطونا هذا القرض فى مقابل أن نعمل نحن من جنبنا على الوصول الى تسوية مع العرب. وفى نهاية الاجتماع عبر عن أمله فى أن ينجح كيسنجر (الذى انتشلنا من فيتنام) فى التوصل الى تسوية فى الشرق الاوسط.

وقالت له اننا سنرى كيسنجر مرة اخرى فى اسرائيل فى ١٦ ديسمبر (كانون أول) قادما من القاهرة ومعه وجهة النظر المصرية، وآمل ان نجد طريقا نحو السلام وان لا تتجدد هذه الحرب. ولم تكن هناك نتائج ايجابية ومفيدة لهذا الاجتماع وما كنا نتوقع ذلك، ومع هذا فقد غادرت مكتب نائب الرئيس بشعور سار، لأن مباحثاتنا تميزت بالاخلاص والوضوح.

وفى اليوم التالى خرجت مباشرة من اجتماع مع شليزنجر الى المطار وركبت احدى طائرات العمال التى تحمل معدات فى رحلة مباشرة من واشنطن الى تل ابيب.

ووصلت فى يوم ١٠ ديسمبر (كانون اول)، توجهت مباشرة الى القدس لأقدم تقريرى الى رئيسة الوزراء. وبعد التقارير التى أرسلتها لرئيسة الوزراء من واشنطون، كان على أن اتناول التفاصيل. وتكلمت عن فرصتنا فى الحصول على أسلحة جديدة وعن خطواتنا القادمة فى المباحثات مع مصر. بالنسبة للموضوع الأول أخبرت رئيسة الوزراء أنه من المحتمل أن نواجه صعوبات فى الحصول على كل الأسلحة والمعدات التى طلبناها. وبالنسبة للموضوع الثانى فإننا سنستمع لكيسنجر الذى سيحضر بعد عدة أيام ويخبرنا عن رد الفعل المصرى على اقتراحاتنا. وابلغتها ان اقتراح ياريف فى محادثات الكيلو ١٠١ يوم ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) قد لاقى ترحيبا من الروس ولكنى أبديت اعتراضى على هذا الاقتراح الذى يمتد مفعوله تسعة أشهر فقط. وقلت اننا لسنا فى عجلة، ونستطيع أن نمارس الصبر، ونبقى على الضفة لقناة السويس، الى أن يتضمن اتفاقنا العسكرى مع المصريين الشروط السياسية التى تطلبها. وكذلك فلابد من تدخل الولايات المتحدة فى المباحثات وجعلها مسئولة عن التنفيذ.

وقدمت تقارير أيضا لمجلس الوزراء ووزارة الخارجية ولجنة الأمن فى الكنيست. وكانوا يرغبون فى سماع وجهة نظرى عن رؤية الولايات المتحدة للموقف. وقلت لهم أنهم يتلهفون على الوصول الى نهاية للصراع فى الشرق الاوسط، ولذا فهم يطلبون منا أن نوافق على الحد الأقصى الذى يطلبه العرب، حتى لو كان ذلك على حساب اسرائيل. وهناك ايضا رغبتهم فى مزيد من التفاهم مع الاتحاد السوفيتى. ولذا فهم يرون ان يقود كيسنجر مع الروس مباحثات السلام فى جنيف.

وأبلغت لمجلس الوزراء أنه قد قيل لى فى واشنطن، بطريقة غير مباشرة، أنهم لا يرغبون فى استسلامنا أو تخلينا، وانما يتوقعون منا مزيداً من التقدم نحوالسلام وان هناك وقتا قد يضطرون فيه لممارسة الضغط علينا. ولكن

حتى هذه اللحظة، فإننى أعتقد أنهم لن يجبرونا على التخلى عن مواقعنا عن طريق منع السلاح عنا. ولم يحاول الامريكيون فى أى وقت أن يطلبوا منا الانسحاب الى خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين أول) ولم أسمع منهم اطلاقا اننا اذا لم نفعل ذلك فإن الحرب ستتجدد. وبالنسبة لباب المندب فقد كانت للمصريين هناك مدمرتان. ولكننا نحن الذين أوقفنا حاملات البترول القادمة لنا. وقلت لمجلس الوزراء إن وساطة كيسنجر بين العرب واسرائيل تشمل موضوع حرية الملاحة فى مضايق باب المندوب. وفى اللحظة التى يتم فيها توقيع اتفاقية فصل القوات، فإن المصريين لن يعترضوا سفننا هناك.

وبعد عودتى بأربعة أيام جاء كيسنجر لاسرائيل بعد ان زار الجزائر ومصر والسعودية والاردن وسوريا. وكان هدفه الرئيسى ان يؤمن انتهاء المقاطعة البترولية لامريكا، ولكن هذا الامر أصبح يتصل اتصالا مباشرا بمحادثاتنا مع مصر وسوريا. وقضى عدة ساعات من اليوم الاول مع رئيسة الوزراء فى القدس، وفى اليوم التالى التقى بوفد المباحثات الذى كان يضم جولدا مائير وآلون وايبان وانا، كما حضر أيضا رئيس الاركان وياريف ودينتز. وكان يصاحب كيسنجر مساعده جوزيف سيسكو وبعض المسئولين فى الوزارة وكينيث كيتنج السفير الامريكى فى اسرائيل. وبدأ الاجتماع فى الصباح واستمر حتى منتصف الليل.

وبدأنا بالموضوع المزمن الخاص بالاسلحة، وتناولنا بعد ذلك مشكلات المباحثات مع العرب. ولم نخرج بشىء جديد من مناقشاتنا حول الاسلحة اذ كنا قد طلبنا شراء بنادق من الولايات المتحدة وكنا فى حاجة اليها بسرعة، ولكن البنتاجون قرر ارسالها بالسفن لا بالطائرات ليتفادى ما قد يقال من أن الولايات المتحدة تدفع أسحة عاجلة الى اسرائيل. ورغم قولنا ان وسائل النقل شىء يخصنا نحن، فانهم لم يعبروا أى التفات لقولنا.

وكانت مفاوضاتنا مع سوريا تكاد تكون منحصرة فى تبادل الاسرى. وكان

السويون قد رفضوا اعطاءنا قائمة بالأسرى، ولم يسمحوا للصليب الاحمر بزيارتهم، وقد أثار هذا الموقف غضبنا. ولم يكن معقولا أن نجلس معهم على مائدة مفاوضات واحدة فى جنيف قبل أن ينتهى هذا الموقف. وكان الرئيس الاسد يريد أن يستخدم الاسرى للضغط خلال المباحثات لتحرير الاراضى المحتلة، اذ كان يطالع من خلال الصحف الاسرائيلية مدى قلق الرأى العام على أولئك الاسرى، وكان يعتقد أنه سينجح فى استخدام هذه الوسيلة. وتحدثنا مع كيسنجر فى هذا الموضوع وقلقا له إنه يجب أن يجد وسيلة لجعل سوريا تسلمنا قائمة الاسرى قبل البدء فى أى مباحثات وان يسمح أيضا للصليب الاحمر بزيارة الاسرى. ولكن الاسد كان عنيدا وكان هدفه، وإن لم يقل ذلك صراحة، هو تدمير اسرائيل.

وكانت مصر هى الموضوع الرئيسى فى مباحثاتنا مع كيسنجر. وكنت فى واشنطن قد أكدت حاجتنا للتأكد من أن اتفاقية فصل القوات ستتناول وقف الاعمال العسكرية. وكان الاقتراح الذى أحضره معه كيسنجر من القاهرة يقضى بخلق ثلاث مناطق شرقى القناة، الاولى منطقة مصرية، والثانية تحت سيطرة قوات الامم المتحدة، والثالثة اسرائيلية. وان تمتد المناطق الثلاث الى ٢٠ ميلا من قناة السويس، وان تتمركز القوات الاسرائيلية شرق ممرات متلا والجدى، وتتمركز قوات الامم المتحدة على المداخل الغربية لهذه الممرات. ويتم تحديد القوات المصرية والاسرائيلية فى هذه المناطق، سواء من ناحية عدد القوات أو القوة. وبالنسبة لحجم القوات فقد حددها السادات بتشكيلين يضمان ٢٤ الف رجل و ٢٠٠ دبابة. ووافق ايضا على عدم وجود بطاريات صواريخ ارض/ جو فى شرق القناة، لكنه لم يكن مستعدا لقبول أى تحديد لقواته غرب القناة.

وبعد ان وضحت التفاصيل، دخلت المناقشات فى موضوع انسحابنا، وما الذى يمكن ان نحصل عليه مقابل ذلك. لقد كان الاتفاق حول فصل القوات،

ولكنه كان يتناول أيضا الانسحاب الاسرائيلى.. وكنا نحن فقط الذين ننسحب من غرب القناة، ومن المواقع التى احتللناها فى شرق القناة لمدة طويلة. ونتيجة لهذا فإن موقفنا العسكرى سيضعف. ومع هذا فإن العرب لن يرضوا لأنهم يريدون ان ننسحب الى حدود ما قبل ١٩٦٧م. وهم يجدون تأييدا لهذا الطلب خارج نطاق العالم العربى.

إذن ماذا نحصل عليه نحن من انسحابنا؟ سيتجدد علينا الضغط للعودة أكثر الى الوراء وسنكون فى موقف عسكرى وسياسى سيئ.

والإجابة على كل هذه الاسئلة انه ليس لدينا ما نخسره، وربما لا تكون قواتنا فى مصيدة عسكرية لكنها فى مصيدة سياسية، فالمصريون لن يسكتوا على وجودنا فى الضفة الغربية، واذا تجددت الحرب فإن العالم كله سيقف ضدنا حتى الولايات المتحدة، فالعالم له مصلحة قوية فى البترول لا فى الحق، وهو يريد من الدول العربية المنتجة للبترول أن ترفع الحظر البترولى الذى فرضته حتى تدفع الدول الى موقف معاد لاسرائيل، وحتى أولئك القلة الذين وقفوا الى جانبنا فانهم لن يستمروا فى ذلك، ولذا فإن السؤال الهام (كيف ستنتهى كل هذه الأمور؟).

ولم تكن هناك اجابة حقيقية لهذا السؤال ولو أن الاجابة أن أسوأ ما يمكن أن يحدث بعد ستة شهور قد يحدث الآن اذا لم يحدث أى اتفاق، ولهذا فإن الهدف السياسى الاستراتيجى الذى يجب أن يسود الان هو ايقاف جنون الحكومات فى أوروبا واليابان والبلدان التى تتعرض للضغط نظرا لايقاف ضخ البترول، وكانت كل هذه الحكومة تحاول أن تظهر نشاطها لإنهاء هذا الموقف بالضغط على اسرائيل، وكانت الولايات المتحدة ترغب فى الوصول الى انهاء موضوع ايقاف ضخ البترول عن طريق عقد اتفاقية بين اسرائيل وكل من مصر وسوريا، وكان انهاء ايقاف ضخ البترول مهماً أيضا بالنسبة لنا، لكنه لم يكن موضوعنا الرئيسى، ولم يكن البترول هو المشكلة بين اسرائيل ومصر.

وكانت أول مرة أسمع فيها سؤال (كيف ستنتهى كل هذه الامور) خلال أحد اجتماعاتى مع اليهود فى نيويورك، وكنت بدأت اجتماعى معهم بتلاوة إصحاح ٤٤ (لا تخف شيئا يعقوب خادمى)، وبعد أن انتهيت من حديثى كانت هناك أسئلة كثيرة، ولكن أول سؤال كان من رجل عجوز قال لى (يا وزير الدفاع كيف سينتهى كل هذا؟) وفى محادثاتى مع كيسنجر، شعرت أن الحل الوحيد هو التمسك بإصحاح (لاتخف من شىء يا يعقوب)، لهذا عدت الى اقتراحى القديم والخطة التى حاولت طرحها بها بلا نجاح منذ حرب الايام الستة، وقلت إن جولدا مائير على حق فى قولها إن ما يطلق عليه فصل القوات ما هو الا انسحاب من جانب واحد للقوات الاسرائيلية، وما نحتاجه ليس انسحابا مماثلا للقوات المصرية، بل اتفاقا مع المصريين يتضمن ثلاث مسائل رئيسية.

■ إن فصل القوات يتم ضمن اطار اتفاقية انهاء حالة الحرب بين مصر واسرائيل.

■ إن انسحابنا لن يتبعه قيام المصريين بتقوية خطوطهم الامامية وأن دباباتهم لن تحل محل دباباتنا التى ستنسحب.

■ إعادة الحياة الطبيعية الى المناطق المتفق عليها، وذلك يعنى اعادة بناء مدن قناة السويس وعودة المدنيين واعادة النشاط الصناعى.

وكانت تلك هى الاقتراحات التى ظللت أرددها لسنوات، وقلت انه ربما يكون هذا الوقت مناسبا لوضعها موضع التنفيذ، ونحن لا نرغب فى البقاء غرب القناة، اما بقاؤها فى الشرق فقد كنت أرى أيضا اننا يمكننا أن ننسحب قليلا الى الوراء، وكان كل الإسرائيليين الحاضرين يعرفون هذه الاقتراحات، حتى كيسنجر اذ كنت قد ذكرتها له فى واشنطن، وهز رأسه بعلامة الموافقة، ويبدو انه عرضها على السادات فى القاهرة ووجد أن هناك إمكانيات لتنفيذها.

وسعدت لسماع هذه الانباء من كيسنجر، فالطريق الى الاتفاق مازال طويلا، ولكنه ليس مسدودا، وأنا لا اعتقد ان مصر مستعدة للوصول معنا الى اتفاق لانهاء الحرب، حتى مع عودتها الى حدود ما قبل ٦٧ ولكننى كنت أعتقد أن مفتاح الوصول الى أى اتفاق مع أى دولة عربية وخصوصا مصر هو خلق ظروف تخفض عن رغبة العرب فى الحرب وتعيد للحياة شكلها الطبيعى، وبالنسبة لمصر فإن منطقة القناة هى المفتاح الآن لانها ليست على نفس المستوى مع القياس بالضفة الشرقية، فالمصريون يعلمون انها ليست مهمة لهم فى حين أنها مهمة لنا، ماعدا شرم الشيخ التى يمكنهم استخدامها لإغلاق الملاحة هناك، وانه مادامت لن تحل قضايا الاردن وسوريا ومشكلة اللاجئين الفلسطينيين فلن نصل الى حل نهائى مع مصر.

وفى يوم ٢١ ديسمبر (كانون أول) جرت مراسم بدء مؤتمر جنيف للسلام الذى تأجل بعد ذلك، وعندما كانت بعثتنا العسكرية تستعد للسفر لسويسرا طلبت الكولونيل دوف سيون الذى سيكون نائبا لرئيس وفدنا العسكرى فى المؤتمر الجنرال موخاى هود، ملحقنا العسكرى فى واشنطن، وسلمت دوف سيون قرارات حكومتنا وأعطيته تعليماتى، وكان سيون قد اشترك مع بارليف فى محادثات الكيلو ١٠١ وعلى علم بكل شىء عن الموضوع، وبالرغم من حبى له وتقديرى لذكائه والعلاقة غير الرسمية التى تربطنا، اذ كان زوج يائيل ابنتى، فقد كنت متألما أن أعطته هذا القدر من السلطة وكانت تجربتى مريرة، من محادثات الكيلو ١٠١ عندما أعطيت لممثلينا توجيهات وتعليمات غامضة، ولم يكن واضحا أمامهم من هو المسئول المباشر لهم.

وقلت لسيون: إن مسئولية الوفد وسلطاته تنحصر فقط فى تقديم اقتراحاتنا الرسمية، واذا سئلوا عن مقترحات غير رسمية تكون الاجابة بالنفى، وكان كيسنجر وجروميكو قد غادرا جنيف الى عاصمتيهما، وكان على وفدنا العسكرى ان يقضى الوقت فى فراغ حتى ما بعد انتخابات اسرائيل

العامة فى ٣١ ديسمبر (كانون أول) وقلت له إنهم قد يرسلون تقارير الى رئيسة الوزراء ورئيس الاركان ولوزير الخارجية ولكنهم لا يتلقون تعليمات إلا منى فقط.

وكنا نود ان نعرف من سيقود الحكومة بعد الانتخابات، هل ستستمر جولدا رئيسة وزراء ولم أكن أعرف اذا كانت سترغب فى ان أستمر فى العمل معها كوزير للدفاع، ولكن أيا كان، انا أم أى شخص آخر، وزيرا للدفاع مستقبلا، فإنه سيستمر فى محادثاته مع الامريكيين حول اتفاقية فصل القوات المقترحة، وسوف يعرف سفيرنا فى واشنطن متى يرغب كيسنجر فى الحديث معنا مرة أخرى.

وتحدد للاجتماع يوم ٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٤ فى واشنطن وللإعداد لهذا الاجتماع عقدت جولدا اجتماعا مع خمسة وزراء ورئيس الاركان، وقدمت اقتراحاتى بناء على طلبها والتى شملت عدة نقاط اربعاً منها عسكرية خاصة بتمركز القوات، وتحديد حجمها، وجدول زمنى للتمركز، وميزانية خاصة لانشاء طرق فى الخطوط الجديدة، وكانت النقاط الاخرى غير عسكرية مثل جهاز الاشراف على الاتفاقية كمراقبى الامم المتحدة وغيره، ووقف الاعمال العسكرية، واعادة المدنيين الى منطقة القناة، وحرية الملاحة فى باب المندب، وتخفيض عدد القوات الاسرائيلية والمصرية، هذا بالاضافة الى اتفاق بين الولايات المتحدة واسرائيل حول امدادات السلاح والمساعدات الاقتصادية بعد تنفيذ الاتفاق مع مصر.

وعرض رئيس الاركان الخريطة المقترحة للتمركز، وقالت رئيسة الوزراء إن الخطوط الرئيسية ستراجع وتعرض على مجلس الوزراء فى اجتماعه فى اليوم التالى، وبالفعل وافق مجلس الوزراء عليها، وخولت السلطة لعرضها على كيسنجر.

وعندما قابلت كيسنجر يوم ٤ يناير فى واشنطن، عرضت عليه الاقتراح

الذى وافقت عليه الحكومة، والذى ستتبناه الحكومة التى يتم تشكيلها بعد الانتخابات، وقلت له إما ان يقبل الاقتراح ككل أو يرفضه ككل وان الهدف منه هو فتح صفحة جديدة بين مصر واسرائيل، ولم أكن اعتقد ان مصر ستعيد فتح قناة السويس أو تعيد توطين مدن القناة طالما بقينا نحن فى منطقة القناة، حتى ولو كنا بعيدين عن الساحل ونسيطر عليه بمدفعيتنا، ومن ناحية أخرى فما معنى انسحابنا من الضفة الغربية اذا لم تكن مصر مهتمة بإعادة فتح القناة مع منع شحنات اسرائيل حرية المرور، كما أن الولايات المتحدة يجب ان تضمن حرية الملاحة فى باب المندب.

وتقابلنا فى اليوم التالى، وكان كيسنجر قد درس الاقتراحات المكتوبة وأثار موضوع تخفيض القوات، ثم انتقل مباشرة الى موضوع ممرات متلا والجدى، وانا أعلم ان السادات قائد دخل الحرب بهدف الوصول ولا بد له ان يحقق ذلك، حتى مع وجود قوات الطوارئ عند مدخل هذه الممرات فإنه يستطيع أن يطرد هذه القوات باشارة من اصابعه، وذلك فى حالة ما اذا قر قراره على الحرب من جديد، وقضيت ساعة لأقنع كيسنجر أننى لن أتزحزح عن موقفى، وبعد هذه المحادثات تقابلت مع وزير الدفاع فى البنتاجون وكان من الصعب أن أهرب من الانطباع بأن سياسة أمريكا بالنسبة للسلاح هى اعطاؤنا القليل الى انه نصل الى اتفاق مع مصر، وفى هذه الحالة سنتوقع امدادات طويلة الاجل من السلاح وكانت المشكلة ان أمريكا هى صديقتنا الوحيدة، مع عدة خطوط تحت كلمة (الوحيدة).

■ ■ ■

٣٦ ـ المكوك والاتفاقية

كانت هناك أيام محمومة فى شهر يناير (كانون ثان) ظل فيها هنرى كيسنجر كالمكوك رائحا غادياً بين القاهرة والقدس فقد قضى يوم ١٤ يناير (كانون ثان) مع السادات وعاد الينا فى اليوم التالى وفى هذه المرة أحضر معه الاقتراح المصرى، وكان اختلافنا مع المصريين يتركز أساسا فى نقطتين: من الذى سيحتل ممرات متلا والجدى، والنقطة الثانية خاصة بتخفيض القوات، وفى كلتا النقطتين لم نكن مستعدين للقبول بالحلول الوسط حتى ولو أدى ذلك الى فشل الاتفاق. وبعد ساعات طويلة خلال النهار مضت فى المناقشة، انتهى العمل بعد أن وضعنا خريطة تحدد موقعنا من النقطتين، ومن بعض الوثائق الخاصة (بالتفاهم) مع الولايات المتحدة. وعرضت صيغة الاقتراح على مجلس الوزراء الذى عقد خصيصا لهذا الغرض فى منزل رئيسة الوزراء التى كانت تعانى من نزلة برد. وقرر المجلس تخويل رئيسة الوزراء فى اعطاء السلطة لرئيس الاركان أن يتقابل مع رئيس الاركان المصرى عند الكيلو١٠١ وتوقيع اتفاقية فصل القوات والخرائط الملحقة بها.

وسافر كيسنجر الى القاهرة وعاد مساء يوم ١٦ يناير (كانون ثان)، وأحضر معه النقاط النهائية للمصريين التى تضمنت بعض التغيرات الطفيفة ومنها انسحابنا ١٢ ميلا من مدينة السويس جنوبا الى رأس مسلة على الشاطئ الشرقى من خليج السويس. ووافقت لانه لا داعى عسكريا لوجودنا بالقرب من مدينة السويس لان ذلك لن يشجع على اعادة توطين المدينة بل سيزيد رغبة المصريين فى القتال. وفى اليوم التالى سافر كيسنجر لزيارته الاخيرة للقاهرة حيث يطير من هناك الى واشنطن عن طريق الاردن وسوريا. وتم اعداد ترتيبات توقيع الاتفاق فى اليوم التالى.

وفى يوم ١٨ يناير (كانون ثان) ١٩٧٤عند الكيلو ١٠١، مثل الجنرال دافيد اليعازر اسرائيل ومثل الجنرال عبد الغنى الجمسى مصر ووقعنا على الاتفاقية. ووقع عليها الجنرال سيلاسفو ممثل الامم المتحدة كشاهد، الى جانب حضور مستشارين أمريكيين وروس من بين رجال الامم المتحدة، وجمهرة غفيرة من المراسلين الاجانب وكاميرات التليفزيون وكان مؤتمر جنيف قد انعقد يوم ٢١ ديسمبر (كانون أول) قبل توقيع اتفاقية فصل القوات بأربعة أسابيع. وكانت الوفود برئاسة وزراء الخارجية، وتضم بعض العسكريين من ذوى الرتب الكبيرة.

وهكذا نرى أن مؤتمر جنيف لم يلعب أى دور فى التوصل الى الاتفاقية، وانما تم العمل فعلا فى القاهرة والقدس وواشنطن. وكنا نسمى مؤتمر جنيف فى هذه الاثناء (الطريق التركى) نسبة الى أيام الصبا عندما كان الحكام الاتراك يهملون رصف الطرق فتضطر العربات والخيول الى السير فى أى مكان الا على الطريق التركى.

وكان يوم ١٨ يناير الذى وقعت فيه الاتفاقية، هو اليوم الاول الذى تسكت فيه المدافع، اذ أن الحقيقة أن الاشتباكات لم تنقطع منذ وقف اطلاق النار رسميا يوم ٢٤ أكتوبر (تشرين أول) وفى خلال الشهرين التاليين على ايقاف اطلاق النار وقعت ٤٥٢ حادثة خرق لايقاف اطلاق النار من المصريين، كانت خسائرنا ١٥ قتيلا و٦٥ جريحاً. ولا أعرف ما هى خسائر المصريين ولكن أتخيل أنها أكثر منا. وأيضاخلال هذه الفترة أسرنا ٦٨ مصريا بينهم ٨ ضباط. وكانت تمر أيام على بعض القطاعات فى سكون تام، وفى أيام أخرى تتساقط علينا مئات بل آلاف الدانات من المدفعية. وكانت تعليمات القاهرة تقضى بعدم احترام قرار وقف اطلاق النار. واحيط مجلس الشعب المصرى بأن هناك تعبئة للقناصة لاصطياد القوات الاسرائيلية المتمركزة غرب قناة السويس وقد اتصلنا بكيسنجر وأثرنا هذا الموضوع فى مباحثات الكيلو ١٠١

وهددنا بايقاف امدادات الطعام لقوات الجيش الثالث.

وفى أول يناير (كانون ثان) ١٩٧٤ أخبرنى الجنرال سيلاسفو أنه قابل فى اليوم السابق وزير الحربية المصرى ورئيس أركانه، اللذين أخبراه أن محاولات اقامة التحصينات التى تقوم بها قواتنا غرب القناة، قد أثارت غضب القوات المصرية، فقد خيل لهم أننا نقيم هذه التحصينات من أجل الاحتلال الدائم لهذه الاراضى، ولهذا فتحوا نيرانهم. وأن الطريق الوحيد لايقافهم أن نوقف هذه العمليات. وكانت سياستنا أن نرد بشدة على أى نيران مصرية، وكنوع من التحذير أن نحجز إمدادات التموين للجيش الثالث لعدة ساعات.

وكانت نيران المصريين القوية فى منطقة الاسماعيلية موجهة الى القوات التى يقودها ايريك شارون. وكان الرد القوى عليهم يأتى من اريك، الذى لم يكن يسمح للمصريين بأن يشعروا بأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يشاؤون. وعلاوة على ذلك فإنه كان يعلم أن هناك موافقة على الرد الحاد. وكالعادة لم يكن يأخذ موافقة القيادة الجنوبية عندما كان يقوم برد الفعل على الاعتداء المصرى. فى حين كان قادة القطاعات الاخرى يطلبون التصريح قبل الرد وكان قائد الجبهة الجنوبية، وهو الأن جنرال تال، يعطيهم هذا التصريح بعد تردد ملحوظ.

وهكذا ظل وقف اطلاق النار على الورق. ولم يكن الاستمرار فى اطلاق النار هو السمة الوحيدة للجبهة الجنوبية، فإن الفترة مابين ٢٤ أكتوبر (تشرين أول) و١٨ يناير (كانون ثان) كانت تحمل معها احتمالات تجدد القتال على أوسع نطاق. وكانت هناك ثلاث خطط وراء هذا الاحتمال خطتان من جانب مصر وثالثة من جانب اسرئيل. فقد كانت هناك خطة مصرية لمهاجمة قواتنا غرب القناة من اتجاه القاهرة. والخطة الثانية هى عزل رأس الجسر التابع لنا باقامة اتصال بين الجيشين الثانى والثالث على الشاطئ الشرقى. وكلتا الخطتين كانت ستتم تحت قصف مركز قوى من المدفعية على قواتنا

التى لم تكن محصنة، مما يكبدنا خسائر فادحة ولهذا فإن الاحتمال الموضوع للخطة أن أسرائيل ستتسحب خوفا على حياة جنودها، وهو أمر حساس بالنسبة لاسرائيل.

وكان لمصر فى ذلك الوقت ١٧٠٠ دبابة على الخطوط الامامية على الضفتين، ٧٠٠ على الضفة الشرقية و١٠٠٠ على الضفة الغربية. وهناك أيضا فى الضفة الغربية ٦٠٠ دبابة اضافية على الخط الدفاعى الثانى للدفاع عن القاهرة. وكان لديها أكثر من ألفى مدفع و٥٠٠ طائرة وعلى الاقل ١٩٠ بطارية صواريخ سام ملتفة حول قواتنا لتمنع أى دعم جوى لها.

ومنذ انتهاء الحرب خرج كثير من الضباط المصريين من ذوى الرتب الكبيرة. ولكن أكثر الامور اثارة كانت طرد رئيس الاركان اللواء سعد الشاذلى. وكانت هناك تفسيرات كثيرة لخروج الشاذلى، أهمها أنه فشل فى الوقت المناسب فى ادراك معنى عبور قواتنا للقناة. والواقع انه لم يستطع إيقاف عملية عبورنا للقناة، لانه لم يكن يفهم ماذا يحدث، ولذلك لم يبلغ الرئيس السادات، بل انه لم يتخذ اجراء سريعا لتحطيم رأس جسرنا عندما كان لا يزال فى مرحلة الانشاء. وكان واضحا انه طالب بهجوم شامل على قواتنا فيما بعد نتيجة لسوء تقديره للموقف، وكان يرى ضرورة تحطيمها مهما كان الثمن وكان السادات يخشى مثل هذا العمل العسكرى لان قواتنا غرب القناة كانت قد تزايدت الى ثلاث فرق، وكانت قد قامت بتطهير المنطقة المحيطة بها من بطاريات الصواريخ أرض/ جو ولذا فقد فضل طرد الشاذلى والمضى فى مباحثات من خلال وساطة كيسنجر.

وكانت لدينا أيضا فكرة عن عملية هجومية فى حالة تجدد القتال سواء من جانب مصر أو من جانبنا. وكان اريك، الذى لاحظ بحق أن الحرب مع مصر لم تكن حاسمة، هو الذى يرى أن بامكاننا أن نهاجم مواقع القوات المدرعة فى المنطقة بين قواتنا والقاهرة، بل وأشار الى الاماكن التى يمكن اختراقها

بسهولة بين وحدات الاعداء ولكن كل هذه الافكار لم تصل الى مرحلة الخطة الكاملة، لاننى لم أقتنع بها، فقد كنا فى أحسن الاحوال سندمر بضع مئات أخرى من الدبابات ونقوم بالانتشار فى منطقة اخرى، بدون موقف عسكرى أوسياسى واضح ولا شك اننا فى هذه الحالة كنا سنتكبد خسائر فادحة، ولم يكن ذلك بالمبرر الكافى بالنسبة لعملية مشكوك فيها. وكانت الامكانيات الملائمة لنا هى تحطيم الجيش الثالث المحاصر. ونستطيع أن ندفع لهذه العملية ببعض الدبابات التى تتيح لنا التفوق، ولكن كل هذه الاحتمالات قد تصبح حقائق فى حالة اذا ما بدأت مصر حرب استنزاف ضد قواتنا غرب القناة، وذلك ما لم يحدث.

وشعرت بأن هذه الاتفاقية مع المصريين قد وضعت نهاية للحرب، كذلك فإنها ستدفع الى تحسن العلاقات بين مصر والولايات المتحدة وخاصة بالنسبة لمشكلة البترول. وهذه النقطة الاخيرة لها أهمية خاصة بالنسبة لاسرائيل. فالقلق كان يساورنا حول امدادات البترول للولايات المتحدة. لانها وان لم تكن مشكلتنا بالدرجة الاولى، فإن واجبنا بالتاكيد يقضى بمساعدة أصدقائنا من أجل المساعدات التى نتلقاها منهم.

■ ■ ■

٣٧ـ الحاجز الأخير

كانت مشكلة مباحثات فصل القوات مع سوريا، انها تدور داخل دائرة مغلقة. فالسوريون يطالبون ببدء المحادثات قبل تقديم قائمة الاسرى لنا ونحن نصر على عدم البدء فى المباحثات قبل وصول هذه القائمة. وفى يوم ١٧ فبراير (شباط) ١٩٧٤، وصل كيسنجر الى القدس، خلال احدى مهام سياسة المكوك فى عواصم الشرق الاوسط، وسلم الى رئيسة الوزراء قائمة بأسماء ٦٥ أسيراً. وقرر أن السوريين أخبروه أن هؤلاء هم جميع الاسرى وأن ما يتردد حول قتلهم أو تعذيبهم لبعض الأسرى غير صحيح. واقترح كيسنجر، بعد أن تم ازالة آخر حاجز، أن ترسل اسرئيل ممثلين عنها الى واشنطن، لتقديم مقترحاتهم حول اتفاقية فصل القوات مع سوريا.

ووافق مجلس الوزارء على هذا الاقتراح، وقرر ايفادى. وسافر كيسنجر الى موسكو، وتم الاتفاق على مقابلته فى واشنطن بمجرد عودته. وقبل سفرى، استدعت رئيسة الوزراء المجموعة الوزارية لوضع اقتراح نهائى آخذه معى الى واشنطن. وكانت مائير بعد الانتخابات قد شكلت وزارة جديدة وحضر هذا الاجتماع آلون وياريف وجليكى وسابير وبارليف وبيريز ورابين وأنا، وحضر أيضا رئيس الاركان. وقد ووفق على أن أقدم الى كيسنجر الخرائط والاقتراحات الخاصة بفصل القوات، وأن أصر على أن أى اتفاقية مع سوريا لن تنعقد قبل إطلاق سراح الاسرى. كما يجب أن تتضمن الاتفاقية بندا يتعلق بمنع أعمال التخريب. وكان على أن أطلب من كيسنجر أن يقوم بجهود مكثفة للسماح لليهود السوريين بالهجرة.

وقد أثار أسفى ضرورة صياغة اقتراحنا بطرقة تكتيكية، ولكن يبدو أنه

لم يكن هناك مفر من الخوض فى هذه الامور فى المحادثات. وفى رأيى أن العرب هم وحدهم الذين فرضوا علينا هذا الاسلوب فى المساومة بأن نبدأ بالكثير ثم ننزل الى القليل. كذلك فإن الامريكيين أنفسهم يفضلون ذلك حتى يجعلون العرب يؤمنون بأنهم هم فقط الذين يستطيعون دفع اسرائيل الى الانسحاب. وقد يحصل العرب على السلاح من الاتحاد السوفيتى، ولكنهم يجب أن يؤمنوا أن مفتاح الحل السياسى فى يد الولايات المتحدة الامريكية.

وكانت مشكلتنا فى هذه المساومة أنها ستضعنا وجها لوجه مع شعبنا. فلا توجد أسرار فى اسرائيل. ولذا فإن أى موقف سياسى معين نأخذه، سيكون معروفاً تماما. وبعد ذلك اذا أسقطنا بعض طلباتنا فإن ذلك سيؤخذ على أنه استسلام سياسى، ونتهم بهذه التهمة. ولم أكن أعتقد أن محتويات اقتراحنا ستلاقى قبولا من السوريين. فالسوريون يتميزون بالعناد، وسيفضلون الاستمرار فى موقفهم على الموافقة على هذه الخطة. وكانت صعوبة المشكلة تتمثل فى أن عدم توصلنا الى اتفاقية مع سوريا، سوف يضع مصر، وهى الدولة العربية الوحيدة التى وقعت معنا اتفاقية فى موقف يجعلها لا تستطيع تنفيذها.

وأجريت عدة مشاورات مع رئيس الاركان ومع قادة الجبهة الشمالية للوصول الى الحد الادنى للخطوط التى يمكن أن ننسحب اليها. وقمت بدوريات فى المناطق المقترحة لخطوطنا. وانتهيت من وجهة نظرى لتحديد هذا الخط، بحيث نستطيع أن نترك مدينة القنيطرة أو الجزء الذى يقع منها شرقى الطريق الرئيسى. وعلى أية حال فإن المشكلة لم تكن هذا الخط أو ذاك. وانما المشكلة هى مستقبل مرتفعات الجولان، وإن لم تكن تلك هى المسألة العاجلة فى جدول الاعمال. ولم أكن أعتقد أن السوريين يستطيعون أن يقبلوا بسهولة فقدان الجولان. كما أن استمرار تواجدنا هناك يعنى أن حالة التوتر مع السوريين ستظل مستمرة، وأن التأثير الاول سيقع على رأس مستعمراتنا المدنية هناك وكنت قد التقيت مع سكان تلك المستعمرات يوم ١٢ فبراير (شباط) ١٩٧٤ بعد

قصف مستعمرة عين زيفان بيوم واحد الذى أسفر عن قتل امرأة واصابة آخرين. وقالوا لى إن روحهم المعنوية لم ترتفع فقط بعد حرب يوم كيبور، بل انهم يريدون البقاء أكثر من قبل، وأن ما يقلقهم ليس الهجوم السورى بقدر قلقهم من إمكانية صدور قرار من الحكومة الاسرائيلية بالانسحاب.

وقابلت كيسنجر فى واشنطن يوم ٢٩ مارس (آذار) ١٩٧٤، فأبلغنى أن الروس مصرون على استئناف أعمال مؤتمر جنيف فى الحال. وانهم قد يشكون من الطريقة التى تجرى بها أمريكا وحدها المفاوضات بين مصر واسرائيل وبدا واضحا أنه لو فشلت الوساطة الامريكية بين اسرائيل وسوريا، فإن هيبة الولايات المتحدة ستتأثر فى منطقة الشرق الاوسط، وستجد اسرئيل نفسها فى موقف صعب للغاية. وقدمت اقتراحاتى لكيسنجر، وكما قلت فيما بعد، فاننى لم أقم (بصيغها) له بل اننى لم أكن متأكدا أنه سيريها لممثلى سوريا المقرر حضورهم الى واشنطن فى ١٤ أبريل (نيسان) لبدء المحادثات. وأثناء تناولنا الغداء فى وزارة الخارجية، انتقلنا الى مواضيع أخرى منها تبادل الجرحى من الاسرى مع سوريا، وامدادات الاسلحة الامريكية لاسرائيل التى لم تصل.

وبالنسبة لموضوع الاسلحة، فقد دخلت فى التفاصيل فى اليوم التالى حيث ابلغت كيسنجر فى اجتماع مغلق اننى أصبت بخيبة أمل نتيجة للرد الذى تلقيناه فى موضوع الاسلحة. وقلت انه حتى اسرائيل، وهى الدولة الصغيرة، يمكنها أن ترسل عدة مئات من الدبابات لدولة صديقة فى حاجة اليها. وبعد ذلك انتقلنا الى المستقبل وقلت له اننا حتى لو وصلنا الى اتفاقية مع سوريا، فإن المشكلة الرئيسية ستبقى بلا حل، وتحتاج الى تأكيد قوة اسرائيل فى الاعوام القادمة. ولعل وزير الخارجية الامريكى يشاركنى فى التفكير فى موقف اسرائيل خلال الخمس أو العشر سنوات القادمة. ونحن نحتاج بصفة عاجلة لطائرات وطرز مختلفة من الاسلحة الهجومية التى

تمنحنا القدرة على الدفاع عن أنفسنا الان وفى المستقبل. وطالت المباحثات، ودخل سكرتيره ليذكره أنه يجب أن يذهب فوراً (للاجتماع) الذى أعده، وعرفت فيما بعد ان هذا الاجتماع كان زواجه بنانسى.

وصباح يوم الاثنين التقيت بوزير الدفاع فى البنتاجون وكان كعادته فرحا وودودا ولم أتلق منه أى تأكيد حول أى شىء، سوى أنه قال إنه خلال الانتاج الجديد من الطائرات سيبحث طلب اسرائيل وبعد الظهر التقيت بلجنة القوات المسلحة فى الكونجرس وكان معى موردخاى هود. وكان علينا أن نجيب على أسئلة كثيرة بعضها عادى، وبعضها فنى مثل تلك كان يوجهها بارى جولد ووتر فى مواضيع الطائرات والصواريخ المضادة، وأثناء الاجتماع تلقيت مخابرة تليفونية، ولدهشتى أبلغت بأننى بعد أن تركت البنتاجون صباحا، تمت اجابة طلبى وانه بالرغم من الصعوبات فقد تقرر اعطاؤنا الدبابات والحاملات التى طلبناها. وطرت بعد ذلك بعدة ساعات الى اسرائيل وقد ارتفعت روحى المعنوية.

وقد قمت خلال زيارتى هذه، بالاضافة الى المباحثات، بالقاء خطب فى عدة اجتماعات للنداء اليهودى الموحد، وظهرت فى عدة برامج تليفزيونية. وقضيت كل أيامى بدون أجازة أو قليل من الراحة. وعلى اية حال فإن أقصى متعتى كانت عند زيارتى لمتحفى متروبو لبنان. وبروكلين، وخاصة القسم المصرى.

وفى يوم ٢ مايو (آيار) وصل كيسنجر الى اسرائيل مع فريق من مساعديه، وبصحبته هذه المرة زوجته نانسى. وأقترح أن يكرس جهودا مكثفة للوصول الى اتفاق مع سوريا. وبدأت رحلات بين اللد/ دمشق/ اللد فى النهار. ومناقشات فى المساء. وكالعادة كان الاجتماع الاول مع رئيسة الوزراء. واجتمع وفدا المباحثات الساعة الثالثة بعد الظهر. واستمرت المناقشات فى عشاء عمل فى منزل وزير الخارجية. وعلمت خلال العشاء أن اجتماع كيسنجر وجولدا مائير لم يكن مرضيا. وكذلك فان اجتماع وفدى المحادثات بعد الظهر كان عقيما وخلال العشاء التقت مع كيسنجر وأقترح أن نعقد سويا اجتماعاً

خاصا. فأشرت الى رئيسة الوزاراء. وبعد العشاء، أخذتنى جولدا جانبا وطلب منى ان التقى بكيسنجر. وقلت لها اننى سأقترب خلال محادثاتنا من موضوع القنيطرة، فوافقت جولدا بشرط أن أؤكد له اننى اعبر عن رأيى الشخصى وطلبت أن ينضم لى سيمحا دينيز فى واشنطن، ومساعدى آرييه براون.

وتقابلنا مع كيسنجر، وكان معه بيتر رودمان. وكان الوقت قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة. وكان كيسنجر يريد أن يعرف السبب وراء كل نقطة فى اقتراحاتى: لماذا نحن مصرون على التمسك ببعض التلال؟ وما هى أهمية الطريق الذى يمر بالقنيطرة؟ واين بالظبط يقع اقليم رافد؟ واين نقاطنا الامامية فى جبل الشيخ، وعندما غادرت حجرة كيسنجر كانت الساعة الواحدة والنصف صباحا، وكنت اكاد اسقط من الاعياء، بينما كان كيسنجر نشيطا كما هو دائما.

وخلال قربى من كيسنجر والمباحثات اكتشفت فيه القدرة الهائلة على العمل والذكاء الخارق حتى أنه كان يحفظ الخرائط والاقتراحات فى ذهنه. وكان يصر على تحديد كل عبارة ولفظ بالتحديد، ولا يترك العبارات تحتمل أكثر من تفسير كما كان يفعل الدكتور رالف بانش خلال محادثات ١٩٤٩ وكان يستخدم الفاظاً بذيئة مع مساعديه اذا لم تطع تعليماته وتنفذ حرفيا وبسرعة. وكثيرا ما يسترخى فى وسط المحادثات مستغرقا فى تفكير عميق ويتشاور مع نفسه. وكنا نشعر بقرب حدوث هذه الفترات من التأمل عندما كان يبدأ فى قضم قلمه الرصاص الاصفر وكأنه طفل فى الحضانة.

وكانت هناك لحظات خلال الشهر الذى قضاه كيسنجر كالمكوك بين دمشق والقدس، كنا نشعر فيها بأننا قد وصلنا الى طريق مسدود، وانه لن يكون هناك أى اتفاق. وكانت هذه المباحثات تتميز بأنها صعبة وشاقة، والمساومة فيها على كل نقطة سواء كانت بالنسبة لتحديد القوات أو تحديد الخطوط الامامية. وكان أول اقتراح سورى يطالب بنصف الجولان وانسحابنا ٦ أميال غرب خط ١٩٦٧م. وقال السوريون إننا احتللنا جبل الشيخ بعد وقف

اطلاق النار فى حرب ١٩٧٣، ولهذا يجب الجلاء عنه كله، كما رفضوا وجود قوات الامم المتحدة فى أراضيهم، ورفضوا اتباع النموذج المصرى من حيث وجود ثلاثة مناطق سورية وأمم متحدة واسرائيلية. ونحن أيضا فى بادئ الامر، قلنا إننا لن ننسحب بعد خط ١٩٦٧، ثم قررنا إعطاء السوريين الجزء الشرقى فقط من القنيطرة، بينما تحتل قوات الامم المتحدة الجانب الغربى. وفى النهاية تركنا القنيطرة كلها، بل وقمنا ببعض الانسحابات الاضافية.

وكانت المساومات متعددة، غير أنه فى النهاية، عندما اتضحت تفاصيل الاتفاق الوحيد الذى يمكن أن توقعه سوريا كان علينا أن نقرر اما أن نوقعه أو نظل بدون اتفاق. وقد وضعنا لانفسنا مبدأين رئيسيين لا نحيد عنهما؟! الاول أن لا ننسحب من خط عسكرى جيد، أى لايمكن أن ننسحب من التلال التى تشرف على القنيطرة ورافد، والثانى أن لا نترك مستعمراتنا الامامية معرضة للهجوم. أما بالنسبة لقوات الامم المتحدة، فقد وافقنا على أن تكون أصغر حجما مما اقترحنا، وعلى تغيير اسمها الى قوات الامم المتحدة لمراقبة فصل القوات. وفيما عدا موقع جبل الشيخ، فإن هذه القوات لن تسيطر بل ستراقب فقط تنفيذ الاتفاقية. وعلى عكس ما حدث فى مصر، فإن القوات الدولية ستحتل منطقة بمفردها، ولكنها كانت منطقة صحراوية، فى حين أن المنطقة السورية منطقة مدنية تخضع للادارة المدنية السورية.

وقد أجرينا مباحثات جانبية، فى نفس الوقت، مع الولايات المتحدة. للتأكد من استمرار امدادات السلاح خلال السنوات القادمة. والحصول على مساعدة مادية لتمويل شراء هذه الاسلحة، مع تأكيد من الولايات المتحدة بأنها لن تطلب منا أن ننسحب من أى أراضى أخرى.

وكما حدث فى الجبهة المصرية، فإن وقف اطلاق النار فى الجبهة السورية لم ينفذ فعلياً إلا عند توقيع الاتفاقية. ولم يحاول السوريون احتلال أى موقع جديد، الاستثناء موقع واحد. (ولكنهم استمروا فى القصف المدفعى

على الحدود. وكان الاستثناء الوحيد هو جبل الشيخ. فعندما احتللنا المواقع الثلاثة التى تحيط بالجبل ليلة ٢١ أكتوبر (تشرين أول) ونظرا لتساقط الثلج وعدم وجود طرق اضافية. فقد اخلينا موقع القمة بعد أن أكدت لنا قوات الامم المتحدة أن الموقع تحت سيطرتنا. لكننا لاحظنا بعد ذلك أن القوات السورية تصل اليه بصفة مستمرة، بل وكانت تبقى هناك بعض الوقت. ولهذا ارسلنا وحدة الى هناك وجدت القوات السورية وهاجمتها واحتلت الموقع وبقيت فيه وتم تحصين الموقع، ومهدنا طريقا، وأحضرنا بعض الدبابات وواجهتنا مشاكل فى تشييد الطريق ثم فى استعماله بعد ذلك. لأن سفوح الجبال كانت شديدة الانحدار. وكان الطريق الوحيد ضيقا، وتحت نيران المدفعية السورية التى كانت تنطلق على أى سيارة تظهر. وحاولنا بكل طاقتنا رغم شدة الصعبات ورغم رداءة الجو. وكنت أزور هذا المكان على الاقل مرة أسبوعيا خلال أبريل (نيسان) ومايو (أيار) وكان واضحا أن السوريين يرغبون فى احتلال الجبل ويعدون العدة لذلك ولذا كنت أريد أن أتأكد بنفسى من أن قواتنا تحتل الجبل بقوة وسيطرة وتستطيع الدفاع ضد أى هجوم.

وعقدت المرحلة النهائية للمباحثات مع سوريا فى جنيف. ولم تكن هذه المرة حول نقاط الاتفاقية بل كانت حول الجدول الزمنى لانسحابنا. وتبادل الأسرى، ودخول القوات السورية وقوات الأمم المتحدة الى الاماكن التى نخليها. وكانت المباحثات تحت رعاية الأمم المتحدة ممثلة بالجنرال سيلاسفو قائد قوات الأمم المتحدة وضم الجانب الاسرائيلى الجنرال هرزل شافير والكولونيل دوف سيون. وفى الساعة العاشرة والنصف من صباح ٥ يونيو (حزيران) ١٩٧٤، تم التوقيع على الاتفاقية. وكانت تلك هى الاشارة الرسمية الى انتهاء حرب يوم كيبور. وهمدت النار على الجبهة. وعاد آخر الاسرى الى منازلهم، وانتهت حالة الطوارئ، وتم تسريح الاحتياطى، وعاد الفلاحون السوريون الى مراعيهم على الحدود.

٣٨ ـ معالـوت

مرت أصعب أيام حياتى خلال السبعة شهور والنصف الى اعقبت حرب يوم كيبور. لم يكن لذلك علاقة بكيسنجر ولا بالحرب ولكنها كانت تتعلق بشكل جديد من أشكال العنف الذى مارسه الارهابيون، رجاء هذه المرة من الحدود اللبنانية. وكان الارهابيون منذ سبتمبر الاسود ١٩٧٠، عندما أمسك الملك حسين بزمام بلاده، قد تحولوا الى لبنان للقيام منها بعملياتهم. وتزايدت تلك العمليات من الحدود اللبنانية، ووصل عددهم على الحدود الى حوالى خمسة آلاف شخص. وفشلت الحكومة اللبنانية فى كبت جماحهم. وقد وجه الارهابيون عملياتهم ضد مستعمراتنا ومدننا فى الجليل الاعلى. وكانوا يطلقون صواريخهم من داخل لبنان، وكانوا بين الحينة والأخرى يعبرون الحدود للقيام بعمليات تخريب أو قتل.

وبينما كانت المباحثات دائرة بعد حرب يوم كيبور لإنهاء الأعمال العدوانية، وعقد مؤتمر جنيف للسلام، بدأت منظمات الارهاب نشاطها وفتحت فصلاً جديدا باحتلال أماكن سكنية والتهديد بقتل من فيها وقتل أنفسهم معها، إذا لم تتحقق طلباتهم. بالإفراج عن زملائهم. وقد وقعت حادثتان خلال شهر واحد، أحدثتا هزة عنيفة داخل اسرائيل، أولاهما فى كيريات شيمونا فى ١١ ابريل (نيسان)، والثانية فى ١٥ مايو (آيار) ١٩٧٤، فى معالوت وتقع المدينتان فى الجليل الاعلى قرب الحدود الشمالية.

وفى كيريات شيمونا فى يوم العملية، فى الساعة الحادية عشرة والربع صباحا أعلن راديو دمشق أن مجموعة فدائية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش) قد اقتحمت مدينة كيريات شيمونا. واستولت على

مدرسة، وقبضوا على كل من فيها. وحذر الاعلان السلطات الاسرائيلية من أن أى محاولة للاستلاء على المدرسة ستعرض حياة الاطفال للخطر.

وعندما وصلت الى كيريات شيمونا، كانت المعركة قد دخلت فى مرحلتها الاخيرة. وكان جنودنا يحاصرون المبنى، وقد اجلاء السكان من المبانى المجاورة. وكانت قواتنا تطلق النار على الطابق الأعلى حيث يختفى المخربون. وعندما اقتحم رجالنا الحجرة وجدوا المخربين قتلى على الارض. وكانوا صغار السن وذقونهم حليقة وشعورهم منسقة ولو اننى قابلتهم فى الطريق لما أثاروا أدنى انتباهى ولا أدرى اذا كان هؤلاء يقدرون قيمة حياتهم، ولكنهم كانوا بالتأكيد يؤمنون أن قتل اليهود عمل بطولى. ولم ينجح أولئك الارهابيون فى الافراج عن زملائهم وانما قتلوا. ولكنهم حققوا شيئا هاما. هو توليد الخوف فقد تملك الخوف والرعب كبير من العائلات بالمدينة. لكن المؤسف أن كثيرا من الوزراء والضباط الكبار رفعوا أصواتهم بوعود لم يكن من السهل تحقيقها وخاصة فيما يتعلق بالأمن.

وفى ١٥ مايو (آيار) ١٩٧٤، بعد هذا الحادث بشهر، وقعت حادثة معالوت. فقد اقتحم ثلاثة مخربين المدينة وارتكبوا أول حادث قتل قبل دخولهم اليها اذ هاجموا سيارة نقل تحمل بعض السيدات العربيات الى منازلهن بعد انتهاء عملهن فى مصنع غزل. وقتل المخربون امرأة وجرحوا عشرة من بينهم السائق. وعندما وصلوا الى معالوت دخلوا أحد المنازل وقتلوا عائلة كوهين ثم انتقلوا الى المدرسة حيث يقضى مائة طفل وأربعة مدرسين الليل. واحتلوا المبنى وأرسل المخربون مدرسا وأربعة أطفال بخطابات تحمل انذارهم الذى أخذوا يكررونه من خلال مكبر صوت. وكانت طلباتهم الافراج عن ٢٠ ارهابيا ممن قبضنا عليهم، ليطيروا الى دمشق. وعندما يعلن راديو دمشق عودتهم، سيطلق سراح أطفال المدرسة. واذا رفضنا تحقيق مطالبهم فإنهم سينسفون المدرسة بكل الاطفال.

وهذا بدون شك، عمل تخريبى انتحارى. وفى النهاية قتل المخربون. ولم يكن واضحا ما اذا كان المبنى قد أحيط بشحنات ناسفة كما أعلن الفدائيون ذلك. وعندما انتهى كل شىء عثر على خمس شحنات من المتفجرات اثنتان منها تحت السلم واثنتان فى الفصل الذى وضع فيه الاطفال، وشحنة فى الممر. ولم يكن واضحا ما اذا كانت البطاريات متصلة بالشحنات المتفجرة، وانما المؤكد ان هذه الشحنات لم تكن كافية لنسف المبنى، وأن الفدائيين كان لديهم الوقت لينسفوا المبنى ولكنهم لم يفعلوا.

وفى العمليات السابقة كان المخربون دائما يؤمنون عملية انسحابهم بزرع ألغام أو مواد تخريبية فى طريق القوات لتعطيلها الى أن يكونوا قد عبروا الحدود فى نفس وقت الانفجار. وهذه النظرية الجديدة قد خلصت المخربين من مشكلتهم. فبعد القتل والقبض على الاطفال يطالبون بمطالبهم، التى هى دائما الافراج عن زملائهم، وكذلك تأمين انسحابهم. وقد فجر هذا الاتجاه الجديد مشكلتين أمام اسرائيل الاولى: هل نخضع لعملية الابتزاز التى يمارسها المخربون؟ والثانية: هى كيف من وجهة النظر العسكرية نقاتل المخربين أثناء احتلالهم تلك المبانى؟ وقد قابلتنا تلك المشاكل مرتين من قبل وكانت أول مرة فى يوليو (تموز) ١٩٦٨، عندما اختفت احدى طائرات العال الى الجزائر (فى أول اختفاء جوى بواسطة المخربين) وكانت مطالبهم حيذاك الافراج عن بعض زملائهم المسجونين فى اسرائيل والسماح لهم بمغادرة البلاد. وقد عارضت بشدة الاستجابة الى مطالبهم ولكن الحكومة الاسرائيلية برئاسة ليفى أشكول آنئذ، وافقت وتمت الاستجابة لمطالبهم. وتفجرت المشكلة الثانية فى أغسطس (آب) ١٩٦٩ أمام مجلس الوزراء عندما تم اختطاف اثنين من الاسرائيليين معلم وصامويلوف من على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية العالمية، وسجنا فى دمشق وبادلتهما الحكومة باثنين من أسرى الحرب من الطيارين السوريين.

وكان أقرب الحوادث لحادثة معالوت هو حاث اختطاف احدى طائرات شركة سامبينا المتجهة الى اسرائيل. وهبط بها المختطفون فى مطار اللد وطالبوا بالافراج عن ٣٠٠ من زملائهم. وقررت الحكومة عدم الاستجابة لهم. وفى اليوم التالى وبعمل عسكرى استغرق عدة دقائق قتل اثنان من المخربين، وقبض على فتاتين كانتا معهما. وخلال المعركة داخل الطائرة قتلت سيدة من الركاب.

وفى حادث كيريات شيمونا، لم تضطر الحكومة الى اتخاذ أى قرار، لان المخربين لم يحتجزوا أى رهائن، ولذلك لم تكن هناك مباحثات حول مطالبهم. وقام الجيش الاسرائيلى بما يجب أن يفعله فى مثل هذه الظروف، فحاصر المبنى واخلى المبانى المجاورة، وقام بعملية اقتحام قتل فيها المخربين، أما فى معالوت اختلفت الظروف فقد طرت الى هناك مع رئيس الاركان. وعندما وصلنا علمنا أن المخربين فى داخل المدرسة ومعهم الاطفال. واتصلت تليفونيا برئيسة الوزراء وابلغتها بالموقف وتم عقد اجتماع عاجل لمجلس الوزراء لتقرير ما سوف نتخذه ازاء هذا الوقف.

وفى معالوت كان المبنى محاصرا بقوات المظلات واقتربت من المبنى بحرص، وعندما وصلت الى المؤخرة سمعت صوتاً مألوفاً يقول: «اذا اردت الاقتراب أكثر فستضطر للجرى، وحتى لو زحفت فسوف يرونك» وكان هذا صوت موكى زوج ابنة أختى، الذى كان يقود إحدى مجموعات اقتحام المبنى.

ووافق مجلس الوزراء على مبادلة الاطفال بالمسجونين، ولكن ليس بناء على الطريقة التى طالب بها المخربون لاطلاق سراح المسجونين. فقد وافقت الحكومة على اطلاق سراح الاطفال والمسجونين فى نفس الوقت دون الاعتماد على وعد الارهابيين. وعند الظهر طرت الى القدس لاجتماع عاجل مع رئيسة الوزراء. وعندما تركتها أسرعت الى الهليكوبتر التى تنتظرنى لاعادتى مرة ثانية الى معالوت ووجدت بجانب الطائرة عوزى ابن أخى زوريك الذى هرع خصيصا للمشاركة فى العملية.

وعندما وصلنا معالوت اتجهت فورا الى سطح منزل مجاور للمدرسة لارى ماذا يجرى واستخدمت نظارة الميدان فشاهدت الاطفال متعبين للغاية. وفى نفس الوقت، كانت المباحث التى جرت فيها الاستعانة بوساطة السفيرين الرومانى والفرنسى، قد تعقدت وكان الوقت يمر ببطء شديد. وعندما اقتربت الساعة السادسة مساء، وهو موعد انتهاء المهلة التى حددها المخربون لنسف المبنى بالاطفال وأنفسهم معهم، أعطت الحكومة الاذن للجنود باقتحام المبنى. ودخلت مباشرة فى أعقاب قوة الهجوم وتوجهت على الفور الى الفصل الذى احتجز فيه الاطفال. وكان المنظر مرعبا، فالارض مغطاة بالدماء، وعشرات من الاطفال الجرحى مستلقون عند الحائط. وكان جنودنا قد قتلوا المخربين ولكنهم كانوا قد تمكنوا من قتل ستة أطفال وجرح ٦٨.

ولم تكن محاولة انقاذ الاطفال هى العملية العسكرية الناجحة تماما. اذ أننا كنا ننتظر الى آخر لحظة. فى حين اننا خلال النهار قد نجد لحظة يكون خلالها المخربون غير منتبهين، أما خلال الساعة الاخيرة، فإنهم كانوا حذرين ولا يتحركون بحرية كما كانوا يفعلون فى بادئ الامر. وكان الخطأ الثانى الذى ارتكبته قواتنا انها كانت تتحرك ببطء. تم أخطأت الطابق، اذ توجهت الى الطابق الثالث ثم هبطت الى الثانى، حيث ألقى الجنود بقنبلة فوسفورية وانتظروا انقشاع الدخان، وعندئذ كان المخربون قد ارتكبوا عملهم الوحشى ضد الاطفال.

وقلت بعد ذلك فى الكنيست اننى عارضت موافقة مجلس الوزراء على قبول شروط المخربين، وأن هذه الموافقة كانت تعنى بالنسبة للمخربين اننا لن نتخذ عملا عسكرياً سريعا. وعلاوة على ذلك فإننى أظن أن رئيس الاركان أخطأ بالاستمرار فى محاولاته للتفاوض حتى آخر لحظة، رغم صدور قرار الحكومة بالعمل العسكرى. وقد حاولت أن أحثه على الهجوم فورا. ولم يكن فى وسعى أن أتصرف إلا طبقا لتوجيهات الحكومة. وقدمت النصح كثيرا ولكن احدا لم يسمع الى.

وبعد أسبوع من الحادث حضرت اجتماعا لتأبين القتلى فى معالوت وكانت الحالة النفسية سيئة. وبعد الاجتماع حضرت اجتماعا آخر مع رئيس وبعض أعضاء المجلس البلدى وكانت معالوت قد انشئت عام ١٩٥٧ نتيجة ضم معسكر للمهاجرين اليهود من شمال أفريقيا. وبعد ذلك انضمت المدينة لبعض المدن العربية المجاورة أهمها (نرشيحها). وقد أثير فى هذا الاجتماع موضوع مضاعفة سكان معالوت لا لمواجهة مشاكل الامن، وانما لمواجهة مستوى المعيشة المرتفع فى الجانب العربى فى ترشيحا. فالسكان فى المدينة كانت لديهم منازلهم الخاصة والسيارات، فى حين كان اليهود فى معالوت يعانون من الفقر ويسكنون الاكواخ. ومن بين ٥٠٠٠ عربى فى ترشيحا، كان هناك ٥٠٠ طالب فى مدرسة ثانوية خاصة بها، و٣٢ طالبا فى الجامعة العبرية والجامعات الامريكية. هذا فى حين ان سكان الجانب اليهود وعددهم ٣٥٠٠ لم تكن لديهم مدرسة ثانوية، وكان منهم ٣ فقط فى الجامعات.

ولم يكن الحل هو زيادة عدد سكان معالوت، وانما فى غرس جذور السكان اليهود فى هذه الارض حتى تصبح وطنا لهم ولأولادهم. فالعرب فى ترشيحا وصلوا الى هذا المستوى نتيجة لجذورهم الضاربة فى الارض واستمرارهم فى فلاحة أرضهم ورعايتها.

■ ■ ■

٣٩ ـ بعيداً عن المنصب

تقرر أن تجرى الانتخابات العامة لاختيار أعضاء الدورة السابعة للكنيست يوم ٣١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٣، بعد الحرب التى تسببت فى مد الدورة الحالية بعد انتهاء السنوات الأربع المقررة لها فى ٣٠ اكتوبر (تشرين الاول). وكانت الانتخابات هذه المرة تحظى بأهمية خاصة، اذ ستمثل نتائجها اتجاه الرأى العام بالنسبة للمستقبل القريب. وكان هناك نقد شديد للحكومة بسبب أخطاء حرب (يوم كيبور) ودعيت الامة لإبداء رأيها فى الحزب والاشخاص الذين ستعتمد عليهم وتشاركهم فى نظرتهم السياسية الخارجية.

ولم يكن نقد الماضى القريب منصبا فقط على الحرب، بل كان موجها ايضا للسياسة العامة للحكومة التى فشلت فى الوصول الى السلام مع العرب. وساد القلق بالنسبة للمستقبل، ليس فقط بالنسبة للمشاكل العاجلة لما بعد انتهاء الحرب، بما فيها مؤتمر جينف، وانما بالنسبة أيضا لموقف إسرائيل السياسى فى العالم. فقد غطت السحب الكثيفة سماء البلاد، لأن العرب استطاعوا فرض ثقلهم فى السياسة العالمية من خلال تكثيف نشاطهم الدولى ومن خلال تحكمهم فى مصادر البترول الى يملكونها. أما إسرائيل فقد ازدادت عزلتها، وغرق شعبها فى اليأس ليزيد الطين بلة.

وبالنسبة لى فإن الانتخابات كانت لها أهمية خاصة. فقد وجهت إلىَّ انتقادات عديدة شخصية وكوزير، فبوصفى وزيرا كان على ان اتحمل المسئولية البرلمانية عن الجيش وقيادة الحرب. أما على المستوى الشخصى، بعد كنت احظى بوضع عسكرى وسياسى مميز الى ما قبل قيام حرب ١٩٧٣، ومن هنا فإن الناس كانت تتوقع منى أكثر مما تتوقعه من اى وزير دفاع آخر، وطالبت حركة

المعارضة والصحافة واتجاهات الرأى العام، وحتى ضباط الجيش باستقالتى.

وكان هناك جانبان لهذا الامر، أحدهما رسمى والاخر شخصى. بالنسبة للجانب الشخصى، فإننى كنت على ثقة بأننى لم أفشل فى تأدية واجباتى. أما ما اذا كان يجب أن أظل فى عملى، فهذه مسألة عامة قبل كل شىء. وأما الاجابة على سؤال ما اذا كنت سأبقى وزيرا للدفاع. فكانت متوقفة على أربعة أجهزة: رئاسة الوزراء، وحزبى السياسى، والناخبون ولجنة أجرانات.

وكانت لجنة أجرانات، بغير شك، هى الهيئة الاكبر اهلية لتحديد ما اذا كنت مذنبا أم بريئا. وقد درست لجنة أجرانات كل الظروف المحيطة بهذه الحرب. وكان أعضاؤها يتميزون بالحيدة والمهارة الفذة فى التحقيقات، وضمت أعضاء مؤهلين تأهيلاً عالياً فى النواحى العسكرية والقانونية، وقد جاء تشكيل هذه اللجنة فى أعقاب مشاورات على مختلف المستويات، وفى يوم ٨ نوفمبر (تشرين الثانى) اجتمعت رئيسة الوزراء مع عدة وزراء ورئيس الأركان لبحث تشكيل لجنة تحقيق حول هذا الموضوع المؤلم. وقد قلت للحاضرين انه من اجل تأمين عدالة التقصى أمام هذه اللجنة، فيجب أن تكون موضوعية وبعيدة عن أى تأثير حزبى أو خارجى. وأكدت هذا الموقف برسالة بعثت بها الى جولدا مائير أؤيد فيها تعيين هذه اللجنة.

وبعد عشرة أيام قرر مجلس الوزراء تشكيل لجنة لتقصى الحقائق يرأسها رئيس المحكمة العليا وتضم خمسة أعضاء. وكان على الجنة أن تتقصى:

معلومات المخابرات بالنسبة للأيام السابقة لحرب يوم كيبور حول تحركات الاعداء العسكرية، واحتمال بدء الهجوم، وتقييم هذه المعلومات، والقرارات التى اتخذها المسئولون العسكريون والسلطات المدنية للرد على هذا التهديد.

وضع جيش الدفاع الاسرائيلى فى حالة الحرب، وحالة استعداده فى أيام

ما قبل الحرب وعملياته الى أن تم احتواء العدو.

وكان قرار مجلس الوزراء بذلك من أجل تحقيق مطالب الرأى العام العاجلة التى تتطلب التضحية. وفى يوم ٢١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٣ أصدار الدكتور شيمون أجرانات رئيس المحكمة العليا قرارا بتشكيل اللجنة برئاسته. وكان الاربعة الآخرون هم موشى لانداو القاضى بالمحكمة العليا، ودكتور اسحاق تيبنزال مراقب ايرادات الدولة، والجنرال يجال يادين، والجنرال حاييم لاسكوف، وبينما مضت اللجنة فى أعمالها التى استغرقت قرابة العام، استعدت الامة للانتحابات العامة فى آخر ديسمبر (كانون الاول) وكان حزب العمل هو حزب الاغلبية منذ انشاء الدولة. وعندما اقتربت الانتخابات واجه الحزب مشكلتين، الاولى الشخصيات التى سيرشحها ومن منهم سيكون فى مجموعة قيادة الحزب والذين سيكونون بالتالى وزراء فى الحكومة اذا حصل الحزب على الاغلبية. وكانت المشكلة الثانية ايديولوجية: فما هى السياسات التى سيتبعها الحزب؟

وكانت الصدمة التى واجهتها الامة فى الحرب قد تركت انطباعاتها على الحزب، حيث تم تغيير برنامجه الذى عرف باسم «وثيقة جاليلى»، وإصدار الحزب برنامجه والذى كان يحتوى على ١٤ مادة. وتضمنت التغييرات اتجاهات جديدة تتناول موضوع السلام. وكذلك فإن تشكيل قائمة المرشحين ومجموعة القيادة قد تغير تماما، وقيل فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب ان ذلك من اجل صياغة خطط للسلام ومن اجل تحديد القيادة فى الحزب.. وقد عقدت اللجنة المركزية دورتين، ووفق فى الدورة الاولى على الموقف السياسى للحزب يوم ٢٨ نوفمبر (تشرين الثانى) وذلك بأغلبية ٢٥٦ صوتا مقابل ١٠٧ وغياب ٣٠ على القائمة الجديدة للمرشحين. وفى الدورة الثانية يوم ٥ ديسمبر (كانون الاول) أثيرت الترشيحات مرة أخرى، وممن تتكون مجموعة القيادة على القمة. وقد أثارته هذه المرة جولدا مائير رئيسة الوزراء،

التى رفضت أن تبدأ بخطاب افتتاحى، وطالبت بانتخابات سرية لاختيار مجموعة القيادة الجديدة ولاتاحة الفرصة لكل من يريد تغيير رئيسة الوزراء. وكانت العملية أيضا بمثابة طرح ثقة بها.

وكانت جولدا متلهفة على معرفة النتيجة. واستمرت الدورة طوال اليوم وحتى آخر الليل. وكنت أجلس فى الصف الامامى فى القاعة. وشعرت أن هذا الاجتماع يعد بمثابة نوع من المحكمة العليا للحزب. كانت حرب يوم كيبور خلفنا واطلاق النار مازال مستمراً على الحدود، واتفاقيات فض الاشتباكات لم تحسم بعد، ومازال معظم شبابنا يخدم فى الاحتياط على خط النار، ولجنة أجرانات تواصل تحقيقاتها فى القدس.. وكان علينا أن نراجع كثيرا من الامور: علاقاتنا مع العرب، وعلاقتنا مع الولايات المتحدة الامريكية، والمشاكل الاقتصادية. وقد تناول كل المتحدثين فى المؤتمر هذه المشكلات، وتعرضوا لتشكيل الحكومة القادمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة. كما تعرضوا لاحتمالات تجدد الحرب، والاستيطان فى المستعمرات فى الاراضى المحتلة، ومشكلة الحدود الدائمة.

وفى المساء طلبت الكلمة. واعلنت أنه اذا تبنى الحزب بعض المواقف الهامة، فإننى قد لا أؤيدها. وقلت على سبيل المثال انه اذا تقرر الاعتراف بدولة فلسطينية مستقلة، فإننى فى هذه الحالة أترك الحزب، ولكن ليس معنى هذا أننى سأترك الحياة السياسة. وأكدت أننى أؤيد «وثيقة جاليلى» وخاصة ما يتعلق بإنشاء مدينة (ياميت) على البحر الابيض المتوسط، وحق اليهود فى شراء الاراضى الواقعة بعد حدود ١٩٦٧م.

وقلت ان النقد الموجه لى شخصيا ما زال تحت التحقيق الآن بواسطة لجنة أجرانات، وستصدر فيه قرارها، وبالنسبة لتشكيل الحكومة القادمة، فلم أقترح - ولم يطلب منى - أن أكون أحد أعضائها أما بالنسبة للجانب البرلمانى من مسئوليتى كوزير للدفاع، ومسئوليتى بالتالى عن الاخطاء التى

حدثت فى الجيش فإن القرار بشأنها يتوقف على رأى رئيسة الوزراء، فان طلبت منى الاستقالة فذلك ما سوف أفعله، وتكلمت أخيرا جولدا مائير وتناولت الرد على كل الامور التى أثيرت. فبالنسبة لموضوع استقالتى قالت أننى قدمت اليها استقالتى مرتين، الاولى أثناء الايام المريرة فى حرب يوم كيبور، والثانية بعد أن أعلن وزير العدل يعقوب شمشون شابيرو أن على وزير الدفاع أن يذهب. وقالت إنها فى المرتين رفضت هذه الاستقالة، واكدت أنها تشعر بالثقة الكاملة فى. وقالت جولدا أنه اذا قرر الحزب رئاستها للحكومة القادمة فلابد أن تكون حرة فى اختيار وزرائها.

وتمت موافقة اللجنة المركزية فى اقتراعها السرى لـ ٣٤١ عضوا، كما يلى: ٢٩١ اختاروا، جولدا، و ٣٣ رفضوا، وامتنع ١٧ عن التصويت. وهكذا تقرر أن تقود جولدا قائمة الحزب.

هبت حركة المعارضة فى البلاد، واستطاعت أن تصل الى قلوب الناس. وكان أعضاؤها يجمعون بين العاطفة والسياسة. واستطاعوا تنظيم مظاهرات خارج مقر رئيسة الوزراء أثناء اجتماعات مجلس الوزراء. وقامت الجماعات المتطرفة بالتظاهر ضد كيسنجر وضد أى انسحاب من هضبة الجولان، بينما طالب اليسار بالنقيض واستمر نشاط هذه الجماعات فى التدهور. وفى النهاية فشلت محاولاتها لتوحيد صفوفها فى هيئة تؤثر فى التيار، ولكنها على الاقل أحدثت تأثيراً لدى الرأى العام بالنسبة لمسألتين، الاولى: المطالبة بالتغيير فى قيادة الدولة، وقبل كل شىء أنا. واتجهت أصابع الاتهام نحو المسئولين عن الاخطاء العسكرية والسياسية عشية وأثناء حرب يوم كيبور. واستطاعت المعارضة أن تستقطب الشباب الذين اشتركوا فى الحرب، والارامل، وآباء وأمهات الرجال الذين سقطوا فى المعركة.

ويحتاج وزير الدفاع الى ثقة الرأى العام أكثر من أى سياسى آخر، لانه مسئول عن قرار الحرب. وقد لايشاركه الرأى العام آراءه وتقديراته، لكنهم

لابد أن يؤمنوا بوعيه واخلاصه وفهمه. ولكننى فى النهاية شعرت اننى بدأت أفقد ثقة الرأى العام وكان يحدث كثيرا أن أمر أثناء مغادرتى لمجلس الوزراء، ببعض المتظاهرين فتشير الى سيدة (ربما كانت أرملة) قائلة «يا مجرم يا قاتل» وكأنها طعنة كانت تصيبنى فى قلبى، لاننى لم أصدر طوال حياتى أوامر بأية عملية دون أن أكون مستعدا لأن أشترك فيها بنفسى. لكننى بالطبع لم أكن أحاول حتى أن أشرح هذا الامر لتلك السيدة الصغيرة.

لكن هذه الحركات الرافضة والمحتجة أثارت مؤشرات خفية تهدف الى اضعاف قوتنا واستعدادنا للقتال. وكنت أنظر الى هذه الناحية بقلق عنيف وشعرت أنها تضعف قدرتنا على التصدى إلى الصعاب والمشاكل التى تواجهنا.

وقاد هذه الحركة ضابط صغير يدعى موشى أشكنازى، كان خلال حرب يوم كيبور يقود نقطة بودابست على القناة وهى الموقع الحصين الوحيد الذى لم يحتله المصريون. ولم يكن ذلك بسبب موشى، بل بسبب موقعه الجغرافى القوى. ولكن أين للعامة.. أن يعرفوا ذلك؟ وكان طالبا فى الجامعة العبرية بالقدس، وعرض على أستاذه فى الفلسفة البروفيسور ناتان روتينستريش مقابلته فوافقت، وتقابلنا فى منزل البروفيسور فى القدس.

وكان موشى يتحدث، وكنت أنا متشوقا لسماع آرائه لكى أعرف ما الذى يريده انه يعجب بى ويحترم شخصى، الا أنه مصر على ضرورة استقالتى، نظرا لمسئوليتى البرلمانية بالنسبة لكل نواحى الفشل فى الحكومة والجيش والحزب والسياسة التى سبقت الحرب. وكان يرى ان كل ذلك فاشل ومملوء بالاخطاء، وان سياسة الحكومة كانت غير مفهومة ولا حكيمة، ولذا فهو يطالب بتغيير القيادة، وأن يتغير مجلس الوزراء وأنا فى المقدمة.. ولماذا كان نصر حرب الايام الستة فاشلا؟ لأننا لم نفصل سوريا عن الاردن، ولم نكن قد هزمنا مصر هزيمة ساحقة. ولو أننا فى الشمال احتللنا جبل الدورر بصفة دائمة لفصلنا كلية بين سوريا والاردن ولو أننا فى الجنوب كنا قد

دخلنا مصر بعد عبور القناة لأوصلناها الى ما يشبه الاستسلام.

أما فيما يتعلق بحرب يوم كيبور فقد كان يرى أن كل شىء سيئ، فالطيارون كانوا يرسلون فى مهام انتحارية بدون أى هدف، وكان يراهم وهم يتساقطون فيطالب القيادة الجنوبية بعدم إرسالهم، ولكن أحدا لم يستمع اليه. وفى استحكامات قناة السويس لم يحارب أحد جيدا، فالدبابات كانت تحارب فى منتهى السوء، والاطباء لم يستطيعوا اخلاء الجرحى، والصناعة الحربية الاسرائيلية لم تكن مستعدة للحرب. وكان على رجالها أن يعملوا ليل نهار لانتاج البندقية (جليل) للمشاة. وكل ما نحتاج هو الثورة، وموشى نفسه يريد التغيير بطريقة ديمقراطية، لكن هناك قلة فقط هم الذين يطالبون باستخدام وسائل العنف، وقد نجح فى كبت جماحهم لكنه لايستطيع ان يظل ساكتا اذا لم يحدث تغيير جوهرى فى السياسة.

وكنت اسمع اليه بشغف. وكنت أنا شخصيا أعتقد أن بعض نقده كان على حق، لكن بقية ما قاله لم يكن له قيمة لأنه بدون أسانيد. ولم تكن هناك أى فرصة لمناقشة هذه الامور جديا على الاقل فى هذه المناسبة لأنه حضر الى هذه المناقشة وكأنه يؤدى جزءا من حملته الانتخابية. وقد استمعت له حتى منتصف الليل. ثم شكرت مضيفى وانصرفت. ولم يكن اللقاء مدعاة للسرور، لانه لا كلمات اشكنازى ولا سلوكه مسا أى وتر لدى. وكل ما اكتشفته أنه ليس بمحدثى ولا بالناس الذين يشابهونه تم بناء اسرائيل وليس بهم نزدهر. والحقيقة أننا كنا نتكلم وكأننا من عالمين مختلفين بعيدين عن بعضها البعض.

ودخل حزب العمل الانتخابات بقائمة موحدة تحمل نفس القيادة، ولكن الخلافات كانت منتشرة بين أفراد هذه القيادة. وكان الناخبون يريدون التغيير. يريدون ان يروا وجوها جديدة. ولم يكن الناخبون هذه المرة هم نفس الناخبين فى المرة السابقة. ففى هذه المرة كان هناك شباب أكثر. وفوق كل هذا كان جدل ونقد كثير حول الحرب وسياسة ما بعد الحرب. وكان مما

ضاعف التأثير كثرة الخسائر والقتلى والجرحى، ووصف الجنود العائدين للمعارك، والاسرى العائدين من مصر. الامر الذى سبب حالة من اليأس، وجعل النقد أكثر حدة، وأدى الى تقوية المطالبة بتغيير القيادة.

وجاءت نتيجة الانتخابات بخفض ٥٪ من قوة حزب العمل، وفقد سبعة مقاعد فى الكنيست (حصلنا على ٤٩ مقعدا من ١٢٠) وحصلت الاحزاب المعارضة على ٩ مقاعد وأدى هذا الى منع حزب العمل من تأليف الحكومة بمفرده واضطراره الى التآلف مع أحزاب أخرى وبعد اجتماع اللجنة المركزية، فى ١٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٣، دعوت نفسى الى منزل رئيسة الوزراء جولدا مائير، لأسألها عما اذا كانت ستكلفنى بوزارة الدفاع فى الحكومة وأردت أن أحيطها مقدما بأمرين: أنه فى حالة صدور أى شىء من لجنة أجرانات، فإننى سأستقيل فورا، والامر الثانى أنها يجب أن تتجاهل أى ضغط من حزب رافى أو أى حزب آخر إذا ما ضغطوا عليها لتعيين وزير للدفاع كشرط لانضمامهم للحكومة وأجابت جولدا أنها لن تتردد لحظة فى تعيين وزير للدفاع فى حكومتها الجديدة، وأن هذا هو قرارها، واذا حاولت أى قوة الضغط عليها لالغاء هذا القرار فإنها على استعداد للتخلى عن رئاسة الوزراء. وقالت إنها قد شاركتنى فى المسئولية، وأنها كانت شريكة كاملة لى فى تلقى معلومات المخابرات واتخاذ القرارات الحاسمة وقد سررت لهذا الحديث الذى أعاد الثقة الى نفسى. وزاد من سرورى أن مائير لم تكن لتختارنى وزيرا للدفاع لولا تأكدها من أن ذلك يمثل صالح الدولة، على الرغم من أن صداقتنا سويا لم تكن كصداقتها مثلا لجاليلى أو سابير.

ومن بعد الانتخابات، استمرت حركة المعارضة ضدنا، وانضمت اليها الاحزاب السياسية التى فشلت فى تحويل نتيجة الانتخابات لصالحها. وظلت جولدا شهرين تجرى مباحثات لتشكيل الوزارة الجديدة، وبعد جهود عنيفة قدمت الحكومة الجديدة الى الكنيست يوم ١٠ مارس (آذار) ١٩٧٤ وكانت

الصعوبة التى واجهتها هى رفض الحزب القومى الدينى الاشتراك فى الوزارة موقفها من قضية (من هو اليهودى؟) وازاء ذلك اضطرت جولدا الى تشكيل حكومة أقلية لا تحظى بالاغلبية المطلقة فى الكنيست.

ولم أكن أشعر برغبة كبيرة فى الانضمام للحكومة. فما زالت حركة المعارضة مستمرة ضدى من كل الجهات حتى من زملائى فى الكنيست ومن صحيفة الحزب. بل أن بعض أعضاء البرلمان كانوا يقفون أما كاميرات التليفزيون ليصافحوا زعماء حركات الاحتجاج ويهنئوهم على حملتهم ضد ديان.

ووصلت الحملة ضدى الى الجيش، فقد وقف أحد الضباط الصغار فى اجتماع عسكرى، أمام رئيسة الوزراء، وطالب باستقالتى.

وفى اجتماع لمجلس الوزراء أرسلت مذكرة لجولدا أخبرها فيها بأننى لن أنضم الى الحكومة الجديدة. وقرأتها دون ان يبدو عليها أى صدمة أو مفاجأة وابلغت أصدقائى فى رافى بهذه الخطوة. وأذيعت هذه الانباء فى المساء، وتلقيت مكالمة غاضبة من جولدا تستغرب فيها من اعلانى هذا الامر وظلت فى عدة مناسبات تحثنى على الرجوع عن هذا القرار، بل واتصل بى بعض أعضاء الحزب وكذلك شيمون بيرير الذى رفض هو الآخر الانضمام للحكومة الجديدة بدونى. ولكننى أصررت على الرفض وكنت فى الحقيقة متلهفا على انهاء هذه الحرب بالوصول الى اتفاق مع السوريين واعادة أسرى الحرب ولكنى كنت أعلم أننى لن أنجح فى مهمتى هذه اذا لم يؤيدنى الحزب والكنيست والحكومة. وبعد التشاور مع أصدقائها المقربين قررت جولدا تشكيل الوزارة بدون رافى، الذى قرر عدم الدخول فى الوزارة الجديدة بدونى. وكذلك بدون الحزب القومى الدينى.

وفى يوم ٣ مارس (آذار) ١٩٧٤ عقد الاجتماع الاخير لمكتب قيادة الحزب للموافقة على الحكومة وتقرر احلال اسحق رابين بدلا منى كوزير للدفاع، ودارت خلال الاجتماع مناقشات عنيفة ونقد مرير لكل الامور. وانتهت هذه المناقشات

بأن اعلنت جولدا أنها قد قررت عدم تشكيل الحكومة الجديدة. صحيح أن المناقشات كانت عنيفة. ولكن رد الفعل عند جولدا كان أعنف. وعقد دورة خاصة للجنة المركزية للحزب لاقناع جولدا بعدم الاستقالة. وفى اعتقادى أن جولدا لم تفعل ذلك لتخلى أصدقائها عنها، ولا لأن الحزب القومى الدينى وحزب رافى رفضا الاشتراك فى الحكومة. وانما لاعتقادها بأن رفاقها فى الاحزاب الاخرى سيستديرون نحوها بعد أن ينتهوا من رجم كباش الفداء الاخرى.

وفى الاجتماع الذى عقد بعد يومين لمحاولة أقناع جولدا بالعدول عن استقالتها، ارجع كل المتحدثين المتاعب داخل الحزب الى رافى والىَّ أنا على وجه الخصوص. وتكلمت أنا فأشرت الى أن هذا آخر يوم لى كوزير للدفاع، وعبرت عن معارضتى لتشكيل حكومة أقلية، وحيث اننى أعلم أن جولدا لن ترأس الحكومة الجديدة، فقد طالبت بانتخابات عامة جديدة.. وغادرت الاجتماع قبل نهايته، لاننى تلقيت مذكرة تفيد أن معلومات هامة قد وصلت من المخابرات ولابد من حضورى الى مكتبى. وأرسلت الى السكرتارية قرار الحزب فيما بعد مكتوبا كما يلى:

«إن اللجنة المركزية تناشد جولدا مائير أن تتراجع وتأخذ على عاتقها مسئولية تشكيل الحكومة الجديدة» - حظيت الفقرة بالموافقة بالاجماع، وامتناع أربعة فقط - طلبت اللجنة المركزية من الحزب القومى الدينى الاشتراك فى حكومة تحت رئاسة جولدا مائير. وذلك لمواجهة الاحتياجات العاجلة للقيام بالواجبات السياسية ازاء ما يواجه اسرائيل (موافقة بالاجتماع)، كل الوزراء وخاصة موشى وشيمون بيريز مطلوب منهم أن يقوموا بواجباتهم كوزراء ممثلين لحزب العمل، والاستجابة لرغبة رئيستها فى الانضمام الى الحكومة الجديدة بلا معارضة ولا أعذار (موافقة بالاجماع)، اللجنة المركزية للحزب تطلب من جولدا مائير استكمال جهودها لتشكيل الحكومة الجديدة وتقديمها للكنيست بناء على قرار اللجنة المركزية فى ١٤ فبراير (شباط) ١٩٧٤».

وكانت معلومات المخابرات التى وجدتها فى مكتبى أن السوريين قرروا استئناف الحرب فورا. واذا كانت مثل هذه المعلومات تعالج فى العادة بأقصى اهتمام، فإن الحساسية السائدة فى إسرائيل بعد حرب يوم كيبور ضاعفت من أهميتها. وأبلغت رئيسة الوزراء، التى دعت الى اجتماع عاجل لمجلس الوزراء للنظر فى هذه الانباء، وفى نفس الوقت ظلت الانباء تصل لتجدد هذا التحذير وفى اجتماع مجلس الوزراء الذى عقد فى الثامنة والنصف مساء، وكان بمثابة لجنة وزارية لشئون الامن تمت دراسة المعلومات وتحليلها. ومع أن اتخاذ القرار كان حتميا، الا أن الخلافات بين الاعضاء سيطرت على الاجتماع. وأصر ممثلو الحزب القومى الدينى على عدم الاشتراك فى الحكومة الا اذا اشترك فيها رافى أيضاً.

وفى نهاية الاجتماع اختليت بشمعون بيريز وقلت له أنه بناء على الموقف العسكرى الجديد فى مواجهة التهديد السورى فإننى أظن أنه يجب علينا أن نوافق على الانضمام للحكومة الجديدة، وذلك سيجعل الحزب القومى الدينى يتبعنا، ووافق بيرييز وعدنا الى جولدا، وقلنا لها أنها اذا كانت لاتزال تريدنا كوزراء معها فإننا قبلنا. وقالت جولدا إننى لم أتلق خيرا من هذه الهدية وفى اليوم التالى وافق الحزب القومى الدينى على الانضمام للحكومة. وبعد أسبوع حازت الحكومة الجديدة على ثقة الكنيست بموافقة ١٦٢ ضد ٤٦ وامتناع ٩ عن التصويت.

ولم يقع الهجوم السورى المتوقع، ولكن ثقة الرأى فى الحكومة مازالت غير متوافرة. وزاد الحالة سوءا أن وزيرين من الوزراء هما حاييم جفاتى وزير الزراعة وشلومو هيليل وزير البوليس صرحا بأن الرأى العام لا يثق بالحكومة. وكانت جولدا تدرك ضعف مركزها ولذا قررت الاستقالة. وفى ١١ أبريل (نيسان) ١٩٧٤، قدمت استقالتها للكنيست. وفى هذه المرة كان قرارها نهائيا. وطبقا للقانون الاسرائيلى فإن استقالة رئيسة الوزراء تعنى استقالة

مجلس الوزراء كله وكانت تلك هى نهاية حكومة يوم كيبور. لكنه أيضا طبقا للقانون الاسرائيلى فإن مجلس الوزراء يستمر فى عمله حتى تشكيل حكومة جديدة. وقد أستغرق ذلك شهرين.

وفى نفس الوقت أعلنت لجنة أجرانات تقريرها الاول. وكان يشمل موضوعين هما معلومات المخابرات عن تحركات العدو ونواياه وتقييم هذه المعلومات والموضوع الثانى استعدادات جيش الدفاع الاسرائيلى. وأصدرت اللجنة توصياتها بوضوح كامل وقسوة شديدة وتناولت فى تقريرها مبادئ عامة، ثم تناولت أشخاصا فى مواقع السلطة.

وأوصت اللجنة بإبعاد أربعة ضباط من الخابرات عن مناصبهم هم الجنرال الياهو زاعيرا مدير المخابرات. الذى بسبب فشله الفظيع لايجب أن يستمر فى منصبه رئيسا للمخابرات، ونائبة البريجادير ارييه شاليف، الذى لايجب أن يستمر فى عمله بالمخابرات. والمقدم يونابند مان المسئول عن النشاط المصرى فى المخابرات، الذى لايجب أن يعمل بعد الآن فى عمل يتصل بالمخابرات، والكولونيل دافييد جيداليا مسئول مخابرات الجبهة الجنوبية، الذى لايجب أن يعمل فى المخابرات. بالنسبة للمستوى القيادى، فقد تقرر ايقاف الجنرال شمويل جونين قائد الجبهة الجنوبية عن العمل العسكرى الى أن تنهى اللجنة تحقيقاتها، وكذلك تقرر إنهاء خدمة دافييد اليعازر رئيس الإركان لمسئوليته الكاملة عما حدث.

وفيما يتعلق بى، قالت اللجنة انها قامت بالتشاور حول مسئوليتى المباشرة وقالوا «إن السؤال كان هل يمكن لوزير الدفاع أن يقوم بواجبات خارج نطاق مسئولياته».. وقالوا فى النهاية إن وزير الدفاع لايمكنه إصدار الاوامر الا فى حدود ما يقترحه عليه رئيس الاركان وفقا للمشاورات التى يجريها رئيس الاركان ومدير المخابرات. ولم تبحث اللجنة موضوع استقالتى.

وفى ٣ يونيو (حزيران) ١٩٧٤، أعلنت الحكومة الجديدة برئاسة إسحاق

رابين، وأصبح شيمون بيريز وزيراً للدفاع. وكانت آخر عملية قمت بها فى وزارة الدفاع هى توقيع الاتفاقية مع سوريا، وقيامى بتعيين الجنرال موردخاى جور رئيساً للأركان بدلاً من إليعازر، وأصبح الجنرال شلومو جازيت مديرا للمخابرات بالاضافة الى عدة تعيينات جديدة فى القيادات الشابة.

لم يكن الاتفاق مع سوريا مرضيا مثل الاتفاق الذى حدث مع مصر، ولكنه بالنسبة لى كان يمثل أهمية كبرى.. لانه أنهى كل ما يتعلق بحرب يوم كيبور. وها أنذا أغادر منصبى كوزير دفاع، وقد دخلت إسرائيل مرحلة استقرار جديدة تستريح فيها وتسترد أنفاسها ونقلب صفحة جديدة. صحيح أن هذه الصفحة ليست منفصلة عما يسبقها لكنها على أية حال تنهى الجزء الخاص بيوم كيبور. وقد نكون قد انسحبنا ١٢ ميلا من قناة السويس وسلمنا مدينة القنيطرة، ولكن خطوط وقف النار أصبحت الآن أكثر ثباتا من قبل الحرب وتمثل حقيقة جديدة. وقد أصبحت اسرائيل الآن بطائراتها وأسلحتها الحديثة أقوى مما كانت عليه قبل الحرب.

■ ■ ■

٤٠ـ حقيقة جديدة

كانت حرب يوم كيبور نتيجة لرفض مصر وسوريا عقد اتفاقات سلام مع اسرائيل، ورفضهما أيضا ترك الجولان وسيناء فى يد إسرائيل. ولرغبة العرب فى استعادة الارض التى فقدوها من خلال حرب جديدة.

وقد تحدد موقف مصر بالنسبة لإسرائيل بعد انتهاء حرب الأيام الستة مباشرة، عندما أعلن المصريون ثقتهم بعبد الناصر. ورغم ما لحق بجيشهم من هزيمة، فقد خرج عشرات الألوف فى مظاهرات فى الشوارع تطالب عبد الناصر بسحب استقالته التى قدمها وكانت هذه المظاهرات بمثابة تعبير الأمة المصرية عن أنها لم تتكسر.

ورغم أن مصر خسرت الحرب، وفقدت جيوشها، وفقدت كل سيناء، الا أن الشعب لم يلم قادته أو أنفسهم، ولم يداخلهم حتى ولو قليلاً من اليأس، ولم تحطم الهزيمة العسكرية ثقتهم فى أنفسهم أو ثقتهم فى قدرتهم على الاستمرار فى النضال ضد اسرائيل.

وعندما شاهد عبدالناصر هذه الثقة فى الشعب، لم يأخذها على أنها تأييد بالنسبة لشخصه فقط، بل تأييد من الشعب لسياسته نحو تجديد العمليات العسكرية ضد اسرائيل. وبعد الحرب أضاف عبد الناصر مبدأ آخر لمبادئ نضاله ضد اسرائيل، يقول (ان ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة) وأن حساب مصر مع اسرائيل ليس بالنسبة لاستعادة سيناء بل لهزيمة الجيش.

وتمت صياغة سياسة ما بعد الحرب ضد اسرائيل فى قرارات الخرطوم (بأنه لاسلام ولا اعتراف ولا مفاوضات). وكانت خطة مصر العسكرية لاستعادة أراضيها على ثلاث مراحل: الدفاع والصمود ثم الردع النشيط، ثم

(حرب الاستنزاف) فالنصر. وكانت المرحلة الاخيرة وهى العمل على احراز النصر قد بدأت عام ١٩٧١. وقد أعلن الرئيس السادات خليفة عبد الناصر أنها (سنة الحسم) لكنها تأجلت حتى عام ١٩٧٣م. وقد ساعدت العوامل العالمية العرب على تنفيذ قرارهم بمبدأ الحرب. وكان العرب يطالبون بتنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧، الذى يطالب اسرئيل بالانسحاب من جميع الاراضى التى احتلها فى حرب الايام الستة. ولقى هذا التفسير تأييدا بدون تحفظ من جانب الكتلة السوفيتية وفرنسا ودول عدم الانحياز، لكنه لم يلق تأييدا من الولايات المتحدة، وبريطانيا التى صاغت القرار.

وبعد حرب الايام الستة مباشرة وعد السوفييت مصر وسوريا (بتعليمهما القتال) ومد جيوشهما بالأسلحة الحديثة ونمت أواصر الصداقة بين سوريا ومصر من جهة والاتحاد السوفييتى من جهة أخرى. ووصل الى مصر وسوريا آلاف الخبراء والمستشارين السوفييت، وسلم عبد الناصر الدفاع الجوى الى السوفييت وعندما نمت قوة السلاح الجوى الاسرائيلى، طالبت سوريا ومصر بمدهما بأحدث الاجهزة الالكترونية لمواجهة الطائرات وتم تزويدهما بها.. وبعد حرب الايام الستة بعدة سنوات، اقتنع القادة العرب بأن جيوشهم قد أعيد بناؤها وانهم يملكون القدرة الآن على هزيمة اسرائيل وكانت المساعدات الروسية تتم علانية، وبالاضافة الى ذلك فإن كل من سوريا ومصر قد انضمت اليهما قوات عراقية وسعودية وأردنية ومغربية، ووقفت الى جانبهم بإخلاص وثقة.

ولم يستطع النشاط السياسى خلال السنوات التالية للحرب، ولا مبادرات السلام وجهود روجز ويارنج، أن تمنح العرب ما يريدونه. وكانت اسرئيل تطالب (بسلام حقيقى) ـ كما قال بن جوريون ـ مقابل انسحابها. ولم تكن مصر وسوريا مستعدتين لقبول مثل هذا السلام، وصمم قادتهما على أن أى اتفاقية للسلام يجب أن تتضمن الى جانب الانسحاب، حل المشكلة الفلسطينية. وكان الفلسطينيون يصرن على العودة الى أرضهم. وكانت اسرئيل

تعتقد أنها اذا وافقت على مطالب الفسلطينيين، فمعنى ذلك نسف أساس وجودها نفسه.

وخلال السنوات التالية للحرب، آمن العرب بأن الأسلوب الوحيد لتحقيق أهدافهم هو الحرب. وبعد قرارات الخوطوم، ألغت اسرئيل قرارها السابق اتخاذه فى يونيو (حزيران) بالاستعداد للعودة للحدود الدولية فى مقابل السلام مع مصر وسوريا. وبدأت اسرئيل فى اقامة المنشآت فى المناطق المحتلة على أساس أننا لن ننسحب منها. فالقدس تم ضمها إلى إسرائيل، وبنيت مدينة عوفيرا فى شرم الشيخ، وانشئت مستعمرات فى الضفة الغربية، وقال المتحدث الرسمى إن الجولان أراض إسرائيلية.

ولم تنجح الوساط الامريكية، ووجد السوفييت فى أزمة الشرق الاوسط مرتعا خصبا لمد نفوذهم على الدول العربية. وحتى الولايات المتحدة التى كانت ترغب فى حل المشكلة بالوسائل السلمية، فإنها لم تكن تستطيع فرض الحل بالقوة لانها كانت تعانى من مشكلاتها الخارجية مثل فيتنام والداخلية كووتر جيت حتى خلال السنتين الحاسمتين ـ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، لم تستطع الولايات المتحدة من خلال جهودها الدبلوماسية القيام بأى تأثير، فى حين أن العرب كانوا قد انتهوا من بناء قوتهم العسكرية.

وما انتهت الاستعدادات العسكرية حتى بدأت عملية الضغط الشعبى تتزايد، مطالبة بالحرب، وخاصة فى مصر. وكانت تكاليف بناء مثل هذا الجيش القوى قد كبدت ميزانية مصر تكاليف باهظة أرهقتها. كما أن شباب مصر فى الجامعات والمعاهد العليا ظل يخدم فى الجيش عاما. وقام السادات بمشاورات تبين منها أنه لن يستطيع الاستمرار فى هذا الموقف، والا واجه أزمة حادة. وبدا واضحا أنه لا فائدة اطلاقا من الجهود السياسية التى بذلها حافظ اسماعيل مستشار السادات من أجل الحصول على تأييد نيكسون، وكان السادات يعتقد أن قدراته القتالية الآن تمكنه من إحراز

النصر، وهكذا شنت مصر وسوريا الهجوم يوم ٦ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ وكانت حرب يوم كيبور.

وقد أخذت اسرائيل بالمفاجأة بعد سنتين من وعد السادات بأن عام ١٩٧١ هو عام الحسم. ولم تتحقق تهديدات مصر وسوريا بالقتال خلال السنتين. وفى بداية أكتوبر (تشرين الاول) ٧٣ عندما كانت هناك علامات عن النشاط العسكرى المتزايد فى مصر وسوريا، قالت المخابرات الاسرائيلية إن المصريين يقومون بمناوراتهم السنوية وانهم لايستعدون للهجوم ولم تكن هذه وجهة نظر المخابرات الاسرائيلية فحسب، بل أن المخابرات الامريكية أيضا قالت ذلك. فقد نشرت النيويورك تايمز فى ١٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥، فى تقرير نشرته أن المخابرات الامريكية فشلت فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ فى معرفة استعدادات الحرب بين العرب واسرائيل، بل أن هناك عدة أجهزة تابعة للمخابرات فشلت فى معرفة ذلك حتى قبل الاشتباكات بساعات قليلة.

وقال تقرير الجريدة إن نشرة المخابرات الامريكية التى صدرت فى اليوم السابق للحرب، ذكرت أن المناورة العسكرية فى مصر تأخذ حجما أكبر من المناورات السابقة، ولكن ذلك لا يدل على أنه استعداد لعمل عسكرى ضد اسرائيل. وكانت مخابراتنا هى التى قادت قيادة الجيش والحكومة الى هذا الموقف الذى واجهنا به الحرب بقوات قليلة العدد وبامدادات لم تصل فى الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد.

ولم يكن هدف العرب من حربهم تحرير أراضيهم فحسب، فبالنسبة لسوريا لم تكن الجولان فقط هى الهدف وانما بعد الاتصال بالاردن يتم الدخول الى الناصرة والجليل الاوسط. وبالنسبة لمصر لم يكن الهدف تحرير سيناء وقطاع غزة فقط، وانما كان هدف السادات عبور القناة والاستيلاء على ممرات متلا والجدى معتقدا أن ذلك يؤدى الى هزيمة اسرائيل واجبارها على التسليم بطلباته. وهكذا كان الموقف كما يراه السادات حتى نهاية الاسبوع

الاول من الحرب، وبعد بداية الحرب بأربعة أيام ابلغ الولايات المتحدة انه يقبل ايقاف اطلاق النار فى حالة موافقة اسرائيل على الانسحاب الفورى من سيناء وقطاع غزة وفقا لجدول زمنى وبعد أسبوع آخر، حتى بعد أن أقامت اسرائيل رأس جسر ودخلت الى الضفة الغربية للقناة واضطر السوريون للتقهقر وإقامة خط دفاع عن عاصمتهم دمشق. أعلن السادات فى خطاب أمام مجلس الشعب أن مصر ستظل تقاتل حتى تستعيد أراضيها وتسترجع حقوق الشعب الفلسطينى. وقال إن مصر على استعداد لقبول ايقاف اطلاق النار بشرط أن تنسحب إسرائيل فورا الى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧م. وانتهت الحرب بالرئيس المصرى وهو مستمر فى إرسال برقيات عاجلة لنيكسون وبريجنيف طالبا منهما ايقاف تقدم القوات الاسرائيلية التى تهدد القاهرة، وكان السادات نفسه مع قواته المسلحة عاجزا عن ذلك.

وفى الجبهة الشمالية، التى وصل فيها الجيش الإسرائيلى الى مسافة ٢٥ ميلا من دمشق أتخذ الرئيس الاسد خطوتين، اذ أمر قواته التى فقدت نصف مدرعاتها أن تتحصن لتدافع عن دمشق، وفى نفس الوقت أرسل برقيات احتجاج للرئيس المصرى على قبوله ايقاف إطلاق النار، وطلب الاسد عدم ايلاء أى اعتبار للموقف على الجبهة واستمرار الحرب للحفاظ على الروح المعنوية للجنود. ولم تعكس حالة ايقاف اطلاق النار، وبعدها اتفاقيات فصل القوات على الجبهات سياسة الدول المتحاربة فقط بل أيضاً مصالح القوتين الكبيرتين اللتين كانتا ترغبان فى انهاء الحرب لتجنب الصدام بينهما.

غير أن التغيير الاساسى الذى جاءت به الحرب، هو أن السادات قد غير سياسة الحرب التى ورثها عن عبد الناصر الى سياسة سلام، وكان بذلك يعبر أفضل تعبير عن رغبات شعبه.

وكانت كفاءة العرب فى شن هجومهم أكبر مما توقعناه. والحقيقة أن حرب الايام الستة والاشتباكات التى سبقت الحرب جوا وبرا قادتنا الى

إصدار حكم قاطع بأنه ليس من الصعب على اسرائيل أن تكسب الحرب اذا اندلعت. وكان الظن أن خطوطنا الامامية، فى القناة والجولان، قد أحسن تحصينها بحيث أصبحت حواجز لا يمكن اختراقها. كذلك فإن تفوق مدرعاتنا وطيراننا جعل قيادة الجيش، وجعلنى، أحس بشعور عميق الاغوار بالثقة فى قواتنا العسكرية واستقرارنا السياسى.

وعندما بدأت الحرب انكشفت نقاط الضعف فى استراتيجية مدرعاتنا وفى عملياتنا الجوية المحدودة وذلك من خلال معارك كثيرة.. فقد كانت دباباتنا تمارس تكتيكا قديما هو نفس التكتيك الذى استخدمته فى الحروب السابقة مفضلين الاختراق السريع بقواتنا المدرعة بدون مشاة أو دعم المدفعية. والهجوم فى قلب الاعداء محاولين بذلك تحقيق انكساره. ولكن هذه المرة، وجدت قواتنا أنفسها محاصرة بآلاف من مشاة الاعداء المزودين بالاسلحة المضادة للدبابات والتى كان بمقدورها ايقاف تقدمنا وتكبيدنا خسائر فادحة.

والحقيقة أن وجه الحرب قد تغير الى حد رهيب وحتى أولئك الذين تابعوا بحرص التطور التكتيكى الذى حدث فى الاسلحة خلال السنوات الاخيرة، لم يستطيعوا استيعاب كمية التدمير الرهيبة التى يتحكمون فيها، فقد كانت معارك الدبابات وكميتها فى حرب يوم كيبور تعادل عشرة أضعاف ما استعمل خلال الحرب العالمية الثانية وضعف ما استخدمه الامريكيون فى حرب كوريا، ففى الحرب العالمية الثانية كانت أمام الدبابة تشيرمان فرصة واحدة فى كل ٢٠ فرصة لاصابة الدبابة المواجهة من الطلقة الأولى على مدى ميل، وفى حرب كوريا كانت الفرصة واحدة لكل ثلاث. أما فى حرب يوم كيبور فقد كانت الفرصة ٧ من كل عشر ولذلك فان الدبابات كانت تتحطم بأرقام كبيرة وقت قصير.

وقد فقد العرب دبابات أكثر عددا من الدبابات الامريكية الموجودة فى أوروبا وفقدت اسرائيل الكثير من الدبابات ولكن ليس فى اليوم الاول عندما

فاجأنا العرب. وانما حدث معظم خسائرنا عندما تمت تعبئة الاحتياطى ووصلت المعارك الى ذروتها فى يوم ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) فى الجبهة الشمالية ويوم ١٨ فى الجبهة الجنوبية.

أما قواتنا الجوية فقد كانت تقوم بعملياتها فوق منطقة مملوءة بالصواريخ المضادة. ولم تستطع القيام بهجومها بدقة وكفاءة. وكان للتنسيق بين مجموعات صواريخ سام ٣ وسام ٦ والمدفعية المضادة للطائرات أثر ضخم فى تكبيد طيراننا خسائر فادحة. ومنعه من البقاء طويلا فوق الاهداف أو دعم قواتنا البرية وحتى عندما قامت قواتنا الجوية بضرب الجسور المصرية عند قناة السويس، فإنها لم تستطع التأثير على عبور القوات المصرية لأن هذه الجسور تم اصلاحها بسرعة فائقة. وكذلك لم يستطع طيراننا ضرب مئات العربات التى كانت تحشد فى طوابير منتظرة عبور القناة.

وكانت هناك عمليات فاشلة كنقص الاستعدادات فى نقطة جبل الشيخ فوق مرتفعات الجولان، والفشل فى انتشار قواتنا فى غرب القناة فى الوقت المناسب، والهجوم المضاد يوم ٨ أكتوبر، والمحاولات القتالية الفاشلة لاحتلال مدينة السويس. وكان ذلك كله نتيجة أخطاء القادة. وادت الاخطاء الثلاثة الاولى الى آثار سيئة فى مرحلة بداية الحرب أما الفشل الرابع، فى احتلال مدينة السويس، فقد كان كفيلا بتغيير نتيجة الحرب. اذ لو أن مدينة السويس سقطت لكان الجيش الثالث قد استسلم، برغم التدخل الامريكى. وكانت هزيمة المصريين عندئذ ستكون أكبر، وموقفهم فى المساومة يكون أضعف.

وهناك ايضا عدة حقائق لابد وان تدخل فى الاعتبار. وهى ان الاسلحة التى اشتركت على جبهات بالغة القصر، والنيران التى استخدمت كانت أكثر من أى حرب أخرى. ففى الحرب العالمية الثانية كان للفرنسيين ٢٠٠٠ دبابة فى خط دفاعهم الرئيسى (خط ماجينو). وهاجم الالمان بثلاثة آلاف دبابة. وفى العلمين كان مع مونتجومرى ١٠٢٠ دبابة وكان مع روميل ٦٠٠ دبابة. وفى

جبهة القناة كان لدى المصريين ضعف ما كان مع مونتجومرى، وفى الجبهة الشمالية كان لدى السوريين نفس العدد الى هجم به الالمان على فرنسا، يضاف الى ذلك الاعتماد الكبير من طرفى الحرب على القوتين الكبيرتين. صحيح أن قواتهما لم تتدخل، ولكن الاستمرار فى القتال كان يتوقف على ارادتها سواء بالنسبة للبداية، أو الاستمرار، أو إنهاء القتال.

وبعد الحرب كان على اسرائيل أن تعوض خسائرها لكى تحافظ على مقدرتها على صد أى هجوم عربى فى المستقبل بعد أن خلقت الحرب حقائق عسكرية جديدة. أن هناك حدودنا لتقوية اسرائيل عسكريا لا يمكن أن تتعدداها وإلا أرهقها ذلك اقتصاديا.

وتقول نشرة معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن إن اسرائيل تحتفظ فى حالة السلم بجيش يعتبر حجمه مقارنا مع عدد سكانها أكبر من حجم الجيش فى دول أخرى أكبر منها بكثير. فالطيران والمدرعات فى الجيش الاسرائيلى تمثل ٨٠٪ من حجم، وتوضح المقارنة التالية الموضوع، ففرنسا يبلغ عدد سكانها ٥٢,٤ مليون نسمة لديها ٩٥٠ دبابة و٤٦١ طائرة وبريطانيا بسكانها ال ٥٦,٤ مليون لديها ٩٠٠ دبابة و٥٠٠ طائرة مقاتلة. أما اسرائيل وتعدادها ٣,٣ مليون نسمة فلديها ٢٧٠٠ دبابة و٤٦١ طائرة مقاتلة.

ولهذا فإن الطريق الذى يجب أن تسلكه اسرائيل لتحقيق التوازن العسكرى مع العرب، لابد وأن يعتمد على الاعداد الكبيرة بل على تطوير نوعية الاسلحة الى المستوى الذى يضمن أن أى محاولة من العرب لتحطيم اسرائيل سوف تؤدى فى النهاية الى تحطيم العرب أنفسهم.

وبالرغم من النصر الذى حققته اسرائيل فى حرب يوم كيبور فإن الحرب تركت البلاد فى حالة تمزق، وقد سميت الحرب (بالغلطة)، وشكلت لجنة للتحقيق مع المسئولين عنها. لكن الرأى العام كان قد أصدر أحكامه قبل أن تصدر هذه اللجنة توصياتها، وحظيت بالقسط الاكبر من هذه الاحكام. واتسم هذا الفصل

من حياة اسرائيل بالفشل الناتج عن قصر النظر والاهمال والتراخى.

وفى اجتماع عقد فى حزب رافى بعد الحرب قلت إن ما حدث فى حرب يوم كيبور، هو أن الصدمة الكبرى جاءت من اكتشاف حقيقة جديدة تختلف عن الماضى، وهى أنه لايوجد شىء لا يقهر، كما أن خسائرنا كانت فادحة ٢٥٠٠ قتيل وهو ثمن فادح بالنسبة لاسرائيل. لكن هذا العدد من وجهة نظرى لايمثل خسائر كبيرة بالنسبة لما حققناه أمام تلك القوة الهائلة التى واجهناها، وأن الامم الاخرى التى تواجه مثل هذا الموقف تعتبره صفحة مضيئة فى تاريخها.. ولكن يجب علينا أن نتعلم الكثير من دروس حرب يوم كيبور ونعيها جيدا.. وأهمها أن قيادات الجيش يتعين تغييرها، وبسرعة، اذا لم تقم بواجبها المطلوب أثناء الحرب، وأن الزعماء والوزراء لابد وأن يعرضوا أفكارهم ووجهات نظرهم وسياستهم علانية طول فترة الانتخابات. ويجب أن يعرف الرأى العام سياسة الحكومة فى شئون الدفاع والشئون الاقتصادية والسياسية الخارجية، بل وأن يوافق عليها الرأى العام أيضا.

وقد جرحت حرب يوم كيبور فى وسط حقائق سياسية وعسكرية جديدة، مختلفة عن حرب الايام الستة، وهى أن القوة العسكرية والسياسية للعرب قد تزايدت وأن الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة أصبحت تخاف أن تغضب العرب من أجل ضمان تدفق بترولهم. ولو كان العرب قد نجحوا فى احتلال الجولان وسيناء فإننا كنا سنقاسى كثيرا ولا أعرف ما الذى كان سيترتب على ذلك بل اننا حتى لو كنا قد أنقذنا بواسطة القوات الامريكية فإن الموقف كان سيظل قاتماً للغاية.

■ ■ ■

وأخيـــراً

بعـد سـبع سنوات فى وزارة الدفاع، عـدت الى الحـيـاة المدنيـة. ولم تعـد الليـالى يتخللهـا رنين التليفـون، ولم أعد أنـدفع الى مكتبى فى الصباح.. وقد قضيت أيامى الاولى فى نحال بئر سبع أتذكر الامطار تنزلق على سطح تلال الخليل، لان هذا الشـتـاء كـان ممطرا ولذا تـوجـهت الى الجنـوب.. والان فى أوائل الصيف طفت بسيارتى حول طرف وادى بئـر سبع ومنـذ ستة الاف عام كان يسكن هذه المنطقة سكان يعيشـون على الصيـد ويقيـمـون فى كهوف على جانب النيل، لها فتحات صغيرة نمكنهم من الدفاع عن أنفسهم.

حـول هـذه الكهـوف وتحـولهـا الـى مـجـرى وتحـركت أحـجـار ـ وكـانت هـذه الاحجار هى التى شدت أنتباهى أثناء دورانى على أحد الطرق. فربطت حبلا فى سيارتى الجيب ونزلت الى ممر مجـرى النهـر الجـاف لأرى هذه الاحـجـار البيـضـاء. وفى البـداية كـان صـعـبـا على ان اجـد مكاناً لقـدمى، ولكن بعـد أن تأرجـحت قليـلا وجـدت مكانـا جيـدا، هـو سطح أحـد الكهـوف. ودخلت الى داخله، وفى أحد الاركان وجدت بعض الصـخـور فى شكل دائرة. ويبـدو أنه الموقد والمدفأة ووجـدت بعض الاوعيـة التى كانـوا يسـخـدمونهـا متناثرة وكذلك بعض الاسلحة والحراب المكسورة ورأس فأس.

وعندما حاولت أن أدرس أكثر فى مجتمع الكهوف القديم ونموذج حياتهم كانت الحضارة الحديثة ممثلة فى أصوات الطائرات النفاثة فوق رأسى تقطع استـغـراقى. وفـحـصـت حطام الحـيـوانات المتبـقـية من وجبتهم الاخـيـرة. وكـان سكان هذا الكهف يعيشـون فـيـه قـبل سـيدنـا ابراهيم بألفى عـام. وكـانوا لا يقـرأون ولا يكتبـون، ولكنهم كانوا يرسـمون على الصـخور وكـانت هذه منازلهم،

منها يتحركون ليصطادوا فى النجف وفى سيناء. يعرفون كل بقعة أرض لأنها أرضهم وموطنهم. ولابد أنهم كانوا يحبونها. وعندما كانوا يتعرضون للهجوم، كانوا يقاتلون فى سبيل الحفاظ عليها. والان ها أنا هنا فى نهاية الجبل وفى داخل منازلهم. وكان شعورى غير عادى فقد انتقلت الى هذا الجو القديم، وبالرغم من أن النيران كانت مطفأة فقد كنت أغلق عينى وأتصور ربة المنزل تعد وجبة العائلة.. عائلتى أنا.

■ ■ ■

خاتمـــة

ها قد انتهت رحلتك - أيها القارئ العزيز - عبر الصفحات مع موشى ديان.

هذه قصة حياته، بترجمة حرفية تقريبا، قدمناها لك بكل الامانة والشجاعة.. فنحن لم نعد نخش هذا العدو.. ولابد ان نقرأ ونعرف عنه المزيد.. حتى ولو لم يكن حديثه عنها منصفا.

* * *

ها هو موشى ديان.. الرمز الحى، بعد انهياره، لأسطورة الجيش الذى لا يهزم.

الرمز الذى تحطم.. ولكنه من خلال الغرور وادعا ء البطولة، يحاول أن ينفى عن نفسه تهمته التقصير والفشل فى الحرب، بعد أن واجه - كما يقول - (جنودا يختلفون عن الجنود الذين عرفناهم عام ١٩٦٧).

* * *

ها هى قصة اسرائيل من خلال قصة حياة ديان..

سلسلة من المغامرات العسكرية المعتمدة على السلاح كمبرر وسبب لبقائها وهذا هو أبلغ الدروس التى قد نخرج بها من هذا الكتاب.. ان المغامرة قد تصلح لحياة الفرد، لانها قد تنجح وقد تفشل، لكنها لاتصلح لحياة الشعوب وخاصة اذا ما كانت تخوض معركة لتقرير مصيرها.. فالشعوب لا تحيا بالمغامرة.. وحتى لو نجحت فى البقاء على قيد الحياة حتى الآن بالمغامرة، فلن تعيش طويلا الا اذا نحت المغامرات جانبا، واختارت الحق والعدل طريقا لها.

ألم تسقط كل حصون خط بارليف على مناعتها أمام المصريين؟!

ألم يصرخ القائد الاسرائيلى قائلا: (لم اعد استطيع الصمود وسوف استسلم) أمام الدبابات السورية؟!

ألم يقل ديان للرئيسِ الامريكى فورد: (لو لم تكن المساعدات الامريكية، لكانت الحرب اقسى والخسائر أشد؟!

اذن فهى مغامرة!! والشعوب - كما قلنا - لا تحيا بالمغامرة.

* * *

لكنه يبقى بعد ذلك عدة استفسارات، لا أشك فى أن القارئ العزيز، يشاركنى فى توجيهها الى ديان، بعد أنهى قصة حياته:

■ لقد رويت لنا عن كل العمليات الاسرائيلية المضادة فى سيناء.. فأين عساف ياجورى ولواء الدبابات الذى صادته القوات المصرية ثم أسرت قائده؟

■ لقد رويت لنا عن حصون بارليف.. فلماذا لم تذكر لنا تكاليف اقامتها التى وصلت الى ٢٤٠ الف ميلون دولار؟

■ لماذا لم تخبر القراء - عند بداية حديثك عن الحرب - عن براعة الاستراتيجية العربية التى أغلقت مضيق باب المندب؟

■ أين المعركة الباسلة لتحرير القنطرة شرق، ثانى مدن سيناء؟

■ لماذا أغفل ذكر الحقائق المهمة خلال فترة حرب ١٩٧٣، أثناء حديثه عن هذه الحرب؟

■ صحيح انه ذكر هذه الحقائق فيما بعد، ولكن فى فصول مستقلة بعيدة عن وقت حدوثها.. فهو يذكر مثلا فى الفصل ٣٩ انه قدم استقالته الى جولدا مائير مرتين احداهما اثناء الحرب والاخرى عندما هاجمه وزير العمل مطالبا باستقالته.. لماذا لم يذكر لنا هاتين الواقعتين - على أهميتهما - خلال حديثه عن الحرب؟

■ وهو - مثلا - لم يكشف عن العيوب التى حدثت على الجانب

الاسرائيلى فى العمليات وفى الطيران وفى المدرعات الا فى الجزء (٤٠) آخر فصول الكتاب. وهو لم يعترف ببسالة وصمود شعب السويس إلا فى نفس هذا الفصل عندما يؤكد: (ان السويس لو سقطت لتغير الموقف).

* * *

لكنه بالطبع لو ذكر هذه الحقائق فى موضعها من سرد الاحداث، لكان قد كشف حقيقة الفشل الاسرائيلى وعراه، ولكان قد اعترف بالانتصار العربى الحقيقى.

ثم...

■ لماذا يقول دائما ان اجتماعات جولدا مائير رئيسة الوزراء، كانت تتم بحضور خمسة وزراء فقط. ولا يتحدث عن هذه الحقيقة؟ لماذا لم يذكر صراحة ان (المطبخ السياسى) هو الذى كان يقرر الامور الهامة بعيدا عن مجلس الوزراء بأكمله؟

مرة أخر نقول إن ديان لو أوفى هذه الامور حقها، لكان قد انصف وصدق.. وما كان ذلك مطلوبا منه ولا متوقعا.

* * *

ويأبى ديان إلا أن يختم كتابه بكشف صورته الحقيقية كواحد من رواد ورعاة الحلم الصهيونى..

انه ينهى كتابه بقصة الكهف الذى عاش فيه القدماء منذ آلاف السنين لدرء الهجمات عن أنفسهم، مستعدين للدفاع بالسلاح..

انه يقصد اسرائيل.

لكنه ينسى ان هؤلاء القدماء انقرضوا لأنهم حبسوا أنفسهم داخل الكهف، ولو مدوا ايديهم بالسلام - بدلا من السلاح - لجيرانهم، لعاشوا أكثر من ذلك طويلا.

فهرس المحتويات

الباب الثالث

البــاب الرابــع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن